Digitized by Birzeit University Library

تقدمة من
الدكتور إبراهيم أبو لغد

Acc
147148

منهاج العابدين

ومعه

الكشف والتبيين وبداية الهداية

للعلامة الإمام حجة الإسلام
أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي
قدس الله روحه ونور ضريحه

١٩٦٨

راجعها وعلق عليها
فضيلة الاستاذ الشيخ محمد محمد جابر
المدرس في معهد القاهرة

حق الطبع محفوظ له

الطبعة الأولى : ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م

تطلب من
مكتبة الجندي
٩١ شارع جوهر القائد بالحسين بمصر

مطبعة عطايا بالخلق مصر ٥٨٢٤٧

SPC
BP
189.6
.G53
1954
RBK

مكتبة جامعة بيرزيت
42326
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY
Barcode- 2347

المعهد العالي للدراسات الدولية
جامعة جنيف
The Graduate Institute of International Studies

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام الواصلين . وسيد العبّاد والمتبتلين . وعلى آل بيته الأئمة الهداة المهديين . وعلى أصحابه الذين جاهدوا أنفسهم وعدوهم فلم يكونوا من المغرورين ـ وبعد فانى أقدم للمسلمين ثلاث رسائل لأستاذ التصوف الاسلامى بلا منازع ، وحكيم النفوس الذى أطلعه الله على خفاياها وخباياها فكان لها الواعظ والوازع ، حجة الاسلام أبى حامد الغزالى الذى عرف بنور المعرفة حبائل إبليس وجميع أشراكه ، فهو النذير لسالكى طريق المعرفة والدليل إذا كثرت تلابيس المسالك ، فكم أبان بنور معرفته مفاوز ومتاهه ، وكم أضاء بارشاداته دياجى وعتائم ، فقلم أبى حامد الربانى ونفسه الرحمانى فى كلماته التى يفيض بها قلب مليء إيمانا ومعرفة وحكمة وعلماً ـ نافذان إلى أعماق القلوب وواصلان جذور الأفئدة والألباب ، فليست النائحة الثكلى كالمأجورة ، وليس الوعظ باللسان كالوعظ المتدفق من مهجة صقلت بأنوار الاحسان ، ولقد أرشد أبو حامد فى رسائله الثلاث التى سنراها فى مجموعنا إلى كل دقيقة نفسية ، ووصل إلى المحز فى كل معضلة خلقية . نعم إنه لم يطنب فى رسائله الصغرى كما أطنب فى أبواب كتابه الاحياء ، ولكننا مع ذلك إذا قرأنا رسالته منهاج العابدين ، فسنراه كأنه لم يترك أصلا من أصول التصوف الاسلامى إلا عرج عليه ، ولم يدع منهلا من مناهل العارفين إلا أورد قارىء رسالته إليه ، وكتابُ الالهام من أمثال أبى حامد وابن العربى ليس للصناعة عندهم دخل كبير فى التأليف والترصيف ، بل هي فيوضات يرسلها الله على ألسنة ورثة الأنبياء من أمثالهم للتوصيل والتعريف ، فكتبهم فى الواقع خطابات من الحق فى صورة مصنفات ورسائل ، وصحفهم المنشورة فى العالم كأنها إجابات عن أسئلة ومسائل ، ومن قرأ رسائل أبى حامد فكأنه يبحث عن دواء لمرض عنده قد حار فيه الطبيب ، وسرعان ما يجد الملهوف طيّ رسائله طلبته ولسان حاله يقول : كيف كان هذا عنى يغيب ، وأبو حامد فى منهاج العابدين ليس الطبيب الروحى فحسب ، بل هو فى منهاجه الواعظ المخوف

Digitized by Birzeit University Library

والزاجر المذكر للمزدجر . فكم خوف من فى غيه لاه وسادر ، ولقد ذكر بالآخرة فأحيا قلوباً قاسية المحاجر ، وإن المنهاج لدواء لمن غلبته نفسه وهواه ، وهو علاج ربانى لمن أراد الله هداه ، وإنك إذا قرأت رسالته الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين لتجزم بأن أبا حامد جاس خلال قلوب العالم فرداً فرداً ، فعرف هواجسهم الشيطانية ووساوسهم النفسية ، ثم هو بعد ذلك يعزل معانى الخبث الشيطانى . عن مغانى ومعانى الخاطر الرحمانى ، فصيف أيها الطبيب الربانى للناس أمراض قلوبهم فأنت به جدّ جدير ، وحضر لهم تلك الأدوية من معامل حكمة اللطيف الخبير ، فلله درك يا أبا حامد لقد سهلت على مرضى القلوب طريق العلاج ، فليقرأ من أراد أن يعرف نوع مرضه ما كتبته فى الكشف والتبيين فانه لابد واجد علاجه ملفوف فى علاج طائفة من الطوائف ـ أيها الطبيب النطاسى لقد كشفت فى رسالة الكشف ستر المرائين والكذابين والمتصنعين من العلماء والمتصوفين . فبصرت المسلمين بالطلاء الكاذب الذى يظهر به كثير من محترفى الدين للجاه والمناصب ، ثم انتقل بعد ذلك أيها القارىء إلى كتابه بداية الهداية فان هذا الكتيب ليعد أساسا لمن أراد أن يسلك طريق الآخرة ، فلكل شىء كما يقولون مفتاح ، وللتصوف مبادىء أولية هى تلك القواعد التى شرحها أبو حامد فى كتابه بداية الهداية ، وفى الواقع أن اسم كتابه طابق مسماه فالتصوف فى الواقع يدور محوره على العزائم فى الأعمال والأحوال وكتاب بداية الهداية يعرفك كثيراً من الآداب فى الأعمال ، وطريق القوم ـــ لأنه يهدف إلى معاملة الحق سبحانه ـــ تدور جل مسائله على الآداب التى يلتزم بها العبد لينال درجة القرب ، كأحد الصوفية الذى مد رجله فى القبلة وسمع من جالس الملوك فليتأدب هاتفاً يهتف فلم ير مادّاً رجليه حتى مات ـ ولقد جمع أبو حامد فى بداية الهداية جملة صالحة من الأدب فى معاملة الحق سبحانه كما أن فيه منهاج الأدب النبوى وقد رتبه الصوفية على طريقتهم فى التزام الأذكار والأوراد من عين بحر السنة لا ابتداعا ابتدعوه ولا اختراعا اخترعوه ، ومن كتاب بداية الهداية تعلم أن طريق القوم مبنى على الكتاب والسنة ، وقراءة أمثال هذه الرسائل تغنى عن مطالعة المطولات فاللهم وفقنا للسير مع السائرين وانفحنا مع القوم بنفحة من رسولك واسطة عقد النبيين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

مقدم هذه الرسائل والمعلق عليها

محمد محمد جابر

من علماء الأزهر والمدرس بمعهد القاهرة

Digitized by Birzeit University Library

ترجمة الامام أبي حامد الغزالي

التعريف به : هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الامام الجليل أبو حامد الغزالي الطوسي حجة الاسلام ، ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام ، جامع أشتات العلوم ، والمبرز في المنقول منها والمفهوم ، جرت الأئمة قبله لشأو ماقنع منه بالغاية ، ولا وقف عند مطلب بل لم يبرح في دأب لا يقضى له بنهاية ، حتى أخمل من الأقران كل خصم بلغ مبلغ السها ، وأخمد من نيران البدع كل مالا تستطيع أيدي المجالدين مسّها ، كان رضي الله عنه شديد الذكاء ، عجيب الفطرة ، مفرط الادراك ، بعيد الغور ، غواصا على المعاني الدقيقة ، وكان ضرغاما إلا أن الأسود تتضاءل لديه وتتوارى ، وبدرا تماما إلا أن هداه يشرق نهاراً ، وبشرا من الخلق إلا أنه الطود العظيم ، وبعض الناس ولكن مثل مابعض الجماد الدرّ النظيم ، وما أجدره بأن نخاطب بقول المتنبي :

فان تفق الأنام وأنت منهم فان المسك بعض دم الغزال

جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظماء لمصابيح السماء ، وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء ، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفي بحلاد مقاله ، ويحمي حوزة الدين ولا يلطخ بدم المعتدين حدّ نصاله ، حتى أصبح الدين وثيق العرى ، وانكشفت غياهب الشبهات وما كانت إلا حديثا مفترى ، هذا مع ورع طوى عليه ضميره ، وخلوة لم يتخذ فيها غير الطاعة سميره ، ترك الدنيا وراء ظهره ، وأقبل على الآخرة يعامل الله في سره وجهره « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » .

مولده ومنشؤه : ولد رضي الله عنه بمدينة طوس من مدن خراسان سنة (٤٥٠ هـ ١٠٥٨ م) وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس ولما حضرته الوفاة وصى — بالمترجم له وبأخيه أحمد — صديقا له متصوفا من أهل الخير وقال له : إن لي لتأسفا عظيما على تعلم الخط وأشتهي استدراك مافاتني في ولدي هذين فعلمهما ولاعليك أن ينفد في ذلك جميع ماأخلفه لهما ، فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فنى ذلك النزر اليسير الذي كان خلفه لهما أبوهما ، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما ، فقال لهما : اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من أهل الفقر والتجريد ، ليس لي

Digitized by Birzeit University Library

مال فأواسيكما به — وأصلح ما أرى لكما أن تلجا إلى مدرسة كأنبكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما ، ففعلا ذلك . وكان هو السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما ، وكان الغزالى يحكي هذا ويقول : « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله » ويحكى أن أباه كان فقيرا صالحا لا يأكل إلا من كسب يده فى عمل غزل الصوف ، ويطوف على المتفقهة ويجالسهم ويتوفر على خدمتهم ويجدّ فى الاحسان إليهم والنفقة بما يمكنه عليهم ، وأنه كان إذا سمع كلامهم بكي وتضرع وسأل الله أن يرزقه ولداً ويجعله فقيها ، ويحضر مجالس الوعظ فاذا طاب وقته بكي وسأل الله أن يرزقه ولداً واعظا ، فاستجاب الله دعوتيه : أما أبو حامد فكان أفقه أقرانه ، وإمام أهل زمانه ، وفارس ميدانه ، كلمة شهد بها الموافق والمخالف ، وأقرّ بحقيقتها المعادى والمحالف ، وأما أحمد فكان واعظا تنفلق الصم عند استماع تحذيره ، وترتعد فرائص الحاضرين فى مجالس تذكيره .

رحلته : قرأ الغزالى فى صباه طرفا من الفقه ببلدة على أحمد بن محمد الراذكانى ثم سافر إلى جرجان إلى الامام أبى نصر الاسماعيلى وعلق عنه التعليقة ثم رجع إلى طوس ، قال الامام أسعد المهينى فسمعته يقول : قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا فتبعتهم فالتفت إلى مقدمهم وقال : ارجع ويحك وإلا هلكت ، فقلت له : أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد علىّ تعليقتى فقط فما هى شىء تنتفعون به ، فقال لى : وما هى تعليقتك ؟ فقلت : كتب فى تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها ، وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ، ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلىّ المخلاة . قال الغزالى : فقلت : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدنى به فى أمري ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقت ، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى ، وقد روى هذه الحكاية عن الغزالى أيضا الوزير نظام الملك كما هو مذكور فى ترجمة نظام الملك من ذيل ابن السمعانى ، ثم إن الغزالى قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين ، وجدّ واجتهد حتى برع فى المذهب والخلاف والأصلين والجدل والمنطق ، وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم ، وصنف فى كل فن من هذه العلوم كتبا

Digitized by Birzeit University Library

أحسن تآليفها ، وأجاد وضعها وترصيفها ، ثم لما مات إمام الحرمين خرج الغزالي إلى العسكر قاصدا للوزير نظام الملك ، وناظر الأمة والعلماء فى مجلسه وقهر الخصوم ، وظهر كلامه على الجميع ، واعترفوا بفضله ، وتلقاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل ، وولاه تدريس مدرسته ببغداد ، وأمره بالتوجه إليها ، فقدم بغداد فى سنة (٤٨٤ هـ) ودرس بالنظامية وأعجب الخلق حسن كلامه ، وكمال فضله ، وفصاحة لسانه ، ونكته الدقيقة ، وإشاراته اللطيفة ، وأحبوه وأحلوه محل العين بل أعلى ، وقالوا : أهلا بمن أصبح لأجل المناصب أهلا ، وأقام على التدريس وتعليم العلم مدة عظيم الجاه ، زائد الحشمة ، عالي الرتبة ، مشهور الاسم ، تضرب به الأمثال ، وتشد إليه الرحال ، إلى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيا ، فرفض ما فيها من التقدم والجاه ، وترك كل ذلك وراء ظهره ، وقصد بيت الله الحرام فحج وتوجه إلى الشام فى ذى القعدة سنة (٤٨٨ هـ) وأناب أخاه فى التدريس ، وجاور بيت المقدس ، ثم عاد إلى دمشق ، واعتكف فى زاويته بالجامع الأموي المعروفة اليوم بالغزالية نسبة إليه ، ولبث الثياب الخشنة ، وقلل طعامه وشرابه ، وأخذ فى تصنيف كتابه الاحياء ، وصار يطوف المشاهد ، ويزور الترب والمساجد ، ويأوى إلى القفار ، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار ، ويكلفها مشاق العبادات ، ويبلوها بأنواع القرب والطاعات ، إلى أن صار قطب الوجود ، والبركة العامة لكل موجود ، والطريق الموصل إلى رضا الرحمن ، ثم رجع إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم على لسان أهل الحقيقة والتصوف ، وحدث بكتاب الاحياء ، ثم إن الغزالي عاد إلى خراسان ، ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة يسيرة ، ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية ، ووزع أوقاته على وظائف : من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات ، إلى أن انتقل إلى رحمة الله ورضوانه يوم الاثنين ١٤ من جمادى الآخرة سنة (٥٠٥ هـ — ١١١١ م) ودفن بمقبرة الطابران بظاهر طوس ، طيب الثناء ، أعلى منزلة من نجوم السماء ، وأهدى للأمة من البدر فى الظلماء ، لا يبغضه إلا حاسد أو زنديق .

ثناء الأكابر عليه : كان إمام الحرمين يصف تلاهذته فيقول : الغزالى بحر مغرق ، والكيا أسد مخرق ، والخوافى نار تحرق ، ويقال : إن الامام كان بالآخرة يمتعض منه فى الباطن وإن كان يظهر التبجح به فى الظاهر ، وقال الامام محمد بن يحيى : الغزالى هو الشافعى الثانى ، وقال أسعد المهيني : لا يصل إلى معرفة علم الغزالى وفضله ، إلا من بلغ

Digitized by Birzeit University Library

أو كاد يبلغ الكمال فى عقله ، ويحكى أنه كان فى ثغر الاسكندرية شخص يبغض الغزالى ويغتابه فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما إلى جانبه وكأن الغزالى واقف بين يديه وهو يقول : يا رسول الله هذا — يعنى الرائى المبغض له — يتكلم فى ويؤذينى ، قال : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هاتوا السياط وأمر به فضرب بين يديه لأجل الغزالى ، وقام هذا الرجل من النوم وأثر السياط على ظهره .

مصنفاته : قل أن انتفع الناس بمصنفات أحد من العلماء انتفاعهم بكتب الامام الغزالى ، وقد ترجم الكثير منها إلى اللغات الأجنبية كرسالته — الولدية ، فقد ترجمت إلى الألمانية باعتناء العلامة — فون هامر بورغستال النمساوى — والدرة الفاخرة فى أحوال الآخرة ، ترجمت إلى اللغة الفرنسية باعتناء العلامة غاوتيه — ومن حسن حظ العلم أن أكثر كتب الغزالى بقى محفوظا لم يصبه ما أصاب سواه من الضياع والاندثار ، وفى هذا دليل على إقبال العلماء والمتعلمين فى أيام الغزالى وبعده على نقل مؤلفاته واستنساخها للاستفادة منها ، فكلها فى أبوابها ومواضيعها نور القلوب والمدارك تتفتح بها مغلقات العلم ، وتفوز بها النفوس فى ميادين سباقه ، وبتقريراته المشرقة التى حوت الأدلة القوية فى مسائل الدين ، والحجج البالغة التى تقطع قول المعاندين ، وتجعل عقولهم أمامها خاضعة ، وألسنتهم صامتة أو هاذية — اشتهر بلقب حجة الاسلام ، بين كثير من صفوة الأنام ، ومن جملة المطبوع من كتبه فى مصر وغيرها على ما انتهى إلينا العلم به .

منهاج العابدين ، الكشف والتبيين ، بداية الهداية — وهذه الكتب الثلاثة هى المجموعة أمام القارىء الآن — المنقذ من الضلال ، كيمياء السعادة ، القواعد العشر ، الأدب فى الدين — وقد نشرت مكتبة الجندى هذه الكتب الأربعة فى مجموعة واحدة — إحياء علوم الدين ، عمدة المحققين ، تهافت الفلاسفة ، سر العالمين ، المضنون به على غير أهله ، الدرة الفاخرة ، مكاشفة القلوب ، الأجوبة الغزالية والمسائل الأخروية ، محك النظر ، المقصد الأسنى ، الحكمة فى مخلوقات الله ، الاقتصاد فى الاعتقاد ، إلجام العوام عن علم الكلام ، المستصفى ، الوجيز ، الوسيط ، البسيط ، آداب الصوفية ، معارج القدس ، جواهر القرآن ، الأربعين فى أصول الدين ، ميزان العمل ، معيار العلم ، مقاصد الفلاسفة ، القصيدة الهائية ، القصيدة التائية ، الرسالة اللدنية ، أيها الولد ، فيصل التفرقة ، مشكاة الأنوار ، رسالة الطير ، الرسالة الوعظية ، القسطاس المستقيم ، الخلاصة ، المنخول ، تحصين الأدلة ، شفاء الغليل ، الرد على الباطنية .

ولو أريد استيعاب ترجمته لطال الشرح ، وفى هذا القدر مقنع وبلاغ .

Digitized by Birzeit University Library

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه الصالح الزاهد عبد الملك بن عبد الله غفر الله له أملى على شيخي الاجل الامام الزاهد السعيد الموفق حجة الاسلام زين الدين شرف الامة أبو حامد محمد ابن محمد بن محمد الغزالى الطوسى قدس الله روحه ورفع الله فى الجنة درجته هذا الكتاب المختصر وهو آخر كتاب صنفه ولم يستمله منه الأخواص أصحابه وهو .

الحمد لله الملك الحكيم . الجواد الكريم . العزيز الرحيم . الذى خلق الانسان فى أحسن تقويم ، وفطر السموات والأرض بقدرته . ودبر الأمور فى الدارين بحكمته . وما خلق الجن والأنس إلا لعبادته ، فالطريق اليه واضح للقاصدين . والدليل عليه لائح للناظرين . ولكن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين . والصلاة على سيد المرسلين . وعلى آله الابرار الطيبين الطاهرين . وسلم وعظم إلى يوم الدين .

اعلموا إخوانى أسعدكم الله وإيانى بمرضاته أن العبادة ثمرة العلم وفائدة العمر وحاصل العبيد الأقوياء وبضاعة الأولياء وطريق الأنقياء وقسمة الأعزة ومقصد ذوى الهمة وشعار الكرام وحرفة الرجال واختيار أولى الابصار وهى سبيل السعادة ومنهاج الجنة قال الله تعالى « وأنا ربكم فاعبدون » وقال تعالى « إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) . ثم انا نظرنا فيها وتأملنا طريقها من مباديها إلى مقاصدها التى هى أمانى سالكيها فاذا هى طريق وعر وسبيل صعب كثيرة العقبات شديدة المشقات بعيدة المسافات عظيمة الآفات كثيرة العوائق والموانع حفيفة المهالك والمقاطع غزيرة الأعداء والقطاع عزيزة الأشياع والأتباع وهكذا يجب أن تكون لأنها طريق الجنه فيصير هذا تصديقا لما قاله صلى الله عليه وسلم (ألا وإن الجنة حفت بالمكارة وإن النار حفت بالشهوات) وقال صلى الله عليه وسلم (ألا وإن الجنة حزن بربوة . ألا وإن النار سهل يسهوة) ثم مع ذلك كله فان العبد ضعيف والزمان صعب وأمر الدين متراجع والفراغ قليل والشغل كثير والعمر قصير وفى العمل تقصير والناقد بصير والأجل قريب والسفر بعيد والطاعة هي الزاد فلابد منها وهى فائتة فلا مرد لها فمن ظفر بها فقد فاز وسعد أبد الآبدين ودهر الداهرين ومن فاته ذلك فقد خسر مع الخاسرين وهلك مع الهالكين فصار

Digitized by Birzeit University Library

هذا الخطب إذاً والله معضلا والخطر عظيما فلذلك عز من يقصد هذا الطريق وقل ثم عز من القاصدين من يسلكه ثم عز من السالكين من يصل إلى المقصود ويظفر بالمطلوب وهم الأعزة الذين اصطفاهم الله عز وجل لمعرفته ومحبته وسددهم بتوفيقه وعصمته ثم أوصلهم بفضله إلى رضوانه وجنته فنسأله جل ذكره أن يجعلكم وإيانا من أولئك الفائزين برحمته . نعم ولما وجدنا هذه الطريق بهذه الصفة نظرنا فأمعنا النظر فى كيفية قطعها ومايحتاج اليه العبد من الأهبة والعدة والآلة والحيلة من علم وعمل عسى أن يقطعها بحسن توفيق الله فى سلامة ولا ينقطع فى عقباتها المهلكة فيهلك مع الهالكين والعياذ بالله فصنفنا فى قطع هذه الطريق وسلوكها كتبا كأحياء علوم الدين والقربة إلى الله تعالى وغير ذلك إحتوت على دقائق من العلوم اعتاصت على أفهام العامة فقدحوا فيها وخاضوا فيما لم يحسنوه منها فأى كلام أفصح من كلام رب العالمين وقد قالوا فيه إنه أساطير الأولين ألم تسمع إلى قول زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم أجمعين :

إنى لأكتم من علمى جواهره ... كيلا يرى ذاك ذوجهل فيفتنا
وقد تقدم فى هذا أبو حسن ... إلى الحسين ووصى قبله الحسنا
يارب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمى ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

واقتضت الحال عند ذوى الدين ـ الذين هم أشرف خلق الله تعالى ـ النظر إلى كافة خلق الله تعالى بعين الرحمة وترك المداراة فابتهلت إلى من بيده الخلق والأمر أن يوفقنى لتصنيف كتاب يقع عليه الاجماع ويحصل بقراءته الانتفاع فأجابنى إلى ذلك الذى يجيب المضطر إذا دعاه وأطلعنى بفضله على أسرار ذلك وألهمنى فيه ترتيبا عجيبا لم أذكره فى المصنفات التى تقدمت فى أسرار معاملات الدين وهو الذى أنا له واصف فأقول وبالله التوفيق :

إن أول مايتنبه العبد للعبادة ويتجرد لسلوك طريقها بخطرة سماوية من الله وتوفيق خاص إلهى وهو المعنى بقوله سبحانه وتعالى « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه » وأشار اليه صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه فقال إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها ؟ فقال

Digitized by Birzeit University Library

(التجافي عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزول الموت)
فاذا خطر بقلب العبد أول كل شيء أني أجدني منعما بضروب من النعم على كالحياة والقدرة والعقل والنطق وسائر المعاني الشريفة واللذات مع ما ينصرف عني من ضروب المضار والآفات وأن لهذه النعم منعما يطالبني بشكره وخدمته فان غفلت عن ذلك فيزيل عني نعمته ويذيقني بأسه ونقمته وقد بعث إلي رسولا أيده بالمعجزات الخارقة للعادات الخارجة عن مقدور البشر وأخبرني بأن لي رباً جل ذكره قادراً عالما حياً مريداً متكلما يأمر وينهى قادراً على أن يعاقب إن عصيته ويثيب إن أطعته عالما بأسراري وما يختلج في أفكاري وقد وعد وأوعد وأمر بالتزام قوانين الشرع فيقع في قلبه أنه ممكن إذ لا استحالة لذلك في العقل بأول البديهة فيخاف على نفسه عند ذلك ويفزع فهذا خاطر الفزع الذي ينبه العبد ويلزمه الحجة ويقطع عنه المعذرة ويزعجه إلى النظر والاستدلال فيهتاج العبد عند ذلك ويقلق وينظر في طريق الخلاص وحصول الأمان له مما وقع بقلبه أو سمع بأذنه فلم يجد فيه سبيلا سوى النظر بعقله في الدلائل والاستدلال بالصنعة على الصانع ليحصل له علم اليقين بما هو مغيب ويعلم أن له ربا كلفه وأمره ونهاه . فهذه أول عقبة استقبلته في طريق العبادة وهي -عقبة العلم والمعرفة- ليكون من الأمر على بصيرة فيأخذ في قطعها من غير بد بحسن النظر في الدلائل ووفور التأمل والتعلم والسؤال من علماء الآخرة أدلاء الطريق سرج الأمة وقادة الأئمة والاستفادة منهم واستهداء الدعاء الصالح منهم للتوفيق والاعانة إلى أن يقطعها بتوفيق الله سبحانه فيحصل له علم اليقين بالغيب وهو أن له إلها واحداً لا شريك له هو الذي خلقه وأنعم عليه بكل هذه النعم وأنه كلفه شكره وأمره بخدمته وطاعته بظاهره وباطنه وحذره الكفر وضروب المعاصي وحكم له بالثواب الخالد إن أطاعه وبالعقاب الخالد إن عصاه وتولى عنه فعند ذلك تبعثه هذه المعرفة واليقين بالغيب على التشمير للخدمة والاقبال على العبادة لهذا السيد المنعم الذي طلبه فوجده وعرفه بعد ما جهله ولكنه لا يدري كيف يعبده وماذا يلزمه في خدمته بظاهره وباطنه فبعد حصول هذه المعرفة بالله سبحانه وتعالى جهد حتى يتعلم ما يلزمه من الفرائض الشرعية ظاهراً وباطنا فلما استكمل العلم والمعرفة بالفرائض انبعث ليأخذ في العبادة ويشتغل بها فنظر فاذا هو صاحب جنايات وذنوب وهذا حال الأكثر من الناس فيقول كيف أقبل على العبادة وأنا مصر على المعصية متلطخ بها

فيجب علىّ أولا أن أتوب اليه ليغفر لى ذنوبى ويخلصنى من أسرها ويطهرنى من أقذارها فأصلح للخدمة وبساط القربة فتستقبله ههنا — عقبة التوبة — فيحتاج لا محالة إلى قطعها ليصل إلى ما هو المقصود منها فيأخذ فى ذلك باقامة التوبة بحقوقها وشرائطها إلى أن يقطعها فلما أن حصلت له التوبة الصادقة وفرغ من هذه العقبة حن إلى العبادة ليأخذ فيها فينظر فاذا حوله عوائق محدقة به كل واحد منها يعوقه عما قصد من العبادة بضرب من التعويق فتأمل فاذا هى أربعة : الدنيا والخلق والشيطان والنفس فاحتاج لا محالة إلى دفع هذه العوائق وإزاحتها عنه وإلا فلا يتأتى له مراده من العبادة فاستقبلته ههنا — عقبة العوائق — فيحتاج إلى قطعها بأربعة أمور : التجرد عن الدنيا والتفرد عن الخلق والمحاربة مع الشيطان والقهر للنفس فاما النفس فأشدها إذ لا يمكنه التجرد عنها ولا أن يقهرها بمرة ويقمعها كالشيطان إذ هى المطية والآلة ولا مطمع أيضا فى موافقتها على ما يقصده العبد من العبادة والاقبال عليها إذ هى مجبولة على ضد الخير كاللهو واتباعها له فاحتاج إذاً إلى أن يلجمها بلجام التقوى لتبقى له فلا تنقطع وتنقاد له فلا تطغى فيستعملها فى المصالح والمراشد ويمنعها من المهالك والمفاسد فيأخذ إذاً فى قطع هذه العقبة ويستعين بالله جل ذكره على ذلك فلما فرغ من قطعها رجع إلى قصد العبادة فاذا عوارض تعترضه فتشغله عن الاقبال على مقصوده من العبادة وتصده عن التفرغ لذلك كما ينبغى فتأمل فاذا هى أربعة : الرزق تطالبه النفس به وتقول لابد لى من رزق وقوام وقد تجردت عن الدنيا وتفردت أيضا عن الخلق فمن أين يكون قوامى ورزقى والثانى الاخطار من كل شىء يخافه أو يرجوه أو يريده أو يكرهه ولا يدرى صلاحه فى ذلك أو فساده لأن عواقب الأمور مبهمة فيشتغل قلبه بها فانه ربما وقع فى فساد أو مهلكة والثالث الشدائد والمصائب تنصب عليه من كل جانب لا سيما وقد انتصب لمخالفة الخلق ومحاربة الشيطان ومضادة النفس فكم من غصة يتجرعها وكم من شدة تستقبله وكم من هم وحزن يعترضه وكم من مصيبة تتلقاه والرابع أنواع القضاء من الله سبحانه وتعالى بالحلو والمر ترد عليه حالا فحالا والنفس تسارع إلى السخط وتبادر إلى الفتنة فاستقبلته ههنا — عقبة العوارض الأربعة — فاحتاج إلى قطعها بأربعة أشياء : التوكل على الله سبحانه وتعالى فى موضع الرزق والتفويض اليه جل وعز فى موضع الخطر والصبر عند نزول الشدائد والرضا عند نزول القضاء فأخذ فى قطع هذه العقبة

Digitized by Birzeit University Library

باذن الله تعالى وحسن تأييده فلما فرغ من قطعها وعاد إلى قصد العبادة نظر فاذا النفس فاترة ضعيفة كسلى لا تنشط ولا تنبعث لخير كما يحق وينبغى وإنما ميلها أبدا إلى غفلة ودعة وراحة وبطالة بل إلى شر وفضول وبلية وجهالة فاحتاج معها ههنا إلى سائق يسوقها إلى الخير والطاعة وينشطها له وزاجر يزجرها عن الشر والمعصية ويفترها عنه وهما الرجاء والخوف فالرجاء فى عظيم ثواب الله سبحانه وحسن ما وعد من أنواع الكرامة وتذكر ذلك سائق يسوقها فيبعثها على الطاعة ويحركها لذلك وينشطها والخوف من أليم عقاب الله عز وجل وصعوبة ما أوعد من أنواع العقوبة والاهانة زاجر يزجرها عن المعصية ويجنبها ويفترها عن ذلك — فهذه عقبة البواعث — استقبلته ههنا فاحتاج إلى قطعها بهذين المذكورين فأخذ فيها بحسن توفيق الله عز وجل فقطعها فلما فرغ منها رجع إلى الاقبال على العبادة فلم ير عائقا ولا شاغلا ووجد باعثا وداعيا فنشط فى العبادة فأقامها وعانقها بتمام الشوق والرغبة فأدامها فنظر فاذا أنه تبدو لهذه العبادة العظيمة التى احتمل فيها كل ذلك آفتان عظيمتان وهما الرياء والعجب تارة يرائى بطاعته الناس فيفسدها وأخرى يمتنع عن ذلك ويلوم نفسه فيعجب بنفسه فيحبط العبادة عليه ويتلفها ويفسدها فاستقبلته ههنا — عقبة القوادح — فاحتاج إلى قطعها بالاخلاص وذكر المنة ونحوها ليسلم له ما يعمل من خير فأخذ فى قطع هذه العقبة باذن الله سبحانه وتعالى بجد واحتياط وتيقظ بحسن عصمة الجبار تعالى وتأييده فلما فرغ من هذه كلها حصلت له العبادة كما يحق وينبغى وسلمت من كل آفة ولكنه نظر فاذا هو غريق فى بحور منن الله تعالى وأياديه من كثرة ما أنعم الله عليه من إمداد التوفيق والعصمة وأنواع التأييد والحراسة والكرامة وخاف أن يكون منه إغفال للشكر فيقع فى الكفران فينحط عن تلك المرتبة الرفيعة التى هى مرتبة الخدم الخالصين لله عز وجل وتزول عنه تلك النعم الكريمة من ضروب ألطاف الله تعالى وحسن نظره اليه فاستقبلته ههنا — عقبة الحمد والشكر — فأخذ فيها فقطعها بما أمكنه من كثرة الحمد والشكر على كثير نعمه فلما فرغ من قطع هذه العقبة ونزل فاذا هو بمقصوده ومبتغاه بين يديه فلم يسر إلا قليلا حتى وقع فى سهل الفضل وصحراء الشوق وعرصات المحبة ثم يقع فى رياض الرضوان وبساتين الأنس إلى بساط الانبساط ومرتبة التقريب ومجلس المناجاة ونيل الخلع والكرامات فهو يتنعم فى هذه الحالات ويتقلب فى طيبها أيام بقائه وبقية عمره

Digitized by Birzeit University Library

يشخص فى الدنيا وقلب فى العقبى ينتظر البريد يوما فيوما حتى يمل الخلق كلهم ويستقذر الدنيا ويحن إلى الموت ويستكمل الشوق إلى الملأ الأعلى فاذا هو برسل رب العالمين إليه يردون عليه بالروح والريحان والبشرى والرضوان من عند رب راض غير غضبان فينقلونه فى طيبة النفس وتمام البشر والانس من هذه الدار الفانية المفتنة إلى الحضرة الالهية ومستقر رياض الجنة فيرى لنفسه الضعيفة الفقيرة نعيما مقيما وملكا كبيراً عظيما ويلقى هنالك من سيده الرحيم المتفضل الكريم جل ذكره من اللطف به والعطف والترحيب والتقريب والانعام والاكرام مالا يحيط به وصف الواصفين ونعت الناعتين فهو فى كل يوم فى زيادة إلى أبد الآبدين فيالها من سعادة عظيمة ويالها من دولة عالية ويالله من عبد مسعود وامرىء مغبوط وشأن محمود وطوبى له وحسن مآب نسأل الله البر الرحيم سبحانه وتعالى أن يمن علينا وعليكم بهذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة وما ذلك على الله بعزيز وأن لا يجعلنا من الذين لا نصيب لهم من هذا الأمر إلا وصف وسماع وعلم وتمن بلا انتفاع وأن لا يجعل ماتعلمناه من العلم حجة علينا يوم القيامة وأن يوفقنا جميعا للعمل بذلك والقيام به كما يحب ويرضى إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم وشرف وكرم .

فهذا هو الترتيب الذي ألهمنى مولاى فى طريق العبادة : فاعلم الآن بتوفيق الله أن الحاصل من الجملة سبع عقبات الأولى عقبة العلم الثانية عقبة التوبة الثالثة عقبة العوائق الرابعة عقبة العوارض الخامسة عقبة البواعث السادسة عقبة القوادح السابعة عقبة الحمد والشكر وبتمامها يتم كتاب منهاج العابدين إلى الجنة ونحن الآن نتتبع هذه العقبات بشرح موجز اللفظ مشتمل على النكت المقصودة من هذا الشأن كل منها فى باب مفرد إن شاء الله عز وجل والله سبحانه ولى التوفيق والتسديد بمنه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم :

(العقبة الأولى وهى عقبة العلم)

فأقول وبالله التوفيق : ياطالب الخلاص والعبادة عليك أولا وفقك الله بالعلم فانه القطب وعليه المدار . واعلم أن العلم والعبادة جوهران لأجلهما كان كل ماترى وتسمع من تصنيف المصنفين وتعليم المعلمين ووعظ الواعظين ونظر الناظرين بل لأجلهما أنزلت

Digitized by Birzeit University Library

الكتب وأرسلت الرسل بل لأجلهما خلقت السموات والأرض وما فيهن من الخلق .
وتأمل آيتين فى كتاب الله عزوجل إحداهما قوله جل ذكره « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً » وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العلم لاسيما علم التوحيد . والآية الثانية قوله جل من قائل « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العبادة ولزوم الاقبال عليها فأعظم بأمرين هما المقصود من خلق الدارين فحق للعبد أن لا يشتغل إلا بهما ولا يتعب إلا لهما ولا ينظر إلا فيهما . واعلم أن ما سواهما من الأمور باطل لاخير فيه ولغو لاحاصل له فاذا علمت ذلك فاعلم أن العلم أشرف الجوهرين وأفضلهما ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم (إن فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أمتى) وقال صلى الله عليه وسلم (نظرة إلى العالم أحب إلى من عبادة ستة صيامها وقيامها) وقال صلى الله عليه وسلم (ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة) قالوا بلى يارسول الله قال هم (علماء أمتى) فبان لك أن العلم أشرف جوهرا من العبادة ولكن لا بد للعبد من العبادة مع العلم وإلا كان علمه هباء منثورا فان العلم بمنزلة الشجرة والعبادة بمنزلة ثمرة من ثمراتها فالشرف للشجرة إذ هى الأصل لكن الانتفاع إنما يحصل بثمرتها فاذاً لا بد للعبد أن يكون له من كلا الأمرين حظ ونصيب ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله اطلبوا هذا العلم طلبا لا يضر بالعبادة واطلبوا هذه العبادة طلبا لا يضر بالعلم ولما استقر أنه لا بد للعبد منهما جميعا فالعلم أولى بالتقديم لامحالة لأنه الأصل والدليل ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (العلم إمام العمل والعمل تابعه) وإنما صار العلم أصلا متبوعا يلزمك تقديمه على العبادة لأمرين :

أحدهما لتحصل لك العبادة وتسلم فانك أولا يجب عليك أن تعرف المعبود ثم تعبده وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته وما يجب له وما يستحيل فى نعته فربما تعتقد فيه وفى صفاته شيئاً والعياذ بالله مما يخالف الحق فتكون عبادتك هباء منثورا . وقد شرحنا مافى ذلك من الخطر العظيم فى بيان معنى سوء الخاتمة من كتاب الخوف من جملة كتب إحياء علوم الدين . ثم يجب عليك أن تعلم مايلزمك فعله من الواجبات الشرعية على ما أمرت به لتفعل ذلك ومايلزمك تركه من المناهى لتترك ذلك وإلا فكيف تقوم بطاعات لاتعرفها ماهي وكيف هى وكيف يجب أن تفعل أم كيف

Digitized by Birzeit University Library

تجتنب معاصى لانعلم أنها معاص حتى لاتوقع نفسك فيها فالعبادات الشرعية كالطهارة والصلاة والصوم وغيرها يجب أن تعلمها بأحكامها وشرائطها حتى تقيمها فربما أنت مقيم على شيء سنين وأزمانا مما يفسد عليك طهارتك وصلواتك ويخرجهما عن كونهما واقعتين على وفاق السنة وأنت لاتشعر بذلك وربما يعترض لك مشكل ولا تجد من تسأله عن ذلك وأنت ماتعلمته ثم مدار هذا الشأن أيضا على العبادات الباطنة التى هي مساعي القلب يجب أن تعلمها من التوكل والتفويض والرضا والصبر والتوبة والاخلاص وغير ذلك مما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى ويجب أن تعلم مناهيها التى هى أضداد هذه الأمور كالسخط والأمل والرياء والكبر لتجتنب ذلك فان هذه فرائض ونص الله تعالى على الأمر بها والنهي عن أضدادها فى كتابه العزيز وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ـ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ـ واصبر وما صبرك إلا بالله» وقوله «وتبتل إليه تبتيلا» أى أخلص إليه إخلاصا ونحو ذلك من الآيات كما نص على الأمر بالصلاة والصوم فمالك أقبلت على الصلاة والصوم وتركت هذه الفرائض والأمر بهما من رب واحد فى كتاب واحد بل غفلت عنها فلا تعرف شيئا منها يفتوي من أصبح بعاجل حظه مشغوفا حتى صير المعروف منكرا والمنكر معروفا ومن أجهل العلوم التى سماها الله فى كتابه نورا وحكمة وهدى وأقبل على مابه يكتسب الحرام ويكون مصيدة للحطام أما تخاف أيها المسترشد أن تكون مضيعا لشيء من هذه الواجبات بل لأكثرها وتشتغل بصلاة التطوع وصوم النفل فتكون فى لاشيء وربما أنت مصر على معصية من هذه المعاصى تستوجب بها النار وتترك مباحا من طعام أوشراب أونوم تتقفى به قربة إلى الله عزوجل فتكون فى لاشيء وأشد من ذلك كله أنك تكون فى أسر الأمل والأمل معصية محضة فتظنه نية خير لجهلك بالفرق بينهما وتقارنهما فى بعض الوجوه وكذلك تكون فى جزع وسخط فتظنه تضرعا وابتهالا إلى الله عز وجل وتكون فى رياء محض وتحسبه حمدا لله سبحانه وتعالى أو دعوة للناس إلى خير فتأخذ تعد على الله سبحانه المعاصى بالطاعات وتحتسب الثواب العظيم فى مواضع العقوبات فتكون فى غرور عظيم وغفلة قبيحة فهذه والله مصيبة فظيعة للعاملين من غير علم ثم مع ذلك كله فان للاعمال الظاهرة علائق من المساعى الباطنة تصلحها وتفسدها كالاخلاص والرياء والعجب وذكر المنة وغيره فمن لم يعرف هذه

Digitized by Birzeit University Library

المساعى الباطنة ووجوه تأثيرها فى العبادات الظاهرة وكيفية الاحتراس منها وحفظ العمل عنها فقلما يسلم له عمل الظاهر أيضا فتفوته طاعات الظاهر والباطن ولا يبقى بيده إلا الشقاء والكدر وهذا هو الخسران المبين ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفة العلم إن نوما على علم خير من صلاة على جهل فان العامل بغير علم يفسد أكثر مما يصلح وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العلم إنه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء ، والمعنى والعلم عند الله سبحانه أن إحدى شقوتيه أن لا يتعلم العلم ثم يشقى ويتعب فى العبادة على حبط مما يكون له من ذلك إلا العناء والعياذ بالله من علم وعمل لا ينفع ولهذا عظمت عناية العلماء الزهاد العاملين رضى الله عنهم بالعلم خاصة من بين سائر الناس فان مدار أمر العبودية وملاك العبادة والخدمة لله رب العالمين على العلم وهكذا يكون نظر أولى الأبصار وأهل التأييد والتوفيق فاذاً تبين لك بهذه الجملة أن الطاعة لا تحصل للعبد ولا تسلم له إلا بالعلم فيلزم إذاً تقديمه فى شأن العبادة .

وأما الخصلة الثانية التى توجب تقديم العلم : فهى أن العلم النافع يثمر خشية الله تعالى ومهابته قال الله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وذلك أن من لم يعرفه حق معرفته لم يهبه حق مهابته ولم يعظمه حق تعظيمه وحرمته فبالعلم يعرفه ويعظمه ويهابه فصار العلم يثمر الطاعات كلها ويحجز عن المعصية كلها بتوفيق الله وليس وراء هذين مقصد للعبد فى عبادة الله سبحانه وتعالى فعليك بالعلم أرشدك الله ياسالك طريق الآخرة أول كل شىء والله ولى التوفيق بفضله ورحمته .

واعلم أن تقول قد ورد الخبر عن صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه أنه قال طلب العلم فريضة على كل مسلم . فما العلم الذى طلبه فرض لازم وما الحد الذى لا بد للعبد من تحصيله فى أمر العبادة ؟

فاعلم أن العلوم التى طلبها فرض فى الجملة ثلاثة : علم التوحيد وعلم السر أعنى به مايتعلق بالقلب ومساعيه وعلم الشريعة . وأما حد مايجب من كل واحد منها فالذى يتعين فرضه من علم التوحيد مقدار ماتعرف به أصول الدين وهو أن لك إلها عالما قادرا مريدا حيا متكلما سميعا بصيراً واحداً لاشريك له متصفا بصفات الكمال منزها عن النقصان والزوال ودلالات الحدوث منفرداً بالقدم عن كل محدث وأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله الصادق فيما جاء به عن الله تعالى وتقدس وفيما ورد على لسانه من أمور الآخرة . ثم مسائل فى شعائر السنة تجب معرفتها وإياك أن تبتدع فى دين الله

Digitized by Birzeit University Library

سبحانه وتعالى مالم يأت به كتاب ولا أثر فتكون مع الله سبحانه على أعظم خطر وجميع أدلة التوحيد موجود أصلها فى كتاب الله سبحانه وقد ذكرها شيوخنا رضى الله عنهم فى كتبهم التى صنفوها فى أصول الديانات وعلى الجملة كل ما لا تأمن الهلاك فى جهله فطلب علمه فرض لا يسوغ لك تركه فهذه هذه وبالله التوفيق . وأما الذى يتعين فرضه من علم السر فمعرفة مواجبه ومناهيه حتى يحصل لك تعظيم الله تعالى والاخلاص له والنية وسلامة العمل وجميع ذلك يأتى فى كتابنا هذا إن شاء الله عز وجل . وأما ما يتعين من علم الشريعة فكل ما يتعين عليك فرض فعله وجب عليك معرفته لتؤديه كالطهارة والصلاة والصوم وأما الحج والزكاة والجهاد فان تعين عليك فرضه وجب عليك علمه لتؤديه وإلا فلا فهذا حد ما يلزم العبد تحصيله من العلم لامحالة وتعين فرضه بحيث لا بد لك من ذلك .

فان قلت فهل يفترض على أن أتعلم من علم التوحيد ما أنقض به جميع ملل الكفر وألزمهم حجة الاسلام وأنقض به جميع البدع وألزمهم حجة السنة ؟

فاعلم أن هذا فرض على الكفاية وإنما يتعين عليك ما تصحح به اعتقادك فى أصول الدين لاغير وكذلك لا يتعين عليك معرفة فروع علم التوحيد ودقائقه والاتيان على جميع مسائله ، نعم إن وردت عليك شبهة فى أصول الدين تخاف أن تقدح فى اعتقادك فيتعين عليك حل تلك الشبهة بما أمكن من الكلام المقنع ، وإياك والمماراة والمجادلة فانها داء محض لا دواء له فاحترز منه جهدك فان من ارتاده لم يفلح إلا أن يتغمده الله تعالى برحمته ولطفه . ثم اعلم أنه إذا كان فى كل قطر داع من دعاة أهل السنة يحل الشبه ويرد على أهل البدع ويستقل بهذا العلم ويصفى قلوب أهل الحق عن وساوس المبتدعة فقد سقط الفرض عمن سواه كذلك لا يلزمك من معرفة دقائق علم السر وجميع شرح عجائب القلب إلا ما يفسد عليك عبادتك فيجب عليك معرفته لتجتنبه وما يلزمك فعله كالاخلاص والحمد والشكر والتوكل ونحو ذلك فيلزمك معرفته لتؤديه . وأما ما سواه فلا وكذلك لا يلزمك معرفة سائر أبواب الفقه من البيوع والاجارات والنكاح والطلاق والجنايات إنما كل ذلك فرض على الكفاية .

فان قلت هذا القدر من علم التوحيد هل يحصل بنظر الأنسان من غير معلم ؟

فاعلم أن الأستاذ فاتح ومسهل والتحصيل معه أسهل وأروح والله تعالى بفضله يمن على من يشاء من عباده فيكون هو معلمهم سبحانه وتعالى ثم أعلم أن هذه العقبة

Digitized by Birzeit University Library

التي هي عقبة العلم عقبة كئود ولكن بها ينال المطلوب والمقصود نفعها كثير وقطعها شديد وخطرها عظيم كم من عدل عنها فضلّ وكم من سلكها فزل وكم من تائه فيها متحير وكم من حير منقطع وكم من سالك قطعها في مدة يسيرة وآخر متردد فيها سبعين سنة والأمر كله بيد الله عز وجل أما نفعه فعلى ما ذكرنا من شدة الحاجة للعبد إليه وبناء أمر العبادة كله عليه لاسيما علم التوحيد وعلم السر. فلقد روي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام فقال يا داود تعلم العلم النافع فقال إلهي وما العلم النافع ؟ فقال أن تعرف جلالي وعظمتي وكبريائي وكمال قدرتي على كل شيء فان هذا الذي يقربك إليّ . وعن عليّ كرم الله وجهه أنه قال ما يسرني أن لو مت طفلا وأدخلت الجنة ولم أكبر فأعرف ربي فان أعلم الناس بالله أشدهم خشية وأكثرهم عبادة وأحسنهم في الله سبحانه وتعالى نصيحة ، وأما شدتها فابذل نفسك في الاخلاص في طلب العلم وليكن الطلب طلب دراية لا طلب رواية . وأعلم أن الخطر عظيم فمن طلب العلم ليصرف به وجوه الناس إليه ويجالس به الأمراء ويباهي به النظراء ويتصيد به الحطام فتجارته بائرة وصفقته خاسرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلب العلم ليفاخر به العلماء أو ليماري به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار .

قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً أشد على من العلم وخطره — وإياك أن يزين لك الشيطان فيقول لك إذا كان قد ورد هذا الخطر العظيم في العلم فتركه أولى فلا تظنن ذلك فلقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اطلعت ليلة المعراج على النار فرأيت أكثر أهلها الفقراء قالوا يا رسول الله من المال قال لا بل من العلم فمن لا يتعلم العلم لا يتأتى له إحكام العبادات والقيام بحقوقها كما ينبغي ولو أن رجلا عبد الله سبحانه عبادة ملائكة السموات بغير علم كان من الخاسرين فشمر في طلب العلم بالبحث والتلقين والتدريس واجتنب الكسل والملال وإلا فأنت في خطر الضلال والعياذ بالله عز وجل ثم جملة الأمر أنك إذا نظرت في دلائل صنع الله عز وجل وأمعنت النظر علمت أن لك ولنا إلها قادرا عالما حيا مريدا سميعا بصيرا متكلما منزها عن حدوث الكلام والعلم والارادة مقدسا عن كل نقص وآفة لا يوصف بصفات المحدثين ولا يجوز عليه ما يجوز على المخلوقين ولا يشبه شيئاً من خلقه ولا يشبهه شيء ولا تتضمنه الأماكن والجهات ولا تحله الحوادث والآفات ونظرت في معجزات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وآياته وإعلام نبوته علمت أنه

Digitized by Birzeit University Library

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمينه على وحيه وما كان السلف الصالح يعتقدونه من أن الله تعالى يرى فى الآخرة وأنه موجود وليس فى جهة محدودة وأن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق وليس بحروف مقطعة ولا أصوات إذ لو كان كذلك لكان من جملة المخلوقات وأنه لا يكون فى الملك والملكوت فلتة خاطر ولا لفتة ناظر إلا بقضاء الله تعالى وقدره وإرادته ومشيئته فمنه الخير والشر والنفع والضر والايمان والكفر وأنه لا واجب على الله تعالى لأحد من خلقه فمن أثابه فبفضله ومن عاقبه فبعدله وما ورد على لسان صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه من أمور الآخرة كالحشر والنشر وعذاب القبر وسؤال منكر ونكير والميزان والصراط فهذه أصول درج السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين على اعتقادها والتمسك بها ووقع عليها الاجماع قبل تنوع البدع وظهور الاهواء نعوذ بالله من الابتداع فى الدين واتباع الهوى بغير دليل ، ثم نظرت فى أعمال القلب والمواجب الباطنة والمناهي التى تأتى فى هذا الكتاب ليحصل لك علمه ثم تعرف جملة ما تحتاج إلى استعماله كالطهارة والصلاة والصوم ونحوه فلقد أديت فرض الله تعالى عليك الذى تعبدك به فى باب العلم ولقد صرت من علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم الراسخين فى العلم فان عملت بعلمك وأقبلت على عمارة معادك كنت عبدا عالما عاملا لله تعالى على بصيرة غير جاهل ولا مقلد ولا غافل فلك الشرف العظيم ولعلمك القيمة الكبيرة والثواب الجزيل وكنت قد قطعت هذه العقبة وخلفتها وراءك وقضيت حقها باذن الله تعالى والله سبحانه مسئول أن يمدك وإيانا بحسن توفيقه وتيسيره إنه أرحم الراحمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(العقبة الثانية وهى عقبة التوبة)

ثم عليك يا طالب العبادة وفقك الله بالتوبة وذلك لأمرين :

أحدهما ليحصل لك توفيق الطاعة فان شؤم الذنوب يورث الحرمان ويعقب الخذلان وإن قيد الذنوب يمنع عن المشى إلى طاعة الله عز وجل والمسارعة إلى خدمته لأن ثقل الذنوب يمنع من الخفة للخيرات والنشاط فى الطاعات وإن الاصرار على الذنوب مما يسود القلوب فتجدها فى ظلمة وقساوة لاخلوص فيها ولا صفاوة ولا لذة ولا حلاوة وإن لم يرحم الله فستجر صاحبها إلى الكفر والشقاوة فياعجبا كيف يوفق للطاعة من هو فى شؤم وقسوة

Digitized by Birzeit University Library

وكيف يدعى إلى الخدمة من هو مصر على المعصية ومقيم على الجفوة وكيف يقرب المناجاة من هو متلطخ بالاقذار والنجاسات فى الخبر عن الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا كذب العبد تنحى عنه الملكان من نتن ما يخرج من فيه فكيف يصلح هذا اللسان لذكر الله عز وجل فلا جرم لا يكاد يجد المصر على العصيان توفيقا ولا تخف أركانه لعبادة الله تعالى فان اتفق فبكد لاحلاوة معه ولاصفوة وكل ذلك لشؤم الذنوب وترك التوبة ولقد صدق من قال إذا لم تقو على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك مكبول قد كبلتك خطيئتك فهذه هذه .

والثانى من الأمرين — إنما تلزمك التوبة لتقبل منك عبادتك فان رب الدين لا يقبل الهدية وذلك أن التوبة عن المعاصى وإرضاء الخصوم فرض لازم وعامة العبادة التى تقصدها نفل فكيف يقبل منك تبرعك والدين عليك حال لم تقضه وكيف تترك لأجله الحلال والمباح وأنت مصر على فعل المحظور والحرام وكيف تناجيه وتدعوه وتثنى عليه وهو والعياذ بالله عليك غضبان فهذا ظاهر حال العصاة المصرين على المعصية والله المستعان .

فان قلت فما معنى التوبة النصوح وما حدها وما ينبغي للعبد أن يفعله حتى يخرج من الذنوب كلها ؟

فأقول أما التوبة فانها سعى من مساعى القلب وهى عند التحصيل فى قول العلماء رضى الله عنهم تنزيه القلب عن الذنب . قال شيخنا رحمه الله فى حد التوبة أنه ترك اختيار ذنب سبق مثله عنه منزلة لا صورة تعظيما لله تعالى وحذرا من سخطه فلها إذاً أربعة شرائط : إحداها ترك اختيار الذنب وهو أن يوطن قلبه ويجرد عزمه على أنه لا يعود إلى الذنب ألبتة فأما إن ترك الذنب وفى نفسه أنه ربما يعود اليه أو لا يعزم على ذلك بل يتردد فانه ربما يقع له العود فانه ممتنع عن الذنب غير تائب منه ، والثانية أن يتوب من ذنب قد سبق عنه مثله إذ لو لم يسبق عنه مثله لكان متقيا غير تائب ألا ترى أنه يصح القول بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان متقيا عن الكفر ولا يصح القول بانه كان تائبا عن الكفر إذ لم يسبق عنه كفر بحال وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان تائبا عن الكفر لما سبق عنه ذلك ، والثالثة أن الذى سبق عنه يكون مثل الذي يترك اختياره فى المنزلة والدرجة لا فى الصورة ألا ترى أن الشيخ الهرم الفانى الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق إذا أراد أن يتوب عن ذلك تمكنه التوبة لا محالة إذ لم يغلق عنه

Digitized by Birzeit University Library

بابها ولا يمكنه ترك اختيار الزنا وقطع الطريق إذ هو لا يقدر الساعة على فعل ذلك فلا يقدر على ترك اختياره فلا يصح وصفه بأنه تارك له ممتنع عنه وهو عاجز عنه غير متمكن منه لكنه يقدر على فعل ما هو مثل الزنا وقطع الطريق فى المنزلة والدرجة كالكذب والقذف والغيبة والنميمة إذ جميع ذلك معاص وإن كان الاثم يتفاوت فى كل واحدة بقدرها لكن جميع هذه المعاصى الفرعية كلها بمنزلة واحدة وهى دون منزلة البدعة ـ ومنزلة البدعة دون منزلة الكفر فلذلك تصح منه التوبة عن الزنا وقطع الطريق وسائر ما مضى من الذنوب التى هو عاجز عن أمثالها اليوم فى الصورة ، والرابعة أن يكون ترك اختياره لذلك تعظيما لله عز وجل وحذرا من سخطه وأليم عقابه مجرداً لا لرغبة دنيوية أو رهبة من الناس أو طلب ثناء أو صيت أو جاه أو ضعف فى النفس أو فقر أو غير ذلك فهذه شرائط التوبة وأركانها فاذا حصلت واستكملت فهي توبة حقيقية صادقة وأما مقدمات التوبة فثلاث : إحداها ذكر غاية قبيح الذنوب ، والثانية ذكر شدة عقوبة الله عز وجل وأليم سخطه وغضبه الذى لاطاقة لك به ، والثالثة ذكر ضعفك وقلة حيلتك فى ذلك فان من لايحتمل حر شمس ولا لطمة شرطى ولا قرص نملة كيف يحتمل حر نار جهنم وضرب مقامع الزبانية ولسع حيات كأعناق البخت وعقارب كالبغال خلقت من النار فى دار الغضب والبوار نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه وعذابه فاذا واظبت على هذه الاذكار وعاودتها آناء الليل والنهار فانها ستحملك على التوبة النصوح من الذنوب والله الموفق بفضله .

فان قيل أليس قد قال النبى صلى الله عليه وسلم الندم توبة ولم يذكر مما ذكرتم من شرائطها وشددتم شيئاً ؟

يقال له اعلم أولا أن الندم غير مقدور للعبد ألا ترى أنه تقع الندامة عن أمور فى قلبه وهو يريد أن لا يكون ذلك والتوبة مقدورة للعبد مأمور بها ثم إنا قد علمنا أنه لو ندم على الذنوب لما ذهب بذلك جاهه بين الناس أو ماله فى النفقة فيها فان ذلك لايكون توبة بلا ريب فعلمت بذلك أن فى الخبر معنى لم تفهمه من ظاهره وهو أن الندم لتعظيم الله سبحانه وخوف عقابه مما يبعث على التوبة النصوح فان ذلك من صفات التائبين وحالهم فانه إذا ذكر الاذكار الثلاثة التى هى مقدمات التوبة ندم وحملته الندامة على ترك اختيار الذنوب وتبقى ندامته فى قلبه فى المستقبل فتحمله على الابتهال والتضرع

Digitized by Birzeit University Library

فلما كان ذلك من أسباب التوبة وصفات التائب سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم التوبة فافهم ذلك موفقا إن شاء الله تعالى .

فان قلت كيف يمكن الانسان أن يصير بحيث لا يقع منه ذنب ألبتة من صغير أو كبير كيف وأنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه الذين هم أشرف خلق الله سبحانه وتعالى قد اختلف فيهم أهل العلم هل نالوا هذه الدرجة أم لا ؟

فاعلم أن هذا أمر ممكن غير مستحيل ثم هو هين والله يختص برحمته من يشاء ، ثم من شرط التوبة أن لا يتعمد ذنبا فاما إن وقع منه بسهو أو خطأ فهو معفو عنه بفضل الله تعالى وهذا هين على من وفقه الله تعالى .

فان قلت إنما يمنعنى من التوبة أنى أعلم من نفسى أنى أعود إلى الذنب ولا أثبت على التوبة فلا فائدة فى ذلك .

فاعلم أن هذا من غرور الشيطان ومن أين لك هذا العلم فعسى أن تموت تائبا قبل أن تعود إلى الذنب وأما الخوف من العود فعليك العزم والصدق فى ذلك وعليه الاتمام فان أتم فذاك المقصود من فضله وإن لم يتم فقد غفرت ذنوبك السالفة كلها وتخلصت منها وتطهرت وليس عليك إلا هذا الذنب الذى أحدثته الآن وهذا هو الربح العظيم والفائدة العظيمة الكبيرة فلا يمنعك خوف العود عن التوبة فانك من التوبة أبدا بين إحدى الحسنيين والله ولى التوفيق والهداية فهذه هذه .

وأما الخروج عن الذنوب والتخلص منها فاعلم أن الذنوب فى الجملة ثلاثة أقسام : أحدها ترك واجبات الله سبحانه وتعالى عليك من صلاة أو صوم أو زكاة أو كفارة أو غيرها فتقضى ما أمكنك منها . والثانى ذنوب بينك وبين الله سبحانه وتعالى كشرب الخمر وضرب المزامير وأكل الربا ونحو ذلك فتندم على ذلك وتوطن قلبك على ترك العود إلى مثلها أبدا . والثالث ذنوب بينك وبين العباد وهذا أشكل وأصعب وهى أقسام قد تكون فى المال وفى النفس وفى العرض وفى الحرمة وفى الدين ، فما كان فى المال فيجب عليك أن ترده عليه إن أمكنك فان عجزت عن ذلك لعدم وفقر فتستحل منه فان عجزت عن ذلك لغيبة الرجل أو موته وأمكن التصدق عنه فافعل وإن لم يمكن فعليك بتكثير حسناتك والرجوع إلى الله بالتضرع والابتهال أن يرضيه عنك يوم القيامة ، وأما ما كان فى النفس فتمكنه من القصاص أو أوليائه حتى يقتص منك أو يجعلك فى حل فان عجزت فالرجوع إلى الله

Digitized by Birzeit University Library

سبحانه والابتهال اليه أن يرضيه عنك يوم القيامة ، وأما فى العرض فان اغتبته أو بهته أوشتمته فحقك أن تكذب نفسك بين يدى من فعلت ذلك عنده وأن تستحل من صاحبه إن أمكنك هذا إذا لم تخش زيادة غيظ أو هيج فتنة فى اظهار ذلك أو تجديده فان خشيت ذلك فالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ليرضيه عنك ويجعل له خيراً كثيراً فى مقابلته والاستغفار الكثير لصاحبه ، وأما الحرمة بأن خنته فى أهله أو ولده أونحوه فلا وجه للاستحلال والاظهار لأنه يولد فتنة وغيظا بل تتضرع إلى الله سبحانه ليرضيه عنك ويجعل له خيراً كثيراً فى مقابلته فان أمنت الفتنة والهيج وهو نادر فتستحل منه . وأما فى الدين بان كفرته أو بدّعته أو ضللته فهو أصعب الأمور فتحتاج إلى تكذيب نفسك بين يدى من قلت له ذلك وأن تستحل من صاحبك إن أمكنك وإلا فالابتهال الى الله تعالى جدّ والتندم على ذلك ليرضيه عنك . وجملة الأمر فما أمكنك من إرضاء الخصوم عملت وما لم يمكنك رجعت إلى الله سبحانه وتعالى بالتضرع والابتهال والتصدق ليرضيه عنك فيكون ذلك فى مشيئة الله سبحانه يوم القيامة والرجاء منه بفضله العظيم وإحسانه العميم إنه إذا علم الصدق من قلب العبد فانه يرضى خصماءه من خزانة فضله ولاحكم فاعلم هذه حقها راشدا فهذه هذه . فاذا أنت علمت ما وصفناه وبرأت القلب عن اختيار مثلها فى المستقبل فقد خرجت من الذنوب كلها وإن حصلت منك تبرئة القلب ولم يحصل منك قضاء الفوائت وإرضاء الخصوم فالتبعات لازمة وسائرالذنوب مغفورة . ولهذا الباب شرح يطول فلايحتمله هذا المختصر وانظر كتاب التوبة من كتاب إحياء علوم الدين أولا وكتاب القربة إلى الله تعالى ثانيا وكتاب الغاية القصوى ثالثا تجد فوائد كثيرة وشرحا جما والذى ذكرناه ههنا هو الأصل الذى لا بد منه وبالله التوفيق .

(فصل) ثم اعلم يقينا أن هذه العقبة عقبة صعبة أمرها مهم وضررها عظيم . فلقد بلغنا عن الاستاذ أبى إسحق الاسفرايني رحمه الله وكان من الراسخين فى العلم العاملين به أنه قال دعوت الله سبحانه ثلاثين سنة أن يرزقنى توبة نصوحا ثم تعجبت فى نفسى فقلت سبحان الله حاجة دعوت الله فيها ثلاثين سنة فما قضيت إلى الآن فرأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول لى أتتعجب من ذلك أتدري ماذا تسأل الله إنما تسأل الله سبحانه أن يحبك أما سمعت قوله جل جلاله « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » أفهذه حاجة هينة فانظر إلى هؤلاء الأئمة واهتمامهم ومواظبتهم على صلاح قلوبهم والتزود

Digitized by Birzeit University Library

لمعادهم . وأما الضرر المخوف فى تأخير التوبة فان أول الذنب قسوة وآخره والعياذ بالله شؤم وشقوة فاياك أن تنسى أمر إبليس وبلعم بن باعوراء إذ كان مبدأ أمرهما ذنباً وآخره كفرا فهلكا مع الهالكين أبد الآبدين فعليك رحمك الله بالتيقظ والجهد عسى أن تقلع من قلبك عرق هذا الاصرار وتخلص رقبتك من هذه الأوزار ولا تأمن قساوة القلب من الذنوب وتأمل حالك فلقد قال بعض الصالحين إن سواد القلب من الذنوب وعلامة سواد القلب أن لا تجد للذنوب منفزعا ولا للطاعة موقعاً ولا للموعظة منجعا ولا تستحقرن من الذنوب شيئاً فتحسب نفسك تائباً وأنت مصر على الكبائر . فلقد بلغنا عن كهمس بن الحسن أنه قال أذنبت ذنبا فأنا أبكي عليه منذ أربعين سنة فقيل ماهو يا أبا عبدالله قال زارنى أخ لى فى الله فاشتريت له سمكا فأكل ثم قمت إلى حائط جارى فأخذت منه قطعة طين فغسل بها يده ـ فناقش نفسك وحاسبها وسارع إلى التوبة وبادر فان الأجل مكتوم والدنيا غرور والنفس والشيطان عدوان وتضرع إلى الله سبحانه وابتهل إليه واذكر حال أبينا آدم صلى الله عليه وسلم الذى خلقه الله تعالى بيده ونفخ فيه من روحه وحمله إلى جنته على أعناق الملائكة لم يذنب إلا ذنبا واحداً فنزل به ما نزل حتى روى أن الله تعالى قال له يا آدم أى جار كنت لك قال نعم الجار يارب قال يا آدم أخرج من جوارى وضع عن رأسك تاج كرامتى فانه لايجاورنى من عصانى حتى أنه فيما روى بكى على ذنبه مائتى سنة حتى قبل الله توبته وغفر ذنبه ـ الواحد هذا حاله مع نبيه وصفيه فى ذنب واحد فكيف حال الغير فى ذنوب لاتحصى وهذا تضرع التائب وابتهاله فكيف بالمصر المتعسف ولقد أحسن من قال :

يخاف على نفسه من يتوب فكيف ترى حال من لايتوب

فان تبت ثم نقضت التوبة وعدت إلى الذنب ثانيا فعد إلى التوبة مبادرا وقل لنفسك لعلى أموت قبل أن أعود إلى الذنب هذه المرة وكذلك ثالثاً ورابعاً وكما اتخذت الذنب والعود إليه حرفة فاتخذ التوبة أيضا والعود إليها حرفة ولاتكن فى التوبة أعجز منك فى الذنب ولا تيأس ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك فانه دلالة الخير أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم خياركم كل مفتن تواب أى كثير الابتلاء بالذنب كثير التوبة منه والرجوع إلى الله جل جلاله بالندامة والاستغفار وتذكر قوله سبحانه « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » فهذه هذه وبالله التوفيق .

Digitized by Birzeit University Library

(فصـل) وجملة الأمر أنك إذا ابتدأت فبرأت قلبك عن الذنوب كلها بأن توطنه على أن لا تعود إلى الذنب أبدا البتة إلا ما كان منك فى علم الله على وجه علم الله سبحانه وتعالى صدق عزمك من قلب نقى وترضى الخصوم بما أمكنك وتقضى الفوائت بما تقدر عليه وترجع فى البواقى إلى الله سـبحانه وتعالى بالابتهال والتضرع ليكفيك ذلك ثم تذهب فتغتسل وتغسـل ثيابك وتصلى أربع ركعات كما يجب وتضـع وجهك على الأرض فى مكان خال لا يراك إلا الله سبحانه وتعالى ثم تجعل التراب على رأسك وتمرغ وجهك الذى هو أعز أعضائك فى التراب بدمع حار وقلب حزين وصوت عال وتذكر ذنوبك واحداً واحداً ما أمكنك وتلوم نفسك العاصية عليها وتوبخها وتقول أما تستحين يا نفس أما آن لك أن تتوبى ألك طاقة بعذاب الله سبحانه ألك حاجة بسخط الله سبحانه وتذكر من هذا كثيرا وتبكى . ثم ترفع يديك إلى الرب الرحيم سبحانه وتقول إلهى عبدك الآبق رجع إلى بابك عبدك العاصى رجع إلى الصلح عبدك المذنب أتاك بالعذر فاعف عنى بجودك وتقبلنى بفضلك وانظر إلى برحمتك اللهم اغفر لى ما سلف من الذنوب وأعصمنى فيما بقى من الأجل فان الخير كله بيدك وأنت بنا رءوف رحيم ثم تدعو دعاء الشدة وهو ياعجلى عظائم الأمور يامنتهى همة المهمومين يامن إذا أراد أمرا فانما يقول له كن فيكون أحاطت بنا ذنوبنا أنت المذخور لها يامذخوراً لكل شدة كنت أدخرك لهذه السـاعة فتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم ثم أكثر من البكاء والتذلل والتضرع وقل يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا سمع عن سمع يامن لا تغلطه كثرة المسائل يا من لا يبرمه إلحاح الملحين أذقنا برد عفوك وحـلاوة مغفرتك برحمتك يا أرحم الراحمين انك على كل شىء قدير ثم تصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى آله ثم تستغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات وترجع إلى طاعة الله جل جلاله فتكون قد تبت توبة نصوحاً وقد خرجت من الذنوب طاهراً كيوم ولدتك أمك وأحبك الله سـبحانه ولك من الأجر والثواب وعليـك من البركة والرحمة ما لا يحيط به وصف الواصفين وحصل لك الأمن والخلاص ونجوت من غضبه وغصة المعاصى وبليتها فى الدنيا والآخرة وكنت قد قطعت هذه العقبة باذن الله سبحانه وتعالى والله ولى الهداية بمنه وفضله .

Digitized by Birzeit University Library

(العقبة الثالثة وهى عقبة العلم)

ثم عليك يا طالب العبادة وفقك الله تعالى بدفع العوائق حتى تستقيم عبادتك وقد ذكرنا أن العوائق أربعة :

أحدها الدنيا وما فيها ودفعها إنما هو بالتجرد عنها والزهد فيها وإنما لزمك هذا التجرد والزهد لأمرين : أحدهما لتستقيم لك العبادة وتكثر فإن الرغبة فى الدنيا تشغلك أما ظاهرك فبالطلب وأما باطنك فبالارادة وحديث النفس وكلاهما يمنع العبادة فإن النفس واحدة والقلب واحد فاذا اشتغل بشىء انقطع عن ضده وان مثل الدنيا والآخرة كمثل الضرتين إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى وانهما كالمشرق والمغرب بقدر ما تميل إلى أحدهما أعرضت عن الآخر أما شغلها فى الظاهر فقد روينا عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال : زاولت أن أجمع بين العبادة والتجارة فلم يجتمعا فأقبلت على العبادة وتركت التجارة ، وعن عمر رضى الله عنه أنه قال : لو كانتا مجتمعتين لأحدغيرى لاجتمعتا لى لما أعطانى الله سبحانه من القوة واللين فاذا كان الحديث كذلك فاضرب بالفانية واختر السلامة والسلام : وأما شغلها بالقلب وهو الباطن لمكان الارادة فما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا مايبقى على مايفنى فبان لك أنه إذا اشتغل ظاهرك بالدنيا وباطنك بارادتها فلا تتيسر لك العبادة حقها وأما إذا زهدت فيها فتفرغت بظاهرك وباطنك تتيسر لك العبادة بل تعاونك أعضاؤك عليها . ولقد روى عن سلمان الفارسى رضى الله عنه أنه قال : إن العبد إذا زهد فى الدنيا استنار قلبه بالحكمة وتعاونت أعضاؤه فى العبادة فهذه هذه .

والثانى من الأمرين أنه يكثر قيمة عملك ويعظم قدره وشرفه فلقد قال صلى الله عليه وسلم ركعتان من رجل عالم زاهد قلبه خير وأحب إلى الله جل جلاله من عبادة المتعبدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا فاذا كانت العبادة تشرف وتكثر بذلك فحق لمن طلب العبادة أن يزهد فى الدنيا ويتجرد عنها .

فان قلت فما معنى الزهد فى الدنيا وما حقيقة ذلك ؟ .

فاعلم أن الزهد عند علمائنا رحمهم الله زهدان زهد مقدور للعبد وزهد غير مقدور فالذي هو مقدور ثلاثة أشياء : ترك طلب المفقود من الدنيا وتفريق المجموع منها وترك إرادتها واختيارها . وأما الزهد الذى هو غير مقدور للعبد فهو برودة الشىء على قلب الزاهد .

Digitized by Birzeit University Library

ثم الزهد الذى هو مقدور للعبد مقدمات للزهد الذى هو غير مقدور للعبد فاذا أتى به العبد بأن لا يطلب ما ليس عنده من الدنيا ويفرق ماعنده منها ويترك بالقلب إرادتها واختيارها لأجل الله وعظيم ثوابه بتذكره لآفاتها أورثته تلك برودة الدنيا على قلبه وهذا عندي هو الزهد الحقيقى . ثم اعلم أن أصعب الأمور الثلاثة إنما هو ترك الارادة بالقلب إذ كم من تارك لها بظاهره محب مريد لها بباطنه فهو فى مكافحة ومقاساة شديدة من نفسه والشأن كله فى هذه ألم تسمع إلى قوله سبحانه عز من قائل « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّا فى الأرض ولا فسادا » علق الحكم بنفى الارادة دون الطلب والفعل المراد وقوله سبحانه « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب » وقوله تعالى « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء » وقوله « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » أما ترى الاشارة كلها إلى الارادة فأمرها هو المهم اذن لكن العبد إذا واظب واستقام على الأولين أعنى التفريق والترك فمأمول من فضل الله سبحانه أن يوفقه لدفع هذه الارادة والاختيار عن قلبه فانه المتفضل الكريم عز وجل . ثم الذى يبعث على الترك والتفريق ويهون عليك ذلك ذكر آفات الدنيا وعيوبها وقد أكثر الناس القول فى ذلك فمنه قول بعضهم - تركت الدنيا لقلة غنائها وكثرة عنائها وسرعة فنائها وخسة شركائها قال شيخى الامام رحمه الله لكن يجىء من هذا رائحة الرغبة الفائحة لأن من شكا فراق أحد أحب وصاله ومن ترك شيئاً لمكان الشركاء فيه أحب لو انفرد به فالقول البالغ فيه ما قاله شيخنا رحمه الله تعالى إن الدنيا عدو الله عز وجل وأنت محبه ومن أحب أحدا أبغض عدوه قال ولأنها فى أصلها وسخة جيفة ألا ترى أن آخرها إلى القذر والفساد والتلاشى والاضمحلال والنفاد لكنها جيفة ضمخت بطيب وطويت بزينة فاغتر بظاهرها الغافلون وزهد فيها العاقلون .

فان قيل فما حكم الزهد فى الدنيا أهو فرض أم نفل ؟ .

فاعلم أن الزهد يقع عندنا فى الحلال والحرام فهو فى الحرام فرض وفى الحلال نفل ثم منزلة هذا الحرام لمستقيمى الطاعات بمنزلة الميتة المستقذرة لا يقدم عليها إلا عند الضرورة بمقدار دفع الضرر . وأما الزهد فى الحلال فانما يكون فى منزلة الابدال يكون عندهم

Digitized by Birzeit University Library

الحلال بمنزلة الميتة لا يتناولون منها إلا قدرا لا بد منه والحرام عندهم بمنزلة النار لا يخطر ببالهم قصد تناولها بحال وهذا معنى البرودة على القلب بأن يقطع همته عنها ويستقذرها ويستنكرها جدا فلا يبقى لها فى قلبه اختيار ولا إرادة .

فان قلت كيف يمكن أن تصير الدنيا فى شهواتها ولذتها العجيبة المطلوبة عند الانسان بمنزلة النار أو بمنزلة الجيفة المستقذرة المستحيلة والبنية بنيتنا والطبع طبعنا ؟

فاعلم أن من وفق التوفيق الخاص وعلم آفاتها وقدرها فى أصلها فتصير عنده كذلك وإنما يتعجب من هذا الراغبون العميان عن عيوب الدنيا وآفاتها المغترون بظاهرها وزينتها. وسأضرب لك مثلا لذلك فاعلم أن هذا يمثل بانسان صنع خبيصا بشرائطه من السكر وغيره ثم طرح فيه قطعة سم قاتل وأبصر ذلك رجل ولم يبصره آخر ووضع الخبيص بين أيديهما مزيناً مزخرفاً فالرجل الذى أبصر ماجعل فيه من السم يكون زاهداً فى ذلك الخبيص لا يخطر بباله أن يتناول منه بحال ألبتة ويكون ذلك عنده بمنزلة النار بل أصعب لمكان مايعلم من آفاته فلا يغتر بظاهره وزينته . وأما الرجل الآخر الذى لم يبصر ماجعل فيه اغتر بظاهره المزخرف وحرص عليه ولم يصبر عنه وأخذ يتعجب من صاحبه الزاهد فيه وربما يسفهه فى ذلك فهذا مثل حرام الدنيا مع البصراء المستقيمين والجهال الراغبين فان لم يطرح فيه السم ولكن بصق فيه أوامتخط ثم ضمخه وزينه فالرجل الذى شاهد منه ذلك الفعل يكون مستقذرا لذلك الخبيص نافراً عنه لا يكاد يقدم عليه إلا عند الضرورة وشدة الحاجة إليه والذى لم يشاهد ذلك فهو جاهل بما فيه مغتر بظاهره حريص عليه مكب معجب محب فهذا مثل حلال الدنيا مع الفريقين أهل البصيرة والاستقامة وأهل الرغبة والغفلة وإنما اختلف حال الرجلين مع تساويهما فى الطبع والبنية لبصارة وعلم كان لأحدهما وجهل وجفاء كان للآخر فلو علم الراغب وأبصر ماعلمه الزاهد لكان زاهداً مثله ولو جهل الزاهد وعمى عما عمى عنه الراغب لكان راغبا مثله فعلمت بذلك أن هذا التمييز لمكان البصائر دون الطبائع وهذا أصل مفيد وكلام بيّن سديد اعترف به من عقل وأنصف والله تعالى ولى الهداية والتوفيق بفضله .

فان قيل فلا بد لنا من قدر من الدنيا ليكون قواما لنا فكيف نزهد فيها ؟

فاعلم أن الزهد فى الفضول مما لا يحتاج اليه فى قوام البنية فالمقصود القوام والقوة حتى

Digitized by Birzeit University Library

تعبد الله سبحانه لا الأكل والشرب والتلذذ والله تعالى إن شاء أقامها بشيء وسبب وإن شاء تعالى أقامها بغير سبب كالملائكة عليهم السلام ثم إن كان بشيء إن شاء فبشيء حاصل عندك أو بطلبك وكسبك وإن شاء بشيء غيره يسببه لك من حيث لا تحتسب من غير طلب منك وكسب كما قال الله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » فاذاً لا تحتاج بحال إلى طلب وإرادة فان لم تقو على ذلك الزهد وطلبت وأردت فانو بذلك العدة والتقوى على عبادة الله سبحانه وتعالى دون الشهوة واللذة فانك إذا نويت ذلك كان الطلب والارادة منك خيراً وطلباً للآخرة بالحقيقة لا للدنيا ولا يقدح فى زهدك وتجردك فاعلم هذه الجملة راشدا وبالله التوفيق .

العائق الثانى الخلق — ثم عليك وفقك الله وإيانا لطاعته بالتفرد عن الخلق وذلك لأمرين : أحدهما أنهم يشغلونك عن عبادة الله عز وجل على ما حكى عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يتراءون وواحد جالس بعيداً منهم فأردت أن أكلمه فقال ذكر الله أشهى إلى من كلامك فقلت أنت وحدك فقال معي ربى وملكاى فقلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له فقلت أين الطريق فأشار بيده نحو السماء وقام وتركنى وقال أكثر خلقك عنك شاغل — فالخلق إذاً يشغلونك عن العبادة بل يمنعونك منها بل يوقعونك فى الشر والهلاك على ما قال حاتم الأصم رحمه الله طلبت من هذا الخلق خمسة أشياء فلم أجدها طلبت منهم الطاعة والزهادة فلم يفعلوا فقلت أعينونى عليهما إن لم تفعلوا فلم يفعلوا فقلت ارضوا عنى إن فعلت فلم يفعلوا فقلت لا تمنعونى عنهما إذا فمنعونى فقلت لا تدعونى إلى ما لا يرضى الله العظيم ولا تعادونى عليه إن لم أتابعكم فلم يفعلوا فتركتهم واشتغلت بخاصة نفسى . واعلم أيها الأخ فى الدين أن نبيك محمداً صلى الله عليه وسلم وصف زمان العزلة وبين نعته ونعت أهله وأمر فيه بالتفرد وكان صلى الله عليه وسلم لا محالة أعلم بالصالح وأنصح لنا منا لأنفسنا فان وجدت زمانك على ما وصف وبين فامتثل أمره صلى الله عليه وسلم وأقبل نصيحته ولا تشك فى أنه صلى الله عليه وسلم كان أعرف بما يصلح لك فى زمانك ولا تتعلل بالعلل الكاذبة ولا تخادع نفسك وإلا فأنت هالك ولا عذر لك والوصف الذي ذكرناه منها ما هو فى الخبر المشهور عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضى الله عنهما أنه قال بينا نحن حول النبى صلى الله عليه وسلم إذ ذكرت الفتنة فقال إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا وشبك بين

Digitized by Birzeit University Library

أصابعه قلت ما أصنع عند ذلك جعلني الله فداك قال الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ ماتعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة ـ وذكر في خبر آخر أنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك أيام الهرج قيل وما أيام الهرج قال حين لا يأمن الرجل جليسه . وذكر ابن مسعود رضي الله عنه في خبر آخر للحرث بن عميرة أنه صلى الله عليه وسلم قال له إن يدفع عن عمرك فسيأتي عليك زمان كثير خطباؤه قليل علماؤه كثير سؤاله قليل معطوه الهوى فيه قائد العلم قال ومتى ذاك قال إذا أميتت الصلاة وقبلت الرشا ويباع الدين بعرض يسير من الدنيا فالنجاء النجاء ويحك ثم النجاء .

قلت : وجميع ما ذكر في هذه الأخبار تراه بعينك في زمانك وأهله فانظر لنفسك . ثم إن السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعوا على التحذير من زمانهم وأهله وآثروا العزلة وأمروا بذلك وتواصوا به ولاشك أنهم كانوا أبصر وأنصح وأن الزمان لم يصر بعدهم خيراً مما كان بل أشر منه وأمرّ وهذا ما ذكر عن يوسف بن أسباط أنه قال سمعت الثوري يقول والله الذي لا إله إلا هو لقد حلت العزلة في هذا الزمان قلت أنا وائن حلت في زماننا هذا وجبت وافترضت . وعن سفيان الثوري أيضاً أنه كتب إلى عباد الخواص رحمها الله أما بعد فانك في زمان كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يتعوذون بالله من أن يدركوه فيما بلغنا ولهم من العلم ماليس لنا فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم وقلة صبر وقلة أعوان على الخير وكدر من الدنيا وفساد من الناس فان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في العزلة راحة من خلطاء السوء وفي مثل هذا قيل :

هذا الزمان الذي كنا نحاذره ... في قول كعب وفي قول ابن مسعود
دهر به الحق مردود بأجمعه ... والظلم والبغي فيه غير مردود
أعمى أصم من الأزمان ملتبس ... فيه لابليس تصويب وتصعيد
إن دام هذا ولم يحدث له غير ... لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

ولقد وجدت عن سفيان بن عيينة أنه قال : قلت للثوري أوصني قال أقلل من معرفة الناس قلت : يرحمك الله أليس قد جاء في الخبر أكثروا من معرفة الناس فان لكل

Digitized by Birzeit University Library

مؤمن شفاعة قال لاأحسبك رأيت قط ما تكره إلا ممن تعرف قلت أجل ثم مات رحمه الله فرأيته بعد موته فى المنام بحجج فقلت يا أبا عبد الله أوصنى قال : أقلل من معرفة الناس ما استطعت فان التخلص منهم شديد وقد قيل فى معنى هذا الخبر نظما :

وما زلت مذ لاح المشيب بمفرقى ... أفتش عن هذا الورى وأكشف
فما أن عرفت الناس إلا ذممتهم ... جزي الله خيراً كل من لست أعرف
وما لى ذنب أستحق به الجفا ... سوى أننى أحببت من ليس ينصف

قال : وقيل كتب على باب الدار جزى الله من لا يعرفنا خيراً ولا جزى بذلك أصدقاءنا فما أوذينا قط إلا منهم وأنشدوا فيه :

جزى الله عنا الخير من ليس بيننا ... ولا بينه ودّ ولا نتعارف
فما صاحبنا همّ ولا نالنا أذى ... من الناس إلا من نودّ ونعرف

قال الفضيل رحمه الله : هذا زمان إحفظ لسانك واخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر . وقال سفيان الثورى هذا زمان السكوت ولزوم البيوت والرضا بالقوت إلى أن تموت ، وعن داود الطائى رحمه الله صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفر من الناس فرارك من الأسد ، وعن أبى عبيدة ما رأيت حكيما قط إلا قال لى فى عقب كلامه إن أحببت ألا تعرف فأنت من الله على بال ـ والاخبار فى هذا الباب أكثر من أن يحتملها هذا الكتاب وقد صنفنا فيه كتابا مفرداً وسميناه كتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار فقف عليه ترى العجب العجاب والعاقل يكفيه إشارة والله ولى التوفيق والهداية بفضله ـ وأما الخصلة الثانية التى تقتضى التفرد عن الناس فى هذا الشأن أن الناس يفسدون عليك ما يحصل لك من العبادة إن لم يعصم الله سبحانه بسبب مايعرض من قبلهم من دواعى الرياء والتزين ، ولقد صدق يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله حيث قال رؤية الناس بساط الرياء وهؤلاء الزهاد قد خافوا على أنفسهم من هذا المعنى حتى تركوا الملاقاة والزاور ولقد ذكر أن هرم بن حيان قال لأويس القرنى رحمهما الله يا أويس صلنا بالزيارة واللقاء فقال أويس قد وصلتك بما هو أنفع لك منهما وهو الدعاء على ظهر الغيب لأن الزيارة واللقاء يعرض فيهما التزين والرياء . وقيل لسليمان الخواص حين قدم ابراهيم بن أدهم أفلا تأتيه فقال لأن ألقى شيطانا مارداً

Digitized by Birzeit University Library

أحب إلى من لقائه فاستنكروا ذلك من قوله فقال إنى أخاف إذا لقيته أن أتزين له وإذا لقيت شيطاناً امتنعت منه ولقد لقى شيخي الامام بعض العارفين فتذاكرا مليّا ثم دعوا فى آخر حديثهما فقال شيخي الامام للعارف ما أظنني جلست مجلساً أنا له أرجى من مجلسى هذا فقال له العارف لكنى ما جلست مجلساً أناله أخوف من مجلسى هذا ألست تعمد إلى أحسن حديثك وعلومك فتحدثنى بها وتظهرها بين يدى وأنا كذلك فقد وقع الرياء فبكي شيخي الامام مليّاً ثم غشى عليه فكان بعد ذلك يتمثل بهذه الأبيات :

يا ويلتا من موقف ما به ... أخوف من أن يعدل الحاكم
أبارز الله بعصيانه ... وليس لى من دونه راحم
يارب عفوا منك عن مذنب ... أسرف إلا أنه نادم
يقول فى الليل إذا ما دجي ... آها لذنب ستر العالم

فهذه حال أهل الزهد والرياضة فى ملاقاتهم فكيف حال أهل الرغبة والبطالة بل حال أهل الشر والجهالة . اعلم أن الزمان قد أصبح فى فساد عظيم وأصبح الناس فى ضر كثير فانهم يشغلونك عن عبادة الله تعالى حتى لايكاد يحصل لك منها شيء ثم يفسدون عليك ما حصل لك حتى لايكاد يسلم لك منها شيء فلزمتك العزلة والتفرد عن الناس والاستعاذة بالله من شر هذا الزمان وأهله والله تعالى الحافظ بفضله ورحمته .

فان قيل فما حكم العزلة والتفرد عن الناس فبين لنا حال طبقات الخلق فيها والحد الذى يجب منها ؟

فاعلم رحمك الله وإيانا أن الناس فى هذا الباب رجلان رجل لاحاجة بالخلق إليه فى علم وبيان حكم فالأولى بهذا الرجل التفرد عن الناس فلا يخالطهم إلا فى جمعة أو جماعة أو عيد أو حج أو مجلس علم بالسنة أو حاجة فى معيشة لابد له من ذلك وإلا فيوارى شخصه ويلزم كنّه لايعرف ولا يعرف فأما إن أحب هذا الرجل أن ينقطع عن الناس فلا يخالطهم فى أمر من الأمور ألبتة من دين أو دنيا وجماعة وجمعة أوغيرهما لما يرى له فى ذلك من مصلحته وفراغة فانه لا يسعه ذلك إلا بأحد أمرين : إما أن يصير إلى موضع لا يلزمه هنالك هذه الفروض كرءوس الجبال وبطون الأودية ونحوها ولعل هذا أحد الوجوه التى دعت العباد إلى تلك المواضع البعيدة عن الناس ، وإما أن يتيقن بالحقيقة أن الضرر الذى يلحقه فى مخالطة الناس بسبب هذه الفروض أعظم من تركها فحينئذ يكون له عذر فى تركها ولقد رأيت أنا بمكة حرسها الله بعض المشايخ المنفردين

Digitized by Birzeit University Library

من أهل العلم وهو لايحضر المسجد الحرام فى الجماعات مع قربه منه وسلامة حاله فجاورته فى ذلك يوما فى حال ترددى إليه فذكر من عذره ما أشرنا إليه وهو أن مايحصل له من الثواب لايفى بما يلحقه من الآثام والتبعات فى الخروج إلى المسجد ولقاء الناس ـ قلت أنا وجملة الأمور فلا عتب على المعذور والله تعالى أعلم بالعذر وهو عالم بذات الصدور ولكن الطريق العدل فيه هو الأول بأن يشارك الناس فى الجمعة والجماعات وضروب الخيرات ويباينهم فيما سوى ذلك فان أحب الطريق الثانى بأن ينقطع عن الناس بمرة فسبيله الخروج إلى مواضع لا تتوجه عليه هذه الفروض لأن الطريق الثالث وهو أن يكون مع الناس فى مصر واحد ولايحضر جمعة ولا جماعة لعذر يراه فى ذلك من وزر أو تبعة عليه فانه يحتاج إلى نظر دقيق وعوارض عظيمة حتى يسقط ذلك عنه وفيه خطر من الغلط فالأولان أسلم وأحفظ له والله ولى الهداية بفضله . وأما الرجل الثانى فرجل يكون قدوة فى العلم بحيث يحتاج الناس إليه فى أمر دينهم لبيان حق أو ردّ على مبتدع أو دعوة إلى خير بفعل أو بقول أونحوذلك فلا يسع مثل هذا الرجل الاعتزال عن الناس بل ينصب نفسه بينهم ناصحا لخلق الله تعالى ذابا عن دين الله تعالى مبينا لاحكام الله فلقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله هذا إذا كان بينهم وإذا خرج من بينهم فلا يجوز له أيضا الاعتزال . ولقد حكى أن الأستاذ أبا بكر بن فورك رحمه الله قصد أن ينفرد لعبادة الله عن الناس فبينا هو فى بعض الجبال إذ سمع صوتا ينادى ياأبا بكر إذ صرت من حجج الله على خلقه تركت عباد الله فرجع وكان هذا سبب صحبته للخلق . وذكر لى مأمون ابن أحمد رحمه الله أن الأستاذ أبا اسحاق رحمه الله قال لعبّاد جبل لبنان يا أكلة الحشيش تركتم أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى أيدى المبتدعة واشتغلتم ههنا بأكل الحشيش قالوا له إنا لا نقوى على صحبة الناس وإنما أعطاك الله قوة فلزمك ذلك فصنف بعد ذلك كتابه الجامع للجلى والخفى وكان لهم رضى الله عنهم مع غزارة علمهم العمل الجم والنظر الدقيق فى سلوك طريق الآخرة . واعلم أن مثل هذا الرجل المحتاج اليه الناس فى طرق باب الدين يحتاج فى صحبة الخلق إلى أمرين شديدين : أحدهما صبر طويل وحلم عظيم ونظر لطيف واستعانة بالله تعالى دائما . والثانى أن يكون فى هذا المعنى منفردا عنهم وإن كان بالشخص معهم فان كلموه كلمهم وإن زاروه

Digitized by Birzeit University Library

عظمهم على قدرهم وشكرهم وإن سكتوا عنه وأعرضوا عنه استغنم ذلك منهم وإن كانوا فى حق وخير ساعدهم وإن صاروا إلى لغو وشر خالفهم وهجرهم بل ردّ عليهم وزجرهم إن رجا قبولهم ثم يقوم بجميع حقوقهم من الزيارات والعيادات وقضاء الحاجات التى ترفع اليه ما أمكنه ولا يطالبهم بالمكافآت ولا يرجو ذلك منهم ولا يريهم من نفسه استيحاشا لذلك ويباسطهم بالبذل إن قدر وينقبض عنهم فى الاخذ إن أعطى ويتحمل منهم الأذى ويظهر لهم البشر ويتجمل بظاهره لهم ويكتم حاجاته عنهم فيقاسيها بنفسه ويعالجها فى سره وباطنه ثم يحتاج مع ذلك أن ينظر لنفسه خاصة فيجعل لها حظا من العبادة الخالصة كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه إن نمت الليل لأضيعنّ نفسى وإن نمت النهار لاضيعنّ الرعيّة فكيف لى بالنوم بين هاتين وفى هذا المعنى عرض لى أبيات من الشعر وهى :

فان كنت فى هدي الأئمة راغبا ... فوطّن على أن تتحيك الوقائع
بنفس وقور عند كل كريهة ... وقلب صبور وهو فى الصدر مانع
لسانك مخزون وطرفك ملجم ... وسرك مكتوم لدى الرّب ذائع
وذكرك مغمور وبابك مغلق ... وثغرك بسام وبطنك جائع
وقلبك مجروح وسوقك كاسد ... وفضلك مدفون وطعنك شائع
وفى كل يوم أنت جارع غصة ... من الدهر والاخوان والقلب طائع
نهارك شغل الناس من غير منة ... وليلك شوق غاب عنه الطلائع
فدونك هذا الليل خذه ذريعة ... ليوم عبوس عز فيه الذرائع

نعم يكون بالنفس معهم والقلب ما أبعده عنهم وذلك لعمري أمر شديد وعيش نكد وفيه يقول شيخنا رحمه الله فى وصيته يابنى عش مع أهل زمانك ولا تفقد بهم ثم قال ما أشد هذا العيش مع الاحياء والاقتداء بالأموات . وعن ابن مسعود رضى الله عنه خالط الناس وزايلهم ودينك لاتكلمنه فهذه نكتة مقنعة . ثم أقول إذا ماج الفتن بعضها فى بعض وتراجع الأمر وولى الناس عن أمر الدين مدبرين لا يرقبون فى مؤمن إلاّ ولا ذمة ولا يطلبون عالما ولا يرمقون مفيدا ولا يعتبهم أمر ونهم البتة وترى الفتنة تعم العامة وتدب بين الخاصة فللعالم العذر فى العزلة والتفرد وقد دفن العلم ولخافيه أن ماذكرناه هو هذا الزمان النكد الصعب والله المستعان وعليه التكلان فهنا حسن العزلة

Digitized by Birzeit University Library

والتفرد عن الناس فافهمه فان الغلط فيه عظيم وضرره كثير وبالله التوفيق .

فان قيل أليس النبي صلى الله عليه وسلم قال عليكم بالجماعة فان يد الله تعالى على الجماعة وإن الشيطان ذئب الأنسان يأخذ الشاذة والناجية والقاصية والفاذة وقال إن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد ؟

فاعلم أن هذه وردت وورد أيضا الزم بيتك وعليك بالخاصة ودع أمر العامة فأمر بالعزلة والتفرد فى الزمان السوء ولا تناقض فى قوله صلى الله عليه وسلم ولا بد من الجمع بين الخبرين بحول الله وتوفيقه .

فأقول : قوله صلى الله عليه وسلم عليكم بالجماعة يحتمل ثلاثة أوجه : أحدها أنه يعنى به فى الدين والحكم إذ لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة تخرق الاجماع والحكم بخلاف ما عليه جمهور الأمة والشذوذ عنهم باطل وضلال وإما أن يعتزل عنهم لصلاح فى دينه فليس هذا من ذلك فى شيء . والثانى عليكم بالجماعة بان لا تنقطعوا عنهم فى جمعهم وجماعاتهم ونحوها فان فيها قوة الدين وكمال الاسلام وغيظ الكفار والملحدين ولا يخلو ذلك من بركات ونظر من الله عز وجل بالرحمة ولذلك نقول إن حق المنفرد أن يشارك الناس فى الجموع العامة فى الخير وأن يجانبهم فى الصحبة والمزاحمة فى سائر الأمور لما فيها من ضروب الآفات . والثالث إن ذلك فى غير زمان الفتنة للرجل الضعيف فى أمر الدين وأما الرجل البصير القوى فى أمر الله تعالى إذا رأى زمان الفتنة الذى حذر النبي صلى الله عليه وسلم الأمة منه وأمرهم بالعزلة فيه فالعزلة أولى لما فى المخالطة من الفساد والآفات وينبغى له أن لا ينقطع من جموع الاسلام والخيرات العامة وإن أراد أن ينفرد عن الناس بمرة فليسكن بشاهق جبل أو بطن فلاة لصلاح يراه فى دينه — ثم قلت : ولا أرى مثل هذا الرجل أينما كان إلا ويمكنه الله عز وجل من حضور الجماعات والجمعات وسائر جموع الاسلام فيحضر لئلا يفوته الحظ منها أيضاً فان جموع الاسلام من الله تعالى بمكان وإن تغير الناس وفسدوا كذا سمعنا من حال الابدال أنهم يحضرون جموع الاسلام أينما كانت ويسيرون من الأرض حيث شاءوا وأن الأرض تطوى لهم وينادون بالتحيات ويتحفون بأنواع البر والكرامات فهنيئاً لهم بما ظفروا به وأحسن الله عزاء من غفل عن النظر فى خلاص نفسه وأعان الطالب الذى لم يصل إلى

Digitized by Birzeit University Library

المقصود كما مثالنا ولقد عرض لى فى صفة حالى أبيات من الشعر وهى :

ظفر الطالبون واتصل الوصـــل وفاز الأحباب بالأحباب
وبقينـا مذبذبين حيـارى بين حد الوصال والاجتناب
نرتجى القرب بالبعاد وهـذا نفس حال المحال للالباب
فاسقنا منك شربة تذهب الغـــم وتهدى إلى طريق الصواب
ياطبيب السـقام يامرهم الجر ح ويامنقذى من الأوصاب
لست أدرى بماأداوى سقامى أو بماذا أفوز يوم الحساب

ولنقبض الآن عنـان الجنان ونرجع إلى المقصود من شأن العزلة فقد خرجنا عن شرط الباب .

فان قيل أليس قد قال النبى صـلى الله عليه وسلم رهبانية أمتى الجلوس فى المساجد وفيه زجر عن التفرد ؟

فاعلم أن ذلك فى غير زمن الفتنة كما ذكرناه وأيضا فانه يجلس فى المسجد ولا يخالط الناس ولا يداخلهم فيكون بالشخص معهم وفى المعنى منفرداً عنهم وهذا هو المعنى فى العزلة والتفرد الذى نحن فى شرحه لا التفرد بالشخص والمكان فافهم ذلك رحمـك الله وفيـه يقول ابراهيم بن أدهم رحمـة الله كن واحداً جامعياً ومن ربك ذا أنس ومن الناس وحشياً .

فان قيل فما تقول فى مدارس علماء الآخرة ورباطات الصوفية سالكى طريق الآخرة والسكون فيها ؟

فاعلم أن تلك الطريقة المثلى فى هـذا الشأن لعامة أهل العلم والاجتهاد وذلك لأنهـا جمعت المعنيين والفائدتين اللتين إحداهما العزلة عن الناس والتفرد عنهم بالصحبة والمخالطة والمزاحمة فى أمورهم والثانية المشاركة معهم فى جمعهم وجماعاتهم وتكثير شعائر الاسلام فتحصل السلامة التى هى للمنفردين والخير الكثير الذى هو لعامة المسلمين مع ما للناس فيهم من القدوة والبركة والنصيحة فصار السكون فيها أعدل طريق وأحسن حال وأسلم سبيل ولهـذا الشأن أقام أكثر العارفين بين الناس لنفعهم لعبـاد الله تعالى فى باب الدين وقـلة أذاهم ومشاهدة الخلق لآدابهم وحسن رسومهم ليقتدوا بهم فان لسان الحـال

Digitized by Birzeit University Library

أفصح من لسان المقال فصار ذلك أحسن تدبير فى أمر الدين للعلم والعبادة وأحكم رأى .

فان قيل فما حال المريد مع المجتهدين والمرتاضين أيصحبهم أم يعتزلهم ؟

فاعلم أنهم إذا كانوا ثابتين على رسومهم الأولى وسيرتهم الموروثة عن سلفهم فهم أجل اخوان فى الله عز وجل وأصحاب وأعوان على عبادة الله تعالى فلا تسمك عنهم عزلة وتفرد وإنما مثلهم مثل ما تسمع من زهاد لبنان وغيرهم أن منهم جماعات يتعاونون على البر والتقوى ويتواصون بالحق والصبر وأما إذا تغيروا عن سيرتهم وتركوا رسومهم وأخلوا بطريقتهم الموروثة عن أسلافهم الصالحين فحكم هذا المجتهد المرتاض معهم كحكمه مع سائر الناس يلزم زاويته ويكف لسانه ويشاركهم فى خيراتهم ويجانبهم فى سائر أحوالهم وآفاتهم فيكون هو فى عزلة من أهل العزلة منفردا عن المنفردين .

فان قلت فان اختار هذا المجتهد المرتاض أن يخرج من بينهم إلى مكان آخر لصلاح يراه فى نفسه وتجنب آفة تدخل عليه فى صحبتهم ؟ . فاعلم أن هذه المدارس والرباطات بمنزلة حصن حصين يتحصن بها المجتهدون عن القطاع والسراق وأن الخارج بمنزلة الصحراء تدور فيها فرسان الشياطين عسكرا عسكرا فتسلبه أو تستأسره فكيف حاله إذا خرج إلى الصحراء وتمكن العدو منه من كل جانب يعمل به مايشاء فاذا ليس لهذا الضعيف إلا لزوم الحصن وأما الرجل القوى البصير الذى لايغلبه الاعداء واستوى عنده الحصن والصحراء فلا خوف عليه إذا خرج غير أن الكون فى الحصن أحوط على كل حال إذ لا يؤمن من الفلتات والاتفاقات مع قرناء السوء وإذا كان الأمر بهذه المثابة فالكون مع رجال الله والصبر على مشقة الصحبة أولى للمرتاض وطالب الخير بكل حال وأن لا مانع للقوى البالغ مبلغ الاستقامه عن التفرد منهم فاعلم هذه الجملة وتأملها تغنم وتسلم إن شاء الله تعالى :

فان قيل فما تقول فى زيارة الاخوان فى الله عز وجل ومواصلة الاصحاب بالتلاقى والتذاكر ؟

فاعلم أن زيارة الاخوان فى الله عز وجل من جواهر عبادة الله تعالى وفيها الزلفة الكريمة إلى الله عز وجل مع مافيها من ضروب الفوائد وصلاح القلب ولكن بشرطين : أحدهما أن لاتخرج فى ذلك إلى الاكثار والافراط . قال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأبى هريرة رضى الله عنه زرغبا تزدد حبا والثانى أن تحفظ حق ذلك

Digitized by Birzeit University Library

بالتجنب عن الرياء والتزين وقول اللغو والغيبة ونحو ذلك فيعود عليك وعلى أخيك الوبال . فلقد حكى أن الفضيل وسفيان رحمهما الله تذاكرا فبكيا فقال سفيان يا أبا على أرجو أنا ماجلسنا مجلسا أرجي لنا من هذا المجلس فقال الفضيل ماجلست مجلسا أخوف على من هـذا فقال وكيف يا أبا على قال ألست تعمد إلى أحسن حـديثك فتحدثنى به وأنا عمدت إلى أحسن ما عندى فحدثتك به فتزينت لى وتزينت لك فبكى سفيان فيجب أن تكون مجالستك للاخوان وملاقاتهم على مقدار قصـد واحتياط ونظر لطيف فلا يقدح ذلك حينئذ فى عزلتك وتفردك عن النـاس ولا يعود عليك وعلى أخيك بضرر وآفة بل بخير كثير ونفع عظيم والله الموفق .

فان قلت فما يبعثنى على العزلة عن الناس والتفرد ويهون على ذلك ؟

فاعلم أن الذى يهون عليك ذلك ثلاثة أمور : أحدها اسـتغراق أوقاتك فى العبادة فان فى العبادة شغلا وإن الاستئناس بالناس من علامات الافلاس فاذا رأيت نفسك تتطلع إلى ملاقاة الناس وكلامهم من غير حاجة وضرورة فاعلم أن ذلك فضول سـاقه الفراغ والبطر ولقد أحسن من قال فى هذا المعنى :

إن الفراغ إلى سـلامك قادنى ولربمـا عمل الفضول الفارغ

فأنت إذا عانقت العبادة بحقها وجدت حلاوة المناجاة فاستأنست بكتاب الله سبحانه واشتغلت عن الخلق واستوحشت من صحبتهم وكلامهم . وفى الخبر أن موسى عليه السلام كان إذا رجع من المناجاة يستوحش من الناس وكان يجعل أصبعيه فى أذنيه لئلا يسمع كلامهم وكان كلامهم عنده فى النفور والوحشة فى ذلك الوقت كأصوات الحمير فعليك بمـا قاله شيخنا رحمه الله :

أرض بالله صاحباً وذر النـاس جانبا
صادق الود شاهداً كنت فيهم غائبـا
قلب الناس كيف شئـت تجـدهم عقاربا

والثانى قطع الطمع عنهم بمرة فيهون عليك أمرهم لأن من لا ترجو نفعه ولا تخاف ضرره فوجوده وعدمه سواء . والثالث تبصر آفاتهم وتذكر ذلك وتكرره على قلبك لأن هـذه الأركان الثلاثة إذا لزمتها طردتك عن صحبة الخلق إلى باب الله تعـالى والتفرد لعبادته وحببته اليك وألزمتك بابه وبالله التوفيق والعصمة .

Digitized by Birzeit University Library

العائق الثالث الشيطان ـ ثم عليك يا أخى بمحاربة الشيطان وقهره وذلك لخصلتين : إحداهما أنه عدو مضل مبين ولا مطمع فيه لمصالحة وإبقاء عليك بل لا يقنعه إلا هلاكك أصلا فلا وجه إذاً للأمن من مثل هذا العدو والغفلة عنه وتأمل آيتين من كتاب الله تعالى إحداهما قوله تعالى « ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » والثانية قوله تعالى « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً » وهذا أقصى التحذير وغايته والخصلة الثانية أنه مجبول على عداوتك ومنتصب أبداً لمحاربتك فهو آناء الليل وأطراف النهار يرميك بسهامه وأنت غافل عنه فكيف يكون الحال ثم وقعت معك نكتة أخرى وهى أنك فى عبادة الله تعالى ودعوة الخلق إلى باب الله سبحانه بفعلك وقولك وهذا ضد صنيع الشيطان وهمته ومراده وحرفته فصرت كأنك قمت وشددت وسطك لتغايظ الشيطان وتكايده وتناقضه فهو أيضا يشد وسطه ليعاديك ويقاتلك ويماكرك حتى يفسد والعياذ بالله عليك شأنك بل حتى يهلكك رأسا إذ لا يأمن من جانبك بعد فانه الذى يسىء ويقصد بالهلاك إلى من لا يغايظه ولا يناقضه بل يصادقه ويوافقه كالكفار وأهل الضلال وأهل الرغبة فى بعض الأحوال فكيف قصده لمن قام لمغايظته وتجرد لمناقضته فله إذن مع سائر الناس عداوة عامة ومعك أيها المجتهد فى العبادة والعلم عداوة خاصة وإن أمرك له لمهم ومعه عليك أعوان أشدها عليك نفسك وهواك وله أسباب ومداخل وأبواب أنت عنها غافل ولقد صدق يحيى بن معاذ الرازى حيث قال الشيطان فارغ وأنت مشغول والشيطان يراك وأنت لا تراه وأنت تنساه وهو لا ينساك ومن نفسك للشيطان عليك أعوان فاذن لا بد من محاربته وقهره وإلا فلا تأمن الفساد والهلاك .

فان قلت فبأى شىء أحارب الشيطان وبأى شىء أقهره وأدفعه ؟

فاعلم أن لأهل هذه الصناعة فى هذه المسألة طريقين: أحدهما ماقال بعضهم إن التدبير فى دفع الشيطان الاستعاذة بالله سبحانه لاغير فان الشيطان كلب سلطه الله سبحانه عليك فان اشتغلت بمحاربته ومعالجته تعبت وضاع عليك وقتك وربما يظفر بك فيعقرك ويجرحك فالرجوع إلى رب الكلب ليصرفه عنك أولى. والثانى ما قال آخرون إن الطريق المجاهدة والقيام عليه بالدفع والرد والمخالفة ـ قلت والذى عندى أن الطريق العدل الجامع فى أمرة أن تجمع بين الطريقين فتستعيذ بالله تعالى أولا من شره كما أمرنا وهو الكافى شره ثم إن رأيناه

Digitized by Birzeit University Library

يتغلب علينا علمنا أنه ابتلاء من الله تعالى ليرى صدق مجاهدتنا وقوتنا فى أمره سبحانه وتعالى ويرى صبرنا كما أنه سلط علينا الكفار مع قدرته على كفاية أمرهم وشرهم ليكون لنا حظ من الجهاد والصبر والتمحيص والشهادة كما قال تعالى « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء » وقال تعالى « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » فكذلك هذا — ثم إن محاربته وقهره فيما قاله علماؤنا رضى الله عنهم فى ثلاثة أشياء : أحدها أن تتعرف وتتعلم مكايده وحيله فلا يتجاسر حينئذ عليك كاللص إذا علم أن صاحب الدار قد أحس به فرّ، والثانى أن تستخف بدعوته فلا تعلق قلبك بذلك ولا تتبعه فانه بمنزلة الكلب النابح إن أقبلت عليه أولعك بك وإن أعرضت عنه سكت ، والثالث أن تديم[1] ذكر الله سبحانه بلسانك وقلبك فلقد قال صلى الله عليه وسلم إن ذكر الله تعالى فى جنب الشيطان كالاكلة فى جنب ابن آدم .

فان قلت فكيف نعلم مكايده [2] وكيف الطريق إلى معرفة ذلك ؟

فاعلم أن له وساوس هى بمنزلة السهام التى ترميها وذلك إنما يتبين لك بمعرفة الخواطر وأقسامها والثانى أن له حيلا هى بمنزلة الشبكات التى تنصبها وذلك يتبين لك بمعرفة المكايد وأوصافها ومجاريها ولقد ذكر علماؤنا رضى الله عنهم أبوابا فى الخواطر وقد صنفنا كتابا سميناه تلبيس إبليس وكتابنا هذا لا يحتمل الاكثار لكننا نذكر لك إن شاء الله تعالى من كل واحد منها أصلا كافيا إذا اعتصمت به .

فأما أصل الخواطر فاعلم أن الله تعالى وكل بقلب ابن آدم ملكا يدعوه إلى الخير يقال له الملهم ولدعوته إلهام وسلط فى مقابلته شيطانا يدعو العبد إلى الشر يقال له وسواس ولدعوته وسوسة فالملهم لا يدعوه إلا إلى الخير والوسواس لا يدعوه إلا إلى الشر فى قول أكثر علمائنا . وقد حكي عن شيخنا رحمه الله أن الشيطان ربما يدعو إلى الخير

---

(١) لاريب أن هذا هو السلاح الوحيد لمحاربة الشيطان بل لاسلاح غيره والحديث الذى استشهد به أبو حامد لم أجده فيما بين يدى من المعاجم .

(٢) لاريب عندى أيضا أن البحث عن مكائد الشيطان هو من مكائده وليس للسالك فى طريق القوم إلا الاستغراق فى الذكر . بهذا وحده ينجو من جميع مكائد الشيطان .

Digitized by Birzeit University Library

وقصده فى ذلك الشر بأن يدعوه إلى المفضول لمنعه عن الفاضل أو يدعوه إلى خير ليجره إلى ذنب عظيم لايفى خيره بذلك الشر من عجب أو غيره فهذان داعيان قائمان على قلبه يدعوانه وهو يسمع قلبه يحس بذلك على ماروى فى الأخبار أنه عليه السلام قال إذاولد لابن آدم مولود قرن الله سبحانه به ملكا وقرن الشيطان به شيطانا فالشيطان جاثم على أذن قلب ابن آدم الأيسر والملك جاثم على أذن قلبه الأيمن فهما يدعوانه . وقال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : للشيطان لمة بابن آدم والملك لمة - يعنى نزلة بالدعوة من قولهم لم بالمكان وألم به إذا نزل به (١). ثم ركب الله تعالى فى بنية الانسان طبيعة مائلة إلى الشهوات ونيل اللذات كيف كانت من حسن أو قبيح فذلك هوى النفس الصارفة إلى الآفات فهذه ثلاثة دعاة .

ثم اعلم بعد هذه المقدمة أن الخواطر هى آثار تحدث فى قلب العبد تبعثه على الأفعال والتروك وتدعوه إليها — وسميت خواطر لاضطرابها من خطرات الريح ونحوها — وحدوثها جميعا فى قلب العبد بالحقيقة من الله سبحانه وتعالى لكنها أربعة أقسام: منها مايحدثه الله تعالى فى القلب ابتداء فيقال له الخاطر فقط ، وقسم يحدثه موافقا لطبع الانسان فيقال له هوى النفس وينسب إليها ، وقسم يحدثه عقيب دعوة الملهم فينسب إليه ويقال له الالهام ، وقسم يحدثه عقيب دعوة الشيطان فينسب إليه ويقال له الوسوسة وتنسب إليه بأنها خواطر من الشيطان وإنما هى فى الحقيقة حادثة عند دعوته فهو كالسبب فى ذلك ولكنه ينسب إليه فهذه أربعة أقسام من الخواطر(٢) .

ثم اعلم بعد هذا التقسيم أن الخاطر الذى من قبل الله تعالى ابتداء قد يكون بخير إكراماً وإلزاماً للحجة ، وقد يكون بشر امتحانا وتغليظا للمحنة . والخاطر الذى يكون من قبل الملهم لايكون إلا بخير إذ هو ناصح مرشد لم يرسل إلا لذلك ، والخاطر الذى يكون من قبل الشيطان لا يكون إلا بشر إغواء واستزلالا وربما يكون بالخير مكرا واستدراجا . والذى يكون من قبل هوى النفس يكون بالشر وربما لاخير فيه تمتعا وتعسفا ولقد وجدت عن بعض السلف أن هوى النفس أيضاً قد يدعو إلى خير والمقصود منه شر كالشيطان فهذه أنواعها .

---

(١) الحديث فى النسائى والترمذى من حديث ابن مسعود والمذكور هنا معناه .

(٢) إن الاشتغال بالخواطر وأقسامها وضياع الوقت فى ذلك ليس من مناهج طلاب الحقيقة فالتوحيد المطلق دينهم .

Digitized by Birzeit University Library

ثم اعلم بعد هذا أنك محتاج إلى معرفة ثلاثة فصول لا بد لك منها البتة وفيها المقصود : أحدها الفرق بين خاطر الخير وخاطر الشر فى الجملة ، والثانى الفرق بين خاطر شر ابتدائى أو شيطانى أو هوائى وبماذا يفرق بينها فان لكل واحد منها دافعا من نوع آخر ، والثالث الفرق بين خاطر خير ابتدائى أو الهامى أو شيطانى أو هوائى لتتبع ما يكون من الله تعالى أو من الملهم وتجتنب ما يكون من الشيطان وكذلك الهوى على قول من يقول به (١).

فأما الفصل الأول — فقال علماؤنا رضى الله عنهم إذا أردت أن تعلم خاطر الخير من خاطر الشر وتفرق بينهما فزنه بأحد الموازين الأربعة يتبين لك حاله : الأول أن تعرض الأمر الذى خطر ببالك على الشرع فان وافق جنسه فهو خير وإن كان بالضد برخصة أو شبهة فهو شر فان لم يستبن لك بهذا الميزان فاعرضه على الاقتداء فان كان فى فعله اقتداء بالصالحين فهو خير وإن كان بالضد اتباعاً للظالمين فهو شر فان لم يستبن لك بهذا الميزان فاعرضه على النفس والهوى فانظر إن كان مما تنفر عنه النفس نفرة طبع لا نفرة خشية وترهيب فاعلم أنه خير وإن كان مما تميل اليه النفس ميل طبع وجبلة لا ميل رجاء إلى الله تعالى وترغيب فهو شر إذ النفس أمارة بالسوء لا تميل باصلها إلى خير فبأحد هذه الموازين إذا نظرت وأمعنت النظر يستبين لك خاطر الخير من خاطر الشر والله تعالى ولى الهداية بفضله إنه جواد كريم .

وأما الفصل الثانى — فقال علماؤنا إذا أردت أن تفرق بين خاطر شر يكون من قبل الشيطان وبين خاطر شر يكون من قبل هوى النفس أو من قبل الله تعالى ابتداء فانظر فيه من ثلاثة أوجه : أحدها إن وجدته مصمما راتبا على حالة واحدة فهو من الله تعالى أو من هوى النفس وإن وجدته مترددا مضطربا فاعلم أنه من الشيطان . وكان بعض الصالحين رحمه الله تعالى يقول مثل هوى النفس مثل الثمر إذا حارب لا ينصرف إلا بقمع بالغ وقهر ظاهر أو مثل الخارجي الذى يقاتل تديّنا لا يكاد يرجع حتى يقتل ومثل الشيطان مثل الذئب إذا طردته من جانب دخل من جانب آخر ، وثانيها إن وجدته عقيب ذنب أحدثته فهو من الله تعالى إهانة وعقوبة بشؤم ذلك الذنب قال الله تعالى

---

(١) لا لزوم لذلك كله فى طريق طلاب الحق .

Digitized by Birzeit University Library

« كلا بل ران(١) على قلوبهم ماكانوا يكسبون » قال شيخنا الامام رحمه الله : هكذا تؤدى الذنوب إلى قسوة القلب أولها خاطر ثم يؤدى إلى القسوة والرين وإن كان هذا الخاطر مبتدأ لاعقيب ذنب كان منك فاعلم أنه من قبل الشيطان هـذا فى الأكثر لأنه يبتدىء بدعوة الشر ويطلب الاغواء بكل حال ، وثالثها إن وجدته لا يضعف ولا يقل بذكر الله تعالى ولا يزول فهو من الهوى وإن وجدته يضعف ويقل بذكر الله سبحانه فهو من الشيطان كما ذكر فى تفسير قوله تعالى « من شر الوسواس الخناس » إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم إذا ذكر الله تعالى خنس وإذا غفل وسوس (٢) .

وأما الفصل الثالث — إذا أردت أن تفرق بين خاطر خير يكون من الله تعالى أو من الملك فانظر فى ذلك من ثلاثة أوجه : أحدها أن تنظر فان كان قويا مصمما فهو من الله تعالى وإن كان مترددا فهو من الملك إذ هو بمنزلة ناصح يدخل معك فى كل جانب ووجه ويعرض عليك كل نصح رجاء إجابتك ورغبتك فى الخير ، والثانى إن كان عقيب اجتهاد منك وطاعة فهو من الله تعالى قال الله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » — « والذين اهتدوا زادهم هدى » وإن كان مبتدأ فهو من الملك فى الاغلب ، والثالث إن كان فى الأصول والأعمال الباطنة فهو من الله سبحانه وإن كان فى الفروع والأعمال الظاهرة فهو من الملك فى الأكثر إذ الملك لاسبيل له إلى معرفة باطن العبد فى قول أكثرهم . وأما خاطر الخير الذى يكون من قبل الشيطان استدراجا إلى شر يربو عليه فلقد قال شيخنا رحمه الله أنظر إن وجدت نفسك فى ذلك الفعل الذي خطر بقلبك مع نشاط لامع خشية ومع عجلة لامع تأنّ ومع أمن لامع خوف ومع عمى عن العاقبة لامع بصيرة فاعلم أنه من الشيطان فاجتنبه وإن وجدت نفسك على ضد ذلك مع خشية لامع نشاط ومع تأن لامع عجلة ومع خوف لامع أمن ومع بصارة للعاقبة لامع عمى فاعلم أنه من الله سبحانه أو من الملك .

---

(١) قال الحسن والسدى الران الذنب على الذنب وقال الحسين حتى يموت قلبه وقال السدى حتى يسود القلب وقال الكلبي طبع على قلوبهم ماكانوا يكسبون وقال ابن سلام غطى .

(٢) هذا معنى ما أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب مكائد الشيطان وأبو يعلى الموصلى وابن عدى فى الكامل وضعفه ولفظه فى الاحياء . قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فان هو ذكر الله خنس وإن نسى الله التقم قلبه .

Digitized by Birzeit University Library

قلت أنا وكأن النشاط خفة فى الانسان للفعل من غير بصيرة وذكر ثواب ينشطه فى ذلك وأما التأنى فمحمود إلا فى مواضع معلومة معدودة وذكر فى الخبر عن النبى(١) صلى الله عليه وعلى آله وسلم العجلة من الشيطان إلا فى خمسة مواضع تزويج البكر إذا أدركت وقضاء الدين إذا وجب وتجهيز الميت إذا مات وقرى الضيف إذا نزل والتوبة من الذنب إذا أذنب . وأما الخوف فيحتمل أن يكون فى إتمامه وأدائه على وجهه وحقه وقبول الله تعالى إياه . وأما بصارة العاقبة فبأن يتبصر ويتيقن أنه رشد وخير ويحتمل أن يكون لرؤية الثواب فى العقبى ورجائه فاعلم ذلك موفقا فهذه جملة الفصول الثلاثة التى لزمتك معرفتها فى فصل الخواطر فارعها وأمعن النظر فيها ما استطعت فانها من العلوم اللطيفة والاسرار الشريفة فى هذا الباب والله الموفق بفضله .

وأما فصل الحيل والمخادعات من الشيطان فمجرى ذلك ومثاله أن يكايد الشيطان مع ابن آدم فى الطاعة على سبعة أوجه : أحدها أن ينهاه عنها فان عصمه الله تعالى رده بأن قال إنى لمحتاج إلى ذلك جدا إذ لابد لى من التزود من هذه الدنيا الفانية للآخرة التى لا انقضاء لها ، ثم يأمره بالتسويف فان عصمه الله تعالى رده بأن قال ليس أجلى بيدى على أنى إن سوّفت عمل اليوم إلى غد فعمل غد متى أعمله فان لكل يوم عملا ، ثم يأمره بالعجلة فيقول له عجّل عجّل لتتفرغ لكذا وكذا فان عصمه الله تعالى رده بأن قال قليل العمل مع التمام خير من كثيره مع النقصان ، ثم يأمره بإتمام العمل مراءاة للناس فان عصمه الله تعالى رده بان قال ما الذى أعمل بمراءاة الناس أفلا تكفينى رؤية الله تعالى ، ثم يريد أن يوقعه فى العجب فيقول ما أعظمك وما أيقظك وما أفضلك فان عصمه الله تعالى رده بأن قال المنة لله تعالى فى ذلك دونى فهو الذى خصنى بتوفيقه وجعل لعملى قيمة عظيمة بفضله ولولا فضله فماذا كان قيمة هذا العمل فى جنب نعمة الله تعالى علىّ وجنب معصيتى له ، ثم يأتيه من وجه سادس وهو أعظمها ولا يقف عليه إلا متيقظ وهو أن يقول اجتهد أنت فى السر فان الله تعالى سيظهره عليك وليس كل عامل عمله وأراد بذلك ضربا من الرياء فان عصمه الله تعالى رده بأن قال يا ملعون إلى الآن كنت تأتينى من وجه إفساد عملى والآن تأتينى من وجه إصلاحه لتفسده إنما أنا عبد الله تعالى وهو سيدى إن

---

(١) هذا منقول فى شرح الطريقة المحمدية عن حاتم الاصم لاعن النبى صلى الله عليه وسلم .

Digitized by Birzeit University Library

شاء أظهر وإن شاء أخفى وإن شاء جعلنى خطيراً وإن شاء جعلنى حقيرا وذلك إليه ما أبالى أن أظهر ذلك للناس أو لم يظهره فليس بأيديهم شىء ، ثم يأتيه من وجه سابع ويقول لاحاجة لك إلى هذا العمل لأنك إن خلقت سعيداً لم يضرك ترك العمل وإن خلقت شقيا لم ينفعك فعله فان عصمه الله تعالى رده بأن قال إنما أنا عبد وعلى العبد امتثال الأمر لعبوديته والرب أعلم بربوبيته يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ولأنه ينفعنى العمل كيفما كنت لأنى إن كنت سعيدا احتجت إليه لزيادة الثواب وإن كنت شقيا فأنا محتاج إليه كى لا ألوم نفسى على أن الله تعالى لا يعاقبنى على الطاعة بكل حال ولا يضرنى على أنى إن أدخلت النار وأنا مطيع أحب إلىّ من أن أدخلها وأنا عاص فكيف ووعده حق وقوله صدق وقد وعد على الطاعات بالثواب فمن لقى الله تعالى على الايمان والطاعة لم يدخل النار ألبتة ودخل الجنة لا لاستحقاقه بعمله الجنة ولكن لوعد الله الصادق تعالى وتقدس ولهذا المعنى أخبر الله تعالى عن السعداء إذ قالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده فتيقظ رحمك الله فان الأمر كما ترى وتسمع نوقس عليه سائر الأحوال والأفعال واستعن بالله تعالى واستعذ به فان الأمر بيده ومنه التوفيق ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

العائق الرابع النفس[1] : ثم عليك ياطالب العبادات عصمك الله وإيانا بالحذر من هذه النفس الامارة بالسوء فانها أضر الاعداء وبلاؤها أصعب البلاء وعلاجها أعسر الأشياء ودواؤها أعضل الداء ودواؤها أشكل الدواء وإنما ذلك لأمرين : أحدهما أنها عدوّ من داخل واللص إذا كان من داخل البيت عزت الحيلة فيه وعظم الضرر ولقد صدق القائل :

نفسى إلى ما ضرنى داعى ... تكثر أسقامى وأوجاعى
كيف احتيالى من عدوى إذا ... كان عدوى بين أضلاعى

والثانى ـ أنه عدو محبوب والانسان عم عن عيب محبوبه لا يكاد يبصر عيبه كما قال القائل :

ولست ترى عيبا لذى الود والاخا ... ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا
وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدى المساويا

فاذاً يستحسن الانسان من نفسه كل قبيح ولا يكاد يطلع على عيب لها وهى فى

---

(١) المراد بها فى هذا المقام الميول الجبلية من الاستزادة فى المآكل والمشارب ومتاع الحياة الدنيا مما يلهى ويعطل .

Digitized by Birzeit University Library

عداوتها وإضرارها فما أوشك ما توقعه فى فضيحة وهلاك وهو لا يشعر إلا أن يحفظه الله تعالى بفضله ويعينه عليها برحمته .

ثم أقول : تأمل أيها الرجل نكتة واحدة مقنعة وهى أنك إذا نظرت وجدت أصل كل فتنة وفضيحة وخزى وهلاك وذنب وآفة وقع فى خلق الله تعالى من أول الخلق إلى يوم القيامة من قبل هذه النفس إما بها وحدها أو بمعاونتها ومشاركتها ومساعدتها فأول المعصية لله تعالى كانت من إبليس وكان سببه بعد القضاء السابق هوى النفس بكبرها وحسدها ألقته بعد عبادة ثمانين ألف سنة على ما قيل فى بحر الضلال فغرق إلى أبد الآبدين إذ لم يكن هنالك دنيا ولا خلق ولا شيطان بل كانت النفس بكبرها وحسدها فعلت به ماعملت . ثم ذنب[1] آدم وحواء عليهما السلام طرحتهما شهوة النفس فى ذلك وحرصهما على البقاء والحياة حتى اغترا بقول إبليس فكان ذلك إذاً بعون النفس وشركتها حتى سقطا بذلك من جوار الله تعالى وقرار الفردوس إلى هذه الدنيا الحقيرة النكدة الفانية المهلكة ولقيا مالقيا ولقى أولادهما مالقوا من ذلك اليوم إلى أبد الآبدين . ثم حديث قابيل وهابيل كان السبب فى أمرهما الحسد والشح . ثم حديث هاروت وماروت[2] كان السبب فى شأنهما الشهوة ثم هلم جراً إلى يوم القيامة فلا تجد فى الخلق فتنة ولا فضيحة ولا ضلالا ولامعصية إلا وأصلها النفس وهواها وإلا كان الخلق فى سلامة وخير وإذا كان عدو بهذا الضرر كله فحق للعاقل أن يهتم بأمره والله تعالى ولى الهداية والتوفيق بفضله .

فان قلت فما الحيلة إذاً لنا فى هذا العدو وما التدبير فى أمره فبين لنا ذلك ؟

---

(١) مذهب أهل السنة أنه لا يصدر عن الأنبياء ذنب حالة النبوة ألبته لا الكبيرة ولا الصغيرة لأنهم لو صدر عنهم الذنب لكانوا أقل درجة من عصاة الأمة فى تعظيم شرفهم وذلك محال ولئلا يكونوا غير مقبولى الشهادة ولئلا يجب زجرهم وايذاؤهم ولئلا يقتدى بهم فى ذلك ولأن إبليس استشاهم من الاغواء .

(٢) اسمان لملكين وقيل هما قبيلتان من الشياطين يشير أبو حامد إلى القصة المطعون فيها وهى أن الملائكة تعجبت من بنى آدم فى مخالفتهم ما أمر الله به وأن الله تعالى بكتهم بان قال لهم اختاروا ملكين للهبوط إلى الأرض فاختاروا هاروت وماروت وركب فيهما الشهوة فحكما بين الناس وافتتنا بامرأة .

Digitized by Birzeit University Library

فاعلم أنا ذكرنا فيما تقدم أن أمرها عسير صعب إذ لا يمكن قهرها بمرة كسائر الاعداء اذ هى المطية والآلة وقيل إن أعرابيا دعا لأنسان بخير فقال كبت الله تعالى كل عدو لك إلا نفسك ولا يمكن اهمالها بمرة لمكان ضررها فتحتاج الى طريق بين الطريقين تربيها وتقويها بقدر ما تحتمل فعل كل خير وتضعفها وتحبسها على حد لا تتمادى فأنت من أمرها فى علاج شديد ونظر لطيف . ثم قد ذكرنا فى أمرها أن تلجمها بلجام التقوى والورع لتحصل الفائدتين جميعا .

فان قلت إن هذه دابة جموح وبهيمة صعبة شكسة لا تنقاد للجام فما الحيلة فيها حتى تمكننا منها ؟

فاعلم أنك فيها صادق والحيلة تذليلها حتى تنقاد للجام . قال علماؤنا رضى الله عنهم إنما يذلل النفس ويكسرهواها ثلاثة أشياء : أحدها منع الشهوات فان الدابة الحرون تلين إذا نقص من علفها . والثانى حمل أثقال العبادات عليها فان الحمار إذا زيد فى حمله مع النقصان من علفه تذلل وانقاد . والثالث الاستعانة بالله عزوجل والتضرع اليه بان يعينك وإلا فلا مخلص أما تسمع قول يوسف عليه السلام « إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى » فاذا واظبت على هذه الأمور الثلاثة انقادت لك النفس الجموح باذن الله عز وجل فحينئذ تبادر إلى أن تملكها وتلجمها وتأمن من شرها (١) .

فان قلت فبين لنا الآن ما هو التقوى حتى نعلمه ؟

فاعلم أولا أن التقوى كنز عزيز فائز ظفرت به فكم تجد فيه من جوهر شريف وعلق نفيس وخير كثير ورزق كريم وفوز كبير وغنم جسيم وملك عظيم فكأن خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجمعت تحت هذه الخصلة الواحدة التى هى التقوى وتأمل ما فى القرآن من ذكرها فكم علق بها من خير وكم وعد عليها من أجر وثواب وكم أضاف اليها من سعادة وأنا أعد لك من جملتها اثنتى عشرة خصلة أولها المدحة والثناء قال الله

---

(١) علاج أبى حامد صعب المراس والعلاج السهل صحبة الصالحين والعارفين وتزكية الأخلاق بالاقتداء والصحبة ركن من أركان طريق القوم وهذا الركن كفيل بعلاج النفس متى كان الامام فى الذروة من الصورة المحمدية وصحبة العارفين تفعل فى هذه الناحية فى زمن وجيز مايفعله السائر فى وقت طويل .

Digitized by Birzeit University Library

تعالى « وإن تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور » والثانى الحفظ والحراسة من الاعداء قال الله تعالى « وإن تصبروا وتتقوا لا يضرُّكم كيدهم شيئا » والثالث التأييد والنصرة قال الله تعالى « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » وقال تعالى « والله ولىُّ المتقين » والرابع النجاة من الشدائد والرزق من الحلال قال الله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » والخامس إصلاح العمل قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلحْ لكم أعمالكم » والسادس غفران الذنوب قال الله تعالى « ويغفر لكم ذنوبكم » والسابع محبة الله قال الله تعالى « إن الله يحب المتقين » والثامن القبول قال الله تعالى « إنما يتقبل الله من المتقين » والتاسع الاعزاز والاكرام قال الله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » والعاشر البشارة عند الموت قال الله تعالى « الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » والحادى عشر النجاة من النار قال الله تعالى « ثم ننجى الذين اتقوا » وقال تعالى « وسيجنبها الأتقى » والثانى عشر الخلود فى الجنة قال الله تعالى « أعدّت للمتقين » فهذا بيان كل خير وسعادة فى الدارين تحت هذه التقوى فلا تنس نصيبك أيها الرجل منها — ثم الذى يختص به هذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول : أحدها التوفيق والتأييد أولا وهو المتقين كما قال الله تعالى « إن الله مع المتقين » والثانى إصلاح العمل وإتمام التقصير وهو للمتقين كما قال الله تعالى « يصلح لكم أعمالكم » والثالث قبول العمل وهو المتقين كما قال الله تعالى « إنما يتقبل الله من المتقين » ومدار العبادة على هذه الأمور الثلاثة التوفيق أولا حتى تعمل ثم الاصلاح للتقصير حتى يتم ثم القبول إذا تم وهذه الأمور الثلاثة التى يتضرع فيها العابدون إلى الله تعالى ويسألون فيقولون : ربنا وفقنا لطاعتك وأتمم تقصيرنا (١) وتقبل منا وقد وعد الله تعالى ذلك كله على التقوى وأكرم بها المتقى سأل أو لم يسأل فعليك بهذه التقوى إن أردت عبادة الله سبحانه بل إن أردت سعادة الدنيا والعقبى ولقد صدق القائل :

من اتقى الله فذاك الذى ... سيق إليه المتجر الرابح

وكتب بعضهم هذا البيت :

لا يتبع المرء إلى قبره ... غير التقى والعمل الصالح

---

(١) لا تخفى ركاكة هذه الجملة .

Digitized by Birzeit University Library

وقال غيره :

من عرف الله فلم تغنه ... معرفة الله فذاك الشقي
ما يصنع العبد بعز الغنى ... والعز كل العز للمتقي
ما ضر ذا الطاعة ما ناله ... في طاعة الله وماذا لقي

وكتب بعضهم على بعض القبور :

ليس زاد سوى التقى ... فخذي منه أو دعي

ثم تأمل أصلا واحدا وهو أنه هب أنك قد تعبت جميع عمرك في العبادة وجاهدت وكابدت حتى حصل لك ما تمنيت أليس الشأن كله في القبول ولقد علمت أن الله تعالى يقول « إنما يتقبل الله من المتقين » فرجع الأمر كله إلى التقوى . ولذلك روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشيء من الدنيا ولا أعجبه أحد إلا ذو تقى[1] . وعن قتادة أنه قال مكتوب في التوراة يا ابن آدم اتق الله ونم حيث شئت . وبلغني عن عامر بن عبد قيس أنه بكى عند موته وكان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة ثم يأتي إلى فراشه فيقول يا مأوى كل شر والله ما رضيتك لله طرفة عين وبكى يوما فقيل له ما يبكيك قال قوله تعالى « إنما يتقبل الله من المتقين » ثم تأمل نكتة أخرى وهي أصل الأصول وهي ما ذكر أن بعض الصالحين قال لبعض أشياخه أوصني بوصية فقال أوصيك بوصية الله رب العالمين للأولين والآخرين قوله تعالى « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » قلت أنا أليس الله تعالى أعلم بصلاح العبد من كل أحد أو ليس هو أنصح له وأرحم وأرأف من كل أحد ولو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم للأجر وأجل في العبودية وأعظم في القدر وأولى بالحال وأنجح في المآل من هذه الخصلة التي هي التقوى لكان الله تعالى أمر بها عباده وأوصى خواصه بذلك لكمال حكمته وسعة رحمته فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة وجمع الأولين والآخرين من عباده في ذلك واقتصر عليها علمت أنها الغاية التي لا متجاوز عنها ولا مقصد دونها وأنه عز وجل قد جمع كل نصح ودلالة وإرشاد وتنبيه وتأديب وتعليم وتهذيب في هذه الوصية الواحدة كما يليق بحكمته ورحمته وعلمت أن هذه الخصلة التي هي التقوى هي الجامعة لخيري

---

(٢) نقله شارح الطريقة المحمدية ولم يخرجه ولم أجده في معاجمي .

Digitized by Birzeit University Library

الدنيا والآخرة الكافية لجميع المهمات المبلغة إلى أعلى الدرجات فى العبودية وقد أحسن من قال :

ألا إنما التقوى هي العز والكرم وحبك للدنيا هو الذل والعدم
وليس على عبد تقي نقيصة إذا صح منه التقوى وإن حاك أو حجم

وهذا أصل لامزيد عليه وفيه كفاية لمن أبصر النور واهتدى وعمل بذلك واستغنى والله ولى الهداية والتوفيق بمنه .

فان قلت لقد عظم قدر هذه الخصلة وجل موقعها واشتدت الحاجة إلى معرفتها فلا بد الآن من تفصيلها :

فاعلم أن الأمر كذلك حقق لها أن يجل قدرها ويلزم طلبها وتمس الحاجة إلى معرفتها ولكنك تعلم أن كل خطير وكبير يحتاج فى اجتلابه إلى طلب كثير وتعب كبير وهمة عالية وجهد شديد فاذاً كما أن هذه الخصلة خصلة عظيمة كبيرة فان المجاهدة فى طلبها والقيام بحقها والعناية فى تحصيلها أيضاً لفعل كبير وشأن عظيم فان المكارم على حسب المكاره وإن اللذات على حسب المؤنات والله تعالى يقول «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» وهو الرءوف الذى بيده تيسير كل عسير فاستمع وتنبه وتفهم جدا بيان هذه الخصلة حتى تعلمها ثم تشمر للقيام بها واستعن بالله عزوجل حتى تعمل بما تعلم فان الشأن كله فى ذلك والله ولى التوفيق والهداية بفضله .

فنقول : اعلم أولا بارك الله فى دينك وزاد فى يقينك أن التقوى فى قول شيوخنا رحمهم الله هو تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله حتى تحصل لك من قوة العزم على تركها وقاية بينك وبين المعاصى هكذا قال شيخنا رحمه الله ، وذلك أن أصل لفظة التقوى فى اللغة هو الوقوى بالواو وهو مصدر الوقاية يقال وقى يقى وقاية ووقوى فأبدلت عن الواو تاء كما هو فى الوكلان والتكلان ونحوهما فقيل تقوى فاذن لما حصلت وقاية بين العبد وبين المعاصى من قوة عزمه على تركها وتوطين قلبه على ذلك فيوصف حينئذ بأنه متق ويقال لذلك التنزيه والعزم والتوطين تقوى .

والتقوى فى القرآن تطلق على ثلاثة أشياء : أحدها بمعنى الخشية والهيبة قال الله تعالى « وإياى فاتقون» وقال الله تعالى « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» والثانى بمعنى الطاعة والعبادة قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » قال ابن عباس رضى

Digitized by Birzeit University Library

الله عنهما أطيعوا الله حق طاعته وقال مجاهد هو أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر. والثالث بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب فهذه هي الحقيقة في التقوى دون الأولين ألا ترى أن الله تعالى يقول « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية وهي تنزيه القلب عما ذكرناه ثم قالوا رحمهم الله منازل التقوى ثلاثة : تقوى عن الشرك وتقوى عن البدعة وتقوى عن المعاصي الفرعية ولقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في آية واحدة وهي قوله جل من قائل « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا » فالتقوى الأولى تقوى عن الشرك والايمان الذي في مقابلتها التوحيد ، والتقوى الثانية عن البدعة والايمان الذي ذكرهما إقرار عقود (١) السنة والجماعة ، والتقوى الثالثة عن المعاصي الفرعية ولا إقرار في هذه المنزلة فقابلها بالاحسان وهو الطاعة والاستقامة عليها فتكون منزلة مستقيمي الطاعة فالآية جمعت ذكر المنازل الثلاث منزلة الايمان ومنزلة السنة ومنزلة استقامة الطاعة فهذا ما قاله العلماء رحمهم الله في بيان معني التقوى .

قلت : وأنا وجدت التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال وهو ماروى في الخبر المشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إنما سمي المتقون متقين لتركهم ما لا بأس به حذرا عما به بأس فاحببت أن أجمع بين ماقاله علماؤنا رحمهم الله وبين ماجاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيكون حدا جامعا ومعنى بالغا فأقول : التقوى هو اجتناب كل ماتخاف منه ضررا في دينك ألا ترى أنه يقال للمريض المحتمى أنه يتقي إذا اجتنب كل شيء يضره في بدنه من طعام أوشراب أوفاكهة أوغيرها ثم الذي يخاف منه الضر في أمر الدين قسمان : محض الحرام والمعصية ، وفضول الحلال لأن الاشتغال بفضول الحلال والانهماك فيه يستجر صاحبه إلى الحرام ومحض العصيان وذلك لشره النفس وطغيانها وتمرد الهوى وعصيانه فمن أراد أن يأمن الضرر في أمر دينه اجتنب الخطر وامتنع عن فضول الحلال حذرا أن يجره إلى محض الحرام على ما قاله صلى الله عليه

---

(١) العقود جمع عقد وهو ما التزمه الانسان من مطلوب شرعي .

Digitized by Birzeit University Library

وسلم(١) لتركهم ما لا بأس به حذراً عما به بأس يعني لتركهم فضول الحلال حذرا عن الوقوع في الحرام فالتقوى البالغة الجامعة اجتناب كل ما فيه ضرر لأمر الدين وهو المعصية والفضول هذا تفصيلها .

وأما إذا أردنا تحديدها على موضوع علم الشرع فنقول : حد التقوى الجامع تنزيه القلب عن شر لم يسبق عنك مثله بقوة العزم على تركه حتى يصير ذلك وقاية بينك وبين كل شر مهم الشرور ضربان : شر أصلي وهو ما نهي الله عنه تحريما كالمعاصي المحضة وشر غير أصلي وهو ما نهى عنه تأديبا وهو فضول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشهوة فالأولى تقوى فرض يلزم بتركها عذاب النار والثانية تقوى خير وأدب يلزم بتركها الحبس والحساب والتعيير واللوم فمن أتى بالأولى فهو في الدرجة الدنيا من التقوى وهي منزلة مستقيمي الطاعة ومن أتى بالأخرى فهو في الدرجة العليا من التقوى وذلك منزلة مستقيمي ترك المباح فاذا جمع العبد بينهما أعني اجتناب كل معصية وفضول فقد استكمل معنى التقوى وقام بحقها وجمع كل خير فيها وهذا هو الورع الكامل الذي هو ملاك أمر الدين وذلك منزلة الأدب على باب الله تعالى فهذا معنى التقوى وبيانها في الجملة فافهمه موفقا إن شاء الله تعالى .

فان قلت ففصل لنا الآن هذا المعنى في النفس واستعماله فيها فان الحاجة تجاعت من هنالك لنعلم كيف نلجم هذه النفس بهذا المعنى الذي فصلت من حقيقة التقوى ؟

فأقول أجل . إنما تفصيله في أمر هذه النفس أن تقوم عليها بقوة العزم تمنعها عن كل معصية وتصونها عن كل فضول فاذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى في عينك وأذنك ولسانك وقلبك وبطنك وفرجك وجميع أركانك وألجمتها بلجام التقوى (٢)

---

(١) أخرج الترمذي وابن ماجة والحاكم عن عطية رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس »

(٢) ولذا قال شارح الطريقة وأما تحديدها على موضوع علم الشريعة فهو تنزيه القلب من شر لم يسبق منك مثله بقوة العزم على تركه حتى يصير ذلك وقاية بينك وبين كل شر سواء شرا أصليا أو شرا غير أصلي وهي ما نهى عنه تأديبا وهو فضول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشبهات فالأولى يوجب تركها عذاب النار والثانية يوجب تركها الحبس والحساب والتعيير واللوم فمن جمع بينهما فقد استكمل حق التقوى وجمع كل خير وهذا هو الورع الكامل .

Digitized by Birzeit University Library

ولهذا الباب شرح يطول وقد أشرنا اليه فى كتاب احياء علوم الدين. وأما الذى لا بد منه ههنا فأن نقول : من أراد أن يتقى الله فليراع الأعضاء الخمسة فانهن الأصول . وهى العين والاذن واللسان والقلب والبطن فيحرص عليها بالصيانة لها عن كل ما يخاف منه ضررا فى أمر الدين من معصية وحرام وفضول وإسراف من حلال وإذا حصل صيانة هذه الأعضاء فمرجوّ أن يكفى سائر أركانه ويكون قد قام بالتقوى الجامعة بجميع بدنه لله تعالى فدعت الحاجة إلى بيان خمسة فصول لهذه الأعضاء وتفصيل ما يحرم فى حق كل واحد منها على قدر ما يليق بهذا الكتاب .

(الفصل الأول — العين)

ثم عليك وفقك الله وإيانا بحفظ العين فانها سبب كل فتنة وآفة وأذكر فى أمرها ثلاثة أصول كافية : أحدها ما قال الله سبحانه « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون » واعلم أنى تأملت هذه الآية فاذا فيها مع قصرها ثلاثة معان عزيزة تأديب وتنبيه وتهديد . فاما التأديب فقوله تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » ولا بد للعبد من امتثال أمر السيد والتأدب بآدابه وإلا فيكون سيء الأدب فيحجب فلا يؤذن له فى حضور المجالس والمثول بالحضرة فافهم هذه النكتة وتأمل ما تحتها فان فيها ما فيها . وأما التنبيه فقوله تعالى « ذلك أزكى لهم » وينطلق على معنيين والله أعلم الأول ذلك أطهر لقلوبهم والزكاة الطهارة والتزكية التطهير والثانى ذلك أنمى لخيرهم وأكثر والزكاة فى الأصل النموّ فنبه على أن فى غض البصر تطهير القلب وتكثير الطاعة والخير وذلك أنك إن لم تغض بصرك وأرخيت عنانه تنظر إلى ما لا يعنيك فلا يخلو من أن تقع عينك على حرام فان تعمدت فذنب كبير وربما تعلق قلبك بذلك فتهلك إن لم يرحم الله تعالى فلقد روي أن العبد لينظر النظرة ينغل فيها قلبه كما ينغل الاديم فى الدباغ فلا ينتفع به أبداً وإن كان مباحا فربما يشتغل قلبك به فجاءك الوساوس والخواطر بسببه ولعلك لا تصل إليه فتبقى مشغول القلب منقطعا عن الخير وإن كنت لم تر ذلك كنت مستريحا عن ذلك كله . وفى هذا المعنى ذكر عن عيسى صلوات الله عليه إياكم والنظرة فانها تزرع فى القلب الشهوة

Digitized by Birzeit University Library

وكفى بها لصاحبها فتنة . وقال ذو النون نعم حاجب الشهوات غض الأبصار ولقد أحسن القائل :

وأنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه ولاعن بعضه أنت صابر

فاذن مهما كنت غاضا للبصر حافظا للعين لا تنظر إلى مالا يعنيك ولايهمك كنت نقى الصدر فارغ القلب مستريحا عن كثير من الوسواس سالم النفس عن الآفات متزايدا فى الخيرات فتفهم لهذه النكتة الجامعة والله عز وجل الموفق بمنه وكرمه . وأما التهديد فقوله تعالى « إن الله خبير بما يصنعون » وقال تعالى « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » وكفى بهذا تحذيرا لمن خاف مقام ربه فهذا أصل واحد من كتاب الله عز وجل .

الأصل الثاني — ما روينا (١) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال إن النظر إلى محاسن المرأة سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها أذاقه الله تعالى طعم عبادة تسره وإن وجد أن حلاوة العبادة ولذة المناجاة من العابدين بمكان وهذا شيء مجرب علمه وتحققه من عمل به لأنه إذا امتنع عن النظر إلى مالا يعنيه يجد لذة للعبادة وحلاوة للطاعة وللقلب صفوة لم يجدها قبل ذلك .

الأصل الثالث — أن تنظر إلى كل عضو من أعضائك يصلح لماذا وينظر له ماذا — فعلى حسب ذلك تصونه وتحفظه فالرجل المشى فى رياض الجنة وقصورها واليد لمكأس الشراب وتناول الأثمار وكذلك فى سائر الاعضاء فالعين إنما هى للنظر إلى رب العالمين سبحانه وليس فى الدارين كرامة أجل وأكبر من ذلك فحقيق لشيء ينتظر ويرجى له مثل هذه الكرامة أن يصان ويحفظ ويعز ويكرم فهذه الأصول الثلاثة إذا أحسنت التأمل فيها كفتك المؤنة فى هذا الفصل والله ولى التوفيق وهو حسبى ونعم الوكيل .

---

(١) الحديث أخرجه الطبرانى عن ابن مسعود بلفظ « إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم من تركها مخافتى أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه » وأخرج أحمد عن أبى أمامة مرفوعا « مامن مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه » وإن كان النظر بعذر يجوز مطلقا وإلا فان كان بشهوة أو بشك فيحرم مطلقا .

Digitized by Birzeit University Library

(الفصل الثانى ــ الأذن)

فعليك بصيانة سمعك عن الخنا والفضول وذلك لأمرين : أحدهما لما روي أن المستمع شريك المتكلم وفى ذلك يقول القائل :

تحرّ من الطرق أوساطها ... وعد عن الجانب المشتبه
وسمعك صن عن سماع القبيح ... كصون اللسان عن النطق به
فانك عند استماع القبيح ... شريك لقائله فانتبه

والثانى ــ أن ذلك يهيج الخواطر والوساوس فى القلب ثم من ذلك يبدو الاشتغال فى البدن فما يبقى للعبادة شىء . ثم اعلم أن الكلام الذى يقع فى قلب الانسان وسمعه بمنزلة الطعام الذى يقع فى جوفه فمنه الضار ومنه النافع ومنه الغذاء ومنه السم بل إن بقاء الكلام وتجرعه أكثر وأبلغ من الطعام فان الطعام يزول عن المعدة بنوم وغيره وربما يبقى أثره زمانا ثم يزول وله دواء يزيل أثره من جسم الانسان وأما الكلام الذي وقع فى قلبه فربما يبقى معه جميع عمره ولا ينساه فان كان رديئا فلا يزال يتعبه ويعييه وترد بسببه خواطر فى القلب ووساوس يحتاج إلى أن يعرض عنها ويعدل بقلبه عن تذكرها ويستعيذ بالله من شرها ولا يأمن أن يحمله على بلية ويحركه حتى يقع آخر الأمر فى آفة عظيمة بسبب ذلك ولو كنت حفظت سمعك عما لا يعنيك كنت عن هذه المؤن مستريحا فلينظر العاقل فى ذلك وبالله التوفيق .

(الفصل الثالث ــ اللسان)

ثم عليك بحفظ اللسان وضبطه وتقييده فانه أشد الأعضاء جماحا وطغيانا وأكثرها فسادا وعدوانا ولقد روينا (١) عن سفيان بن عبد الله أنه قال قلت يارسول الله ما أكثر ما تخاف علىّ فاخذ عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه ثم قال هذا . وعن يونس بن عبيد الله أنى وجدت نفسى تحتمل مؤنة الصيام فى الحر الشديد بالبصرة ولا تحتمل ترك كلمة

---

(١) أخرج الترمذى عن سفيان بن عبد الله رضى الله تعالى عنه أنه قال « قلت يانبى الله حدثنى بأمر أعتصم به قال قل ربى الله ثم استقم ، قلت يارسول الله ما أخوف ما تخاف على فأخذ عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه ثم قال هذا » .

Digitized by Birzeit University Library

لا تعنيها فعليك إذن بالتحفظ جداً وبذل المجهود وتذكر خمسة أصول : أحدها ما روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أن ابن آدم إذا أصبح[1] بكرت الأعضاء كلها إلى اللسان وقلن له ننشدك الله أن تستقيم فانك إن استقمنا استقمنا وإن اعوججت اعوججنا ، قلت : والمعنى فيه والله أعلم أن نطق اللسان يؤثر فى أعضاء الانسان بالتوفيق والخذلان يؤكد هذا المعنى ما حكى عن مالك بن دينار أنه قال إذا رأيت قساوة فى قلبك ووهنا فى بدنك وحرمانا فى رزقك فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعنيك .

والأصل الثانى ـ حفظ وقتك فان أكثر ما يتكلم به الأنسان من غير ذكر الله تعالى فعلى الأقل يكون لغوا يضيع الوقت به . وذكر أن حسان بن أبى سنان مر على غرفة بنيت فقال منذ كم بنيت هذه ثم أقبل على نفسه وقال يا نفسى الغرورة تسألين عما لا يعنيك وعاقبها بصوم سنة ، قلت : فياطوبى للمهتمين بأنفسهم وياويح الغافلين الذين خلعوا العذار وأرخوا العنان والله المستعان ولقد صدق القائل وأحسن حيث يقول :

واغتنم ركعتين فى ظلمة الليـــل إذا كنت خاليا مستريحا
وإذا ما هممت باللغو فى البا طل فاجعل مكانه تسبيحا
ولزوم السكوت خير من النطـــق وإن كنت فى الكلام فصيحا

والأصل الثالث ـــ حفظ الأعمال الصالحة فان من لم يصن لسانه وأكثر الكلام يقع لامحالة فى غيبة الناس كما قيل من كثر لغطه كثر سقطه والغيبة هى الصاعقة المهلكة للطاعات على ما قيل إن مثل من يغتاب الناس مثل من نصب منجنيقا فهو يرمى به حسناته شرقا وغربا يمينا وشمالا . وبلغنا عن الحسن أنه قيل له يا أبا سعيد إن فلانا اغتابك فبعث إليه بطبق فيه رطب وقال بلغنى أنك أهديت إلى حسناتك فأحببت أن أكافئك . وذكرت الغيبة عند ابن المبارك فقال لو كنت مغتابا أحداً لاغتبت أمى لأنها أحق بحسناتى وذكر أنه مات حاتما الاصم ليلة القيام فعيّرته زوجته فقال إن أقواما صلوا بالليل البارحة فلما أصبحوا نالوا منى فتكون صلاتهم يوم القيامة فى ميزانى .

والأصل الرابع ـــ السلامة من آفات الدنيا على ما قال سفيان لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك وقال الآخر لا تبسطن لسانك فيقسد عليك شأنك وأنشدوا :

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى إن البـــلاء موكل بالمنطق

(١) الحديث رواه الترمذى والطبرانى والبيهقى وغيرهم ولفظه « إذا أصبح ابن آدم فان الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول اتق الله فينا فانما نحن بك فان استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا » وتكفر اللسان أى تذل وتخضع .

Digitized by Birzeit University Library

ولابن المبارك رضى الله عنه :

ألا احفظ لسانك إن اللسان سريع إلى المرء فى قتله
وإن اللسان دليل الفؤاد يدل الرجال على عقله

ولابن أبي المطيع رحمه الله :

لسان المرء ليث فى كمين إذا خلى عليه له إغاره
فصنه عن الخنا بلجام صمت يكن لك من بليات ستاره

وفى المثل السائر ربّ كلمة تقول لصاحبها دعنى . نسأل الله التوفيق برحمته .

الأصل الخامس — ذكر آفات الآخرة وعواقبها وأذكر فيه نكتة واحدة وهى أنه لا يخلو إما أن تقول قولا محظورا حراما أو قولا مباحا من فضول لا يعنيك فان كان محظورا حراما ففيه من عذاب الله تعالى الذى لا طاقة لك به فقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ليلة أسرى بى رأيت فى النار قوماً يأكلون الجيف فقلت ياجبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس . ولقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : إقطع لسانك عن حملة القرآن وطلاب العلم ولا تمزق الناس بلسانك فتمزقك كلاب النار (١) .

وعن أبي قلابة أنه قال : إن فى الغيبة خراب القلب من الهدى فنسأل الله تعالى العصمة من ذلك بفضله هذا فى الكلام المحظور وأما المباح ففيه أربعة أمور : أحدها شغل الكرام الكاتبين بما لا خير فيه ولا فائدة وحق المرء أن يستحى منهما فلا يؤذيهما قال الله تعالى : « مايلفظ (٢) من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

والثانى — إرسال كتاب إلى الله سبحانه وتعالى من اللغو والهذر فليحذر العبد من ذلك وليخش الله عز وجل . وذكر أن بعضهم نظر إلى رجل يتكلم بالخنا (٣) فقال ياهذا ويحك إنما تملى كتابا إلى ربك فانظر ماذا تملى .

والثالث — قراءته بين يدى الملك الجبار يوم القيامة على رءوس الأشهاد بين الشدائد

---

(١) لم أجد هذا الحديث فى معاجمى .

(٢) ظاهر قوله سبحانه مايلفظ العموم ، قال مجاهد وأبو الجوزاء يكتب عليه كل شىء حتى أنينه فى مرضه ، وقال الحسن وقتادة يكتبان جميع الكلام فيثبت الله تعالى من ذلك الحسنات والسيئات ويمحو غير ذلك ، وقيل هو مخصوص من قول خير أو شر وما خرج عن هذا لا يكتب قاله عكرمة . (٣) الخنا الفحش .

Digitized by Birzeit University Library

والأهوال عطشان عريان جيعان منقطعا عن الجنة محبوسا عن النعمة .

والرابع — اللوم والتعيير بماذا قلت وانقطاع الحجة والحياء من رب العزة فقد قيل إياك والفضول فان حسابه يطول وكفى بهذه الأصول واعظا لمن اتعظ وقد بسطنا فى كتاب أسرار معاملات الدين مافيه مقنع فانظر مافيه تجد الشفاء .

(الفصل الرابع — القلب)

ثم عليك بحفظه وإصلاحه وحسن النظر فى ذلك وبذل المجهود فانه أعظم هذه الاعضاء (١) خطرا وأكثرها أثرا وأدقها أمرا وأشقها إصلاحا وأصعبها حالا وأذكر فيه خمسة أصول مقنعة :

الأصل الأول ـ قوله تعالى: « يعلم خائنة(٢) الأعين وما تخفى الصدور » وقوله تعالى « والله يعلم ما فى قلوبكم » وقوله تعالى : « إنه عليم بذات الصدور » كم ذكره وكرر ذكره فى القرآن فكفى باطلاع العليم الخبير تحذيرا وتهديدا للخواص من العباد لأن

---

(١) لا ريب أن الصوفية لا يقصدون بالقلب فى موطن التزكية — الروح الانسانية كما لا يقصدون بالقلب القطعة اللحمية الصنوبرية التى ينتشر منها الدم فى الشرايين وإنما يقصدون منه النفس الانسانية التى ذكر القرآن أنه « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » وإذا فالمراد منه ومنها فى موطن الطهارة والتزكية هو مجموع أفكار الانسان واتجاهاته وميوله وأهوائه ذلك أن تعديل ميول الانسان واتجاهاته وجعل هواه تبعا لهوى الشرع والوحي والقرآن ليس من الأمور السهلة بل هو ميدان الجهاد الأكبر يشير إلى صعوبة ذلك تعبير القرآن عنه بمادة التفعل فى قوله زكاها وقوله « قد أفلح من تزكى » ومادة التفعل تفيد المعالجة والمكابدة ولقد عالج الغزالى فى الأحياء وغيره من كتبه الصغيرة التى اختصر فيها ما بسطه فى الاحياء موضوع طهارة القلب وأفاض فى ذلك لأن هذه الطهارة هى وسيلة المناجاة التى يتطلع إليها الصوفية فطهارة القلب عندهم كالوضوء ، والمناجاة كالصلاة .

(٢) قال مجاهد خائنة الأعين مسارقة النظر إلى ما لا يجوز ومثل المفسرون خائنة الأعين بالنظرة الثانية إلى محرّم وما تخفى الصدور بالنظرة الأولى التى وقعت عفوا وفى بعض الكتب المنزلة أنا مرصاد الهمم أنا العالم بحال الفكر وكسر العيون .

Digitized by Birzeit University Library

المعاملة مع علام الغيوب خطر خطير فانظر ماذا يعلم من قلبك .

الأصل الثانى ـ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله(١) تعالى لا ينظر إلى صوركم وأبشاركم وإنما ينظر إلى قلوبكم فالقلب إذن موضع نظر رب العالمين . فيا عجبا ممن يهتم بوجهه الذي هو موضع نظر الخلق فيغسله وينظفه من الاقذار والادناس ويزينه بما أمكنه لئلا يطلع مخلوق فيه على عيب ولا يهتم بقلبه الذى هو موضع نظر رب العالمين فيطهره ويزينه ويطيبه كي لا يطلع الرب جل جلاله على دنس فيه وشين وآفة وعيب بل يهمله بفضائح وأقذار وقبائح لو اطلع الخلق على واحد منها لهجروه وتبرءوا منه وطردوه والله المستعان .

الأصل الثالث ـ أن القلب ملك مطاع ورئيس متبوع فالأعضاء كلها له تبع فاذا صلح المتبوع صلح التبع وإذا استقام الملك استقامت الرعية ويبين لك ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إن فى (٢) الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهى القلب وإذا كان صلاح الكل فى ذلك وجب صرف العناية إليه .

---

(١) معنى أنه لا ينظر إلى صوركم أى لا يجازيكم على ظواهركم والحديث رواه مسلم وابن ماجه وأحمد بلفظ « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ونظر الله إلى القلوب والأعمال المراد منه تزكية الأعمال وملؤه للقلب خشية وجلالا والنظر فى الشاهد دليل المحبة وترك النظر دليل البغض والكراهة والله منزه عن ذلك فجعل نظره إلى ماهو السر واللب وهو القلب والعمل والجمال قسمان : ظاهرى وباطنى كالعقل والعلم والكرم وهذا محل نظر الله من عبده وموضع محبته فيرى صاحب الجمال الباطنى فيكسوه من الجمال والمحبة والمهابة والحلاوة فمن رآه هابه وأحبه .

(٢) الحديث رواه ابن السنى وأبو نعيم فى الطب والبيهقى عن النعمان بلفظ « إن فى الرجل مضغة إذا صحت صح لها سائر جسده وإن سقمت سقم لها سائر جسده وهى قلبه » والحديث يتجه بالقلب هنا نحو العقل الانسانى وهو منارة الانسان وسراجه الذى يهتدى به وسيأتى فى الأصل الرابع ما يفهم أن القلب وعاء للعقل والأمر فى ذلك سهل فالقلب والعقل والروح والنفس مردّها إلى أمر واحد هو ماتميز به الانسان عن الحيوان وأصبح مناطا للتكليف وكل تسمية من هذه ترجع إلى اعتبار خاص ، ويستخدم أبو حامد كلا من لفظ النفس والروح والعقل للدلالة على ذلك الجوهر الروحى غير الجسمي الذى يوجد فى البدن .

Digitized by Birzeit University Library

الأصل الرابع ـ أن القلب خزانة كل جوهر للعبد نفيس وكل معنى خطير أولها العقل وأجلها معرفة الله تعالى التى هى سبب سعادة الدارين ثم البصائر التى بها التقدم والوجاهة عند الله عز وجل ثم النية الخالصة فى الطاعات التى يتعلق بها ثواب الأبد ثم أنواع العلوم والحكم التى هى شرف العبد وسائر الأخلاق الشريفة والخصال الحميدة التى بها يحصل تفاضل الرجال على ما فصلنا وشرحنا فى كتاب أسرار معاملات الدين وحق لمثل هذه الخزانة أن تحفظ وتصان عن الأدناس والآفات وتحرس وتحرز من السراق والقطاع وتكرم وتجل بضروب الكرامات لئلا يلحق تلك الجواهر العزيزة دنس ولا يظفر بها والعياذ بالله عدو .

الأصل الخامس ـ أني تأملت حاله فوجدت له خمسة أحوال ليست لغيره من أعضاء ابن(١) آدم أحدها أن العدو قاصد إليه مقبل عليه ملازم له فان الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فهو منزل الالهام والوسوسة يقرعانه بالدعوتين أبدا الملك والشيطان .

والثانى ـ أن الشغل له أكثر فان العقل والهوى كلاهما فيه فهو معترك العسكرين الهوى وجنوده والعقل وجنوده فهو أبدا بين محاربتهما وتقاتلهما وتناقضهما وحق للثغر أن يحرس ويحصن ولا يغفل عنه .

والثالث ـ أن العوارض له أكثر فان الخواطر له كالسهام لا تزال تقع فيه وكالمطر لا تزال تمطر عليه ليلا ونهارا لا تنقطع ولا أنت تقدر على منعها فتمتنع وليس بمنزلة العين التى بين الجفنين تغمض فتستريح أو تكون فى موضع خال أو ليل مظلم فتكفى رؤيتها ، أو كاللسان الذي هو من وراء الحاجبين الاسنان والشفتين وأنت القادر على منعه

---

(١) عبارة حجة الاسلام قدس الله سره تفهم أن القلب بالمعنى الصوفى عضو من أعضاء الجسم وقد علمت أن كلام القوم عن القلب ليس باعتباره عضوا محسوسا بل باعتبار أنه محل سر الحق فى العبد نعم فى هذا الموطن الذي يتكلم عنه الغزالى وهو جثوم الشيطان أو الملك على قلب الانسان يراد من القلب الموضع الحسى فى البدن فالقلب مصدر الحركة الدموية لشرايين الجسم ولامانع من نفث الوسوسة أو الالهام فى كرات الدم من الشيطان أو الملك يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » وأيضا فان الملك الملهم يجرى من ابن آدم مجرى الدم أيضا يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث فى روعي ان نفسا حتى تستوفى رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

Digitized by Birzeit University Library

وتسكينه بل القلب غرض للخواطر لا تقدر على منعها والتحفظ عنها بحال وهي لا تنقطع عنك بوقت ثم النفس مسارعة إلى اتباعها والامتناع عن ذلك فى مجهود الطاقة أمر شديد (١) ومحنة عظيمة .

والرابع ـ أن علاجه عسير إذ هو غيب عنك فلا نكاد تشعر حتى تدب فيه آفة وتحدث له حالة فتحتاج إلى أن تبحث عن ذلك أتم البحث بطول الجهد ودقيق النظر وكثرة الرياضة.

والخامس ـ أن الآفات إليه أسرع فهو إلى الانقلاب أقرب فلقد قيل إن القلب أسرع انقلابا من القدر فى غليانها ولذلك قيل :

ما سمى القلب إلا من تقلبه والرأي يضرب بالانسان أطوارا

---

(١) لا ريب أن كلام حجة الاسلام هنا وفى الأحياء الذى ينتهي إلى أن القلب بالتعبير الحديث محطة إرسال إما للرحمن وإما للشيطان أمر مسلم ومحسوس عند أرباب القلوب ولقد تحقق عندى بالوجدان الصحيح والحس أن الشيطان يستطيع أن يخترق حجاب الجسم ويجلس فى قلب ابن آدم ، كما تحقق عندي أن القلب محل أيضا لتربع روح طاهرة على عرشه من الأرواح العلوية ملكية أو إنسية فاذا أصبح القلب مأوى للشيطان باض فيه وأفرخ وعلاج هذا القلب أن تخرج منه هذا الساكن القذر الذى لا يوحى إلا بالشر وبسكناه فى القلب يقسو وتشتد قساوته فلا يتأثر بالطاعات ولا تثمر فيه الموعظة وإنما يخرج هذا الساكن الثقيل بروح أخرى تسكن هذا المكان وإنما يخرج الشيطان من سكناه بسكنى روح أخرى نورانية تحل فى هذا القلب فيحترق الشيطان من نورها ويخنس وكلما كانت الروح النورانية كبيرة حاضرة فى القلب كلما ابتعد الشيطان عن قلب ابن آدم وسكنت وساوسه وكلما استوت الروح الملائكية على القلب كلما ازدادت معارفه وإلهاماته ومن هنا يأمر الشيوخ مريديهم باستحضار أسرارهم فى الأذكار لأن روح المشايخ العارفين متسربلة بالأنوار فعندها قوة تهزم جيوش الأوهام والأفكار وإذا أكمل استحضار الروح العلوية دخلت القلب واخترقت حجابه وأصبح الشيخ ومريده روحين حالتا جسدا وإنما هرب الشيطان من طريق سيدنا عمر بن الخطاب لتربع روح النبي صلى الله عليه وسلم فى قلبه فاحرص أن يكون قلبك عرشا للروح المحمدية وإدمان الذكر مع الحضور سبب فى طرد الشيطان من هذا المكان بل إن الغفلة عن الحق هى السبب فى شغل المكان قال تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » .

Digitized by Birzeit University Library

ثم إن زل القلب والعياذ بالله فزلته أعظم ووقوعه أصعب وأفظع إذ أدناه قسوة وميل إلى غير الله سبحانه وتعالى ومنتهاه ختم بكفر والعياذ بالله تعالى أما تسمع قوله تعالى: « أبى واستكبر وكان من الكافرين » فكان الكبر بقلبه فحمله على الاباء والكفر بظاهره أما تسمع قوله تعالى: « ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه[1] » فكان الميل واتباع الهوى بقلبه فحمله على ذلك الذنب المشئوم بنفسه أما تسمع قوله تعالى: « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون[2] » ولهذا المعنى أيها الرجل خاف عباد الله تعالى الخواص على قلوبهم وبكوا عليها وصرفوا عنايتهم إليها قال الله سبحانه فى وصفهم: « يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار » جعلنا الله وإياكم من المعتبرين بالعبر المهتمين بمواضع الخطر الموفقين لاصلاح قلوبهم بحسن النظر إنه أرحم الراحمين.

فان قيل: إن أمر هذا القلب لمهم جدا فأخبرنا عن المعانى التى تصلحه وعن الآفات التى تعترضه فتفسده عسى أن نوفق للاجتهاد فى العمل بذلك؟

يقال له اعلم أن تفصيل هذه المعانى لطويل لا يحتمله هذا الكتاب وإنما علماء الآخرة عنوا باستخراج ذلك وتصنيفه فى هذه النكتة لاغير وقد ذكروا فيما يحتاج إليه من ذلك نحوا من تسعين خصلة محمودة وفى أضدادها المذمومة، ثم من الأفعال والمساعى الواجبة والمحظورة نحو ذلك فى سائر تفاصيلها ولعمري أن من أهمه أمر دينه وانتبه من رقدة الغافلين ونظر لنفسه فلا يكون تحصيل جميع ذلك والعمل به عليه كثيرا إذا

---

(١) نزلت الآية فى بلعام بن باعوراء كما قاله ابن عباس رجل أوتى بعض كتب الله فلم يعمل بما اقتضته وأخلد إلى الأرض أى ركن بنفسه إلى الأرض أى إلى ما فيها من الملاذ والشهوات.

(٢) معنى الآية كما قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد لو آتيناهم آية كما سألوا لقلبنا أفئدتهم وأبصارهم عن الايمان وحلنا بينهم وبين الهدى فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها عقوبة لهم على ذلك والعارفون لما علموا أن إمداد القلب خارج عن إرادتهم فالأنهار التى تصب فيه آتية من عالم الغيب فيضا من كريم فلو توقف هذا المدد لحظة لضل القلب وتاه فى أودية الحيرة ولذا دعا قائلهم « لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك ».

Digitized by Birzeit University Library

وفقه الله تعالى وقد ذكرنا نبذة منها فى شرح عجائب القلب من كتاب إحياء علوم الدين وأتينا على شرح جميعها بتفاصيلها وكيفية علاجها فى كتاب أسرار معاملات الدين وهو كتاب مستقل بنفسه عظيم الفائدة ولا ينتفع به إلا فحول العلماء الراسخون فى العلم وموضوع هذا الكتاب أن ينتفع به المبتدى والمنتهي والقوى والضعيف فنظرنا فى الأصول التى لا بد من ذكرها فى علاج القلب والحاجة إليها ماسة ولا غنية عنها ألبتة فى شأن العبادة فوجدناها أربعة أمور هى مداحض العابدين وآفات المجتهدين وهى فتن القلوب وبليات النفوس تعوق وتشين وتفسد وتتلف وأربعة فى مقابلتها فيها قوام العباد وانتظام العبادة وصلاح القلوب فالآفات الأربع الأمل والاستعجال والحسد والكبر والمناقب الأربع قصر الأمل والتأنى فى الأمور والنصيحة للخلق والتواضع والخشوع فهذه هى الأصول فى صلاح القلوب وفسادها والنكتة التى عليها المدار فلتبذل المجهود فى التحرز من هذه الآفات والتحصيل لهذه المناقب تكف المؤن وتظفر بالمقصود إن شاء الله تعالى وسأخبرك عن هذه الآفات بكلمات وجيزة (١) مقنعة .

أما طول الأمل فإنه العائق عن كل خير وطاعة والجالب لكل شر وفتنة وأنه الداء العضال الذى يوقع الخلق فى أنواع البليات فاعلم أنك إذا طال أملك هاج لك منه أربعة أشياء : أحدها ترك الطاعة والكسل فيها، تقول سوف أفعل والأيام بين يدى ولا يفوتنى ذلك ولقد صدق داود الطائى رحمه الله حيث قال : من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ومن طال أمله ساء عمله وقال يحيى ابن معاذ الرازى رحمه الله الأمل قاطع عن كل خير والطمع مانع من كل حق والصبر صائر إلى كل ظفر والنفس داعية إلى كل شر ، والثانى ترك التوبة وتسويفها تقول سوف أتوب وفى الأيام السعة وأنا شاب وسنى قليل والتوبة بين يدي وأنا قادر عليها متى رمتها وربما اغتاله الحمام على الاصرار فاختطفه الأجل قبل إصلاح العمل ، والثالث الحرص

---

(٤) وأوجز مما قاله الغزالى أن تجلس بوابا على قلبك فلا يشتغل بغير الحق سبحانه ومن الفناء فى معانى الأسماء ينقطع الأمل والاستعجال والحسد والكبر وغير هذه الأربع من رشحات النفس الانسانية وهذه الرشحات كثيرة جدا وإنما يتغلب عليها بالذكر — الحلوة الدائمة والذكر الدائم .

Digitized by Birzeit University Library

على الجمع والاشتغال بالدنيا عن الآخرة(١) تقول أخاف الفقر فى الكبر وربما أضعف عن الاكتساب ولا بد لى من شىء فاضل أدخره لمرض أو هرم أو فقر هـذا ونحوه مما يحرك إلى الرغبة فى الدنيا والحرص عليهـا والاهتمام للرزق تقول إيش آكل وإيش أشرب وإيش ألبس وهذا الشتاء وهذا الصيف ومالى شىء ولعل العمر يطول فأحتاج والحاجة مع الشيب شديدة ولا بد لى من قوت وغنية عن الناس هذه وأمثالها تحرك إلى طلب الدنيا والرغبة فيها والجمع لها والمنع لما عندك منها وأقل ما فى الباب أن يشغل قلبك ويضيع عليك عمرك أو وقتك ويكثر همك وغمك بلا فائدة ولا طائل على ما روى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال : قتلنى هم يوم لم أدركه . قيل وكيف ذلك ياأبا ذر؟ قال إن أملى جاوز أجلى .

والرابع ـ القسوة بالقلب والنسيان للآخرة لأنك إذا أملت العيش الطويل لا تذكر الموت والقبر كما قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان : طول الأمل (٢) واتباع الهوى ألا وإن طول الأمل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق فاذن يصير فكرك ومعظم أمرك فى حديث الدنيا وأسباب العيش وفى صحبة الخلق ونحوها فيقسو القلب من ذلك وإنما رقة القلب وصفوته بذكر

---

(١) وعلاج الحرص على الدنيا الزهد فيها روى الطبرانى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الزهد فى الدنيا يريح القلب والجسد والرغبة فيها تتعب القلب والجسد » وفى رواية والبدن وفى رواية أحمد عن طاووس والرغبة فى الدنيا تطيل الهم والحزن فلا علاج للحرص والشغل بالأرزاق والأولاد إلا الزهد ، ثم الزهد أيها الأخ ليس صناعة متكلفة بل هى واردات تملأ القلب فلا يبقى فيه متسع لغير المطلوب ولذا قال المناوى وأما العارف فلاقيمة للزهد عنده لعلمه بأن ماقسم له لا يتصور تخلفه ومالا فلا يمكنه أخذه فاستراح والدنيا كلها لا تزن عندهم جناح بعوضة قيل :

تجرد عن مقام الزهـد قلبى ... فأنت الحق وحدك فى شهودى
وأزهد فى سواك وليس شىء ... أراه سـواك يا سر الوجود

(٢) التعبير بطول الأمل يشير إلى أن الأمل فى حد ذاته ليس طائفا من عوائق القرب فقد روى الخطيب والديلمى وابن النجار عن أنس « إنما الأمل رحمة من الله لأمتى لولا الأمل ماأرضعت أم ولدا ولاغرس غارس شجرا » قال ابن حجر الأمل رجاء ما تحبه النفس من نحو طول عمر وصحة وزيادة غنى .

Digitized by Birzeit University Library

الموت والقبر والثواب والعقاب وأحوال الآخرة وإذا لم يكن شيء من ذلك فمن أين يكون لقلبك رقة وصفوة قال الله تعالى: « فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم » فاذن أنت إذا طولت أملك قلت طاعتك وتأخرت توبتك وكثرت معصيتك واشتد حرصك وقسا قلبك وعظمت غفلتك عن العاقبة فذهبت والعياذ بالله إن لم يرحم الله تعالى آخرتك فأي حال أسوأ من هذه وأي آفة أعظم من هذه وكل هذا بسبب طول الامل - وأما إن قصرت أملك وقربت من نفسك موتك وتذكرت حال أقرانك وإخوانك الذين عاقصهم(١) الموت في وقت لم يحتسبوه ولعل حالك مثل حالهم فاحذري يا نفسي الغرور واذكري ما قال عوف بن عبد الله رحمه الله كم من مستقبل يوما لم يستكمله ومنتظر غدا لم يدركه لو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره أما سمعت قول عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا ثلاثة أيام أمس مضى ما بيدك منه شيء وغدا لا تدري أتدركه أم لا ويوم أنت فيه فاغتنمه ثم قول أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الدنيا ثلاث ساعات ساعة مضت وساعة أنت فيها وساعة لا تدري أتدركها أم لا فلست تملك بالحقيقة إلا ساعة واحدة إذ الموت من ساعة إلى ساعة ثم قول شيخنا رحمه الله الدنيا ثلاثة أنفاس نفس مضى عملت فيه ما عملت ونفس أنت فيه ونفس لا تدري أتدركه أم لا إذ كم من متنفس نفسا ففاجأه الموت قبل النفس الآخر فلست تملك إلا نفسا واحدا بالحقيقة لا يوما ولا ساعة فبادر في هذا النفس الواحد إلى الطاعة قبل أن يفوت وإلى التوبة فلعلك في النفس الثاني تموت ولا تهتم بالرزق فلعلك لا تعيش فتحتاج إليه فيكون وقتك ضائعا وهما فاضلا وما عسى أن يهتم الانسان بالرزق ليوم واحد أو ساعة واحدة أو نفس واحد أما تذكر ماقال النبي صلى الله عليه وسلم لأسامه (٢) أما تعجبون من أسامة المشترى بصبر شهرا إن

(١) عفص عفصا القارورة شد عليها .

(٢) روى الطبراني وأبو نعيم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أنه اشترى أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر قال فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « ألا تعجبون من أسامة المشترى ألا إن أسامة لطويل الأمل، والذي نفسي بيده ماطرفت عيناي إلا ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي ولا رفعت طرفي وظننت أني واضعه حتى أقبض ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذي نفسي بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » .

Digitized by Birzeit University Library

أسـامه لطويل الأمل والله ما وضـعت قدما فظننت أنى أرفعها ولا لقمة فظننت أنى أسيغها حتى يدركنى الموت والذى نفسى بيـده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين فاذا أنت أيها الرجل تذكرت هذه الأذكار وواظبت على ذلك بالاعادة والتكرار قصر أملك باذن الله تعالى فحينئذ ترى نفسك تبادر إلى الطاعات وتعجل توبتك فتسـقط عنك معصيتك وتزهد فى الدنيا وطلبها فيخف حسابك وتبعتك ويقع قلبك فى تذكر الآخرة وأهوالها وما هو إلامن نفس إلى نفس تصير إليها وتعاينها واحدا فواحدا فتزول عنك القسوة وتبدو لك الرقة والصفوة وتستشعر عند ذلك الخوف من الله تعالى والخشـية فيستقيم لك أمر عبادتك ويقوى الرجاء فى أن تستعد فى عاقبتك وتظفر بالمراد فى آخرتك وكل ذلك بعد فضل الله تعالى بسبب هذه الخصلة التى هى قصر الامل ، ولقد حكى أن زرارة بن أوفى رحمـه الله قيل له فى النوم بعد موته أى الأعمال أبلغ فيم عنـدكم قال الرضى وقصر الأمل فانظر لنفسك أيها الأخ وابذل المجهود فى هذا الأصل الكبير فانه الأهم والأعظم فى صلاح القلب والنفس والله تعالى ولى التوفيق بفضله ورحمته .

وأما الحسد فانه المفسد للطاعات الباعث على الخطيئات وأنه الداء العضال الذى يبتلى به الكثير من القراء والعلماء فضلا عن العامة والجهال حتى أهلكهم وأوردهم النار ، ألم تسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة (١) يدخلون النار بستة العرب بالعصبية والأمراء

---

(١) الحديث رواه أبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر ورواه الديلمى عن ابن عمر وأنس معا بلفظ « ستة يدخلون النار قبل الحساب بستة قيل يا رسول الله من هم ؟ قال الأمراء بالجور والعرب بالعصبية والدهاقين بالكبر والتجار بالخيانة وأهل الرستاق بالجهل والعلماء بالحسـد » ومعنى جور الأمراء ظلمهم وبه يدخـلون النار لخيانتهم الامانة وكفرهم على أعطائهم أعظم النعم وهى الخلافة ، ومعنى عصبية العرب تناصرهم وتعاونهم وغيرتهم فيما لم يشرع ، والدهاقين أهل القرى وقيل رؤساء القرى ويطلق على التاجر وعلى رؤساء الاقاليم وعلى من له مال وعقار وظاهر الحديث يتناول الكل وخص حسد العلماء لأن مؤاخذاتهم أشد لعدم جريهم على موجب علمهم أولأن الحسد فيهم أكثر سببا بعضهم لبعض ولذا لايجوز شهادة العلماء بعضهم على بعض لأنهم حسّـد وعن الرازى أنه قسم الحسد عشرة فجعل فى العلماء تسعة وفى باقى الخلق جزء واحد ، والرستاق معرب ويستعمل فى الناحية التى هى طرف الاقليم والرزداق بالزاى والدال مثله والجمع رساتيق .

Digitized by Birzeit University Library

بالجور والدهاقين بالكبر والتجار بالخيانة وأهل الرساتيق بالجهل والعلماء بالحسد وإن بلية بلغ شؤمها أن أوردت العلماء النار لحقيق أن يحذر منها ـ واعلم أن الحسد يهيج خمسة أشياء: أحدها إفساد الطاعات قال(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، والثانى فعل المعاصى والشرور على ما قال وهب بن منبه رحمه الله للحاسد ثلاث علامات يتملق إذا شهد (٢) ويغتاب إذا غاب ويشمت بالمصيبة إذا نزلت ـ قلت : وحسبك أن الله تعالى أمرنا بالاستعاذة من شر الحاسد فقال سبحانه : « ومن شر(٣) حاسد إذا حسد » كما أمر بالاستعاذة من شر الشيطان والساحر فانظركم له من الشر والفتنة حتى أنزله منزلة الشيطان والساحر حتى أن لا مستعان عليه ولا مستعاذ

---

(١) الحديث رواه أبو داود عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والحسد فان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » لأنه يفضى بصاحبه إلى اغتياب المحسود وشتمه وقد يتلف ماله ويسفك دمه وكلها مظالم يقتصّ منها فى الآخرة فتذهب فى عوض ذلك حسناته فكأنه يفسد عمله .

(٢) إذا شهد أي إذا حضر مجلس المحسود .

(٣) « ومن شر حاسد إذا حسد » المستعاذ منه هو الشر العملى الذى يحدث عند حصول الحسد قال الزمخشرى ويجوز أن يراد بشر الحاسد اثمه وسماجة حاله فى وقت حسده وإظهاره أثره وهذا لأن الحسد الذى وقع الاتفاق على حرمته هو الذى ظهر أثره فى بعض الجوارح فان لم يعمل المرء بمقتضى الحسد ولم يظهر أثره أصلا وكان الموجود فى القلب نفس الحسد فقط فقد اختلفوا فى حرمته فمختار الامام الغزالى حرمته واختار أكمل الدين من الحنفية ووافقه صاحب الطريقة المحمدية عدم الحرمة لما أخرجه ابن أبي الدنيا عنه صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطيرة والحسد وسأحدثكم بالمخرج من ذلك ، إذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيرت فامض وإذا حسدت فلا تبغ » دل الحديث على أن الحسد الذي لا يظهر أثره فى الجوارح ليس بحرام وفهم الشيخ أبو سعيد الخادمى شارح الطريقة أنه يحتمل أن يكون معنى لا تبغ أى لا تستمر على إبقاء الحسد فى قلبك إن كان بدؤه اضطراريا فالحرمة حينئذ لا تحتاج إلى الأظهار بالجوارح بل تحصل بمجرد الاستمرار فى القلب وهذا بناء على أن نية التصميم على الشر يؤاخذ عليها « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

Digitized by Birzeit University Library

إلا بالله رب العالمين ، والثالث التعب والهم من غير فائدة بل مع ذلك وزر ومعصية كما قال ابن السماك رحمه الله لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من الحاسد نفس دائم وعقل هائم وغم لازم ، والرابع عمى القلب حتى لا يكاد يفهم حكما من أحكام الله عز وجل فلقد قال سفيان الثورى رحمه الله عليك بطول الصمت تملك الورع ولا تكن حريصا على الدنيا تكن حافظا ولا تكن طعانا تنج من ألسن الناس ولا تكن حاسدا تكن سريع الفهم والخامس الحرمان والخذلان ولا يكاد يظفر بمراد وينصر على عدو كما قال حاتم الاصم رحمه الله الضغين (١) غير ذى دين والعائب غير عابد والنمام غير مأمون والحسود غير منصور - قلت: الحسود كيف يظفر بمراده ومراده زوال نعم الله تعالى عن عباده المسلمين وكيف ينصر على أعدائه وهم عباد الله المؤمنون ولقد أحسن أبو يعقوب رحمه الله فيما قال اللهم صبرنا على تمام النعم على عبادك وحسن أحوالهم ، وأنه داء يفسد عليك الطاعه ويكثر شرك ومعصيتك ويمنعك راحة النفس وفهم القلب والنصرة على الاعداء والظفر بالمطلوب فأى داء يكون أدوأ منه فعليك بمعالجة (٢) نفسك من ذلك والله تعالى ولى التوفيق بمنه وكرمه.

وأما الاستعجال والترقى فى البر فانه الخصلة المفوتة للمقاصد الموقعة فى المعاصى فان منها تبدو آفات أربع: إحداها أن يقصد العابد منزلة فى الخير والاستقامة ويجتهد فربما يستعجل فى نيلها وليس ذلك بوقتها فاما أن يفتر ويبأس فيترك الاجتهاد فيحرم تلك المنزلة وإما أن يغلو فى الجهد وإتعاب النفس فينقطع عن تلك المنزلة فهو بين إفراط وتفريط فى كلاهما نتيجة الاستعجال . ولقد روى (٣) عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه

---

(١) الضغين : من يحمل الضغن والحقد والحسد فى قلبه للناس لاريب أنه مجرد من الدين .

(٢) لا علاج من مثل هذه الادواء إلا بأن يملأ قلبه بالنور لتخرج الظلمة وهذا بتوفيق الله « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحدا أبدا ولكن الله يزكى من يشاء » .

(٣) الحديث شاهد على أن السنة القصد فى العمل وعدم الانهماك فى الطاعة بالكلية ولكن ترجمة الموضوع بالاستعجال لا ترشح الحديث للاستشهاد والحديث رواه أحمد ولفظه كما فى كنوز الحقائق « إن هذا الدين متين فانظروا فيه برفق » .

Digitized by Birzeit University Library

قال إن ديننا هذا متين فأوغل فيه برفق فان المنبت لا أرضا قطع ولاظهرا أبقى وفى المثل السائر إن لم تستعجل تصل ولقائل :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

والثانية أن يكون للعابد حاجة فيدعو الله تعالى فيها ويكثر الدعاء ويجد فربما يستعجل الاجابة قبل وقتها فلا يجدها فيفتر ويسأم فيترك الدعاء فيحرم حاجته ومقصوده والثالثة أن يظلمه إنسان فيغيظه فيعجل بالدعاء عليه فيهلك مسلم بسببه وربما يتجاوز عن الحد فيقع فى معصية وهلاك قال الله تعالى: « ويدع (١) الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا » ـ والرابعة أن أصل العبادة وملاكها الورع والورع أصله النظر البالغ فى كل شىء والبحث التام عن كل شىء هو بصدده من أكل وشرب ولبس وكلام وفعل فاذا كان الرجل مستعجلا فى الأمور غير متأن ولا متثبت متبين لم يقع منه توقف ونظر فى الأمور كما يجب ويتسارع إلى كل كلام فيقع فى الزلل وإلى كل طعام فيقع فى الحرام والشبهة وكذلك فى كل أمر فيفوته الورع وأى خير فى عبادة بلا ورع وإذا كان فى خصلة الانقطاع عن منازل الخير وحرمان الحاجات وهلاك المسلمين وهلاكه ثم خطر فوت الورع الذي هو رأس المال فحق للانسان أن يهتم لها بالازالة وإصلاح النفس بعدها والله ولى التوفيق بمنه وفضله.

وأما الكبر (٢) فانه الخصلة المهلكة رأسا أما تسمع قوله تعالى: «أبى واستكبر وكان من الكافرين» وليست هذه الخصلة بمنزلة سائر الخصال التى تقدح فى عمل وتضر بفوع وإنما تضر بالاصل وتقدح فى الدين والاعتقاد وإذا قويت وغلبت لا تتدارك والعياذ بالله ثم أقل ما يهيج

---

(١) « ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا » قال ابن عباس ومجاهد وقتادة نزلت ذامة لما يفعله الناس من الدعاء على أموالهم وأبنائهم فى وقت الغضب والضجر والمعنى أن فى طباع الانسان أنه إذا ضجر وغضب دعا على نفسه وأهله وماله بالشر يصيبه كما يدعو بالخير أن يصيبه .

(٢) الكبر هو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه والكبر حرام ورذيلة عظيمة من العباد لأنه دليل نسيان العبد خالقه وتغافله عن خلقه من ماء مهين وفيه يهلك الخواص من الخلق وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الناس .

Digitized by Birzeit University Library

منها على صاحبها أربع آفات : إحداها حرمان الحق وعمى القلب عن معرفة آيات الله تعالى وفهم أحكام الله تعالى قال الله تعالى: « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق» وقال تعالى: « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار(١) » والثانية المقت والبغض من الله تعالى قال الله تعالى: « إنه لا يحب المستكبرين» وروى أن موسى عليه السلام قال يارب من أبغض خلقك إليك؟ قال من تكبر قلبه وغلظ لسانه وصفق عينه وبخلت يده وساء خلقه ، والثالثة الخزى والنكال فى الدنيا والآخرة قال حاتم رحمه الله اجتنب أن يدركك الموت على ثلاثة: على الكبر والحرص والخيلاء فان المتكبر لايخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يريه الهوان من أرذل أهله وخدامه والحريص لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يحوجه إلى كسرة أو شربة ولا يجد مساغا والمختال لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يمرغه ببوله وقذره . وقيل من تكبر بغير حق أورثه الله تعالى ذلا بحق والرابعة النار والعذاب فى العقبى على ماروى(٢) أن الله تعالى يقول الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فى واحد منهما أدخلته نار جهنم ـ والمعنى أن العظمة والكبرياء من الصفات التى تختص بى فلا تنبغى لأحد غيرى كما أن رداء الانسان وإزاره يختص به لايشاركه فيه ـ وإن خصلة تفوتك معرفه الحق وفهم معانى آيات الله تعالى وأحكامه الذى هو أصل الأمر كله ثم تشمر لك المقت من الله سبحانه وتعالى والخزى فى الدنيا والنار فى الآخرة لا ينبغي لعاقل أن يغفل عن نفسه فلا يصلحها بازالتها بالحذر والتحرز والاستعاذة

---

(١) طبع الله على قلب الكافر كما حكى عن الحسن البصرى وهو اختيار أبي على الجبائى والقاضى أن ذلك سمة وعلامة يجعلها الله تعالى فى قلب الكافر وسمعه تستدل بذلك الملائكة على أنهم كفار وانهم لا يؤمنون والمراد بالطبع أن تحدث فى نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصى بسبب إعراضهم عن النظر الصحيح فتصير كأنها مطبوعة لا تجتلى لها الآيات .

(٢) الحديث رواه أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى ـ الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فى واحد منهما قذفته فى النار ـ وفى رواية أخرى عن أبي هريرة فمن نازعنى ردائى قصمته أى أذللته وأهنته .

Digitized by Birzeit University Library

بالله من ذلك وهو جلّ وعز ولى العصمة والتوفيق بمنه ـ فهذا بعض ما حضرنا فى هذه الخصال الأربع من الآفات وحسب العاقل واحدة منها فضلا عن الكل إذا أهمه أمر قلبه وحامى عن أمر دينه والله الموفق .

فان قلت : فاذا كان الأمر بهذه المنزله من آفات هذه الخصال ولزوم التحفظ منها فلابد من معرفة حقيقتها وحدها ، فبين لنا ذلك لنعرف كيف الطريق إلى التحفظ عنها ؟

فأعلم أن فى كل واحدة منها كلاما كثيرا وقد اشبعنا القول فيه فى كتاب الأحياء والأسرار ونحن نذكر ههنا ما لابد من ذكره ولا يقع الغنى عنه فنقول وبالله التوفيق . أما الأمل فقال أكثر علمائنا رحمهم الله أنه إرادة الحيـاة للوقت المتراخي بالحكم وقصر الأمل ترك الحكم فيه بأن تقيده بالاستثناء بمشيئة الله وعلمه فى الذكر أو بشرط الصلاح فى الارادة فاذن إن ذكرت حياتك بأنى أعيش بعد نفس ثان أو ساعة ثانية أو يوم ثان بالحكم والقطع فأنت آمل وذلك منك معصية إذ هو حكم على الغيب فان قيدته بالمشيئة والعلم من الله فقلت أعيش إن شاء الله أو إن علم الله أن أعيش فقد خرجت عن حكم الأمل ووصفت بترك الأمل وكذلك إن أردت حياتك للوقت الثانى قطعا فأنت آمل وإن قيدت إرادتك بشرط الصلاح خرجت عن حكم الأمل ووصفت بقصر الأمل من حيث تركت الحكم فيه فعليك بترك الحـكم فى ذكر البقاء وإرادته والمراد بالذكر ذكر القلب ثم المراد منـه التوطين على ذلك والتثبيت للقلب عليه فافهم ذلك راشـدا إن شاء الله عز وجل .

ثم الأمل ضربان : أمل العامة وأمل الخاصـة فأمل العامة أن تريد الحيـاة والبقاء لجمع الدنيا والتمتع بها وهذه معصية محضة وضدها قصر الأمل قال الله تعالى : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » وأما الخاصة فأن تريد البقاء لاتمام عمل خير فيه خطر وهو مالا يستيقن الصلاح له فيه فانه ربما يكون خير معين لا يكون للعبد فيه أو فى إتمامه صلاح بأن يقع بسببه فى عجب وآفة لا يقوم بها هذا الخير فاذن ليس للعبد إذا ابتدأ فى صلاة أو صوم أو غيره أن يحكم بأنه يتمه إذ هو غيب ولا أن يقصد ذلك قطعا لأنه ربما لا يكون له فيه صلاح بل يقيد ذلك بالاستثناء أو بشرط الصلاح ليخلص من عيب الأمل (١) قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك

---

(١) تقسيم الأمل إلى أمل عوام يجمعون الدنيا للتمتع بها وأمل خواص كالتفكير فى إتمام عمل خيرى تقسيم لاغبار عليه وأما الأحكام التى بناها حجة الاسلام على هذا =

غدا إلا ان يشاء الله » وضد هذا الامل ـ فيما قال العلماء ـ النية المحمودة وإنما قالوا ذلك على ضرب من الاتساع لأن التأوى بالنية المحمودة يكون ممتنعا من الأمل فهذا حكم الأمل والنية المحمودة إذ قد مست الحاجة إليها وإلى معرفتها مع أنها الأصل الأصيل، قالوا رحمهم الله فى حدها الجامع التام أن النية الصحيحة المحمودة إرادة أخذ عمل مبتدأ به قبل سائر الاعمال بالحكم مع إرادة إتمامه بالتفويض والاستثناء .

فان قيل : فلم جاز الحكم فى الابتداء ووجب التفويض والاستثناء فى الاتمام ؟

يقال له لفقد الخطر فى الابتداء إذ هو فى حال الابتداء ليس بشىء متراخ عنك والثبوت الخطر فى الاتمام إذ هو يقع فى وقت متراخ فيه الخطران : خطر الوصول لا تدري هل تصل إلى ذلك أم لا ، وخطر الفساد لا تدرى هل فى ذلك صلاح أم لا ، فاذاً وجب الاستثناء لخطر الوصول والتفويض لخطر الفساد ، فاذا حصلت الارادة على هذه الشروط تكون حينئذ نية محمودة مخرجة عن حد الامل وآفته فتأمل جدا فهذه

= التقسيم فغير مسلمة من كل وجه لجمع الدنيا من حلال والتمتع بهذا الحلال ليس بمعصية يقينا لقوله سبحانه : « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » والخلاف بين العلماء والمفاضلة بين الفقير الصابر والغنى الشاكر معروف ومشهور قال سعيد بن المسيب لا خير فيمن لا يطلب المال يقضى به دينه ويصون به عرضه ، وقال ابن الجوزى متى صح القصد فجمع المال أفضل من تركه بلا خلاف بين العلماء وما ورد فى ذم المال والدنيا فراجع إلى صفته الضارة وهى الاطغاء والانساء والالهاء عن ذكر الله تعالى وعن الموت والآخرة وهذه الصفات غالبة عليه قلما ينفك صاحبه عنها فلذلك كثر الذم فالمال والدنيا جهة ذم وجهة مدح فان انصرف المال والدنيا فى الطاعات والحلال مع عدم الغفلة عن الله فالدنيا ممدوحة ومطلوبة وهى بالعكس مذمومة أما ماسماه حجة الاسلام أمل الخواص من التفكير فى إتمام جلائل الأعمال من غير تقديم مشيئة ولا يصدر هذا عن مؤمن إلا عن غفلة فليس بأمل وإنما هو من باب نية الخير وقد أقر ذلك حجة الاسلام وعدم التقيد بالمشيئة إساءة أدب بالنسبة للخواص ولما سألت قريش النبى صلى الله عليه وسلم عن أهل الكهف والخضر والروح قال غدا أخبركم ولم يقل إن شاء الله فتأخر عنه الوحي مدة فنهى صلى الله عليه وسلم أن يخبر بأنه يفعل فى الزمن المستقبل شيئا إلا وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى .

Digitized by Birzeit University Library

هذه ـ واعلم أن حصن قصر الامل ذكر الموت ، وحصن حصنه ذكر فجأة الموت وأخذه على غرة وغفلة وهو فى غرور وفتور فاحتفظ بهذه الجملة وحصلها موفقا فان الحاجة ماسة إليها ودع عنك تضييع الوقت فى القيل والقال وملاحات الرجال والله الموفق بفضله .

وأما الحسد فهو إرادة زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح فان لم ترد زوالها عنه ولكن تريد لنفسك مثلها فهو غبطة وعلى هذا يحمل قوله عليه السلام ـ لاحسد (١) إلا فى اثنتين ـ الخبر أى لاغبطة إلا فى ذلك فعبر عن الغبطة بالحسد اتساعا فى ذلك لمقاربتهما فان لم يكن له فيها صلاح فأردت زوالها عنه فذلك غيرة فهذا هو الفرق بين هذه الخصال . وأما ضد الحسد (٢) فالنصيحة وهى إرادة بقاء نعم الله تعالى على أخيك المسلم مما له فيها صلاح .

فان قيل : كيف نعلم أن له فيها صلاحا أو فسادا لننصيحة أو نحسده ؟

فاعلم أنه قد يكون لنا غالب الظن بذلك وغلبة الظن منا تجرى مجرى العلم فى هذه المواضع ، ثم إن اشتبه عليك فلا تريدنّ زوال نعمة أحد من المسلمين أو بقاءها إلامقيدا بالتفويض وشرط الصلاح ، لتخلص من حكم الحسد ويحصل لك فائدة النصيحة ـ وأما حصن النصيحة المانع من الحسد فهو ذكر ما أوجبه الله تعالى من موالاة المسلمين وحصن هذا الحصن ذكر ما عظم الله تعالى من حق المؤمن ورفع من قدره وماله عند الله من الكرامات العظيمة فى العقبى ومالك فيه من الفوائد الجليلة فى الدنيا من التعاون والتظاهر والجماعات والجمعات ثم ما نرجو من شفاعته فى الآخرة فهذه ونحوها مما يبعث

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وابن حبان عن ابن مسعود : « لاحسد إلافى اثنتين : رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » .

(٢) يقال نصحت لزيد أنصح له نصحا ونصيحة وفى لغة يتعدى بنفسه فيقال نصحته وهو الاخلاص والصدق فى المشورة والعمل كما فى المصباح وعرفه الغزالى بقوله هى إرادة بقاء نعم الله تعالى على أخيك وإن شئت قلت : إرادة الخير للغير والنصيحة واجبة بالكتاب والسنة قال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

Digitized by Birzeit University Library

على النصح لكل مسلم ويجنبك من أن تحسده فى نعمة أعطاه الله تعالى إياها والله سبحانه ولى التوفيق بفضله .

وأما العجلة فانها المعنى الراتب فى القلب الباعث على الاقدام على الأمر بأول خاطر دون التوقف فيه والاستطلاع عنه بل الاستعجال فى اتباعه والعمل به ، وضدها الأناة وهو المعنى الراتب فى القلب الباعث على الاحتياط فى الأمور والنظر فيها والتأنى فى اتباعها والعمل بها — وأما التوقف فضده التعسف (١) قال شيخنا رحمه الله : الفرق بين التوقف والتأنى أن التوقف قبل الدخول فى الأمر حتى يستبين له رشده والتأنى بعد الدخول فيه حتى يؤدي لكل جزء منه حقه ثم مقدمات الأناة ذكر وجوه الخطر فى الامور التى تعترض للانسان وضروب الآفات المخوفة فيها وذكرها فى النظر والتثبت من السلامة وما فى التعسف والاستعجال من الندامة والملامة وهذه وأمثالها ما يبعث على التأنى والتوقف فى الأمور ويمنع من الاستعجال والتعسف والله تعالى ولى العصمة برحمته .

وأما التكبر فاعلم أنه خاطر فى رفع النفس واستعظامها — والتكبر اتباعه ، والضعة خاطر فى وضع النفس واحتقارها والتواضع اتباعه وكل واحد منهما عامى وخاصى ، فالتواضع العامى هو الاكتفاء بالدون من الملبس والمسكن والمركب والتكبر فى مقابلته الترفع عن ذلك ، والتواضع الخاصى هو تمرين النفس على قبول الحق ممن كان وضيعا أو شريفا والتكبر فى مقابلته الترفع عن ذلك وهو معصية كبيرة وخطيئة عظيمة ثم حصن التواضع العامى أن تذكر مبدأك ومنتهاك وما أنت عليه فى الحال من ضروب الآفات والاقذار كما قال بعضهم أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بينهما حامل العذرة ، وحصن التواضع الخاصى هو ذكر عقوبة العادل عن الحق المتمادي فى الباطل فهذه جملة كافية لمن استبصر والله الموفق وولى التوفيق .

(الفصل الخامس — فى البطن وحفظه)

ثم عليك يا طالب العبادة بحفظ البطن وإصلاحه فانه أشق الاعضاء إصلاحا على المجتهد وأكثرها مؤنة وشغلا وأعظمها ضررا وأثرا لأنه المنبع والمعدن ومنه تهيج الأمور

---

(١) عسف فى الأمر فعله من غير روية ومنه عسفت الطريق إذا سلكته على غير قصد والتعسف والاعتساف مثله .

Digitized by Birzeit University Library

فى الأعضاء من قوة وضعف وعفة وجماح ونحوه فعليك إذاً بصيانته عن الحرام والشبهة أولا ثم عن فضول الحلال ثانيا إن كانت لك همة فى عبادة الله تعالى فأما الحرام والشبهة فانما يلزمك التجنب عنه لثلاثة أمور :

أولها ـ حذرا من نار جهنم قال الله تعالى : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » وقال النبى صلى الله عليه وسلم كل لحم(١) نبت من سحت فالنار أولى به .

والثانى ـ أن آكل الحرام والشبهة مطرود لا يوفق للعبادة إذ لا يصلح لخدمة الله إلا كل طاهر مطهر ـ قلت أنا : أليس الله تعالى قد منع الجنب عن الدخول فى بيته والمحدث عن مس كتابه قال عز من قائل : « ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا » وقال الله تعالى : « لا يمسه إلا المطهرون » مع أن الجنابة والحدث أمر مباح ، فكيف بمن هو منغمس فى قذر الحرام ونجاسة السحت والشبهة ومتى يدعى إلى خدمة الله العزيز وذكره الشريف سبحانه كلا فلا يكون ذلك أبدا ، وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله الطاعة مخزونة فى خزائن الله تعالى ومفتاحها الدعاء وأسنانه الحلال فاذا لم يكن للمفتاح أسنان فلا ينفتح الباب وإذا لم ينفتح باب الخزانة كيف يصل إلى ما فيها من الطاعة .

والثالث ـ أن آكل الحرام والشبهة محروم من فعل الخير فان اتفق له فعل خير فهو مردود عليه غير مقبول منه فاذن لا يكون له من ذلك إلا العناء والكد وشغل الوقت قال صلى الله عليه وسلم كم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر وكم من صائم ليس له من صيامه

---

(١) الحديث رواه ابن جرير عن ابن عمر ورواه البيهقى فى الحلية عن أبى بكر بلفظ كل جسد نبت من السحت فالنار أولى به قال زيد بن أرقم كان لأبى بكر مملوك يغل عليه فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة ثم قال من أين جئت به ؟ قال مررت فى الجاهلية فرقيت لهم فأعطونى ، فقال أف لك كدت أن تهلكنى فأدخل يده فى حلقه فجعل يتقيأ وجعلت لا تخرج ، فقيل له لا تخرج إلا بالماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها فقيل له : كل هذا من أجل لقمة قال لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (الحديث) والسحت بالضم الحرام قال الذهبى يدخل فيه أى فى السحت الحرام المكاس وقاطع الطريق والسارق والخائن ومن استعار شيئا فجحده ومن طفف فى وزن أو كيل ومن التقط مالا فلم يعرفه وأكله ومن باع شيئا فيه عيب فغطاه والمقامر وهذا الحديث مما تمسك به المعتزلة على أنه لا شفاعة لمرتكب الكبيرة .

Digitized by Birzeit University Library

إلا الجوع والظمأ (١) وعن ابن عباس رضى الله عنهما لا يقبل الله صلاة أمرىء فى جوفه (٢) حرام فهذه هذه .

وأما فضول الحلال فانه آفة العباد وبلية أهل الاجتهاد فانى تأملت فوجدت فيه عشر آفات من أصول فى هذا الشأن :

الأولى ـ أن فى كثرة الأكل قسوة القلب وذهاب نوره روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تميتوا (٣) القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء ، ولقد شبه ذلك بعض الصالحين بأن المعدة كالقدر تحت القلب تغلى والبخار يرتفع إليه فكثرة البخار تكدره وتسخمه .

الثانية ـ أن فى كثرة الأكل فتنة الأعضاء وهيجها وانبعاثها للفضول والفساد فان الرجل إذا كان شبعان بطرا اشتهت عينه النظر إلى مالا يعنيه من حرام أو فضول ، والأذن الاستماع إليه واللسان التكلم والفرج الشهوة والرجل المشى إليه وإن كان جائعا تكون الأعضاء كلها ساكنة هادئة لا تطمح إلى شىء من هذا ولا تنشط له ولقد قال الأستاذ أبو جعفر رحمه الله: إن البطن عضو إن جاع هو شبع سائر الاعضاء يعنى تسكن فلا تطالبك بشىء وإن شبع هو جاع سائر الأعضاء وجملة الأمر أن أفعال الرجل وأقواله على حسب طعامه وشرابه إن دخل الحرام خرج الحرام وإن دخل الفضول خرج الفضول كأن الطعام بذر الافعال والافعال نبت تبدو منه .

الثالثة ـ أن فى كثرة الأكل قلة الفهم والعلم فان البطنة تذهب الفطنة ولقد صدق الدارانى رحمه الله حيث قال : إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها فان الأكل يغير العقل وهذا أمر ظاهر علمه من اختبره .

الرابعة ـ أن فى كثرة الأكل قلة العبادة فان الانسان إذا أكثر الأكل ثقل بدنه وغلبته عيناه وفترت أعضاؤه فلا يجىء منه شىء وإن اجتهد ـ إلا النوم كالجيفة الملقاة ولقد قيل : إذا كنت بطينا فمد نفسك زمينا ولقد ذكر عن يحيى عليه السلام أن إبليس بدا

---

(١) ليس أمامى فى هذا الباب إلا ما أخرجه البخارى وأبو داود والترمذى « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله تعالى حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

(٢) لم أجد هذا الحديث فيما بين يدى من المعاجم ولعله أثر عن ابن عباس نفسه .

(٣) لم أجد هذا اللفظ حديثا فيما بين يدى .

Digitized by Birzeit University Library

له وعليه معاليق ـ أعلق الصائد وقع الصيد فى حبالته ـ فقال له يحيى ماهذه فقال هذه الشهوات التى أصيد بها بنى آدم فقال له هل تجد لى فيها شيئا ؟ قال لا إلا أنك شبعت ذات ليلة فثقلتك عن الصلاة قال يحيى عليه السلام لاجرم أنى لا أشبع بعدها أبدا قال إبليس لاجرم أنى لا أنصح بعدها أحدا أبدا فهذه فيمن لم يشبع فى عمره إلا ليلة فكيف بمن لا يجوع فى عمره ليلة ثم يطمع فى العبادة وقال سفيان رحمه الله العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلتها المجاعة.

الخامسة ـ أن فى كثرة الأكل فقد حلاوة العبادة . قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ما شبعت منذ أسلمت لأجد حلاوة عبادة ربى وما رويت منذ أسلمت اشتياقا إلى لقاء ربى وهذه صفات المكاشفين فكان أبو بكر رضى الله عنه مكاشفا وإليه أشار صلى الله عليه وسلم بقوله ما فضلكم أبو بكر بفضل صوم ولا صلاة وإنما هو بشىء وقر فى نفسه ، وقال الدارانى أحلى ما تكون العبادة إذا التزق بطنى بظهرى .

السادسة ـ أن فيه خطر الوقوع فى الشبهة والحرام لأن الحلال لا يأتيك إلا قوتا ولقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الحلال لا يأتيك إلا قوتا والحرام يأتيك جزافا جزافا .

السابعة ـ أن فيه شغل القلب والبدن بتحصيله أولا وبتهيئته ثانيا ثم بأكله ثالثا ثم بالفراغ عنه والتخلص رابعا بالسلامة منه خامسا بأن تبدو منه آفة فى البدن بل آفات وعلل فى الدنيا ولقد قال صلى الله عليه وسلم أصل كل (١) داء البردة يعنى التخمة وأصل كل دواء الأزمة يعنى الجوع والحمية . وعن مالك بن دينار أنه كان يقول ياهؤلاء لقد اختلفت إلى الخلاء حتى استحييت من ربى بسبب كثرة الأكل فيا ليت أن الله جعل رزقى فى حصاة أمصها حتى أموت ثم لا بد فى هذه الجملة من طلب الدنيا والطمع إلى الناس وتضييع الوقت بسبب كثرة الأكل مالم يخف .

الثامنة ـ ما يناله من أمور الآخرة وشدة سكرات الموت . وروى فى الأخبار أن

---

(١) الحديث رواه الدارقطنى فى العلل عن أنس وابن السنى وأبو نعيم معا فى الطب عن على ورواه تمام وابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى مرسلا ولفظه من كتاب رامز الحديث « أصل كل داء البردة » وهى بفتح الراء سميت بها التخمة لأنها تبرد حرارة الشهوة وتثقل الطعام على المعدة من برد ثبت وسكن وليس فى الأصل الذى أمامى عجز الحديث الموجود فى المنهاج وهو « وأصل كل دواء الأزمة والحمية » بل لفظه ماتقدم .

Digitized by Birzeit University Library

شدة سكرات الموت على قدر لذات الدنيا فمن أكثر من هذه أكثر له من تلك .

التاسعة ـ نقصان الثواب فى العقبى قال الله تعالى : « أذهبتم طيباتكم (١) فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » فانه بقدر ما تأخذ من لذات الدنيا ينقص لك من لذات الآخرة ولهذا المعنى أن الله تعالى لما عرض الدنيا على نبينا (٢) صلى الله عليه وسلم قال له ولا أنقصك من آخرتك شيئا خصه بذلك فدل على أن لغيره النقصان إلا أن يتفضل الله عليه بذلك .

ولقد روي أن خالد بن الوليد أضاف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وهيأ له طعاما فقال عمر هذا لنا فما للفقراء المهاجرين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير ؟ قال خالد لهم الجنة يا أمير المؤمنين قال عمر لئن فازوا بالجنة وكان هذا حظنا من الدنيا فقد بانوا منا بونا مبينا ، وروى أن عمر رضى الله عنه عطش يوما فدعا بماء فأعطاه رجل إداوة فيها ماء نبذ فيه تمرات فلما قربها عمر من فيه وجد الماء باردا حلوا فأمسك وقال أوه فقال الرجل والله ما ألوته حلاوة يا أمير المؤمنين فقال عمر رضى الله عنه ذلك الذى منعنى منه ويحك لولا الآخرة لشاركناكم فى عيشكم .

العاشرة ـ الحبس والحساب واللوم والتعيير فى ترك الأدب فى أخذ الفضول وطلب الشهوات فان الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب وزينتها إلى تباب فهذه جملة العشرة وفى إحداها كفاية لمن نظر لنفسه فعليك أيها المجتهد بالاحتياط البالغ فى القوت كى لا تقع فى حرام أو شبهة فيلزمك العذاب ثم بالاقتصار من الحلال على مايكون عدة على عبادة الله تعالى فلا تقع فى شر فتبقى فى الحبس والله ولى التوفيق .

فان قلت : فبين لنا أولا حكم الحرام والشبهة وحدهما ؟

---

(١) الطيبات : هنا المستلذات من المآكل والمشارب والملابس والمفارش والمراكب والمواطيء وغير ذلك مما يتنعم به ، أهل الرفاهية قال أبو حيان : وهذه الآية محرضة على التقلل من الدنيا وترك التنعم فيها والأخذ بالتقشف وما يجترىء به رمق الحياة قال عمر : أتظنون أنا لا نعرف خفض العيش لكنى أستبقي حسناتى فان الله عز وجل وصف أقواما فقال: « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » قال ابن عباس وهذا من باب الزهد وإلا فالآية نزلت فى كفار قريش .

(٢) ابحث عن هذا العرض فانى لا أعرفه فى كتب السنة التى أمامى . اللهم إلا ما جاء فى الاحياء فى باب الزهد من عرض إسرافيل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل له جبال مكة ذهباً الحديث أما لفظ المنهاج فلم أجده .

Digitized by Birzeit University Library

فأقول : لعمر الله لقد أشبعنا القول فيه فى اسرار معاملات الدين وذكرنا له كتابا مفردا فى كتاب الاحياء لكنا نشير إلى كلمات مفردة بحيث تصل إلى فهم الضعيف المبتدى إذ مقصود هذا الكتاب أن ينتفع به المبتدى فى العبادة ويعين الطالب ، قال بعض العلماء كل ما تيقنت كونه ملكا للغير منهيا عنه فى الشرع فهو حرام محض وأما إذا لم يكن لك يقين بذلك ولكن يغلب على ظنك أنه كذلك فهو شبهة ، وقال آخرون بل الحرام المحض مايكون به علم أو غالب ظن لأن غلبة الظن منا تجرى مجرى العلم فى كثير من الأحكام فأما إذا تساوت الأمارتان حتى تبقى شاكا لايكون لأحدهما ترجيح عندك فذلك شبهة يشبه أنه حلال ويشبه أنه حرام فاشتبه أمره عليك والتبس حاله ثم الامتناع عن الذى هو حرام محض حتم واجب ، وعن الذى هو شبهة تقوى وورع وهذا أولى القوانين عندنا .

فان قيل : فما تقول فى قبول جوائز السلاطين فى هذا الزمان ؟

فاعلم أن العلماء اختلفوا فيه فقال قوم كل مالا يتيقن أنه حرام فله أخذه ، وقال آخرون لا يحل أن يأخذ ما لا يتحقق أنه حلال لأن الأغلب فى هذا العصر على أموال السلاطين الحرام، والحلال فى أيديهم معدوم أو عزيز وقال قوم إن صلات السلاطين تحل للغنى والفقير إذا لم يتحقق أنها حرام وإنما التبعة على المعطى قالوا لأن النبى صلى الله عليه وسلم قبل هدية (١) المقوقس ملك الاسكندرية واستقرض من اليهود مع قول الله سبحانه: «أكالون للسحت» قالوا وقد أدرك جماعة من الصحابة أيام الظلمة وأخذوا منهم فمنهم أبو هريرة وابن عباس وابن عمر وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين ، وقال

---

(١) بعث المقوقس عظيم القبط ردا على كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إليه بأنه يعتقد أن نبياً سيظهر ولكنه سيظهر فى الشام وقد استقبل المقوقس رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يجب له من إكرام وبعث معه بهدية جاريتين وبغلة بيضاء وحمارا ومقدارا من المال وبعض خيرات ، أما الجاريتان فجارية التى اصطفاها النبى صلى الله عليه وسلم لنفسه والتى ولدت له إبراهيم من بعد ، وشيرين التى أهديت لحسان بن ثابت وأما البغلة فأسماها النبى صلى الله عليه وسلم دلدل وكانت فريدة بيضاء بين البغال التى رأتها بلاد العرب وأما الحمار فأسمى عفيرا أو يعفورا وقبل الرسول صلوات الله عليه وسلامه هذه الهدية ولم يسلم المقوقس خشية أن يسلبه الروم ملك مصر هكذا فى كتاب حياة محمد

Digitized by Birzeit University Library

آخرون لا يحل من أموالهم شيء لغنى ولا لفقير إذ هم موسومون بالظلم والغالب على مالهم السحت والحرام والحكم للغالب فيلزم الاجتناب ، وقال آخرون ما لا يتيقن أنه حرام فهو حلال للفقير دون الغنى إلا أن يعلم الفقير أن ذلك عين الغصب فليس له أن يأخذه إلا ليرده على مالكه ولا حرج على الفقير أن يأخذ من أموال السلطان لأنها إن كانت ملك السلطان فأعطى الفقير فله أخذه بلا ريب وإن كانت من فيء أو خراج أو عشر فالفقير فيه حق وكذلك لأهل العلم قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه من دخل الاسلام طائعا وقرأ القرآن ظاهرا فله في بيت مال المسلمين كل سنة مائتا درهم وروى مائتا دينار إن لم يأخذها في الدنيا أخذها في الآخرة وإذا كان كذلك فالفقير والعالم يأخذان من حقهما ، قالوا وإذا كان المال مختلطا بمال مغصوب لا يمكن تمييزه أو غصبا لا يمكن رده على صاحبه وذريته فلا مخلص للسلطان منه إلا بأن يتصدق به وما كان الله ليأمره بالصدقة على الفقير وينهي الفقير عن قبولها أو يأذن للفقير في القبول وهو عليه حرام فاذن للفقير أن يأخذ إلا عين الغصب والحرام فليس له أخذه وهذه المسائل لا يمكن الفتوى فيها إلا ببسط وتشقيق ، واستيعاب القول فيها يخرج عن المقصود من الكتاب فان أردت معرفتها فطالع كتاب الحلال والحرام من كتاب إحياء علوم الدين الذي صنفناه تجده مشروحا مبينا إن شاء الله تعالى .

فان قيل : فما تقول في صلات أهل السوق وغيرهم هل يلزم ردها والبحث عنها وقد علمت مجازفتهم وقلة نظرهم في معاملتهم وكذلك صلات الاخوان ؟

فالجواب أنه إذا كان ظاهر الانسان الصلاح والستر فلا حرج عليك في قبول صلته وصدقته ولا يلزم البحث بأن نقول : قد فسد الزمان فان هذا سوء ظن بذلك الرجل المسلم بل حسن الظن بالمسلمين مأمور به — ثم اعلم ما هو الأصل في هذا الباب وهو أن ههنا شيئين : أحدهما حكم الشرع وظاهره والثاني حكم الورع وحقه ، فحكم الشرع أن تأخذ ما أتاك ممن ظاهره صلاح ولا تسأل إلا أن تتيقن أنه غصب أو حرام بعينه وحكم الورع أن لا تأخذ شيئا من أحد حتى تبحث عنه غاية البحث وتستقصي غاية الاستقصاء فتستيقن أنه لا شبهة فيه بحال وإلا فتركه فلقد روينا عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه أن غلاما له أتاه بلبن فشربه فقال للغلام كنت إذا جئتك بشيء تسألني عنه ولم تسألني عن هذا اللبن ، فقال وما قصته ؟ فقال رقيت قوما في الجاهلية فأعطوني هذا فتقيأه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقال اللهم هذه مقدرتي فما بقي في العروق فأنت حسبه ، فهذا يدلك على وجوب البحث عما تقدم عليه إن كان لك نظر في الورع وحقه فهذه هذه .

Digitized by Birzeit University Library

فان قلت : فكأن الورع يخالف الشرع وحكمه ؟

فاعلم أن الشرع موضوع على اليسر والسماحة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفة السمحة والورع موضوع على التشديد والاحتياط كما قيل الأمر على المتقى أضيق من عقد التسعين ثم الورع من الشرع أيضا وكلاهما فى الأصل واحد ولكن للشرع حكمان: حكم الجواز وحكم الأفضل الأحوط فالجائز يقال له حكم الشرع والأفضل الأحوط يقال له حكم الورع فهما مع تميزهما واحد فى الأصل فافهم ذلك راشدا إن شاء الله تعالى .

فان قلت : فاذا جاز البحث والاستقصاء عن كل شيء فشر علينا ما نأخذه فى هذا الزمان وتعذر الأمر بمرة على صاحب الورع إذ لابدّ له من بلاغ يبلغه إلى الطاعة ؟

فاعلم أن طريق الورع شديد[1] وأن من قصد سلوكه يشترط أن يوطن نفسه وقلبه

---

(١) إن باب الورع فى طريق القوم ليس مما ينال بالقدوة والتقليد والتكلف بل الورع من مقامات الصديقين الموهوبة ولذا من العبث أن يفعله المبتدى لئلا يتعسر عليه الأمر ويخرج عن الرفق والسماحة التى انبنى عليها الاسلام ، قال أبو إسحاق الشاطبى فى الاعتصام : « قد فهم قوم من أصول السلف الصالح وأهل الانقطاع إلى الله ممن ثبتت ولايتهم أنهم كانوا يشددون على أنفسهم ويلزمون غيرهم الشدة أيضا والتزام الحرج ديدنا فى سلوك طريق الآخرة وعدوا من لم يدخل تحت هذا الالتزام مقصرا مطرودا ومحروما وربما فهموا ذلك من بعض الاطلاقات الشرعية فرسخوا بذلك ما التزموه فأفضى الأمر بهم إلى الخروج عن السنة إلى البدعة ، فمن ذلك أن يكون للمكلف طريقان فى سلوكه للآخرة : إحداهما سهل والآخر صعب وكلاهما فى التوصل إلى المطلوب على حد واحد فيأخذ بعض المتشددين بالطريق الأصعب الذى يشق على المكلف مثله ويترك الطريق الأسهل بناء على التشديد النفسى ، ومن ذلك الاقتصار من المأكول على أخشنه وأفظعه لمجرد التشديد لا لغرض سواه وفى الأدلة ما يدل على أن هذا مرفوع عن العباد لأن الشرع لم يقصد إلى تعذيب النفس فى التكليف ففى الحديث الصحيح إن لنفسك عليك حقا وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل الطيب إذا وجده وكان يحب الحلواء والعسل ويعجبه لحم الذراع ويستعذب له الماء فأين التشديد من هذا ولايدخل الاستعمال المباح فى قوله تعالى : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » لما قدمنا ولأن المراد به الاسراف الخارج عن حد المباح فاذاً الاقتصار على البشع فى المأكول =

Digitized by Birzeit University Library

على احتمال الشدة وإلا فلا يتم له ذلك ولهذا المعنى سار الكثير من أهل الورع والسابقون إلى جبل لبنان وغيره فاقتصروا على أكل الحشيش وثمرات نافعة لا شبهة فيها بحال فمن سمت همته إلى نيل منزلة الورع الأعلى فعليه أن يحتمل الشدائد ويصبر عليها ويسلك طريق أولئك لينال منزلتهم ، وأما إن قام بين الناس وأكل مما يتداولونه فى أيديهم فليكن عنده بمنزلة الميتة لا يقدم عليها إلا عند الضرورة ثم لا يتناول منها إلا بمقدار ما يبلغه إلى الطاعة فيكون له عذر فى ذلك ولا يضره وإن كان فى أصله شبهة فإن الله تعالى أولى بالعذر ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله فسد السوق فعليكم بالقوت ، ولقد بلغنى عن وهب بن الورد رحمه الله أنه كان يجوع نفسه يوما أو يومين أو ثلاثة ثم يأخذ رغيفا ويقول : اللهم إنك تعلم أنى لا أقوى على العبادة وأخشى الضعف والألم اللهم إن كان فيه شىء من خبث أو حرام فلا تؤاخذنى به ثم يبل الرغيف بالماء فيأكله ـ قلت : فهذان الطريقان للطبقة العليا من أهل الورع فيا نعلمه وأما من دونهم فلهم احتياط وبحث على مقدار ولهم أيضا نصيب من الورع على مقدار وبقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا وهو عليم بما يفعلون .

فإن قيل : فهذا جانب الحرام فأخبرنا عن جانب الحلال وما حد الفضول الذى يلزم منه الحبس والحساب وما المقدار الذى إذا أخذه العبد يكون ذلك أدبا ولا يكون فضولا ولا عليه فيه حبس ولا حساب ؟

يقال له فاعلم أن أحوال المباح فى الجملة ثلاثة أقسام : أحدها أن يأخذه العبد

= من غير عذر تنطع وقد روى عن الربيع بن زياد الحارثى أنه قال لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه أعد بى على أخي عاصم ، قال ما باله ؟ قال : لبس العباء يريد النسك . فقال على رضى الله عنه : على به فأتى به مؤتزرا بعباءة مرتديا بالأخرى شعث الرأس واللحية فعبس فى وجهه وقال : ويحك أما استحييت من أهلك ؟ أما رحمت ولدك ؟ أترى الله أباح لك الطيبات وهو يكره أن تنال منها شيئا ؟ بل أنت أهون على الله من ذلك أما سمعت الله يقول فى كتابه : « والأرض وضعها » إلى قوله « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » أفترى الله أباح هذه لعباده إلا ليبتذلوه ويحمدوا الله عليه فيثيبهم عليه وإن ابتذالك نعم الله بالفعل خير منه بالقول ، قال عاصم فما بالك فى خشونة مأكلك وخشونة ملبسك ؟ قال : ويحك إن الله فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بصفة الناس » انتهى « من الاعتصام بتصرف » .

Digitized by Birzeit University Library

مفاخرا مكاثرا مباهيا مرائيا فيكون الأخذ منه فعلا منكرا يستوجب على ظاهر فعله الحبس والحساب واللوم والتعيير وهو منكر وشر يستوجب على باطن فعله وهو التكاثر والتفاخر عذاب النار وذلك القصد منه معصية وذنب لقوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد » وقال (١) النبى عليه الصلاة والسلام من طلب الدنيا حلالا مباهيا مكاثرا مفاخرا مرائيا لقى الله تعالى وهو عليه غضبان فالوعيد على قصده ذلك بقلبه — والقسم الثانى أن يأخذ الحلال لشهوة نفسه لاغير ذلك منه شر يستوجب عليه الحبس والحساب لقوله تعالى: « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » وقال(٢) عليه الصلاة والسلام حلالها حساب — والقسم الثالث أن يأخذ من الحلال فى حال العذر قدرا يستعين به على عبادة الله تعالى ويقتصر على ذلك فذلك منه خير وحسنة وأدب لا حساب عليه ولا عقاب بل يستوجب عليه الأجر والمدحة لقوله تعالى : « أولئك لهم نصيب مما كسبوا » وقال صلى الله عليه وسلم من طلب الدنيا حلالا استعفافا عن المسألة وتعطفا على جاره وسعيا على عياله جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر وذلك لما قصد به هذا المقصود المحمود لله سبحانه فهذه هذه فاعلمها .

فان قيل : فما شرط المباح حتى يصير خيرا وحسنة كما ذكرتم ؟

فاعلم أنه يحتاج فى كونه خيرا فى الأصل إلى شرطين : أحدهما الحال والثانى القصد فالحال يجب أن يكون فى حال عذر وهو بحيث إن لم يأخذه تؤخذ نفسه — وتفسيره أن يكون حاله إن لم يأخذ ذلك المباح ينقطع بسببه عن فرض أو سنة أو نفل فيكون ذلك أفضل من ترك المباح فان ترك مباح الدنيا فضيلة فاذا كان الحال كذلك فهو حال العذر، وأما القصد فهو أن يقصد به العدة والاستعانة على عبادة الله سبحانه وهو أن يذكر بقلبه أنه لولا ما فيه من التوصل إلى عبادة الله سبحانه لما أخذت ذلك فهذا ذكر الحجة فلما حصل

---

(١) الحديث رواه أبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة بلفظ « من طلب الدنيا حلالا استعفافا عن المسألة وسعيا على أهله وتعطفا على جاره بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر ومن طلبها حراما مكاثرا بها مفاخرا لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان » .

(٢) الحديث رواه البيهقى موقوفا على سيدنا على رضى الله عنه بلفظ « الدنيا حلالها حساب وحرامها النار » .

Digitized by Birzeit University Library

ذكر الحجة فى حال العذر صار ذلك الأخذ من الدنيا للحلال خيرا وحسنة وأدبا وأما لو كان حاله حال العذر ولا يكون له هذا القصد والذكر أو يكون له هذا القصد والذكر ولا يكون فى حال العذر فلا يصير ذلك الأخذ من جملة الخيرات ثم الاستقامة على حفظ هـذا الأدب تحتاج إلى بصيرة وقصـد مجمل بأنه لا يأخذ من الدنيا بحال إلا للعدة على عبادة الله تعالى حتى أنه إن سها عن ذكر الحجة فى حال أجزأه ذلك القصد المجمل عن تجديد ذكر الحجة قال شيخنا رحمه الله فصارت الأمور الثلاثة معتبرة فيه كل واحد من وجه يعنى أن الذكر والحال معتبران فى حصـول كونه خيرا أصلا والقصـد المجمل المقتضى عن بصيرة بمنزلة الأدب معتبر فى الاستقامة عليه فافهم ذلك راشدا .

فان قيل : فان أخذ من الدنيا الحلال بشهوة فهل يكون ذلك معصـية ، وهل يلزم عليه عذاب وهل الأخذ بالعذر فرض أم لا ؟

فاعلم أن ذلك فضيلة ونسميه خيرا وحسنة والأمر به أمر تأديب والأخذ بالشهوات شر وسيئة والنهى عنـه نهى زجر وأدب وليس ذلك بمعصية ولا يكون عليه عذاب النار وإنما عليه الحبس والحساب واللوم والتعيير .

فان قلت : فما هذا الحبس والحساب اللذان يلزمان العبد ؟

فاعلم أن الحساب أن تسأل يوم القيامة عما ذا اكتسبت وفيما ذا أنفقت وماذا أردت بذلك والحبس حبس عن الجنة مدة الحساب وذلك فى عرصات القيامة بين أهوالهـا ومخاوفها عريانا عطشانا وكفى بذلك بلية .

فان قيل : فاذا قد أحل الله لنا هذا الحلال فاللوم والتعيير فى أخذه لماذا ؟

فاعلم أن اللوم والتعيير لتركه الادب كمن أجلس على مائدة الملك فترك الادب فانه يعير بذلك ويلام وإن كان الطعام له مباحا فالاصل فى هذا الباب أن الله تعالى خلق العبد لعبادته وهو عبد لله تعالى من كل وجه فحق للعبد أن يعبد الله تعالى من كل وجه يمكنه ويجعل أفعاله كلها عبادة من أى وجـه أمكنه فان لم يفعل ذلك وآثر شهوة نفسه واشتغل بذلك عن عبادة ربه مع تمكنه من ذلك من غير تعذر والدار دار خدمة وعبادة لا دار تنعم وشهوة فيستحق اللوم بذلك والتعيير من سيده فتأمل هذا الاصـل راشدا ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم فهذه الجملة التى أردنا بيانها فى إصلاح النفس وإلجامها بلجام التقوى فارعها حقها واحتفظ بها جدا تفز بالخير الكثير فى الدارين إن شاء الله تعالى والله ولى العصمة والتوفيق بفضله .

Digitized by Birzeit University Library

فصل : فعليك أيها الرجل ببذل المجهود فى قطع هذه العقبة العظيمة الطويلة فانها أعظم العقبات شدة وأكثرها مؤونة وأكثرها آفة وفتنة فان من هلك من الخلق كلهم إنما انقطعوا عن طريق الحق إما بسبب دنيا أو خلق أو شيطان أو نفس ولقد ذكرنا فى كتبنا المصنفة من كتاب الاحياء والأسرار والقربة إلى الله ما يبعث على الاهتمام بذلك ومقصود هذا الكتاب أنى سألت الله أن يطلعنى على سر معالجة النفس وأن يصلحنى ويصلح بي فاقتصرت فى هذا الكتاب الشريف على نكت وجيزة اللفظ غزيرة المعنى تنفع من تأملها وتدعه على واضحة من الطريق إن شاء الله تعالى وهذا الفصل يختص بنكت فى معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس .

أما الدنيا (١) فحق لك أن تحذرها وتزهد فيها لأن الأمر لا يخلو من ثلاثة : إما أنت من ذوى البصائر والفطن فحسبك أن الدنيا عدوة الله سبحانه وهو حبيبك ووليك وأن الدنيا نقيضة عقلك والعقل قيمتك ، وإما أنت من ذوى الهمم والاجتهاد فى عبادة الله تعالى فحسبك أن الدنيا بلغ من شؤمها ما يمنعك من إرادتها وتشغلك الفكرة فيها عن العبادة والخير فكيف نفسها ، وإما أنت من أهل الغفلة لا بصيرة لك تبصر الحقائق ولا همة لك تبعث على المكارم فحسبك أن الدنيا لا تبقى إما أن تفارقها وإما أن تفارقك كما قال الحسن إن بقيت لك الدنيا لم تبق لها فأى فائدة لك إذن فى طلبها وإنفاق العمر العزيز عليها ولقد أحسن القائل :

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى زوال

---

(١) الدنيا التى يتحدث عنها الغزالى ويحذر منها هى اللعب واللهو والتفاخر والتكاثر فى الأموال والأولاد فهي بهذا المعنى الذى نص عليه القرآن عدوة لأولياء الله قال صاحب الطريقة المحمدية : فآفاتها كونها عدوة لله تعالى وصادة عن عبادة الله تعالى ومفضية إلى المعاصى والمناهى وحط الدرجات وشدة الحساب بل العذاب فى الآخرة وقلة غنائها وكثرة عنائها وسرعة فنائها وخسة شركائها روى البيهقى عن موسى بن يسار رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها » وهذا لأن أبغض الخلق إلى الله من آذى أولياءه وشغل أحبابه وصرف وجوه عباده عنه وحال بينهم وبين السير إليه والاقبال عليه فهى فتنة ومحنة حتى لكبار الاولياء وخواص الاصفياء .

Digitized by Birzeit University Library

فما ترجو بعيش ليس يبقى وشيكا قد تغيره الليالى
وما دنياك إلا مثل ظل أظلك ثم آذن بارتحال

فلا ينبغي للعاقل إذاً أن يخدع بها ولقد صدق القائل فيما قال :

أضغاث نوم أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وأما الشيطان فحسبك فيه ما قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وقل(١) رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون » فهذا خير العاملين وأعلمهم وأعقلهم وأفضلهم عند الله تعالى يحتاج مع ذلك أن يستعيذ بالله من شر الشيطان فكيف بك مع جهلك ونقصك وغفلتك .

وأما الخلق (٢) فحسبك فيهم أنك لو خالطتهم ووافقتهم فى أهوائهم أثمت وأفسدت أمر آخرتك وإن خالفتهم تعبت بأذياتهم وجفواتهم وكدرت عليك أمر دنياك ثم لا تأمن أن يلجئوك إلى معاداتهم ومناوأتهم فتقع فى شرهم ولانهم أن مدحوك وعظموك أخاف عليك الفتنة والعجب وإن ذموك وحقروك أخاف عليك الحزن تارة والغضب لغير الله تعالى أخرى وكلا الأمرين آفة مهلكة ثم اذكر حالك معهم بعد ما صرت فى القبر بثلاثة أيام كيف يتركونك ويهجرونك وينسونك ولا يكادون يذكرونك كأنك لم ترهم يوما ولم

---

(١) أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ من نخسات الشياطين ، والهمز من الشيطان عبارة عن حثه على العصيان والاغراء به كما يهمز الرائض الدابة لتسرع قال أبو حيان : والظاهر أنه أمر بالاستعاذة من حضور الشياطين فى كل وقت ، وعن ابن عباس عند تلاوة القرآن .

(٢) لاريب أن الانسان مدنى بالطبع فلا غنى له عن الاجتماع ببنى جنسه ليقضى حاجاته والحياة شركة يساهم فيها كل فرد بنصيبه مع هذا المجموع غير أن طلاب الآخرة وعشاق الحقيقة من فلاسفة الامة وخواصها لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بالخلوات والاعتزال فى بعض الأوقات ليعيشوا بأفكارهم وأرواحهم فى طلب الحقيقة والاغتراف من مناهل الغيب ، واختلاء سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غار حراء أول البعثة دليل أن انفتاح أبواب الغيب لا يكون فى المشاهد والمجالس ، وعشاق السمر والاحاديث فى مختلف النوادى والمجامع بعيدون عن الاغتراف من بحر الحقيقة أما الانقطاع بالكلية عن الخلق فليس من سنن ديننا .

Digitized by Birzeit University Library

يروك فلا يبقى هنالك إلا الله سبحانه ، أفلا يكون من الغبن العظيم أن تضيع أيامك مع هؤلاء الخلق مع قلة الوفاء وقلة البقاء معهم وتترك خدمة الله تعالى الذى يرجع إليه الأمر وحده فلا يبقى لك إلا هو أبد الآبدين والحاجات كلها إليه والتكلان كله عليه والاعتصام كله فى كل حال وعند كل شدة وهول به وحده لاشريك له فتأمل يامسكين لعلك ترشد إن شاء الله تعالى والله ولى الهداية بفضله .

وأما النفس (١) فحسبك ما تشاهده من حالاتها ورداءة إرادتها وسوء اختيارها فهى فى حال الشهوة بهيمة وفى حال الغضب سبع وفى حال المصيبة تراها طفلا صغيرا وفى حال النعمة تراها فرعونا وفى حال الجوع تراها مجنونا وفى حال الشبع تراها مختالا إن أشبعتها بطرت ومرحت وإن جوعتها صاحت وجزعت فهى كما قال القائل :

كحمار السوء إن أشبعته رمح الناس وإن جاع نهق

ولقد صدق بعض الصالحين حيث قال: إن من رداءة هذه النفس وجهلها بحيث إذا همت بمعصية أو انبعثت لشهوة فثنيتها أو تشفعت إليها بالله سبحانه ثم برسوله عليه السلام وبجميع أنبيائه وبكتابه وبجميع السلف الصالح من عباده وتعرض عليها الموت والقبر والقيامة والجنة والنار لا تعطى الانقياد ولا تترك الشهوة ثم إن استقبلتها بمنع رغيف تسكن وتترك شهوتها لتعلم خستها وجهلها فاياك أيها الرجل أن تغفل عنها فانها كما قال خالقها العالم بها جل جلاله : « إن النفس لأمارة بالسوء » فكفى بهذا تنبيها لمن عقل — ولقد بلغنا عن بعض الصالحين يقال له أحمد بن أرقم البلخي رحمه الله أنه قال: نازعتنى نفسى بالخروج إلى الغزو فقلت سبحان الله إن الله يقول : « إن النفس لأمارة بالسوء » وهذه تأمرنى بالخير لايكون هذا أبدا ولكنها استوحشت فتريد لقاء الناس لتستروح إليهم ويتسامع الناس بها فيستقبلونها بالتعظيم والبر والاكرام ، فقلت لها لا أنزلك العمران ولا أنزلك على معرفة فأجابت فأسأت الظن بها وقلت: الله تعالى أصدق القائلين، فقلت لها أقاتل العدو حاسرا فتكونين أول قتيل فأجابت فأسأت الظن بها وعدد أشياء مما أرادها فأجابت إلى كل ذلك ، قال فقلت يارب نبهنى لها فانى متهم لها مصدق لك فكوشفت بها كأنها تقول يا أحمد

---

(١) من رأيى أن الاشتغال بأحوال النفس وخواطرها وشهواتها وأحوالها وأعمالها بل ومحاسبتها حجاب عن الحق سبحانه فليرحل الانسان عن نفسه بالكلية ولا يشتغل إلا بالحق سبحانه ، وبالجملة ينسى نفسه فى جانب محبوبه قيل عن البسطامى فى إحدى مناجاته قال : يارب كيف أصل إليك ؟ فسمع — دع نفسك وتعال. هكذا سمعت من شيوخى فى الطريق .

Digitized by Birzeit University Library

أنت تقتلنى كل يوم بمنعك إياى من شهواتى مرات وبمخالفتك ولا يشعر به أحد فان قاتلت قتلت قتلة واحدة فنجوت منك ويتسامع الناس فيقولون استشهد أحمد ويكون لى شرف وذكر، قال : فقعدت ولم أخرج إلى الغزو فى ذلك العام، فانظر إلى خداع النفس وغرورها ترائى الناس بعد الموت بعمل لم يكن بعد ولقد صدق القائل وأحسن فيما قال :

توق نفسك لا تأمن غوائلها فالنفس أخبث من سبعين شيطانا

فتنبه رحمك الله لهذه الخداعة الامارة بالسوء ووطن على مخالفتها قلبك بكل حال تصب وتسلم إن شاء الله تعالى، ثم عليك بالجامها بلجام التقوى ولاحيلة لها سواه ـ واعلم أن ههنا أصلا أصيلا وهو أن العبادة شطران : شطر الاكتساب وشطر الاجتناب فالاكتساب فعل الطاعات والاجتناب الامتناع عن المعاصى والسيئات وهو التقوى(١)

---

(١) التقوى : هى فى اللغة من وقاه فاتقى يتقى والوقاية فرط الصيانة ، وفى الشريعة لها معنيان : عام وهو الصيانة والاجتناب عن كل مضر فى الآخرة وأدنى ذلك اجتناب الشرك المخلد فى النار وأعلاه التنزه عما يشغل سره عن الحق تعالى والتبتل إليه بالكلية وذلك باستغراق الوقت والأحوال فى ذكره تعالى بالقلب أو اللسان مع مواطأة القلب ، وخاص وهو المتعارف فى الشرع المراد عند الاطلاق وعدم القرينة أعنى صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك فاجتناب الكبائر لازم فيه بالاتفاق لايجابها العقوبة قطعا بل اجتناب الشبهات من لوازم التقوى ، فقد أخرج الترمذى وحسنه والحاكم وصححه عن عطية رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به بأس » قال المناوى أن يترك فضول الحلال حذرا من الوقوع فى الحرام ، قال صاحب الطريقة وفرط الصيانة يقتضى الاجتناب عن الصغائر والشبهات لكن الاحتراز عن جميع الشبهات لا يمكن فى هذا الزمان لغلبة الشبهات لشيوع الجهل وعسر التجنب عنها ، فتعين لزوم اجتناب كل حرام ومكروه تحريما فى تحقق التقوى ، قيل وترك السنن المؤكدة بلاعذر عمدا داخل فى المكروه تحريما والغزالى قدس الله سره قسم العبادات إلى تخلية وتحلية فأما التخلية فتجنب العوارض والموانع والشواغل والحجب وإبعادها عن القلب بالمحو والازالة أو التقليل بقدر الامكان وقد سمى هذا فى كتاب الاحياء قسم المهلكات ، وأما التحلية فهى كسوة القلب بالمحامد والآداب والأخلاق وسماه فى الاحياء بالمنجيات وههنا فى المنهاج سماهما الاكتساب والاجتناب .

Digitized by Birzeit University Library

وإن شطر الاجتناب على كل حال أسلم وأصلح وأفضل وأشرف للعبد من شطر الاكتساب ولذلك يشتغل المبتدئون من أهل العبادة الذين هم فى أول درجة من الاجتهاد بشطر الاكتساب كل همتهم أن يصوموا نهارهم ويقوموا ليلهم ونحو ذلك ، ويشتغل المنتهون أولو البصائر من أهل العبادة بشطر الاجتناب إنما همتهم أن يحفظوا قلوبهم عن الميل إلى غير الله تعالى ويطونهم عن الفضول وألسنتهم عن اللغو وأعينهم عن النظر إلى ما لا يعنيهم - ولهذا المعنى قال العابد الثانى من العباد وكانوا سبعة ليونس يايونس إن من الناس من حبب إليهم الصلوات فلا يؤثرون عليها شيئا وهى عمود العبادة بالثبات لله والصدق والتضرع والابتهال ، ومنهم من حبب إليهم الصوم فلا يؤثرون عليه شيئا ومنهم من حبب إليهم الصدقة فلا يؤثرون عليها شيئا ، يايونس وأنا مفسر لك هذه الخصال فاجعل طول صلاتك الصبر على البأساء والتسليم لأمر الله عز وجل ، واجعل صومك الصمت عن كل سوء ، واجعل صدقتك كف الأذى فانك لا تتصدق بشىء أفضل منه ولا تصوم بشىء أزكى منه ، فاذا علمت أن جانب الاجتناب أولى بالرعاية والاجتهاد فيه فان حصل لك الشطران جميعا الاكتساب والاجتناب فقد استكمل أمرك وحصل مرادك وقد سلمت وغنمت وإن لم تبلغ إلا إلى أحدهما فليكن ذلك جانب الاجتناب فتسلم إن لم تغنم والاخسرت الشطرين جميعا وما ينفعك قيام ليل وتعبه ثم تحبطه بارادة واحدة ، ومايغنيك صيام نهار طويل ثم تفسده بكلمة واحدة ، ولقد روينا عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قيل له ما تقول فى رجلين أحدهما كثير الخير كثير الشر والآخر قليل الخير قليل الشر قال لا أعدل بالسلامة شيئا ، ومثال ماقلناه حال المريض وذلك أن معالجة المريض نصفان نصف هو الدواء ونصف هو الاحتماء فان اجتمعا فكأنك بالمريض قد برىء وصح وإلا فالاحتماء به أولى إذ لا ينفع دواء مع ترك الاحتماء ولقد ينفع الاحتماء مع ترك الدواء ، ولقد قال(١) صلى الله عليه وسلم أصل كل دواء الحمية والمعنى بها والله أعلم أنها تغنى عن كل دواء ، ولذا يقال إن أهل الهند جلّ معالجتهم الحمية بمنع المريض عن الاكل والشرب والكلام عدة أيام فيبرأ ويصح بذلك لاغير - فتبين لك بهذه الجملة أن التقوى ملاك الأمر وجوهره وأهلها هم الطبقة العليا من العباد فعليك ببذل المجهود فى ذلك وصرف

---

(١) حديث « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل بدن بما اعتاد » لم يجده العراقى مخرج حديث الاحياء ولم أجده أيضا فى المعاجم التى عندى .

Digitized by Birzeit University Library

كل العناية إلى ذلك والله سبحانه ولى التوفيق برحمته .

(فصل) ثم راع هذه الأعضاء الأربعة التى هى الأصول :

الأول ـ العين وحسبك فيها أن مدار أمر الدين والدنيا على القلب وأن خطر القلب وشغله وفساده فى الأكثر من العين ولذلك قال على رضى الله عنه : من لم يملك عينه فليس للقلب عنده قيمة .

الثانى ـ اللسان وحسبك أن فيه ربحك وغنيمتك وثمرة تعبك واجتهادك كله للعبادة والطاعة وأن خطر العبادة وإحباطها وإفسادها فى الأكثر من قبل اللسان بالتصنع والتزين والغيبة ونحوها ، يتلف عليك بلفظة واحدة ماتعبت فيه سنة واحدة بل خمسا وعشرا ولذلك قيل : ماشىء أحق بطول السجن من اللسان ، وفيما روى أن أحد العباد السبعة قال ليونس عليه السلام يايونس إن العباد إذا اجتهدوا فى العبادة لم يتقوّوا على عباتهم بشىء أفضل من الصبر عن ترك الكلام فى فصل طويل ، ثم عاد إلى ذلك فقال ولا يكونن عندك شىء آثر من حفظ لسانك ولا تكونن لشىء أعنى به من سلامة صدرك فهذه هذه ، ثم اذكر الأنفاس التى تكلمت فيها بفضول ما كان يضرك لو قلت : أستغفرالله فربما يوافق ساعة عزيزة فيغفر الله لك فتربح رأس مالك ، أو قلت لا إله إلا الله فيكون لك من الاجر والذخر مالا يحيط به وهمك ، أو تقول : أسأل الله العافية فربما يتفق حسن نظر فيستجيب الله تعالى دعوتك فتجوت من بلية الدنيا والآخرة ، ألا يكون من الخسران العظيم والغبن الفظيع أن تفوت على نفسك كل هذه الفوائد الكريمة وتجعل نفسك ووقتك فى فضول أقل مايلزمك فيه اللوم والحساب والحبس يوم القيامة ولقد أحسن القائل فى قوله :

وإذا ماهممت بالنطق فى البا طل فاجعل مكانه تسبيحا

الثالث ـ البطن وحسبك أن مقصودك العبادة وأن الطعام بذرالعمل وماؤه منه يبدو وينبت وإذا خبث البذر لا يطيب الزرع بل فيه خطر أن يفسد عليك أرضك فلا تفلح أبدا ، ومن ذلك ما بلغنا عن معروف الكرخى أنه قال : إذا صمت فانظر على أى شىء تفطر وعند من تفطر وطعام من تأكل فكم من يأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه فلا يعود إلى حاله أبدا ، كم من أكلة حرمت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة وإن العبد ليأكل أكلة فيحرم بها قيام سنة فعليك أيها الرجل بالنظر الدقيق والاحتياط البالغ الشديد فى قوتك إن كانت لك عناية بقلبك وهمة فى عبادة ربك هذا

Digitized by Birzeit University Library

فى أصل القوت حتى يكون من وجهه ، ثم عليك بالادب فيه وإلا كنت حمالا للطعام مضيعاً للايام ، إذ قد علمنا يقينا بل رأينا عيانا أن العبادة لا يجىء منها شىء إذا امتلأ البطن وإن أكرهت النفس على ذلك وجاهدت بضروب الحيل فلا يكون لتلك العبادة لذة ولا حلاوة ولذلك قيل : لا تطمع فى حلاوة العبادة مع كثرة الأكل وأى نور فى نفس بلا عبادة وفى عبادة بلا لذة ولا حلاوة ، ولهذا المعنى قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله صحبت أكثر رجال الله تعالى فى جبل لبنان فكانوا يوصونى إذا رجعت إلى أبناء الدنيا فعظم بأربع خصال : قل لهم من يكثر الأكل لا يجد لذة العبادة ، ومن نام كثيرا لا يجد فى عمره بركة ، ومن طلب رضا الناس فلا ينتظر رضا الرب ، ومن يكثر الكلام بالفضول والغيبة فلا يخرج من الدنيا على دين (١) الاسلام ، وعن سهل رحمه الله أنه قال : جماع الخير كله فى هذه الخصال الأربع وبها صارت الأبدال أبدالا إنحاص البطون والصمت والاعتزال عن الخلق وسهر الليل ، وقال بعض العارفين الجوع رأس مالنا ومعناه أن ما يحصل لنا من فراغ وسلامة وعبادة وحلاوة وعلم وعمل نافع بسبب الجوع والصبر عليه لله سبحانه .

وأما القلب فحسبك أنه أصل الكل إن أفسدته فسد الكل وإن أصلحته صلح الكل إذ هو الشجرة (٢) وسائر الاعضاء أغصان ومن الشجرة تشرب

---

(١) لا يبعد أن تكون الغيبة فى بعض الأحوال مكفرة ، ففى الطريقة المحمدية ثم إن الغيبة على ثلاثة أضرب : الأول أن تغتاب وتقول لست أغتاب لانى أذكر ما فيه فهذا كفر ذكره الفقيه أبو الليث فى التنبيه لأنه استحلال للحرام القطعى ، والثانى أن تغتاب وتبلغ غيبة المغتاب فهذه معصية لا يتم التوبة عنها إلا بالاستحلال لأنه أذاه فكان فيه حق العبد أيضا وهذا تحمل قوله عليه الصلاة والسلام فيما خرجه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الأوسط عن جابر رضى الله تعالى عنه «الغيبة أشد من الزنا قيل وكيف ؟ قال : الرجل يزنى ثم يتوب عنه فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه » والثالث إن لم تبلغ الغيبة فيكفيه التوبة والاستغفار له ولمن اغتابه فقد أخرج ابن أبى الدنيا عن أنس رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كفارة من اغتبته أن تستغفر له » انتهى .

(٢) قال ابن القيم فى مفتاح دار السعادة تعليلا لمفهوم كلام أبى حامد تقدس سره إن جميع العروق التى فى البدن كلها متصلة بالقلب إما بنفسها وإما بواسطة ، فما من عرق ولا عضو إلا وله اتصال بالقلب اتصالا قريبا أو بعيدا قالوا وينبعث منه فى تلك العروق والمجارى إلى كل عضو ما يناسبه ويشاكله فينبعث منه إلى العينين ما يكون منه حس =

Digitized by Birzeit University Library

الأغصان وتصلح وتفسد ، وأنه الملك وسائر الأعضاء تبع وأركان وإذا صلح الملك صلحت الرعية وإذا فسد فسدت الرعية ، فاذن صلاح العين واللسان والبطن وغيره دليل على صلاح القلب وعمرانه وإذا رأيت فيه خللا وفسادا فاعلم أن ذلك من خلل فى القلب وفساد وقع ثم بل الفساد فيه أكثر فاصرف عنايتك إليه فأصلحه يصلح لكل بمرة فتستريح ، ثم أمره دقيق عسير إذ هو مبنى على الخواطر وهى ليست تحت يدك والامتناع من اتباعها مجهود طاقتك ففيه أقصى المشقة ولهذا المعنى صار إصلاحه أشد على أهل الاجتهاد والاهتمام بأمره أكثر وأكبر عند ذوى البصائر ، وعن أبى يزيد رحمه الله أنه قال : عالجت قلبى عشراً ولسانى عشراً ونفسى عشراً فكان قلبى أصعب الثلاثة فهذه هذه ـ ثم عليك بالاهتمام بالخصال الأربع التى ذكرناها من الأمل والعجلة فى الأمور والحسد والكبر وإنما خصصنا هذه الاربعة من بين سائر الخصال فى هذا الموضع وحضضنا على الاحتراس منها لأنها عال القراء خاصة إذ هى تعترى سائر الناس عموما والقراء خصوصا فتكون أقبح وأشنع ، ترى الرجل القارىء يطول الأمل ويعده نية خير فيوقعه فى الكسل والتوانى فى العمل وتراه يستعجل فى تحصيل منازل الخير فينقطع عنها ، أوفى إجابة دعاء صالح فيحرم من ذلك أو فى الدعاء على أحد بسوء فيندم على ذلك كما ذكر عن نوح عليه السلام ، وتراه يحسد نظراءه على ما أتاهم الله من فضله حتى ربما يبلغ منه ذلك مبلغا يحمله على قبائح وفضائح لا يقدم عليها فاسق ولا فاجر ، ولهذا المعنى قال سفيان الثورى رحمه الله ما أخاف على دمى إلا القراء (١) والعلماء فاستنكروا منه ذلك فقال :

= البصر وإلى الأذنين مايدرك به المسموعات ، وإلى اللحم مايكون منه حس اللمس وإلى الأنف ما يكون به حس الشم وإلى اللسان ما يكون به حس الذوق وإلى كل ذى قوة ما يمد قوته ويحفظها فهو المعد لهذه الأعضاء والحواس والقوى ، ولهذا كان الرأى الصحيح أنه أول الأعضاء تكوينا قالوا : ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وإن كان قد خالف فى ذلك آخرون وقالوا بل العقل فى الرأس ، فالصواب أن مبدأه ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته فى الرأس والقرآن قد دل على هذا بقوله : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » وقال : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد ما فيه من العقل واللب انتهى .

(١) رضى الله عن سفيان الثورى وعن ابراهيم النخعى ماقالا إلا صدقا فقد خالطت =

Digitized by Birzeit University Library

ما أنا قلته إنما قاله إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى ، وعن عطاء قال : قال لي الثوري رحمه الله احذروا القراء واحذرونى معهم فلو خالفتُ أودّهم لي فى رمانة فأقول إنها حلوة ويقول إنها حامضة ما أمنته أن يسعى بدمى إلى سلطان جائر ، وعن مالك بن دينار أنه قال : إنى أقبل شهادة القراء على جميع الخلق ولا أقبل شهادة بعضهم على بعض لأنى وجدتهم حسّادا ، وعن الفضيل أنه قال لابنه اشتر لى دارا بعيدة من القراء مالى ولقوم إن ظهرت منى زلة هتكونى وإن ظهرت على نعمة حسدونى وكذلك تراه يتكبر على الناس ويستخف بهم مصعرا (١) خده معبسا وجهه كأنما يمن على الناس بما يصلى زيادة ركعتين أو كأنما جاءه من الله تعالى منشور بالجنة أو البراءة من النار أو كأنه استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس ، ثم مع ذلك يلبس لباس المتواضعين من صوف وغيره ويتباوت وهذا لا يليق بالترفع والتكبر ولا يلائمه بل يناقضه ولكن الأعمى لا يبصر ، وذكر أن فرقدا السنجي دخل على الحسن وعليه كساء ، وعلى الحسن حلة فجعل يلمسها فقال الحسن : مالك تنظر إلى ثيابى ؟ ثيابى ثياب أهل الجنة وثيابك ثياب أهل النار بلغنى أن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية ثم قال الحسن : جعلوا الزهد فى ثيابهم والكبر فى صدورهم والذى يحلف به لأحدكم بكسائه أعظم كبرا من صاحب المطرف (٢) بمطرفه ، وإلى هذا المعنى يشير ذو النون رحمه الله حيث قال :

تصوّف فازدهى بالصوف جهلا (٣) وبعض الناس يلبسه مجانه

= بنفسى القراء فوجدت منهم ذلك وإن هذا لأمر يحار فيه اللبيب أن يحتضن القراء أقبح رذيلة خص بها إبليس لعنه الله .

(١) صعّر وأصعر وصاعر فلان خده ، أماله عن النظر إلى الناس تهاونا من كبر

(٢) المطرف ثوب من خزّ له أعلام ، ولله در الغزالى فى وصفه لحسد القراء وصلف الصوفية ولئن قلت إن الصوفى الحقيقى لا يعرفه أحد ولا يميزه عن الناس شىء فلا أعدو الحقيقة .

(٣) رضى الله عنك يا أبا حامد ، لقد نعيت متصوفة زمنك الذين يلبسون الصوف فيتيهون بصوفهم وتصوفهم فما بالك قدس الله سرك لو رأيت متصوفة زماننا الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويلبسون الحرير والديباج ويركبون المراكب الفخمة ويجمعون المال ويحبونه حبا جما ويتزوجون حسان النساء مثنى وثلاث ورباع ويجمعون فى موائدهم مناعم المآكل وصنوف المشتهيات .

Digitized by Birzeit University Library

يريك مهانة ويريك كبرا وليس الكبر من شكل المهانه
تصوّف كي يقال له أمين وما معنى تصوفه الأمانه
ولم يرد الاله به ولكن أراد به الطريق إلى الخيانه

فلتحذر أيها الرجل من هذه الآفات الأربع التى ذكرناها لاسيما الكبر فان الثلاث الأول مداحض (١) لو زللت فيها لوقعت فى العصيان ، والكبر مدحض لو زللت فيه لوقعت فى بحار الكفر والطغيان ولا تنفس حديث إبليس وفتنته أنه أبى واستكبر وكان من الكافرين ، والرجوع إلى الله عز وجل أن يعصمنا جميعا بحسن نظره إنه الجواد الكريم .

(فصل) وجملة الأمر أنك إذا نظرت بعقلك أيها الرجل فعلمت أن الدنيا لابقاء لها وأن نفعها لايفى بضرها وتبعاتها من كد البدن وشغل القلب فى الدنيا والعذاب الأليم والحساب الطويل فى الآخرة الذى لاطاقة لك به ، فاذا علمت ذلك جدا زهدت (٢) فى فضولها فلا تأخذ منها إلا مالابد لك منه فى عبادة ربك وتدع التنعم والتلذذ إلى الجنة دار النعيم المقيم فى جوار رب العالمين الملك القادر الغنى الكريم وعلمت أن الخلق لا وفاء لهم وأن مؤنتهم أكثر من معونتهم فيما يعنيك وتركت مخالطتهم إلا فيما لابد لك منه تنتفع بخيرهم وتجتنب من ضررهم وتجعل صحبتك لمن لاتخسر فى صحبته ولا تندم على خدمته وأنسك بكتابه وملازمتك إياه فيكون لك بكل حال وترى منه كل جميل وإفضال وتجده عند كل نائبة فى الدنيا والآخرة كما قال عليه السلام : احفظ الله تجده حيث اتجهت وعلمت

---

(١) دحض دحوضا ودحضا رجله زلقت .

(٢) لاريب أن الزهد ليس صناعة ولا أمرا يمكن أن يأخذ بالتكلف والممارسة فأبو حامد يحكى مراقى وأحوالا لمن ساروا فى طريق الله وإلا فلو حاولت أن تزهد وتترك بعض مافى يدك وتحتفظ الباقى من غير أن تستعد نفسك وروحك لهذا المقام لتشوش أمرك ولعب الشيطان بعقلك فاياك أن تخرج عن طريق الشرع الظاهرى فتزل قدمك «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله» فالزهد مقام من مقامات الصديقين ومقامات الصديقين كما قال سيدى محيى الدين بن العربى وهبية ولكنها لمن كان مؤهلا لها فأعلى درجات الولاية أول مراتب النبوة والنبوة ليست مكتسبة « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

Digitized by Birzeit University Library

أن الشيطان خبيث قد تجرد لمعاداتك فاستعذ بربك القادر القاهر من هذا الكلب اللعين ولا تغفل عن مكايده ومصايده فتطرده بذكر الله سبحانه ولا تعبأن بذلك فانه يسير إذا ظهرت منك عزيمة الرجال وأنه كما قال الله تعالى: « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » ولقد صدق أبو حازم فيما قال : ماالدنيا وما إبليس أما الدنيا فما مضى منها فحلم ومابقى فأماني ، وأما الشيطان فوالله لقد أطيع فما نفع ولقد عصي فما ضر وعلمت جهالة هذه النفس وجماحها إلى مايضرها ويهلكها فنظرت إليها رحمة لها نظر العقلاء والعلماء الذين ينظرون فى العواقب لانظر الجهال والصبيان الذين ينظرون فى الحال ولا يفطنون لغائلة الأذى وينفرون من مرارة الدواء فألجمتها بلجام التقوى بأن تمنعها عما لاتحتاج إليه بالحقيقة من فضول كلام ونظر وطعام وتلبس بخصلة فاسدة من طول أمل أو عجلة أو حسد مسلم أو تكبر فى غير موضعه أو أكل بمحض شهوة وشره وتعطيها ماليس لها منه بد ولا تخاف منه ضررا إذ لاضرورة إلى الفضول وقد وسع الله تعالى الأمر على عباده برحمته وأغناهم عن جميع ما يضرهم فى أمر دينهم فأى حاجة إلى ذلك ، فان الأمر كما قال بعض الصالحين : إن التقوي أهون شيء ، إذا رابني شيء تركته فان النفس تستكين وتعود ماعودتها وإنها كما قال القائل :

فالنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وقال آخر : هى النفس ما حملتها تتحمل

ويروى ما عودتها تتعود

وقال آخر :

صبرت عن اللذات حتى تولت وألزمت نفسى صبرها فاستمرت

وما النفس إلا حيث يجعلها التقى فان أطعمت ناقت وإلا تسلت

فاذا علمت الذي وصفناه كنت من الزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة واعلم أن من سمى باسم الزاهد فلقد سمي بأ لف اسم ممدوح ، وكنت من المنفردين المنقطعين إلى الله سبحانه الذين هم أهل الأنس وخدم رب العالمين فتكون كما قال القائل :

تشاغل قوم بدنياهم وقوم تخلوا لمولاهم

فألزمهم باب مرضاته وعن سائر الخلق أغناهم

يصفون بالليل أقدامهم وعين المهيمن ترعاهم

فطوبى لهم ثم طوبى لهم إذا بالتحية حيّاهم

Digitized by Birzeit University Library

وكنت من الزاهدين المجاهدين فى الله الحواص من عباد الله تعالى الذين قال فيهم سبحانه : «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان» وكنت من المتقين الذين لهم سعادة الدارين وصرت حينئذ أفضل من كثير من الملائكة المقربين إذ ليست لهم شهوة تدعو إلى قبيح ولا نفس خبيثة وكنت قد خلفت هذه العقبة الطويلة الشديدة وراءك وسبقت العوائق كلها إلى مقصودك ولا يهولنك فانه مع الاستعانة بالله والاعتصام به لهين، نسأل الله تعالى وهو خير مسئول أن يمدك وإيانا بحسن توفيقه وعونه وتيسيره فانه الكافى لكل مهم والاستعانة به فى كل معضل فبيده الخلق والأمر وهو على كل شىء قدير فهذا ما أردنا ذكره فى هذا الباب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(الباب الرابع فى العقبة الرابعة وهى عقبة العوارض)

ثم عليك ياطالب العبادة وفقك الله بكف العوارض الشاغلة عن عبادة الله تعالى وسد سبيلها عنك لئلا تشغلك عن مقصودك وقد ذكرنا أنها أربعة : أحدها الرزق ومطالبة النفس بذلك وإنما كفايته فى التوكل ، فعليك بالتوكل على الله سبحانه فى موضع الرزق والحاجة بكل حال وذلك لأمرين : أحدهما التفرغ للعبادة ويتمشى لك من الخير حقه فان من لم يكن متوكلا فلابد من اشتغاله عن عبادة الله بسبب الحاجة والرزق والمصلحة، إما ظاهرا وإما باطنا إما بطلب وكسب بالبدن كعامة الراغبين وإما بذكر وإرادة ووسوسة بالقلب كالمجتهدين المعلقين والعبادة تحتاج إلى فراغ القلب والبدن ليحصل حقها والفراغ لا يكون إلا للمتوكلين بل أقول كل من هو ضعيف القلب لايكاد يطمئن قلبه إلا بشىء معلوم فلا يكاد يتم له أمر خطير من دنيا وآخرة وكثيرا ماسمعت من شيخى أبى محمد رحمه الله تعالى يقول : إنما الأمر يتمشى فى العالم لرجلين متوكل أو متهور ـ قلت : وهذا كلام جامع فى معناه فان المتهور يقصد الأمور على قوة عادة وجراءة قلب لا يلتفت إلى صارف يصرفه أو خاطر يضعفه فتجرى له الأمور والمتوكل يقصد الأمور على قوة بصيرة وكمال يقين بوعد الله سبحانه وتمام ثقة بضمانه فلا يلتفت إلى إنسان يخوفه ولا شيطان يوسوسه فيفوز بمقاصده ويظفر بمطالبه ، وأما الخلق الضعيف فهو أبداً يكون بين توكل وتردد وفتور وتحير كالحمار فى معلفه والدجاج فى قفصه يرمق ما تعوّد من صاحبه لا يكاد ينفك من ذلك قد تقاعدت نفسه عن معالى الأمور وانقطعت همته فلا يكاد يقصد أمرا شريفا وإن قصده فلا يكاد يظفر به ولا يتم

Digitized by Birzeit University Library

له ذلك أما ترى أصحاب الهمم من أبناء الدنيا لم ينالوا مرتبة كبيرة ومنزلة خطيرة إلا بانقطاع قلوبهم عن أنفسهم وأموالهم وأهليهم ، وأما الملوك فيباشرون الحروب ويكافحون الأعداء إما هلكا وإما ملكا حتى تحصل لهم مرتبة الملك وعقد الولاية ، وقيل إن معاوية بن أبي سفيان لما نظر إلى العسكرين يوم صفين قال من أراد خطيرا خاطر بعظيمته ، وأما التجار فيركبون المهالك براً وبحراً ويطرحون أنفسهم وأموالهم في المقاطع شرقا وغرباً ويوطنون أنفسهم على أحد الأمرين : إما فوت الأرواح وإما حصول الأرباح حتى يحصل لهم بذلك كل ربح عظيم ومال جسيم وعلق نفيس ، وأما السوقي الذي ضعف قلبه ورق عزمه فلا يكاد يقطع القلب عن علاقته من نفسه وماله فهو من بيته إلى دكانه طول عمره لا يصل إلى مرتبة شريفة كالملوك ولا إلى ربح عظيم كالتجار المخاطرين فان نال في سوقه ربح درهم على بضاعته فذاك له كثير وذلك لتعلق قلبه بشيء معلوم ، فهذا في الدنيا أبناؤها وأما أبناء الآخرة فرأس مالهم هذه الخصلة التي هي التوكل وقطع القلب عن العلائق لما أحكموها وحصلوها حقا تفرغوا لعبادة الله تعالى وتمكنوا في التفرد عن الخلق والسياحة في الارض واقتحام الفيافي واستيطان الجبال والشعاب فصاروا أقوياء العباد ورجال الدين وأحرار الناس وملوك الأرض بالحقيقة يسيرون حيث يشاءون وينزلون حيث يشاءون ويقصدون من الأمور العظام علما وعبادة مايشاءون لاعائق لهم ولاحاجز لهم دونهم فكل الأماكن لهم واحد وكل الأزمان عندهم واحد ، وإليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من سره (١) أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ومن سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، وعن سليمان الخواص لو أن رجلا توكل على الله سبحانه بصدق النية لاحتاج إليه الأمراء ومن دونهم وكيف يحتاج ومولاه الغني الحميد ، وعن ابراهيم الخواص أنه قال : لقيت غلاما في التيه كأنه

(١) لفظ الحديث في راموز الحديث « من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله عز وجل » أخرجه بن أبي الدنيا في كتاب التوكل عن ابن عباس ورواه الحاكم بهذا اللفظ والبيهقي وأبو يعلى وإسحاق وعبد بن حميد والطبراني وأبو نعيم كلهم من طريق هشام بن زياد أبي المقدام عن محمود القرظي عن ابن عباس ، وليس في الحديث ما يقتضي ترك الاكتساب بل يكتسب مفوضا مسلما غير ملاحظ للسبب معتقداً أنه لا يعطي إلا الله .

Digitized by Birzeit University Library

سبيكة فضة فقلت له إلى أين ياغلام ؟ قال إلى مكة، قلت بلازاد ولا راحلة، فقال ياضعيف اليقين الذى يقدر على حفظ السموات والأرض قادر على أن يوصلنى إلى مكة بلا زاد ولا راحلة ، فلما دخلت مكة فاذا هو فى الطواف يقول :

يا نفس سيحى أبدا ولا تحبى أحـدا
إلا الجليل الصمدا يانفس موتى كمـدا

فلما رآنى قال ياشيخ أنت بعد على ذلك الضعف ، وقال أبو مطيع لحاتم الأصم بلغنى أنك تقطع المفاوز بالتوكل من غير زاد ، قال حاتم زادى أربعة أشياء: قال ماهى ؟ قال أرى الدنيا والآخرة مملكة لله تعالى وأرى الخلق كلهم عبيد الله وعياله وأرى الأرزاق والأسباب كلها بيد الله عز وجل وأرى قضاء الله نافذا فى جميع أرض الله ولقد أحسن من قال :

أرى الزهّـاد فى روح وراحه قلوبهم عن الدنيا مزاحه
إذا أبصرتهم أبصرت قوما ملوك الأرض شيمتهم سماحه

وأما الأمر الثانى الذي اقتضى التوكل على الله سـبحانه وتعالى فى هذا الشأن فهو ما فى تركه من الخطر العظيم والأمر الكبير ـ قلت: أليس الله سبحانه قرن الرزق بالخلق فقال تعالى : «خلقكم ثم رزقكم » فدل على أن الرزق من الله سبحانه لاغير كالخلق، ثم لم يكتف بالدلالة حتى وعد فقال عزوجل : « إن الله هو الرزاق» ثم لم يكتف بالوعد حتى ضمن فقال: «وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها» ثم لم يكتف بالضمان حتى أقسم فقال : « فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » ثم لم يكتف بذلك كله حتى أمر بالتوكل وأبلغ وأنذر فقال : « وتوكل على الحي الذى لايموت» وقال سبحانه: « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » فمن لم يعتبر قوله ولم يكتف بوعده ولم يطمئن إلى ضمانه ولم يقنع بقسمه ثم لم يبال بأمره ووعده ووعيده فانظر ماذا يكون حاله وأية محنة تجىء من هذا ، وهذه والله مصيبة شـديدة ونحن منها فى غفلة عظيمة ولقـد قال الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم لابن عمر كيف أنت إذا بقيت بين قوم يخبئون رزق سنتهم (١) لضعف اليقين ، وعن الحسن رحمه الله تعالى لعن الله أقواما أقسم لهم ربهم فلم

---

(١) قال صاحب الطريقة المحمدية : « فقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم ادّخر قوت عياله سنة » وهذا يفيد أن خبر ابن عمر الموجود فى المنهاج لأبى حامد فيه نظر لكن قال أبو سعيد الخادمى شارح الطريقة وقيل ادخار السنة جائز للمتأهل وإلا فالادخار

يصدقوه ، وقالت الملائكة عند نزول هذه الآية « فورب السماء والأرض » هلكت بنو آدم أغضبوا الرب حتى أقسم لهم على أرزاقهم ، وعن أويس القرنى رضى الله عنه أنه قال: لو عبدت الله عبادة أهل السموات والأرض لا يقبل منك حتى تصدقه قيل وكيف نصدقه ؟ قال تكون آمنا بما تكفل الله لك من أمر رزقك وترى جسدك فارغا لعبادته ، ولقد قال له هرم بن حيان أبن تأمرنى أن أقيم ؟ فأومأ بيده إلى الشام ، قال هرم كيف المعيشة بها ؟ قال أف لهذه القلوب لقد خالطها الشك فما تنفعها المواعظ ، وبلغنا أن نباشا تاب على يد أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى فسأله أبو يزيد عن حاله فقال : نبشت عن ألف قبر فلم أر وجوههم إلى القبلة إلا رجلين فقال أبو يزيد مساكين أولئك تهمة الرزق حولت وجوههم عن القبلة ، وذكر لى بعض أصحابنا رحمه الله تعالى أنه رأى رجلا من أهل الصلاح فسأله عن حاله فقال هل سلمت بايمانك ؟ فقال: إنما يسلم الايمان للمتوكلين ، نسأل الله تعالى أن يصلحنا بفضله وأن لا يؤاخذنا بما نحن أهله إنه أرحم الراحمين فهذه هذه .

فان قلت: فأخبرنا ماحقيقة التوكل وحكمه ، وما يلزم العبد منه فى أمر الرزق ؟

فاعلم أنه إنما يتبين لك هذا فى أربعة فصول : بيان لفظ التوكل وموضعه وحدّه

= فوق الأربعين يوما لغير المتأهل ـ وفوق السنة للمتأهل ـ مخالف للسنة ومناف للتوكل ، وفى شرح الطريقة المحمدية للحاج رجب بن أحمد قال الفقيه أبو الليث فى بستان العارفين كره بعض الناس الاشتغال بالكسب وقالوا الواجب على كل إنسان الاشتغال بعبادة ربه والتوكل عليه ، وقال عامة أهل العلم الكسب بمقدار مايكفيه وعياله واجب فان زاد على ذلك فهو مباح والاشتغال بالعبادة أفضل وإن اشتغل بطلب الزيادة لا يكون حراما إذا لم يرد به الفخر والرياء ، وبدأ الامام محمد كتاب الكسب الذى صنفه بحديث رواه ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: طلب الكسب فريضة على كل مسلم كما أن طلب العلم فريضة وأول من اكتسب أبونا آدم عليه السلام فانه لما أهبط إلى الأرض أتاه سيدنا جبريل عليه السلام بحنطة وأمره أن يزرعها فزرعها وسقاها وحصدها وداسها وطحنها وخبزها وكذلك نوح عليه السلام كان نجارا يأكل من كسبه وإدريس عليه السلام كان خياطا وإبراهيم عليه السلام كان بزازا وعيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه وربما يلتقط السنابل .

وحصنه ، فأما اللفظ فانما هو توكل تفعّل من الوكالة فالمتوكل على أحد هو الذى يتخذه بمنزلة الوكيل القائم بأمره الضامن لاصلاحه الكافى له من غير تكلف واهتمام فهذه جملته ، وأما الموضع فاعلم أن التوكل اسم مطلق فى ثلاثة مواضع: أحدها فى موضع القسمة وهو الثقة بالله لأنه لا يفوتك ماقسم لك فان حكمه لا يتبدل وهذا واجب بالسمع (١) والثانى فى موضع النصرة وهو الاعتماد والوثاقة بنصر الله عز وجل لك إذا نصرته وجاهدت قال تعالى: « فاذا عزمت فتوكل على الله » وقال : « إن تنصروا الله ينصركم » وقال تعالى: « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » وهذا واجب بالوعد، والثالث فى موضع الرزق والحاجة فان الله تعالى متكفل بما يقيم بنيتك لخدمته وتتمكن به من عبادته وذلك قوله تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وقال الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا وهذا فرض لازم للعبد بدليل العقل والشرع جميعا وهذا هو الأشهر والأبلغ منه أعنى التوكل فى موضع الرزق وهو المقصود من هذا الفصل فموضع التوكل إذن هو الرزق ، وهو الرزق المضمون فيما قاله العلماء بالله تعالى وإنما يتضح لك هذا بتبيان أقسام الرزق .

فاعلم أن الرزق أربعة أقسام: مضمون ومقسوم ومملوك وموعود ـ فالمضمون هو الغذاء وما به قوام البنية دون سائر الأسباب فالضمان من الله تعالى لهذا النوع والتوكل يجب بازائه بدليل العقل والشرع لأن الله تعالى كافلنا خدمته وطاعته بأبداننا فضمن مايسد خلل البنية لنقوم بما كلفنا، وقال بعض مشايخ الكرامية كلاما حسنا على أصله ضمان أرزاق العباد واجب فى حكمة الله تعالى لثلاثة أشياء: أحدها أنه السيد ونحن العبيد وعلى السيد كفاية مؤنة العبيد كما أن العبيد خدمة السيد ، والثانى أنه خلقهم محتاجين إلى الرزق ولم يجعل لهم سبيلا إلى طلبه إذ لا يدرون مادو رزقهم وأين هو ومتى هو ليطلبوه بعينه من مكانه وفى وقته ليصلوا إليه فوجب أن يكفيهم أمر ذلك ويوصلهم إليه ، والثالث أنه كلفهم الخدمة وطلب الرزق شاغل عنها فوجب أن يكفيهم المؤنة ليتفرغوا للخدمة وهذا كلام من لم يحط بأسرار الربوبية والقائل بأن الرزق على الله واجب تائه وقد أوضحنا فى فن الكلام فساده ولنرجع إلى المقصود من غرضنا ـ وأما الرزق

---

(١) أى بالدليل السمعى فقد ثبت فى الحديث الصحيح « لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وأجلها » .

Digitized by Birzeit University Library

المقسوم فهو ما قسمه الله سبحانه وكتبه فى اللوح المحفوظ مما يأكله ويشربه ويلبسه كل واحد بمقدار مقدور ووقت مؤقت لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر عما كتب بعينه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم الرزق مقسوم مفروغ منه ليس تقوى متق بزائده ولا فجور فاجر بناقصه - وأما المملوك فما يملكه كل واحد من أموال الدنيا على حسب ما قدر الله تعالى وقسم له أن يملكه وهو من رزق الله تعالى قال تعالى : « أنفقوا مما رزقناكم » أى مما ملكناكم - وأما الموعود فهو ما وعد الله به عباده المتقين بشرط التقوى حلالا من غير كدّ قال الله تعالى: « ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب » فهذه أقسام الرزق والتوكل إنما يجب بازاء المضمون منها فاعلم ذلك - وأما حد التوكل فقد قال بعض شيوخنا إنه انكال القلب إلى الله (١) بالانقطاع إليه والاياس عما دونه، وقال بعضهم حفظ القلب إلى الله بموضع المصلحة بترك تعليقه على شىء دونه ، وقال الشيخ الامام أبو عمر رحمه الله تعالى : التوكل ترك التعلق والتعلق ذكر قوام بنيتك عن شىء دون الله تعالى ، قال شيخى الامام رحمه الله : التوكل والتعلق ذكران فالتوكل هو ذكر قوام بنيتك من قبل الله تعالى والتعلق ذكر قوامها عمن دون الله والاقاويل عندى ترجع إلى أصل واحد وهو أن توطن قلبك على أن قوام بنيتك وسد خلتك وكفايتك إنما هو من الله عزوجل لا بأحد دون الله ولا بحطام من الدنيا ولا بسبب من الأسباب ثم الله سبحانه إن شاء سبب له مخلوقا أو حطاما وإن شاء كفاه بقدرته دون الأسباب والوسائط وإذا ذكرت ذلك بقلبك وتوطنت عليه وانقطع القلب عن المخلوقين والأسباب بمرة إلى الله سبحانه وحده فقد حصل التوكل حقه فهذا حده - وأما حصن التوكل الباعث عليه فهو ذكر ضمان الله وحصن حصنه ذكر جلال الله وكماله فى علمه وقدرته ونزاهته عن الخلف والسهو والعجز والنقص فاذا واظب العبد على هذه الأذكار بعثته على التوكل على الله سبحانه فى أمر الرزق .

فان قيل : هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ما ؟

فاعلم أن الرزق المضمون الذى هو الغذاء والقوام لا يمكننا طلبه إذ هو شىء من

---

(١) فى المصباح توكل على الله اعتمد عليه ، ووكلت الأمر إليه وكلا ووكولا فوضته إليه .

Digitized by Birzeit University Library

فعل الله سبحانه للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد على تحصيله ولا دفعه (١) وأما المقسوم من الأسباب فلا يلزم العبد طلبه إذ لا حاجة للعبد إلى ذلك وإنما حاجته إلى المضمون وهو من الله تعالى وفى ضمان الله تعالى ، وأما قوله تعالى : « وابتغوا من فضل الله » فالمراد به العلم والثواب وقيل بل هو رخصة إذ هو أمر وارد بعد الحظر فيكون بمعنى الاباحة لا بمعنى الايجاب والالزام .

فان قيل : لكن لهذا الرزق المضمون أسباب هل يلزمنا طلب الأسباب ؟

---

(١) المبحوث عنه سبب الغذاء والقوام وهذا طلبه فرض كما بيناه ، نعم قد يصل بعض الخواص إلى مرتبة الاستغناء عن الأسباب يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » فمن ليس فى هذه المرتبة يجب عليه السعي لطلب القوت وطلب القوت لا ينافى التوكل كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم « تغدو خماصا وتروح بطانا » وعلماء الآخرة من أكابر الصوفية لم يتفقوا على حقيقة التوكل فخواص الخواص منهم لا ينظرون إلى المادة فى تحقيق معنى التوكل ولذا قال سهل بن عبد الله وهو من خواص الخواص فى القوم : التوكل هو الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد ، وعن أبى سعيد الخراز هو أن يستوى عندك الاكثار والتقليل وعن ابن مسروق هو الاستسلام لجريان القضاء والأحكام وعن أبى عثمان هو الاكتفاء بالله مع الاعتماد عليه وهذا المعنى السامى هو ما رأيت عليه شيخي رضى الله عنه وقد اتجه بعض علماء الصوفية إلى جعل الفلك الذى يدور فيه التوكل هو ادخار الحى للقوت فقال قائلهم التوكل هو الأكل بلا طمع وقال آخر هو الثقة بما فى يد الله واليأس مما فى أيدى الناس وقد حقق أبو سعيد الخادمى منهج التوكل على طريقة المذهب الثانى أعنى التوكل المادى فقال تفصيله : إن التوكل ترك الادخار وذلك لا يتم إلا بقصر الأمل وأقل درجاته يوم وليلة فما دونه وأكثرها عمر الانسان وبينهما درجات فالأفضل أن لا يدخر أصلا ثم كلما قل ادخاره كثر فضله هذا لمن لا يلتفت إلا إلى الوكيل الحق وإلا فالادخار أفضل له لأن المقصود تجرد القلب لذكر الله ورب شخص شغله وجود قوت ورب شخص شغله عدمه ، هذا حكم المنفرد وأما صاحب العيال فله ادخار قوت سنته وما فوق ذلك مبطل للتوكل وقد ادخر صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة ليبين جواز ذلك لضعفة أمته .

Digitized by Birzeit University Library

قيل له لا يلزمك (١) ذلك ، إذ لا حاجة للعبد إليه إذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب فمن أين يلزمنا طلب السبب ثم إن الله تعالى ضمن لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب قال الله تعالى: « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه إذ لا يعرف أى سبب ، منها رزقه الذى يتناوله لا غير والذى يصير سبب غذائه وتربيته لا غير فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه من أين يحصل له فلا يصح تكليفه فتأمل راشدا فانه بين . ثم حسبك أن الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء المتوكلين لم يطلبوا رزقا فى الأكثر والأعم وتجردوا للعبادة وبالاجماع أنهم لم يكونوا تاركين لأمر الله تعالى ولا عاصين له تعالى فى ذلك فتبين لك أن طلب الرزق وأسبابه ليس بأمر لازم للعبد (٢) .

فان قلت : هل يزيد الرزق بالطلب وهل ينقص بترك الطلب ؟

قلت : كلا فانه مكتوب فى اللوح المحفوظ مقدر ومؤقت ولا تبديل لحكم الله ولا تغيير لقسمته (٣) وكتابته هذا هو الصحيح عند علمائنا رضى الله عنهم خلاف

---

(١) إن حجة الاسلام أبا حامد كثيرا ما تتغلب على قلمه النزعة الصوفية المجردة وإلا فكيف لا يلزم طلب الاسباب فى قوام الحياة التى يفترض حفظها بقوله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ومن قواعد أصول الشرع أن مقدمة الواجب المطلق واجب مطلق وقوله سبحانه : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ليس معناها أن نترك الأسباب لقول عمر نحمل إن السماء لا تمطر ذهبا وقال تعالى : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » .

(٢) كلام غريب من حجة الاسلام الفقيه الأصولى ، أيها المتصوفة ليس التصوف إلا تفريغ القلب لله سبحانه والفناء فى التوحيد مع الاحتفاظ بسنن الله فى كونه وطلب عمارته من البشر فلم يخلق الله كونه عبثا ومثل هذه الآراء خطرها شديد فى الاسلام وطريق الصحابة والسلف محجة بيضاء فالاسلام عمل وعمارة وبناء .

(٣) كون الرزق مكتوبا ومقسوما لا دخل له فى ابتغاء طلبه ، وفهم التوكل المطلوب فى القرآن بقوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » على معنى أن الرزق مكتوب فليجلس المسلم فى المسجد والله يرزقه فهم خاطىء كثيرا ما أفهم أعداء الاسلام أن الاسلام دين بطالة وخمول وكتب أعداؤه أعداء الاسلام كثيرا فى نظرية التوكل هذه التى رددها =

فاذهب إليه بعض أصحابنا حاتم وشقيق قالوا : إن الرزق لا يزيد ولا ينقص بفعل العبد لكن المال يزيد وينقص وهذا فاسد لأن الدليل فى الموضعين واحد وهو الكتابة والقسمة وإليه الاشارة بقوله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ولو كان بالطلب يزيد وبالترك ينقص لكان للأسى والفرح موضع إذا هو قصّر وتوانى حتى فاته وجدّ وشمر حتى حصله وقال (١) صلى الله عليه وسلم للسائل هاك لو لم تأتها لأتتك .

فان قيل : فالثواب والعقاب أيضا مكتوب فى اللوح المحفوظ ثم يلزمنا طلب الثواب وترك موجب العقاب فهل يزيد بالطلب أو ينقص بالترك ؟

فاعلم أن طلب الثواب إنما وجب لأن الله أمر به أمرا حتما وأوعد على تركه ولم يضمن الثواب على غير فعل منا وزيادة الثواب والعقاب بفعل العبد ، والفرق بينهما فى نكتة وهى ما قاله بعض علمائنا أن المكتوب فى اللوح قسمان : قسم مكتوب مطلقا من غير شرط وتعليق بفعل العبد وهو الأرزاق والآجال أما ترى كيف ذكرهما الله تعالى مطلقا غير مشروط قال الله تعالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » وقال تعالى :

= الصوفية فى كتبهم والله يعلم أن الاسلام والتصوف الحق بريء من هذه النظرية التى تجعل من المسلم شحاذا خملا ، يرحمك الله يا أبا حامد تقرر للمسلمين أن الرزق لا يزيد بالعمل ما للمسلم وللمكتوب والمقسوم وتلك شئون الله لا علم لنا بها ثم ماهى حقيقة هذه الكتابة وهذه القسمة ؟ أليس ذلك هو القضاء والقدر الذى أمرنا أن نمسك الكلام عنه ؟ ماذا يصنع قارىء كتابك إذا فهم أن العمل لا يزيد فى المقسوم ؟ أليس ذلك إغراء بالبطالة التى حاربها الاسلام ؟ فأين هذا من الحديث القدسى « إن روح القدس نفث فى روعى لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » فالرسول صلوات الله وسلامه عليه لم ينه إلا عن الانهماك فى طلب الدنيا وضياع كل الأوقات فى تحصيلها استباقا للمقادير وتخطيا للسابقة .

(١) الحديث رواه ابن حبان والبيهقى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى تمرة غابرة — داخلة فى التراب متلطخة — فأخذها فنا ولها سائلا فقال أما إنك لو لم تأتها لأتتك ، وظاهره لزوم التقاعد عن مباشرة الأسباب لأن رزقك يأتيك عند عدم إتيانك إليه والجواب أنه ليس ينهى عن الأسباب بل عن الركون إليها وتحريض على الاعتماد على الله بالجنان .

Digitized by Birzeit University Library

« فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » وقال صاحب الشرع عليه السلام أربعة قد فرغ منهن : الخلق والرزق والأجل وقسم مكتوب بشرط معلق مشروط بفعل العبد وهو الثواب والعقاب أما ترى كيف ذكرهما الله تعالى فى كتابه معلقا بفعل العبد قال تعالي: «ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم » وهذا بين فاعلمه (١) .

فان قيل : فنحن نجد الطالبين يجدون الأرزاق والأموال والتاركين يعدمون ويفتقرون؟ قيل له : كأنك لا تجد مع ذلك طالبا محروما فقيرا وتاركا فارغا مرزوقا غنيا ، بلى إن هذا هو الأكثر لتعلم أن ذلك هو تقدير العزيز العليم وتدبير الملك الحكيم وأنشد أبو بكر محمد ابن سابق الواعظ الصقلى بالشام رحمه الله (٢) .

كم من قوي قوى فى تقلبه ... مهذب الرأى عنه الرزق منحرف
وكم ضعيف ضعيف فى تقلبه ... كأنه من خليج البحر يغترف
هذا دليل على أن الاله له ... فى الخلق سر خفى ليس ينكشف

فان قلت : هل ندخل البادية بلا زاد ؟

فاعلم أنه إن كان لك قوة قلب بالله تعالى والثقة البالغة بوعد الله فادخل وإلا فكن كالعوام بعلائقهم (٣) — ولقد سمعت الامام أبا المعالى رحمه الله يقول : إن من

---

(١) هذا الفرق غير مسلم فطلب الثواب كالكسب للأرزاق من التكاليف الشرعية والتكاليف الشرعية لاعلاقة لها بالمكتوب فى اللوح وإلا لبطلت التكاليف وهو مالا يقول به قائل .

(٢) يالله يا أبا حامد إني أربأ بعقلك الكبير أن تقول مالا يطابق السنن الكونية فتعطل نظرية العمل بمثل هذه الكلمات الشعرية إن الرزق لم ينحرف عن المهذب فالله قسم الأرزاق إلى حسية ومعنوية وقد يجمعهما معا لمن يريد فالقسمة عادلة فى الواقع .

(٣) اعلم أن كبار المتجردين من الصوفية لهم حكم خاص فهم إن لم يتزودوا فى الصحاري فانما ذلك مقامهم فهم فى غير حاجة الماكل والمشارب فمنهم من كان يطوى الأربعين ومنهم الأكثر من ذلك ، أما الشخص العادي الذي لم يصل إلى هذه المقامات فانه يفرض عليه أخذ الزاد دفعا للهلاك عن نفسه ولاريب أن من يدخل الصحراء =

Digitized by Birzeit University Library

جرى مع الله تعالى على عادة الناس جري الله معه على ما هو عادة الناس فى كفاية المؤنة وهذا كلام حسن جدا فيه فوائد جمة لمن تأملها .

فان قلت : أليس الله تعالى يقول: « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » ؟

فاعلم أن فيه قولين : أحدهما أنه زاد الآخرة ولذلك قال: «خير الزاد التقوى» ولم يقل حطام الدنيا وأسبابها. والثانى أنه كان قوم لا يأخذون زادا فى طريق الحج لأنفسهم اتكالا على الناس ويسألون الناس ويشكون ويلحون ويؤذون الناس فأمروا بالزاد أمر تنبيه على أن أخذ الزاد من مالك خير من أخذ مال الناس والاتكال عليهم وكذلك نقول .

فان قلت: فالمتوكل هل يحمل الزاد معه فى الأسفار ؟

فاعلم أنه ربما يحمل الزاد ولا يعلق القلب به بأنه لا محالة رزقه وفيه قوامه وإنما يعلق القلب بالله تعالى ويتوكل عليه ويقول إن الرزق مقسوم مفروغ منه والله تعالى إن شاء أقام بقيتى بهذا أو بغيره وربما يحمل بنية أخرى بأن يعين مسلما أو نحو ذلك، وليس الشأن فى أخذ الزاد وتركه وإنما الشأن فى القلب لا تعلق قلبك إلا بوعد الله تعالى وحسن كفايته وضمانه فكم من حامل للزاد وقلبه مع الله دون الزاد وكم من تارك للزاد وقلبه مع الزاد دون الله تعالى فالشأن إذن للقلب فافهم هذه الأصول تكشف المؤنة إن شاء الله تعالى .

فان قيل : فالنبى صلى الله عليه وسلم كان يحمل الزاد وكذلك الصحابة والسلف الصالح؟

يقال له لا جرم أن ذلك مباح غير حرام وإنما الحرام تعليق القلب بالزاد وترك التوكل على الله سبحانه فافهم ذلك ثم ما ظنك برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الله تعالى له : « وتوكل على الحي الذي لا يموت » أعصاه فى ذلك وعلق قلبه بطعام أو شراب أو درهم أو دينار كلا وحاشا أن يكون ذلك بل كان قلبه مع الله تعالى وتوكله على الله تعالى كما أمره فانه الذي لم يلتفت إلى الدنيا بأسرها ولم يمد يده إلى مفاتيح خزائن الأرض كلها وإنما كان أخذ الزاد منه ومن السلف الصالح لنيات الخير لا ليميل قلوبهم عن الله تعالى إلى الزاد والمعتبر القصد على ما أعلمناك فافهم وانتبه من رقدتك وأفق من غفلتك وتفهم يرشدك الله .

= بلا زاد مدعيا أنه متوكل على الله والحال أنه لم يصل إلى ما وصل إليه المتجردون يعد من الحمق .

Digitized by Birzeit University Library

فان قلت : أيهما أفضل أخذ الزاد أم تركه ؟

فاعلم أن هذا يختلف باختلاف الحال - إن كان مقتدي به يريد أن يبين أن أخذ الزاد مباح أو ينوى به عون مسلم أو إغاثة ملهوف ونحو ذلك فالأخذ أفضل ، وإن كان منفردا قوى القلب بالله سبحانه لا يشغله الزاد عن عبادة الله سبحانه وتعالى فالترك أفضل فتفهم هذه الجملة واحتفظ بها راشدا وبالله التوفيق .

العارض الثانى (١) — الأخطار وإرادتها وقصودها . وإنما كفايتها فى التفويض فعليك بتفويض الأمر كله إلى الله سبحانه وذلك لأمرين : أحدهما طمأنينة القلب فى الحال فان الأمور إذا كانت خطيرة مبهمة لا يدرى صلاحها من فسادها تكون بها مضطرب القلب هائم النفس لا تدرى تقع فى صلاح أو فساد فاذا فوضت الأمر كله إلى الله تعالى علمت أنك لا تقع إلا فى صلاح وخير فتكون آمنا من الخطر والآفة والمخالفة مطمئن القلب فى الحال وهذه الطمأنينة والأمن والراحة فى القلب غنيمة عظيمة ، وكان شيخنا رحمه الله يقول فى مجالسه كثيرا دع التدبير إلى من خلقك تسترح وقد أنشد فى ذلك :

إن من كان ليس يدرى أفى المحبوب نفع له أو المكروه
لحرى بأن يفوض ما يعجز عنه إلى الذى يكفيه
الاله البر الذى هو بالرأفة أحنى من أمه وأبيه

والثانى من الأمرين - حصول الصلاح والخير فى الاستقبال وذلك لأن الأمور

---

(١) المراد من هذا الفصل توجيه سالك طريق القوم أن لا يشتغل ذهنه بتدبير أموره فى المستقبل فيما يهم من الأمور وهو فصل سليم إذ المعنى منه أن تسير فى الحياة مع السنن الكونية من السعى والكسب والتزود من التقوى من غير تفكير فيما يعترضك من أمور حتى لو كانت خطيرة فسالك طريق الآخرة يفوض أموره إلى الله ولو سميت هذا توكلا لم تكن مخطئا بل إن هذا هو التوكل المحمود والمتوكل على الله لا يرى فيما يصيبه من شر إلا أنه خير فى صورة شر وقد تلقيت من شيخى الاذن بذكر اسمه تعالى لطيف وقال لى إن معنى لطيف مصور الشىء فى قالب ضده وأذكر أنه ضرب لى مثلا بالقاء يوسف عليه السلام فى الجب فظاهره شر وقد جاءت له الوزارة فى مصر بعد ما التقطته السيارة والاستثناء الوارد فى هذا الفصل المراد به طلب الفضل إن كان فيه خير .

Digitized by Birzeit University Library

بالعواقب مبهمة فكم من شر فى صورة خير وكم من ضر فى حلية نفع ، وكم من سم فى هيئة شهد ، وأنت الجاهل بالعواقب والأسرار فاذا أردت الأمور قطعا وأخذت فيها باختيارك متحكما فما أسرع ما تقع فى هلاك وأنت لاتشعر ، ولقد حكى أن بعض العباد كان يسأل الله أن يريه إبليس فقيل له سل الله العافية فأبى إلا ذلك فأظهره الله تعالى له فلما رآه العابد قصده بالضرب فقال له إبليس لولا أنك تعيش مائة سنة لأهلكتك وعاقبتك فاغتر بقوله وقال فى نفسه إن عمرى بعيد طويل فأفعل ماأريد ثم أتوب ، فوقع فى الفسق وترك العبادة فهلك ففى هذه ماينبهك على ترك الحكم فى إرادتك واللجاج فى مطلوبك ويحذرك طول الأمل أيضا فانه الآفة العظيمة ولقد صدق القائل :

وإياك المطامع والأمانى فكم أمنية جلبت منيه

وأما إذا فوضت أمرك إلى الله سبحانه وسألته أن يختار لك ماهو صلاحك لم تلق إلا الخير والسداد ولا تقع إلا على الصلاح قال الله تعالى حكاية عن العبد الصالح : « وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد * فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » أما ترى كيف أعقب تفويضه الوقاية من الأسواء والنصر على الأعداء وبلوغ المراد فتأمل موفقا إن شاء الله تعالى .

فان قلت : بين لنا معنى التفويض وحكمه ؟

فاعلم أن ههنا فصلين بهما يتضح الكلام : أحدهما موضع التفويض وحكمه ، والثانى معناه وحدّه وضده — أما موضعه فاعلم أن المرادات ثلاثة : مراد تعلم يقينا أنه فساد وشر لا شك فيه ألبتة كالنار والعذاب وفى الأفعال كالكفر والبدعة والمعصية فلا سبيل إلى إرادة ذلك ، والثانى مراد تعلم قطعا أنه صلاح كالجنة والايمان والسنة ونحو ذلك فلك إرادتها بالحكم (١) لاموضع للتفويض فيه إذ لاخطر فيه ولا شك أنه خير وصلاح ، والثالث مراد لا تعلم يقينا أن لك فيه صلاحا أو فسادا وذلك نحو النوافل والمباحات فهذا موضع التفويض فليس لك أن تريدها قطعا بل بالاستثناء وشرط الخير والصلاح

---

(١) معنى الحكم القطع والجزم فاذا كنت لم تحج وقد تيسر لك سبيله فانو تحصيله حتما ولاضرر فى ذلك ، فان كان الحج نفلا وقد سمعت أن فى الحجاز بعض الأمراض فهنا مكان التفويض والاستثناء فلينطو ضميرك على طلب تيسيره من الله إن كان فيه الخير والنفع وهذا هو الاستثناء .

Digitized by Birzeit University Library

فان قيدت إرادتك بالاستثناء فهو تفويض وإن أردت دون الاستثناء فهو طمع مذموم منهى عنه فموضع التفويض إذن كل مراد فيه الخطر وهو أن لا تستيقن صلاحك فيه ـ وأما معنى التفويض فقد قال بعض شيوخنا رحمهم الله هو ترك اختيار مافيه مخاطرة إلى المختار المدبر العالم بمصلحة الخلق لا إله إلا هو ، وعبارة الشيخ أبى محمد السجزى رحمه الله هو ترك اختيارك المخاطرة على المختار ليختار لك ماهو خير لك ، وقال الشيخ أبو عمر رحمه الله: هو ترك الطمع والطمع هو إرادة الشيء المخاطر بالحكم فهذه عبارات المشايخ والذى نقول لك : إن التفويض إرادة أن يحفظ الله عليك مصالحك فيما لا تأمن فيه الخطر، وضد التفويض الطمع(١) والطمع فى الجملة يجرى على وجهين : أحدهما فى معنى الرجاء تريد شيئا لاخطر فيه أو مخاطرة بالاستثناء وذلك ممدوح غير مذموم كما قال الله تعالى : « والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » وقال : « إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا » وهذا القسم ليس مما نحن فيه بسبيل ههنا ، والثانى طمع مذموم قال النبى صلى الله عليه وسلم إياكم والطمع فانه فقر حاضر ، وقيل هلاك الدين وفساده الطمع وملاكه الورع ، قال شيخنا رحمه الله الطمع المذموم شيئان : سكون القلب إلى منفعة مشكوكة، والثانى إرادة الشيء المخاطر بالحكم وهذه الارادة تقابل التفويض لاغير فاعلم ذلك ـ وأما حصن التفويض فهو ذكر خطر الأمور وإمكان الهلاك والفساد فيها وحصن حصنه ذكر عجزك عن الاعتصام عن ضروب الخطر والامتناع عن الوقوع فيها بجهلك وغفلتك وضعفك والمواظبة على هذين الذكرين تحملك على تفويض الأمور كلها إلى الله سبحانه والتحفظ عن الحكم فيها والامتناع عن إرادتها إلا بشرط الخير والصلاح فهذه هذه وبالله التوفيق (٢)

فان قيل لك : ما هذا الخطر الذى توجبون التفويض لأجله فى الأمور ؟

فاعلم أن الخطر فى الجملة خطران : خطر الشك بأنه يكون أو لا يكون وأنك تصل إليه أولا تصل إليه وهذا يحتاج إلى الاستثناء ويقع فى باب النية والأمل ، والثانى خطر

---

(١) لو قيل ضد التفويض الحرص لكان أدق .

(٢) لازلت أذكرك بأن أحوال الصوفية من توكل وتفويض وغيرهما من موارد الرحمن فى القلب ليست بالتكسب والتكلف ، والاستغراق فى طاعة الله وذكره تورث هذه الأحوال فأدمن الطاعة والذكر يفض الله عليك أحوالا سنية ومقامات صديقية .

Digitized by Birzeit University Library

الفساد بأن لا تستيقن فيه الصلاح لنفسك وهذا الذي يحتاج فيه إلى التفويض ، ثم اختلفت عبارات الأئمة في الخطر فمن بعضهم أن الخطر في الفعل هو أن تكون دونه نجاة ويمكن أن يجامعه ذنب فالايمان والاستقامة والسنة لاخطر فيها إذ لا يمكن دون الايمان نجاة ألبتة والاستقامة لا يجامعها ذنب فاذن تصح إرادة الايمان والاستقامة بالحكم ، وقال الأستاذ رحمه الله الخطر في الفعل ما يمكن أن يعترض فيه ما يكون الاشتغال بالعارض أولى من الاقدام على ذلك الفعل وذلك يقع في المباحات والسنن والفرائض ألا ترى أن من تضيق عليه وقت الصلاة وقصد أداءها فعرض له حريق أو غريق يمكنه إنقاذه فالاشتغال بانقاذه أولى من الاقبال على صلاته فلا تصح إذن إرادة المباحات والنوافل والكثير من الفرائض بالحكم .

فان قيل : كيف يصح أن يفترض الله على عبده شيئا ويوعده على تركه ثم لا يكون له صلاح في فعله ؟

فاعلم أن شيخنا رحمه الله قال: إن الله تعالى لا يأمر العبد بشيء إلا وفيه صلاحه إذا تجرد عن العوارض ولا يضيق عليه فعلا فرضا بحيث لا معدل له عن ذلك إلا وله فيه صلاح وإنما ربما يسبب الله تعالى له عذرا لأجله يكون العدول عن أحد المأمورين أولى من الاشتغال بالآخر كما ذكرنا فيكون العبد في ذلك معذورا بل مأجورا لا بترك هذا الفرض بل بفعل الفرض الثاني الذي هو أولى ، ولقد سمعت الامام رحمه الله في هذه المسألة يقول : إن كل ما افترض الله على عباده من الصلاة والصوم والحج ونحوه ففيها صلاح لا محالة للعبد وصحت إرادتها بالحكم قال فاتفق رأينا على ذلك فبقي المباحات والنوافل إذن في هذا الحكم فاعلم ذلك فانه من غوامض الباب وبالله التوفيق .

فان قيل: هل يأمن المفوض الهلاك والفساد والدار دار محنة ؟

فاعلم أن في الأغلب لا يفعل بالمفوض إلا الصلاح وقد يفعل به في النادر غير الصلاح ولذلك ربما يخذله فيقع عن منزلة التفويض ولا صلاح للعبد في الخذلان والوقوع عن منزلة التفويض وبه قال الشيخ أبو عمر رحمه الله ، وقيل لا يفعل بالمفوض إلا ما فيه صلاحه فيما فوض إلى الله سبحانه والخذلان والقصور عن منزلة التفويض مما لا يقع فيه التفويض إذ لا شك في فساد ذلك والتفويض إنما يقع فيما يشك في فساده وصلاحه وهذا أولى القولين عند شيخنا رحمه الله إذ لولا ذلك لما قويت الباعثة على التفويض .

Digitized by Birzeit University Library

فان قيل : هل يجب أن يفعل بالمفوض ماهو الأفضل ؟

فاعلم أن الايجاب مستحيل فى حق الله تعالى فلا يجب لعباده عليه شىء وقد يفعل بالعبد الأصلح دون الأفضل حكمة من فعله ألا ترى أنه قدر للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يناموا طول الليل إلى طلوع الشمس فى بعض الأسفار حتى فاتتهم صلاة الليل وصلاة الفجر ، والصلاة أفضل من النوم وربما يقدر للعبد الغنى والنعمة فى الدنيا وإن كان الفقر أفضل وربما يقدر له الاشتغال بالأزواج والأولاد وإن كان التجرد لعبادة الله عز وجل أفضل فانه بعباده خبير بصير وهذا كما أن الطبيب الحاذق الناصح يختار للمريض ماء الشعير وإن كان ماء السكر أفضل وأنفس لما علم أن صلاح علته فى ماء الشعير والمقصود للعبد النجاة من الهلاك لا الفضل والشرف مع الفساد والهلاك .

فان قيل : فهل يكون المفوض مختارا ؟

فاعلم أن الصحيح عند علمائنا أنه يكون مختارا ولا يقدح فى تفويضه وذلك أن المعنى فيه إذا كان له صلاح فى المفضول والأفضل فهو يريد من الله تعالى أن يسبب له الأفضل كما أن المريض يقول للطبيب اجعل دوائى ماء السكر دون ماء الشعير إذا كان لى صلاح فى كليهما ليحصل لى الفضل والصلاح جميعا ، فكذلك العبد إذا سأل الله تعالى أن يجعل صلاحه فيما هو الأفضل ويسبب له ذلك ليجمع له الفضل والصلاح جميعا ولكن بشرط أنه إن اختار الله له الصلاح فى غير الأفضل أن يكون راضيا بذلك .

فان قيل : فلماذا كان للعبد أن يختار الأفضل وليس له أن يختار الأصلح ؟

فاعلم أن الفرق بينهما أن العبد يعرف الأفضل من المفضول ولا يعرف الصلاح من الفساد ليريده بالحكم ثم إن معنى اختياره الأفضل أن يريد من الله تعالى أن يجعل صلاحه فيما هو الأفضل ويختار له ذلك ويقدره لا أن للعبد تحكما فى شىء من ذلك فاعلمه ، فهذه جملة من دقيق هذا العلم وأسراره ولولا أن الحاجة مست إليه لما تعرضنا لايراده لأنه تلاطم بحار علوم المكاشفة مع أنى اقتصرت على النكتة المقنعة فى هذا الكتاب وقصدت الايضاح لينتفع به فحول العلماء والمبتدئون إن شاء الله تعالى وبالله التوفيق .

العارض الثالث ـ القضاء ووروده أنواعه . وإنما كفايته فى الرضا به فعليك أن ترضى بقضاء الله عز وجل وذلك لأمرين : أحدهما للتفرغ للعبادة لأنك إذا لم ترض بالقضاء فتكون مهموما مشغول القلب أبدا بأنه لم كان كذا ولم ذا لا يكون فاذا اشتغل القلب

Digitized by Birzeit University Library

بشيء من هذه الهموم كيف يتفرغ للعبادة إذ ليس لك إلا قلب واحد وقد ملأته من الهموم وما كان وما يكون من أمر الدنيا فأي موضع بقي فيه لذكر الله ولعبادته وفكر الآخرة ، ولقد صدق شقيق رحمه الله حيث قال : إن حسرة الأمور الماضية وتدبير الآتية قد ذهبت ببركة ساعتك هذه .

والثاني من الأمرين — خطر ما في السخط من غضب الله تعالى ولقد روينا في الأخبار أن نبيا من الأنبياء شكا بعض ما ناله من المكروه إلى الله تعالى فأوحى الله تعالى إليه أتشكوني ولست بأهل ذم ولا شكوى هكذا بدا شأنك في علم الغيب فلم تسخط قضائي عليك أتريد أن أغير الدنيا لأجلك أم أبدل اللوح المحفوظ بسببك فأقضي ما تريد دون ما أريد ويكون ما تحب دون ما أحب فبعزتي حلفت لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأسلبنك ثوب النبوة ولأوردنك النار ولا أبالي — قلت: فليستمع العاقل هذه السياسة العظيمة والوعيد الهائل مع أنبيائه وأصفيائه فكيف مع غيرهم ثم استمع قوله عز وجل لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى فهذا في حديث النفس وتردد القلب فكيف بمن يصرخ ويستغيث ويشكو وينادي بالويل والصراخ من ربه الكريم المحسن على رءوس الملأ ويتخذ له أعوانا وأصحابا ، وهذا لمن سخط مرة فكيف ممن هو في السخط على الله تعالى جميع عمره ، وهذا لمن شكا إليه فكيف ممن شكا إلى غيره نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ونسأله أن يعفو عنا ويغفر لنا سوء آدابنا ويصلحنا بحسن نظره إنه أرحم الراحمين .

فإن قيل : فما معنى الرضا بالقضاء وحقيقة ذلك وحكمه ؟

فاعلم أن علماءنا قالوا : إن الرضا ترك السخط والسخط ذكر غير ما قضى الله تعالى بأنه أولى به وأصلح له فيما لا يستيقن فساده وصلاحه فهذا شرط فيه فاعلم ذلك .

فإن قلت : أليس الشرور والمعاصي بقضاء الله تعالى وقدره ، فكيف يرضى العبد بالشر ويلزمه ذلك ؟

فاعلم أن الرضا إنما يلزم بالقضاء ، وقضاء الشر ليس بشر وإنما الشر هو المقضى فلا يكون رضا بالشر ، وقد قال شيوخنا رحمهم الله تعالى إن المقضيات أربعة : نعمة وشدة وخير وشر — فالنعمة يجب الرضا فيها بالقاضي والقضاء والمقضى ويجب عليه الشكر من حيث أنها نعمة وإظهار النعمة عليه بإبداء أثر النعمة ، والشدة يجب أيضا

Digitized by Birzeit University Library

الرضا فيها بالقاضى والقضاء والمقضى ويجب عليه الصبر من حيث أنها شدة ، والخير يجب فيه الرضا بالقاضى والقضاء والمقضى ويجب عليه ذكر المنة من حيث أنه خير وفّق له ، والشر يجب عليه فيه الرضا بالقاضى والقضاء والمقضى من حيث أنة مقضى لامن حيث أنه شر وكونه مقضيا يرجع إلى القضاء والقاضى بالحقيقة ، وهذا كما أنك ترضى مذهب المخالف أن يكون معلوما لك لأن يكون مذهبا لك ثم كونه معلوما يرجع إلى العلم فالرضا والمحبة إنما يكونان بالحقيقة للعلم بمذهب المخالف لا بمذهبه فكذلك الرضا بالمقضى.

فان قيل : فالراضى هل يكون مستريدا ؟

قيل له نعم بشرط الخير والصلاح دون الحكم فلايخرجه ذلك عن الرضا بل يدل على الرضا فهو أولى لأن من أعجبه شىء ورضى ذلك استزاد منه ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حضر اللبن يقول : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه وفى غيره يقول: وزدنا خيرا منه وفى موضع من الموضعين لم يدل على أنه غير راض بما قدر الله تعالى له من ذلك .

فان قلت : فلم يذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم الاستثناء وشرط الخير والصلاح ؟

فاعلم أن هذه الأمور إنما تكون بالقلب وأن مايقال باللسان عبارة عن ذلك فلامعتبر بترك عبارته مع حصوله بالقلب فاعلم ذلك مؤقتا .

العارض الرابع الشدائد والمصائب — وإنما كفايتها بالصبر ، فعليك بالصبر فى المواطن كلها وإنما ذلك لأمرين : أحدهما الوصول إلى العبادة وحصول المقصود منها فان مبنى أمر العبادة كلها على الصبر واحتمال المشقات فمن لم يكن صبورا لم يصل إلى شىء منها بالحقيقة وذلك أن من قصد عبادة الله تعالى وتجرد لها محقا استقبلته شدائد ومحن ومصائب من وجوه : أحدها أنه لاعبادة إلا وفى نفسها مشقة ولذلك كان كل هذا الترغيب فيه ووعد الثواب عليه إذ لا يتأتى فعل العبادة إلا بقمع الهوى وقهر النفس إذ هى زاجرة عن الخير ، ومخالفة الهوى وقهر النفس من أشد الأمور على الانسان ـ وثانيها أن العبد إذا فعل الخير مع المشقة لزمه الاحتياط له حتى لا يفسد عليه والابقاء على العمل أشد من العمل ـ وثالثها أن الدار دار محنة فمن كان فيها فلابد له من الابتلاء بشدائدها ومصائبها وذلك أقسام : قسمها المصيبة فى الأهل والقرابات والاخوان والأصحاب بالموت والفقد والفراق ، وفى النفس بأنواع الأمراض والأوجاع ، وفى العرض بقتال الناس إياه والطمع

Digitized by Birzeit University Library

فيه والازدراء به والغيبة والكذب عليه، وفى المال بالذهاب والزوال ولكل واحد من هذه المصائب لذعة وحرقة من نوع غير نوع الآخر فيحتاج إلى الصبر عليها كلها وإلا فيمنعه الجزع والتلهف من التفرغ للعبادة — ورابعها أن طالب الآخرة أشد ابتلاء وأكثر محنة أبدا ومن كان إلى الله أقرب فالمصائب له فى الدنيا أكثر والبلاء عليه أشد أما تسمع قوله(١) صلى الله عليه وسلم: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الأمثل فالأمثل فاذن من قصد الخير وتجرد لطريق الآخرة استقبلته هذه المحن فان لم يصبر عليها ولا يكون بحيث لا يلتفت إليها انقطع عن الطريق واشتغل عن العبادة فلا يصل إلى شىء من ذلك ، ولقد أعلمنا الله سبحانه وتعالى بلقاء المحن والمصائب وابتلائنا بها وحقق ذلك وأكده فقال تعالى : « لتبلونّ (٢) فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا» ثم قال: « وإن تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور» فكأنه يقول: وطنوا أنفسكم على أنه لا بد لكم من أنواع البلايا فان تصبروا فأنتم الرجال وعزائمكم عزائم الرجال فاذن من عزم على عبادة الله سبحانه يجب أولا أن يعزم على الصبر الطويل ويوطن نفسه على احتمال المشاق العظيمة المتوالية إلى الموت وإلا فقد قصد الأمر بغير آلاته وأتاه من غير وجهه . ولقد ذكر عن الفضيل رحمه الله أنه قال : من عزم على قطع الطريق للآخرة فليجعل فى نفسه أربعة ألوان من الموت: الأبيض والأحمر والأسود والأخضر فالموت الأبيض الجوع والأسود ذم الناس والأحمر مخالفة الشيطان والأخضر

---

(١) الحديث رواه الطبرانى وأحمد والبخارى والترمذى وابن حبان ولفظه فى الراموز « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة» .

(٢) قيل نزلت فى قصة عبد الله بن أبىّ حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد قرأ عليهم الرسول القرآن — إن كان حقا فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، وردّ عليه ابن رواحة فقال : أغشنا به فى مجالسنا يارسول الله وتسابّ المسلمون والمشركون واليهود، أعلمهم سبحانه بهذا الابتلاء والسماع ليكونوا أحمل لما يرد عليهم من ذلك إذا سبق الاخبار به بخلاف من يأتيه الأمر فجأة حيث يشتد ألمه ، وعزم الأمور أشدها وأحسنها .

Digitized by Birzeit University Library

الوقائع بعضها على بعض .

والثاني من الأمرين — ما فى الصبر من خير الدنيا والآخرة فمن ذلك النجاة والنجاح قال تعالى : «ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب» معناه من يتق الله تعالى بالصبر يجعل له مخرجا من الشدائد ، ومنها الظفر بالأعداء قال الله تعالى : «فاصبر إن العاقبة للمتقين» ومنها الظفر بالمراد قال الله تعالى : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا » وقيل كتب يوسف فى جواب يعقوب عليهما السلام إن آباءك صبروا فظفروا فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا وفى هذا المعنى قيل :

لاتيأسن وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ومنها التقدم على الناس والامامة قال تعالى: «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا» ومنها الثناء من الله سبحانه وتعالى قال سبحانه : « إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أوّاب » ومنها البشارة والصلاة والرحمة قال الله تعالى : « وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » ومنها المحبة من الله تعالى قال الله تعالى: « والله يحب الصابرين» ومنها الدرجات العلى فى الجنة قال الله تعالى : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا » ومنها الكرامة العظيمة قال تعالى : « سلام عليكم بما صبرتم » ومنها ثواب بلا غاية ولا نهاية خارجا عن أوهام الخلق وأعدادهم وتحصيلهم قال تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب[1] » فسبحانه من إله سيد ماجد ما أكرمه — وكل هذه الكرامات فى الدنيا والآخرة يعطيها عبده على صبر ساعة ، فبان لك أن خير الدنيا والآخرة فى الصبر قال صلى الله عليه وسلم ما أعطى أحد من إعطاء خير أوسع من الصبر وعن عمر رضى الله عنه أنه قال: جميع خير المؤمنين فى صبر ساعة واحدة ولقد أحسن القائل :

الصبر مفتاح ما يرجى وكل خير به يكون

---

(١) قال شارح الطريقة : فليس لهم ميزان كما ليس لهم حساب لعدم دخول الصبر تحت إحصاء عدد ، وفى الحديث تنصب الموازين يوم القيامة لأجل الصلاة والصدقة والحج فتوزن أجورهم ولا ينصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صبا حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل.

Digitized by Birzeit University Library

فاصبر وإن طالت الليالى فربما أمكن الحرون
وربما نيل باصطبار ماقيل هيهات لايكون

ولقائل آخر :

صبرت وكان الصبر منى سجية وحسبك أن الله أثنى على الصبر
سأصبر حتى يحكم الله بيننا فاما إلى يسر وإما إلى عسر

فعليك باغتنام هذه الخصلة الشريفة المحمودة وبذل المجهود فيها تكن من الفائزين والله تعالى ولى التوفيق .

فان قلت : فما حقيقة الصبر (١) وحكمه ؟

فاعلم أن لفظة الصبر من طريق اللغة الحبس قال الله تعالى: « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » أى احبس نفسك معهم وإنما يوصف الله تعالى بالصبر على معنى حبسه العذاب عن المجرمين فلايعاجلهم به ثم المعنى الذى هو من مساعى القلب سمى صبرا لأنه حبس النفس عن الجزع ، والجزع فيما قاله العلماء ذكر اضطراب فى الشدة وقيل بل إرادة الخروج عن الشدة بالحكم والصبر تركه وحصن الصبر ذكر مقدار الشدة ووقتها وأنها لاتزيد ولا تنقص ولا تتقدم ولا تتأخر ولا فائدة فى الجزع بل فيه الضرر والخطر وحصن هذا الحصن ذكر حسن عوض الله تعالى عليه وكريم الذخر فى ذلك لديه فهذه هذه وبالله التوفيق .

(فصل) فعليك بقطع هذه العقبة الشديدة المنيعة بدفع هذه العوارض الأربعة وإزاحة علتها وإلا فلا تدعك تذكر مقصودك من العبادة وتتفكر فيها فضلا على أن تدركها فتحصلها وإن لكل واحد منها شغلا شاغلا عاجلا وآجلا ، ثم إن أعظمها وأعضلها أمر الرزق وتدبيره فانه البلية الكبرى لعامة الخلق أتعبت نفوسهم وشغلت قلوبهم وأكثرت همومهم وضيعت أعمارهم وأعظمت تبعاتهم وأوزارهم وعدلت بهم عن باب

---

(١) حقيقة الصبر حبس النفس عن الجزع ، وقيل الصبر ثبات القوة المضادة للشهوة فى مقاومة الشهوة ، وتفصيلها أن للبهائم شهوة بلا عقل وللملائكة عقل بلا شهوة وللانسان كلاهما معا والصبر مقاومة العقل للشهوة فهو مخصوص بالانسان دون البهائم لنقصانهم ودون الملائكة لكمالهم .

Digitized by Birzeit University Library

الله تعالى وخدمته إلى خدمة الدنيا وخدمة المخلوقين فعاشوا فى الدنيا فى غفلة وظلمة وتعب ونصب ومهانة وذل وقدموا إلى الآخرة مفاليس بين أيديهم الحساب والعذاب إن لم يرحم الله تعالى بفضله ، وانظركم آية أنزل الله تعالى فى ذلك وكم ذكر من وعده وضمانه وقسمه على ذلك ولم تزل الأنبياء والعلماء يعظون الناس ويبينون لهم الطريق ويصنفون لهم الكتب ويضربون لهم الأمثال ويخوفونهم بالله تعالى وهم مع ذلك لايهتدون ولا يتقون ولا يطمئنون بل هم فى غمرة من ذلك لايزالون يخافون أن يفوتهم غداء أو عشاء وأصل ذلك كله قلة التدبر لآيات الله سبحانه وقلة التفكر فى صنائع الله وترك التذكر لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك التأمل لأقوال الصالحين مع الاسترسال لوساوس الشيطان والاصغاء إلى كلام الجاهلين والاغترار بعادات الغافلين حتى تمكن الشيطان منهم ورسخت العادات فى قلوبهم فتأدى بهم ذلك إلى ضعف القلب ورقة اليقين - وأما الاخيار الذين هم أولو الأبصار وأرباب الجد والاجتهاد فأبصروا طريق السماء فلم يعبأوا بأسباب الأرض واعتصموا بحبل الله فلم يكترثوا بعلائق الخلق وتيقنوا بايات الله تعالى وأبصروا طريقه فلم يلتفتوا إلى وساوس الشيطان والخلق والنفس فاذا وسوس لهم شيطان أو نفس أو إنسان بشىء قاموا معه بالمناقشة والمدافعة والمخالفة حتى ولى الخلق عنهم واعتزل عنهم الشيطان وانقادت لهم النفس واستقام لهم الطريق المستقيم على ماذكر عن ابراهيم (١) بن أدهم رحمه الله أنه لما أراد أن يدخل البادية أتاه الشيطان فخوفه بأن هذه بادية مهلكة ولا زاد معك ولاسبب فعزم على نفسه رحمه الله أن يقطع البادية على تجرده ذلك وأن لايقطعها حتى يصلى تحت كل ميل من أميالها ألف ركعة وقام بما عزم عليه وبقى فى البادية اثنتى عشرة سنة حتى أن الرشيد

---

(١) قال بعض إخوانى ممن سلكوا طريق القوم إن قراءة مثل هذه الأخبار عن أكابر الصوفية الغرض منها معرفة مقدار نعم الله على عباده وأن عطاءه لاحد له ، وليس الغرض من حكايه ابراهيم بن أدهم أن يحاول أحد تقليد ابن أدهم فى هذا فان هذه القوى الروحية من مواهب الحق كالنبوات والرسالات وسبق أن نبهتك إلى ماقاله ابن العربى من أن الولاية وهبية لمن كان على صفة مخصوصة وقد يحاول بعض الجهلة تقليد الغزالى أو غيره من كبار الصوفية فى بعض مجاهداتهم فلايستطيع ذلك فيرتد على عقبه يلقاه قوله سبحانه : « وما منا إلا له مقام معلوم » .

Digitized by Birzeit University Library

حج فى بعض تلك السنين فرآه تحت ميل يصلى فقيل له : هذا إبراهيم بن أدهم يصلى فأتاه فقال له كيف نجدك يا أبا اسحق ؟ فأنشأ إبراهيم يقول :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا مانرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يتوقع

وعن بعض الصالحين رحمه الله أنه كان فى بعض البوادى فوسوس له الشيطان بأنك متجرد وهذه بادية مهلكة لاعمران فيها ولا ناس فعزم على نفسه بأن يمضى على تجرده وأن يطرق الطريق حتى لا يأخذ من الناس ولا يأكل شيئا حتى يجعل فى فمه السمن والعسل ثم عدل عن الشارع ومر على وجهه سائحا قال رحمه الله : فسرت ماشاء الله فاذا بقافلة قد أضلت الطريق وهم يسيرون فلما أبصرتهم رميت بنفسى إلى الأرض لعلهم لا يبصرونى فسيرهم الله عز وجل حتى وقفوا علىّ فخمضت عينى فدنوا منى وقالوا هذا منقطع غشى عليه من الجوع والعطش فهاتوا سمنا وعسلا نجعله فى فيه لعله يفيق فأتوا بسمن وعسل فسددت فمى وأسنانى فأتوا بسكين يعالجون فمى حتى يفتحوه فضحكت ففتحت فاى فلما رأوا ذلك منى قالوا مجنون أنت : قلت لا والحمد لله تعالى ، وأخبرتهم ببعض ماجرى لى مع الشيطان فتعجبوا من ذلك . وعن بعض مشايخنا رحمهم الله قال : نزلت فى بعض أسفارى فى أيام التعليم مسجدا بعيدا عن الناس وكنت متجردا (١) على عادة أوليائنا فوسوس إلى الشيطان بأن هذا مسجد بعيد عن الناس لو سرت إلى مسجد بين الناس لرآك أهله وقاموا بكفايتك فقلت لا أبيت إلا ههنا وعلىّ عهد الله أن لا آكل شيئا إلا الحلواء ولا آكل حتى يوضع فى فمى لقمة لقمة فصليت العتمة وأغلقت الباب فلما مضى صدر من الليل إذا أنا بانسان يدق الباب ومعه سراج فلما كثر الدق فتحت الباب فاذا أنا بعجوز معها شاب وقد دخلت فوضعت بين يدي طبقا من الخبيص وقالت هذا الشاب ولدى صنعت له هذا الخبيص وجرى بيننا كلام فحلف أن لا يأكل حتى يأكل معه رجل غريب أو قالت هذا الغريب الذي فى المسجد فكل رحمك الله فأخذت تضع

---

(١) التجريد عندهم ترك الاشتغال بالأسباب والكسب والتفرغ لعبادة الله ، وهذا المقام أيضا لا ينال بالتكسب بل لكل سائر طريق ومتى أقامه الله فيه لا يخرج عنه بهوى نفسه ولذا قال ابن عطاء الله « إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله لك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية » .

Digitized by Birzeit University Library

فى فمى لقمة وفى فم ولدها لقمة حتى اكتفينا ثم انصرفا ، وأغلقت الباب علىّ متعجبا مما جرى فهذه وأمثالها من مجاهدات الصالحين ومناقضتهم للشيطان فان لك فى ذلك فوائد ثلاثة : إحداها أن تعلم أن الرزق لا يفوت من قدّر له بحال — والثانية أن تعلم أن أمر الرزق والتوكل لهم جدا وأن للشيطان فيه غوائل ووساوس عظيمة حتى أن مثل أولئك الأئمة الزهاد لم يتخلصوا من ذلك ولم ييأس منهم الشيطان بعد طول تلك الرياضات وكثرة المجاهدات التى سبقت لهم حتى يحتاجوا إلى دفعه بهذه المناقضات والعبرى أن من جاهد النفس والشيطان سبعين سنة لا يأمن أن يوسوسا له كما يوسوسان للمبتدىء فى العبادة بل لغافل لم يجتهد ساعة فى الرياضة ولو ظفرا به لفضحاه وأهلكاه هلاك الغافلين المغترين وفى ذلك عبرة لأولى الأبصار — والثالثة أن تعلم أن الأمر لا يتم إلا بالجد المحض والمجاهدة البالغة فانهم كانوا لحما ودما وبدنا وروحا مثلك بل كانوا أنحف أبدانا وأضعف أركانا وأدق عظاما منك ولكن كانت لهم قوة العلم ونور اليقين وهمة أمر الدين حتى قووا على مثل تلك المجاهدات والقيام بحق تلك المقامات فانظر لنفسك رحمنا الله وإياك وداوها من هذا الداء المعضل لعلك تفلح إن شاء الله تعالى .

(فصل) ثم اعلم بعد هذه الجملة أنى مجرد لك نكتا وجدتها بحيث تمكث فى القلب إذا تذكرتها وتكفيك مؤنة هذا الباب وتدعك على واضحة من الحق إن تأملتها وعملت بها والله سبحانه الموفق .

الأولى — أن تعلم أن الله تعالى ضمن الرزق (١) لعباده فى كتابه فقد ضمن رزقك وتكفل لك به فما تقول لو وعدك ملك من ملوك الدنيا أنه يضيفك الليلة ويعشيك وأنت حسن الظن به أنه صادق ولا يكذب ولا يخلف الوعد ، بل لو وعدك بذلك سوقى أو يهودى أو نصرانى أو مجوسى مستور عندك بظاهره عفيف فى مقالته ألست تثق به وبوعده وتطمئن بقوله ولا تهتم لعشائك تلك الليلة اتكالا عليه فما بالك وقد وعدك الله تعالى وضمن لك رزقك وتكفل به بل أقسم عليه فى غير موضع وأنت لا تطمئن

(١) لعلك فهمت مما علقناه سابقا أن المطلوب صوفيا هو عدم تشويش القلب بأمر الرزق وأن التوكل ليس معناه ترك الكسب الذى هو من فرائض الاسلام ، وأن من تركوا التكسب من أكابر الصوفية تركوه قهرا بعد أن لحظتهم العناية ، وإن هذا حال خاص بهم لا يقلدون فيه ولا يأثم الناس بهم فيه .

Digitized by Birzeit University Library

بوعده ولا تسكن إلى قوله وضمانه ، ولا تنظر إلى قسمه بل يضطرب قلبك ويهتم ، فيالها من فضيحة لو رأيت وبالها ومن مصيبة لو علمت حالها ، وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال :

أتطلب رزق الله من عند غيره ... وتصبح من خوف العواقب آمنا
وترضى بصراف وإن كان مشركا ... ضمينا ولا ترضى بربك ضامنا
كأنك لم تقرأ بما فى كتابه ... فأصبحت منحول اليقين مباينا

ولهذا المعنى ينجر هذا الأمر إلى الشك والشبهة ، ويخاف على صاحبه والعياذ بالله سلب المعرفة والدين ولهذا المعنى قال سبحانه : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » — « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » فحسب المؤمن المهتم لأمر دينه هذه النكتة الواحدة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

والثانية — أن تعلم أن الرزق مقسوم صح ذلك فى كتاب الله تعالى وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعلم أن قسمته لا تتبدل ولا تتغير ، فإن أنكرت القسمة أو جوزت نقضها فذلك باب الكفر نقرعه نعوذبالله ، وإن علمت أنه حق لا يتغير فأى فائدة فى الاهتمام والطلب إلا الذل والهوان فى الدنيا ، والشدة والخسران فى الآخرة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : مكتوب (١) على ظهر الحوت والثور رزق فلان ابن فلان فلا يزداد الحريص إلا جهدا وفى ذلك يقول شيخنا رحمه الله : إن ما قدر لما ضيعك أن يضعفاه فلا يضعفه غيرك فكل رزقك وبحك بالعز ولا تأكله بالذل — وهذه نكتة مقنعة للرجال .

والثالثة — ما سمعت من شيخى الامام رحمه الله يحكى عن الأستاذ رحمه الله أنه كان يقول : إن مما يقنعنى فى أمر الرزق أنى تذكرت وقلت فى نفسى أليس هذا الرزق للحياة والعيش والميت مايصنع بالرزق فاذا كان حياة العبد فى خزانة الله تعالى وبيده ، فكذلك الرزق إن شاء يعطينى وإن شاء يمنعنى وهو غيب عنى موكول إلى الله تعالى يدبره كيف يشاء وأنا ساكن النفس بذلك — وهذه نكتة لطيفة مقنعة لأهل التحقيق .

---

(١) لم أبحث عن تخريج هذا الحديث لأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أعلى عن أن يصدر منه هذا الهراء .

Digitized by Birzeit University Library

والرابعة — مما ذكرنا فى هذا الفصل أن الله تعالى ضمن رزق العباد ، ولم يضمن إلا الرزق المضمون (١) الذى هو الغذاء والتربية وفيه القوام والعدة .

وأما الأسباب من الطعام والشراب — فالعبد إذا تجرد لعبادة الله تعالى وتوكل على الله فربما يحبس عنه الأسباب فلا يعبأ بذلك ولا يضجر لما علم من حقيقة الأمر ، أن الضمان لقوام البنية والتوكل على الله سبحانه إنما هو فى هذا المعنى لا غير والمنتظر من الله تعالى هذا المعنى ، وأن الله تعالى لا محالة يمده بالقوة ليقوم بحق العبادة والخدمة ما دام له أجل وتكليف بالعبادة وهذا هو المقصود ، والله سبحانه قادر على ما يشاء إن شاء أن يقيم بقية عبده بطعام وشراب أو بطين وتراب أو بتسبيح وتهليل كالملائكة ، وإن شاء بغير هذا كله فليس مطلوب العبد إلا القوام والقوة للعبادة ، ليس الأكل والشرب وشدة الشهوة

---

(١) تقسيم الرزق إلى مضمون وغير مضمون ، تقسيم ينطبق على حال أهل التوكل الأكبر من أمثال الغزالى وإبراهيم بن أدهم فحال هؤلاء أو مقامهم يقتضيهم أنهم لا يفكرون فيما به قوام حياتهم وحياة مهجهم ، أما ما عدا هذا الرزق من زوائد الحياة فليس لهم به شأن بالكلية ، ولا يتوهم من كلام أبى حامد أن الله إنما تكفل بالرزق المضمون فلا يطلب ولا يكتسب لأن الكسب من فرائض الاسلام والقول بتعطيل فرض من فرائض الاسلام لا يصدر من حجة الاسلام ، ولا يتوهم من كلامه أيضا أن الله لم يتكفل بغير ضرورة الحياة بل إن الله هو رب العالمين وإنه الرحمن الرحيم المنعم بجلائل النعم ودقائقها « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » وطيب الحياة أى ترفها يشمل ما فوق الضرورة وقد تكفل به الله لعباده الصالحين .

(٢) إن من كان فى مقام التجريد وهو مقام الصديقين فانه بطبيعة مقامه لا يعبأ بطعام أو شراب كما قال صلى الله عليه وسلم: «أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى» فالغزالى فى هذا الكلام يحكى حال قوم منحهم الله ذلك لأنه يأمر بترك الأسباب وعدم التفكير فى الطعام والشراب لأن هذا ليس فى الامكان متى كان الانسان كامل المشاعر والحواس فاياك أن تقلد القوم فى ترك الأكل والاشتغال بالعبادة لأن ذلك فى غاية الخطورة بل هو وسيلة للهوس والجنون والعياذ بالله ، فسر على القوانين الالهية ولا تخرج عنها إلا أن يخرجك الله ويخرق لك العوائد ولا حرج على فضله ولا حدّ لعطاياه .

Digitized by Birzeit University Library

ونيل اللذة فلا اعتبار إذن بالأسباب ، ولهذا المعنى قويت العباد والزهاد على الأسفار وطي الليالى والأيام فمنهم من لم يأكل عشرة أيام ، ومنهم من لم يأكل شهرا وشهرين وهو على قوته ، ومنهم من كان يستف الرمل فيجعله الله تعالى له غذاء نحو ماذكر عن سفيان الثورى رحمه الله أنه نقدت نفقته بمكة فمكث خمسة عشر يوما يستف الرمل ، وقال أبو معاوية الأسود : رأيت إبراهيم بن أدهم يأكل الطين عشرين يوما ، وعن الأعمش قال : قال لى إبراهيم التيمي رحمه الله تعالى: ما أكلت منذ شهر، قلت منذ شهر؟ قال ولاشهرين: إلا أن إنسانا ناشدني الله على عنقود من عنب فأكلته فأنا أشتكي بطني — قلت أنا: ولا تعجبن من ذلك ، فان لله تعالى القدرة على مايشاء مثل هذا المريض تراه لا يأكل شهرا وهو حي يعيش والمريض على كل حال أضعف نفسا وأرق طبعا من القوى ، وأما الذى يموت جوعا فذلك أجل حضره كالذى يموت شبعا وتخمة ، ولقد بلغنى عن أبى سعيد الخراز رحمه الله أنه قال: كان حالى مع الله سبحانه أن يطعمني فى كل ثلاثة أيام ، فدخلت البادية فمضت على ثلاثة أيام ما طعمت ، فلما كان فى اليوم الرابع وجدت ضعفا فجلست مكانى فاذا بهاتف يقول ياأبا سعيد : أيما أحب إليك سبب أو قوى ؟ فقلت لا إلا القوى، فقمت من وقتى وقد استقللت فأقمت اثنى عشر يوما ماطعمت ولا وجدت ألما لذلك — فأما إذا رأى العبد احتباس الأسباب عنه وعلم من نفسه التوكل على الله فليستيقن أن يمده الله تعالى بالقوة فلا يضجرن لذلك بل حقه أن يشكر الله تعالى على ذلك شكرا كثيرا فان له المنة والصنع اللطيف ، إذ رفع عنه المؤنة وأعطاه المعونة وحصل له الأصل والمقصود ودفع عنه الثقل والواسطة وخرق له علائق العادة وأراه طريق القدرة وشبه حاله بحال الملائكة ورفعه عن حالة البهائم والعامة فى تلك الكرامة — فتأمل هذا الأصل الكبير تغنم الربح الكثير العظيم إن شاء الله تعالى .

قلت أيضا : ولعلك تقول إنك أطنبت فى هذا الفصل خلاف شرط الكتاب ؟

فأقول: لعمر الله إنه لقليل فى جنب مايحتاج إليه فى هذا المعنى ، إذ هو أهم شأنا فى العبادة بل عليه مدار أمر الدين والدنيا والعبودية فمن له همة فى هذا الشأن فليستمسك بذلك وليراعه حقه وإلا فهو عن المقصود بمعزل ، والذى يدلك على بصيرة علماء الآخرة العارفين بالله أنهم بنوا أمرهم على التوكل على الله والتفرغ لعبادة الله وقطع العلائق كلها فكم صنفوا من كتاب ، وكم أوصوا بوصية وقيض الله لهم أعواناً من السادة وأصحابا حتى يتمشى

Digitized by Birzeit University Library

لهم من الخير المحض ما لم يتمش لطائفة من طوائف الأئمة ألأزهاد الكراهية فانهم بنوا مذهبهم على أصول غير مستقيمة — ومازلنا أعزة مادمنا على منهاج أئمتنا يخرج من معابدنا ومدارسنا كل حين إما إمام فى العلم كالأستاذ أبي إسحاق وأبى حامد وأبى الطيب وابن فورك وشيخنا الامام وأمثالهم من السادة ، وإما صديق فى العبادة كأبى إسحاق الشيرازى وأبى سعيد الصوفى ونصر المقدسى وغيرهم ممن فاق الأمة علما وزهدا حتى ضعفت القلوب من بعضنا وتلطخنا بشىء من العلائق التى ضررها أكثر من نفعها ، فتراجعت الأمور وتقاعدت الهمم وطارت البركات وزالت اللذات والحلاوات ، فلا يكاد يصفو لأحد عبادة أو يحصل له علم وحقيقة ، وأن اللمعة التى تظهر منا الآن ليست إلا ممن بقى على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين ، كالحرث المحاسبى ومحمد بن إدريس الشافعي والمزنى وحرملة وغيرهم من أئمة الدين رحمهم الله أجمعين فهم كما قال القائل :

وما صحبوا الأيام إلا تعففا ... وما وجدوا من حب سيدهم بدا
أفاضل صديقون أهل ولاية ... إلى سيد السادات قد جعلوا القصدا
تحمل عقد الصبر من كل صابر ... وما حلت الأيام من عقدهم عقدا

وكنا فى الصدر الأول ملوكا فصرنا سوقة ، وكنا فرسانا فصرنا رجّالة وليتنا لانقطع عن الطريق بمرة — والله المستعان على المصائب وهو المسئول أن لا يسلبنا هذا الرمق إنه جواد كريم منان رحيم ولا حول ولا قوة بالا بالله العظيم .

وأما التفويض — فتأمل فيه أصلين : أحدهما أنك تعلم أن الاختيار لا يصلح إلا لمن كان عالما بالأمور بجميع جهاتها ظاهرها وباطنها وحالها وعاقبتها ، وإلا فلا يأمن أن يختار الفساد والهلاك على ما فيه الخير والصلاح — ألا ترى أنك لو قلت لبدوى أو قروى أو راعى غنم : أنقد لى هذه الدراهم وميز لى بين جيدها ورديئها فانه لا يهتدى لذلك ، ولو قلت لسوقى غير صيرفى فربما يعسر أيضا فلا تأمن إذن إلا بأن تعرضها على الصيرفى الخبير بالذهب والفضة وما فيهما من الخواص والأسرار وهذا العلم المحيط بالأمور من جميع الوجوه لا يصلح إلا لله رب العالمين فلا يستحق إذن أحد أن يكون له الاختيار والتدبير(١) إلا الله

(١) ورضى الله عن ابن عطاء الله السكندرى إذ يقول فى إحدى حكمه : « أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك لا تقم به لنفسك » والتدبير المذموم هو المنافى للعبودية =

Digitized by Birzeit University Library

وحده لا شريك له ولذلك يقول عز من قائل : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » ثم قال تعالى : « وربك يعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون » وحكي أن بعض الصالحين قيل له من قبل الله تعالى سل تعط : وكان موفقا فقال : إن عالما بجميع الوجوه يقول لجاهل من جميع الوجوه سل تعط : إيش أعلم ماذا يصلح لى فاسأله ولكن اختر أنت لى فهذه هذه .

والأصل الثانى — ما تقول لو أن رجلا قال لك : أنا أقوم بجميع أمورك وأدبر جميع ما تحتاج إليه من مصالحك ، فتفوض الأمر كله إلى واشتغل أنت بشأنك الذى يعنيك وهو عندك أعلم أهل زمانك وأحكمهم وأقواهم وأرحمهم وأتقاهم وأصدقهم وأوفاهم ؟ ألست تغتنم ذلك وتعده أعظم نعمة وتمتن منه أكبر منة ، وتقدم له أوفر شكر وأجل ثناء ثم إذا اختار لك شيئا لا تعرف وجه الصلاح فيه ، فلا تضجر لذلك بل تثق وتطمئن إلى تدبيره وتعلم أنه لا يختار لك إلا ما هو الخير وما ينظر لك إلا الصلاح كيفما كان الأمر بعد ما وكلت الأمر إليه وضمن ذلك ، فمالك إذن لا تفوض الأمر إلى الله رب العالمين سبحانه فهو الذى يدبر الأمر كله من السماء إلى الأرض فهو أعلم كل عالم وأقدر كل قادر وأرحم كل راحم وأغنى كل غنى ليختار لك بلطيف علمه وحسن تدبيره مالا يبلغه علمك ، ولا يدركه فهمك واشتغل أنت بشأنك الذى يعنيك فى عاقبتك وإذا اختار لك أمراً لا تعلم وجه سره رضيت بذلك واطمأننت إليه كيفما كان فهو الصلاح والخير فتأمل راشدا إن شاء الله وبالله التوفيق .

وأما الرضا بالقضاء — فتأمل فيه أصلين مقنعين لا مزيد عليهما : أحدهما ما فى الرضا من الفائدة فى الحال والمآل — أما الفائدة فى الحال ففراغ القلب وقلة الهم من غير فائدة ولذلك قال بعض الزهاد رحمه الله : إذا كان القدر حقا فالهم فضلة ، وأصله الخبر المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن مسعود رضى الله عنه : ليقل همك وما قدر يكون وما لم يقدر لم يأتك — هذا هو الكلام الجامع النبوى البالغ فى قلة لفظه وكثرة فائدة معناه ، وأما الفائدة فى المآل فثواب الله تعالى ورضوانه قال الله تعالى : «رضى الله عنهم ورضوا عنه» وما فى السخط من الهم والحزن والضجر فى الحال والوزر والعقوبة فى المآل بلا فائدة إذ القضاء نافذ فلا ينصرف بهمك وسخطك كما قيل :

= بأن تقول : لو كنت فعلت كذا ما حصل كذا فان الله تعالى دبر الأشياء فى سابق علمه ، وأما التدبير المصحوب بالتفويض فلا بأس به .

Digitized by Birzeit University Library

ماقد قضى يانفس فاصطبري له ولك الأمان من الذي لم يقدر
وتحققي أن المقدر كائن حتم عليك صبرت أم لم تصبري

والعاقل لا يختار الهم بلا فائدة مع الوزر والعقوبة على راحة القلب وثواب الجنة .

والأصل الثانى — ما فى السخط من عظم الخطر والضرر والكفر والنفاق إلا أن يتداركه الله تعالى وتأمل قوله تعالى: « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » فنفى الايمان وأقسم على فقد الايمان عمن سخط ووجد فى نفسه حرجا من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف حال من سخط قضاءه تعالى ؟ وقد روينا (١) أن الله تعالى يقول: من لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر على نعمائى فليتخذ إلها سوائى، قيل كأنه يقول: هذا لا يرضانى ربا حين يسخط فليتخذ ربا آخر يرضاه وهذا غاية الوعيد والتهديد لمن عقل ، وقد صدق بعض السلف إذ قيل له ما العبودية وما الربوبية ؟ فقال للرب أن يقضى وللعبد أن يرضى، فاذا قضى الرب ولم يرض العبد فما هناك عبودية ولا ربوبية — فتأمل هذا الأصل وانظر لنفسك لعلك تسلم بعون الله وتوفيقه .

وأما الصبر — فانه دواء مر وشربة كريهة مباركة تجلب كل منفعة وتدفع عنك كل مضرة فاذا كان الدواء بهذه الصفة فالانسان العاقل يكره النفس على شربه وتجرعه ويغص على مرارته وحدته ويقول مرارة ساعة راحة سنة — وأما المنافع التى يجلبها الصبر فاعلم أن الصبر أربعة أقسام : صبر على الطاعة وصبر عن المعصية وصبر عن فضول الدنيا وصبر على المحن والمصائب ، فاذا احتمل مرارة الصبر وصبر فى هذه المواطن الأربعة ، تحصل له الطاعات ومنازلها من الاستقامة وثوابها

---

(١) الحديث أخرجه الطبرانى فى الكبير وابن حبان عن أبى هند الدارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى : « من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائى فليلتمس ربا سواي » قال فى القشيرية : اعلم أن العبد لا يكاد يرضى عن الحق إلا بعد أن يرضى عنه الحق قال الله تعالى: « رضى الله عنهم ورضوا عنه » قال تلميذ لشيخه : إذا وجدت قلبى راضيا عن الله تعالى علمت أنه راض عنى ، فقال الشيخ أحسنت يا غلام : قال موسى لربه : دلني على عمل إذا عملته رضيت عنى فأوحى إليه أن رضاى فى رضاك بقضائى .

Digitized by Birzeit University Library

الجزيل فى العاقبة ثم لا يقع فى المعاصى وبلياتها فى الدنيا وتبعاتها فى الآخرة ، ثم لا يبتلى بطلب الدنيا ومالها من الشغل فى الحال والتبعة فى المآل ثم لا يحبط أجره على ما يبتلى به وذهب عنه فحصل إذن بسبب الصبر : الطاعة ومنازلها الشريفة وثوابها والتقوى والزهد والعوض والثواب الجزيل من الله سبحانه وتفصيل ذلك أمر لا يعلمه إلا الله عز وجل — وأما دفع المضار[1] فيربحه أولا من مؤنة الجزع ومقاساته فى الدنيا ثم وزره وعقوبته فى العقبى . وأما إن هو ضعف عن الصبر وسلك طريق الجزع فاته كل منفعة ولحقه كل مضرة إذ لا يصبر على مشقة الطاعة فلا يفعل الطاعة ، ولا يصبر على حفظها فيحبطها أو لا يصبر على المواظبة عليها فلا يصل إلى منزلة شريفة فيها من درجات الاستقامة أو لا يصبر عن معصية فيقع فيها أو عن فضول فيشتغل به ، أو لا يصبر على مصيبة فيحرم ثواب الصبر وربما يكثر الجزع حتى يفوت العوض بسبب ذلك فتكون له مصيبتان : إحداهما فوت الشىء والأخرى فوت الأجر والعوض وحلول المكروه وحرمان الصبر ولقد قيل : حرمان الصبر على المصيبة أشد من المصيبة فأى فائدة فى شىء يذهب بالحاصل الموجود ، ولا يرد عليك الذاهب المفقود فاجتهد إذا فاتك أحدهما أن لا يفوتك الآخر — ومن الكلام الجامع ما ذكر أن عليا رضى الله عنه عزى رجلا فقال : إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور ، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور .

ثم أقول : فجملة الأمر أن قطع القلب عن العلائق المألوفة ومنع النفس عن العادات الراسخة بالتوكل المحض على الله جل اسمه ، وترك التدبير فى الأمور وتفويضها إلى الله سبحانه من غير علم بما هو الصرفيها ، وكبح النفس عن السخط والجزع مع تسارع النفس إليه وإكراهها على لجام الرضا وتجرع شربة الصبر مع نفرتها عن ذلك الأمر مر وعلاج شديد وحمل ثقيل ولكنه تدبير سديد وطريق مستقيم وله عاقبة محمودة وأحوال سعيدة مسعودة . وما تقول فى الوالد المشفق الغنى إذا منع ولده العزيز رطبة أو تفاحة يأكلها وهو أرمد وسلمه إلى المعلم الغليظ السائس ويحبسه طول النهار عنده ويضجره ويحمله إلى الحجام ليحجمه فيوجعه ويقلقه — أترى أنه منع ذلك من بخل فيه فكيف وهو يعطي الأجانب ويوسع عليهم ، أو هوان لهذا الولد عنده كيف وهو يكترثه بجميع ما فى يده أو قصد بذلك إتعابه وإيذاءه لبغض له كيف وهو قرة عينه وثمرة فؤاده ، ولو هبت عليه ريح لعز عليه

---

(١) معناه أن فى الصبر فوائد وفيه دفع مضار ، أما الضرر الذى يدفعه فهو الجزع وما يترتب عليه من الوزر .

Digitized by Birzeit University Library

ذلك كلا. ولكن لما علم أن صلاحه فى ذلك وأن بهذا التعب القليل يصل إلى خير كثير ونفع عظيم — وما تقول فى الطبيب الحاذق الناصح المحب إذا منع المريض الدنف شربة ماء وهو ظمآن يتقلى كبده وسقاه شربة اهليلج (١) كريهة تجزع عن ذلك نفسه وطبعه أترى أن ذلك منه معاداة وإيذاء كلا بل هو نصح وإحسان لما علم يقينا أن فى إعطائه شهوته ساعة هلاكه وعطبه رأسا ، وفى منع ذلك شفاؤه وبقاؤه — فتأمل أيها الرجل إذا حبس الله عنك رغيفا أو درهما فتعلم يقينا أنه تملك ماتريد ويقدر على إيصاله إليك وله الجود والفضل ويعلم حالك فلا يخفى عليه شىء فلا عدم ولا عجز ولا خفاء ولا بخل تعالى عن ذلك وتقدس فانه أغنى الأغنياء وأقدر القادرين وأعلم العلماء وأجود الأجودين فتعلم إذن بالحقيقة أنه لم يمنعك إلا لصلاح واختيار كيف وهو الذى يقول : « خلق لكم ماقى الأرض جميعا » كيف وهو الذى جاد عليك بمعرفته وهى التى تتلاشى فى جنبها الدنيا بأسرها ، وفى الخبر المشهور (٢) إن الله تعالى يقول : إنى لأذود أوليائى عن نعيم الدنيا كما يذود الراعى الشفيق إبله عن مبارك العرة ، وإذا ابتلاك بشدة فاعلم يقينا أنه غنى عن امتحانك وابتلائك عالم بحالك بصير بضعفك وهو بك رءوف رحيم أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم : الله تعالى أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها فاذا علمت هذا علمت أنه لم ينزل بك هذا المكروه إلا لصلاح لكن جهلته أنت وهو عليم بذلك ولهذا المعنى تراه يكثر إبتلاء أوليائه وأصفيائه الذين هم أعز عباده حتى يقول صلى الله عليه وسلم : إذا أحب الله قوما ابتلاهم (٣) ، ويقول النبى : إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الشهداء ثم الأمثل (٤) فالأمثل — فاذا رأيت الله يحبس عنك الدنيا أو يكثر عليك الشدائد والبلوى فاعلم أنك عنده

---

(١) فارسية معربة : ثمر يشبه الخوخ وله طعم قابض .

(٢) الحديث فى الجامع الصغير أخرجه البيهقى وابن عساكر عن حذيفة ولفظه « إن الله تعالى ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده بالخير ، وإن الله تعالى ليحمى عبده المؤمن من الدنيا كما يحمى المريض أهله الطعام » ورواه أحمد عن محمود ابن لبيد بلفظ « إن الله تعالى ليحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه ، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه » .

(٣) « إذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن صبر فله الصبر ومن جزع فله الجزع » أخرجه البيهقى

(٤) « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » الحديث رواه أحمد والبخارى والترمذى والحاكم والطبرانى .

Digitized by Birzeit University Library

عزيز وأنك عنده بمكان على وأنه يسلك بك طريق أوليائه فانه يراك ولا يحتاج إلى ذلك أما تسمع قوله تعالى: « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا (١) » بل اعرف منته عليك فيما يحفظه عليك من صلاحك ويكثر من أجرك وثوابك ، وينزلك منازل الأبرار والأعزة عنده فكم ترى من عواقب حميدة ومواهب كريمة والله ولى التوفيق بمنه وفضله .

(فصل) وبالجملة إذا علمت يقينا أن الله تعالى هو الملىء بضمان رزقك الذي لابد لك منه فى بقائك وقيامك بعبادته ، وأنه القادر على مايشاء كيف شاء وهو البصير بحاجتك حالا فحالا ساعة فساعة — انكلت على ضمانه الحق ووعده الصدق ، وسكن قلبك بذلك وانصرفت عن ذكر العلائق والأسباب وتعلق قلبك بها ، إذ العلائق لاتغنيك ولاتكفيك دون الله عز وجل فانه تعالى يبسر أكلها وشربها ، ثم هو الذى يمرئها ويهنئها ثم هو الذى يلحقك قوتها ونفعها ويدفع عنك ثقلها وضررها ، وهو تعالى يغنيك ويكفيك دونها إذا شاء ، فالأمر كله إليه وحده لاشريك له فتوكل عليه لاغير (٢) وكذلك تترك التدبير فى أمورك إلى من يدبر السماء والأرض ، وتريح نفسك عن شىء لا يبلغه علمك وفكرك من أمر غد ونظرك فى أمر يكون غدا أو لايكون وأنه كيف يكون ، وتكف عن لعل ولو إذ ليس فيه إلا شغل القلب وتضييع الوقت ولعله تكون أمور لم تخطر ببالك فيكون ماسبق فى فكرك وتدبيرك وتضييعك الوقت العزيز فيه لغوا بلا فائدة بل خسرانا تندم عليه وتغبن فيه لمكان شغل القلب فيه وتضييع العمر فى ذلك وفى هذا المعنى لبعض الزهاد رضى الله عنه :

سبقت مقادير الاله وحكمه فأرح فؤادك من لعل ومن لو

وقال آخر :

سيكون ماهو كائن فى وقته وأخو الجهالة متعب محزون

فلعل ماتخشاه ليس بكائن ولعل ماترجوه ليس يكون

وتقول لنفسك فى الجملة يا نفس لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وهو حسبنا ونعم الوكيل إذ هو قدير لانهاية لقدرته ، حكيم لانهاية لحكمته رحيم لانهاية

---

(١) المراد منه أنك مراعى منا بالحفظ والكلاءة .

(٢) أى مع الأخذ فى الأسباب « اعقلها وتوكل » أما أرباب المقامات من أمثال الغزالى فلهم حالهم الخاص فلا يضرهم عدم الأخذ بالأسباب لأنهم أصبحوا روحيين قد تخلصوا من سلطان المادة فاحذر تقليدهم قبل أن تصل لدرجتهم فان هذا بلية .

Digitized by Birzeit University Library

لرحمته، ومن كان بهذه الصفات حقيق أن يتوكل عليه ويفوض الأمر كله إليه — فعليك بالتفويض وكذلك توطن قلبك على أن ما قضى الله ويقضى لك فهو الأوفق والأصلح وإن كان ذلك لا يبلغ علمنا كيفيته وسره، وتقول يانفس المقدور كائن لامحالة فلا فائدة فى السخط والخير فيما يصنع الله فلا وجه للسخط، ألست تقولين: رضيت بالله ربا فكيف لاترضين بقضائه والقضاء من شأن الربوبية وحقها؟ فعليك بالرضا وكذلك إذا أصابتك مصيبة وحل بك مكروه فتراعي نفسك عند ذلك وتضبط قلبك حتى لاتجزع ولا تظهر منك شكاية وقلق لاسيما عند الصدمة(١) الأولى فان الشأن هنالك والنفس متسارعة جدا إلى عادة الجزع عند ذلك، وتقول يانفس هذه قد وقعت فلاحيلة لدفعها وقد دفع الله تعالى ماهو أكبر منها فان أنواع البلاء فى خزائنه لكثيرة، وإن هذه ستنقضى فلا تبقى وإنها سحابة ستنقشع فتجلدى يانفس قليلا تجدى لذلك سرورا طويلا وثوابا جزيلا، بعد أن لادفع للنازل ولا فائدة فى الجزع ولا مصيبة فى الحقيقة مع العزاء والصبر فتشغل لسانك بالاسترجاع وقلبك بذكر مايحصل لك عند الله تعالى من الأجر، وتتذكر صبر أولى العزم على المصائب العظام من الأنبياء والأولياء الأعزة على الله تعالى، وإذا حبس عنك الدنيا فى وقت فتقول يانفس هو أعلم بالحال وأرحم بك وأكرم، وأنه الذى يطعم الكلب فى خسته ويطعم الكافر فى عداوته، وأنا عبده العارف الموحد ألا أساوى عنده رغيفا هذا محال أيضا فاعلمى بالحقيقة أنه لم يحبس ذلك عنك إلا لنفع عظيم وسيجعل الله بعد عسر يسرا فاصبرى قليلا تري العجب من لطيف صنعه أما سمعت قول القائل :

توقع صنع ربك سوف يأتى بما تهواه من فرج قريب
ولا تيأس إذا ماناب خطب فكم فى الغيب من عجب عجيب

---

(١) أخرج البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر أصل كل عبادة وكف عن معصيته» إذ بعد الصدمة الأولى يهون الأمر وتنكسر حدة المصيبة فان مفاجأة المصيبة تروع القلوب أخرج أحمد فى الزهد عن زيد بن أسلم قال : مات ابن لداود عليه السلام فجزع عليه فقيل له ماكان يعدل عندك ؟ قال: كان أحب إلى من ملء الأرض ذهبا، فقيل: فان ذلك من الأجر على قدر ذلك — ذكره السيوطى فى بعض مؤلفاته .

Digitized by Birzeit University Library

وقول الآخر مثله :

ألا يا أيها المرء الذى الهمّ به برّح
إذا اشتدت بك العسرى ففكر فى ألم نشرح
فعسر بين يسرين إذا كررته فافرح

فاذا أجريت هذه الأذكار ونحوها وواظبت عليها بالتكرير والتمرين ، فانذلك سيهون عليك إذا كانت لك همة واجتهاد زمانا غير طويل . ولقد دفعت هذه العوارض الأربعة عن نفسك وكفيت مؤنتها وصرت عند الله تعالى من المتوكلين المفوضين الراضين بقضائه الصابرين على بلائه ، وحصلت لنفسك راحة القلب والبدن فى الدنيا وعظيم الثواب والذخر فى العقبى وجليل القدر والمحبة عند رب العالمين فيجتمع لك خير الدارين وتستقيم لك طريق العبادة إذ لا عائق ولا شاغل وكنت حينئذ قد قطعت هذه العقبة العسرة — والله تعالى المسئول أن يمدك وإيانا بحسن توفيقه فان الأمر كله بيده ، وهو أرحم الراحمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(الباب الخامس فى العقبة الخامسة وهى عقبة البواعث [1])

ثم عليك يا أخى بالسير إذا استقام لك الطريق وسهلت السبيل وارتفعت العوائق وزالت العوارض ، ولا يحصل لك السير المستقيم إلا باستشعار الخوف والرجاء [2]

---

(١) لا يخفى عليك أن البواعث ليست عقبة وإنما العقبة عدم وجود البواعث .

(٢) قال سيدى على الخواص : إذا كنت مؤمنا وسمعت أنه تعالى يمدح المؤمنين فلا تبادر إلى كونك مؤمنا ، وتأمل قبل ذلك هل أنت على ما وصف الله به المؤمنين من الصفات التى مدحهم عليها أم لا ؟ ثم إن كنت على ما وصف الله فهل تموت على ذلك أم لا ؟ فان علمت أنك تموت على ذلك فقد أمنت مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، وإن علمت أنك تموت على غير ذلك فقد أيست من رحمة الله ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، فكن بين الرجاء والخوف فانه الصراط المستقيم غير أنه ينبغى تقديم جانب الخوف فى حال الصحة وجانب الرجاء فى حال المرض كما قال الامام الدردير :

وغلب الخوف على الرجاء وسر لمولاك بلا تناء =

Digitized by Birzeit University Library

والتزامهما حقهما على حدهما — أما الخوف فانما يجب التزامه لأمرين: أحدهما الزجر عن المعاصى فان هذه النفس الأمارة بالسوء ، ميالة إلى الشر طماحة إلى الفتنة فلا تنتهي عن ذلك إلا بتخويف عظيم وتهديد بالغ ، وليست هى فى طبعها حرة يهمها الوفاء ويمنعها الحياء عن الجفاء إنما هى كما قال القائل :

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامه

والتدبير فى أمرها أن تقرعها أبدا بسوط التخويف قولا وفعلا وفكرا ، نحو ماذكر عن بعض الصالحين أن نفسه دعته إلى معصية فانطلق ونزع ثيابه وجعل يتمرغ فى الرمضاء ويقول لنفسه ذوقى: فنارجهنم أشد حرا من هذه ، أى جيفة بالليل بطالة بالنهار — والثانى لايعجب بالطاعات فيهلك بل يقمعها بالذم والعيب والنقص بما فيها من الأسواء والأوزار التى فيها ضروب الأخطار ونحو ذلك ، وذلك نحو ماذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لو أنى وعيسى(١) أوخذنا بما اكتسبت هاتان لعذبنا عذابا لم يعذبه أحد من العالمين وأشار بأصبعيه ، وعن الحسن أنه كان يقول: مايأمن أحدنا أن يكون قد أصاب ذنبا فطبق باب المغفرة دونه فهو يعمل فى غير معمل ، وعن ابن المبارك فيما يعاتب نفسه . تقولين قول الزاهدين وتعملين عمل المنافقين ، وفى الجنة تطمعين هيهات هيهات إن للجنة قوما آخرين وهم أعمال غير ماتعملين — فهذه وأمثالها مما يلزم العبد

= وذلك لأن غلبة الخوف فى حال الصحة تحرق نار الشهوة وتوجب الاقبال على العمل ، وغلبة الرجاء عند الموت توجب المحبة التى ينشأ عنها الشوق إلى واسع الجود والكرم وفى الحديث « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه — وأما ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو يجود بنفسه فقال كيف تجدك ؟ قال : أرجو الله وأخاف ذنوبى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « الرجاء والخوف لايجتمعان فى قلب عبد مؤمن فى هذا الموطن إلا أعطاه الله مايرجو وآمنه مما يخاف » فانه لا ينافى أن المطلوب فى هذه الحالة تغليب جانب الرجاء لأن الاجتماع المذكور فى الحديث لايستلزم المساواة فى المجتمعين .

(١) لم أجد هذا الحديث فى معاجمي .

Digitized by Birzeit University Library

تذكيرها (١) للنفس وتكريرها عليها لئلا تعجب بطاعة أو تقع فى معصية وبالله التوفيق .

وأما الرجاء — فأنما يلزمك استشعاره لأمرين: أحدهما للبعث على الطاعات وذلك أن الخير ثقيل والشيطان عنه زاجر، والهوى إلى ضده داع ، وحال أهل الغفلة من عامة الخلق فى النفس منطبع مشاهد، والثواب الذى يطلب بالطاعات عن العين غائب ، وأمد الوصول إليه فيما يحسبه بعيد ، وإذا كان الحال على هذه الحالة فلا تنبعث النفس للخير ولا ترغب فيه حقه ولا تهتز له إلا بأمر يقابل كل هذه الموانع ويساويها بل يزيد عليها وذلك الأمر هو الرجاء القوى فى رحمة الله والترغيب البالغ فى حسن ثوابه وكريم أجره ، ولقد قال شيخنا رحمه الله: الحزن يمنع عن الطعام ، والخوف يمنع من الذنوب، والرجاء يقوى على الطاعات ، وذكر الموت يزهد فى الفضول — والثانى ليهون عليك احتمال الشدائد والمشقات واعلم أن من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ، ومن طاب له شىء ورغب فيه حق رغبته احتمل شدته ولم يبال بما يلقى من مؤنته ، ومن أحب أحدا حق محبته أحب أيضا احتمال محنته حتى إنه ليجد بتلك المحنة ضروبا من اللذة ، ألا ترى مشتار العسل لا يبالى بلسع النحل لما يتذكر من حلاوة العسل ، والأجير لا يعبأ بارتقاء السلم الطويل مع الحمل الثقيل طول النهار الصائف المديد لما يتذكر من أخذ درهمين بالعشى، وإن الفلاح لا يتفكر بمقاساة الحر والبرد ومباشرة الشقاء والكد طول السنة لما يتذكر من البيدر (٢) أوان الغلة وكذلك يا أخي العباد الذين هم أهل الاجتهاد إذا ذكروا الجنة فى طيب مقيلها وأنواع نعيمها من حورها وقصورها، وطعامها وشرابها وحليها وحللها وسائر ما أعده الله تعالى لأهلها هان عليهم ما احتملوه من تعب فى عبادة ، أو ما فاتهم فى الدنيا من لذة ونعمة أو نالهم من ضر وذلة أو نقمة أو مشقة لأجلها. ولقد حكى أن أصحاب سفيان الثورى رحمه الله تعالى كلموه فيما كانوا يرون من خوفه واجتهاده ورثاثة حاله فقالوا يا أستاذ : لو نقصت من هذا الجهد نلت مرادك أيضا إن شاء الله تعالى ، فقال سفيان : كيف لا أجتهد

---

(١) ثق أيها الأخ أن هذه القولة لو كررت مئات المرات لا تجلب مقام الخوف فى قلب ران عليه فهذه أقوال قالها الشيوخ لقلوب عمرت بالايمان وأصبحت تعاين الدار الآخرة ، وكل ما تدل عليه هذه الأقوال من أمثال هؤلاء الشيوخ إنما هو مراقبة الأكابر لأنفسهم لينبهوا تلاميذهم على ملاحظة قلوبهم فى السير إلى الله .

(٢) البيدر : مكان يداس فيه الحصيد .

Digitized by Birzeit University Library

وقد بلغنى أن أهل الجنة يكونون فى منازلهم ، فيتجلى لهم نور تضىء له الجنان الثمانية فيظنون أن ذلك نور من قبل الرب سبحانه فيخرون ساجدين ، فينادون أن ارفعوا رءوسكم ليس الذى تظنون إنما هو نور جارية تبسمت فى وجه زوجها ثم أنشأ يقول :

ماضر من كانت الفردوس مسكنه ... ماذا تحمل من بؤس وإقتار

تراه يمشى كئيبا خائفا وجلا ... إلى المساجد يمشى بين أطمار

يانفس مالك من صبر على لهب ... قد حان أن تقبلى من بعد إدبار

قلت أنا: فاذا كان مدار أمر العبودية على الأمرين: القيام بالطاعة والانتهاء عن المعصية وذلك لايتم مع هذه النفس الأمارة بالسوء إلا بترغيب وترهيب وترجية وتخويف ، فان الدابة الحرون تحتاج إلى قائد يقودها وإلى سائق يسوقها ، وإذا وقعت فى مهواة فربما تضرب بالسوط من جانب ويلوح لها الشعير من جانب آخر حتى تنهض وتتخلص مما وقعت فيه ، وإن الصبى العرم لايمر إلى الكتاب إلا بترجية من الوالدين وتخويف من المعلم — فكذلك هذه النفس دابة حرون وقعت فى مهواة الدنيا فالخوف سوطها وسائقها والرجاء شعيرها وقائدها ، وأنها الصبى العرم يحمل إلى كتاب العبادة والتقوى فذكر النار والعقاب تخويفه ، وذكر الجنة وثوابها ترجيته وترغيبه ، فكذلك يلزم العبد الطالب للعبادة والرياضة أن يشعر النفس بالأمرين اللذين هما الخوف والرجاء وإلا فلا تساعد النفس الجموح على ذلك . وبهذا المعنى ورد الذكر الحكيم بمجموع الأمرين الوعد والوعيد والترغيب والتهديد ، وبالغ فى كل واحد منهما فذكر من الثواب الكريم مالا صبر عنه وذكر من العقاب الأليم مالا صبر عليه — فعليك إذن بالتزام هذين المعنيين يحصل لك مرادك من العبادة ويسهل عليك احتمال المشقة والله تعالى ولى التوفيق بفضله ورحمته .

فان قلت : فما حقيقة الرجاء والخوف وحكمهما ؟

فاعلم أن الخوف والرجاء عند علمائنا رحمهم الله تعالى يرجعان إلى قبيل الخواطر وإنما المقدور للعبد مقدماتهما — قالوا: فالخوف رعدة تحدث فى القلب عن ظن مكروه يناله والخشية نحوه لكن الخشية تقتضى ضربا من الاستعظام والمهابة (١) وضد الخوف

---

(١) فالخوف مطلق والخشية مقيدة ، والثانية مايكون فى الأنبياء إذ ليس لهم خوف من سوء الخاتمة ولا من عذاب النار ، بل لكمال عرفانهم بجلاله وعظمته كقوله عليه =

Digitized by Birzeit University Library

الجراءة(١) ولكن قد يقابل بالأمن، يقال خائف وآمن، وخوف وأمن لأن الآمن الذى يجترىء على الله سبحانه، والحقيقة أن الجراءة تضاده ومقدمات الخوف أربع : الأولى ذكر الذنوب الكثيرة التى سبقت وكثرة الخصوم الذين مضوا إلى المظالم وأنت مرتهن لم يتبين لك الخلاص بعد، والثانية ذكر شدة عقوبة الله سبحانه التى لا طاقة لك بها، والثالثة ذكر ضعف نفسك عن احتمال العقوبة، والرابعة ذكر قدرة الله تعالى عليك متى شاء وكيف شاء — وأما الرجاء فهو ابتهاج القلب بمعرفة فضل الله سبحانه واستراحه إلى سعة رحمة الله تعالى وهذا من جملة الخواطر غير مقدور للعبد، ورجاء هو مقدور للعبد وهو تذكر فضل الله وسعة رحمته، وقد سمى أيضا إرادة المخاطرة بالاستثناء رجاء، والمراد من هذا الباب هو الأول وهو التذكر على حسب الابتهاج والاستراحه، وضده اليأس وهو تذكر فوات رحمة الله وفضله وقطع القلب عن ذلك وهو معصية محضة، وهذا الرجاء فرض إذا لم يكن للعبد سبيل إلى الامتناع عن اليأس إلا به وإلا فهو نقل بعد اعتقاد الجملة فى فضل الله وسعة رحمته.

ومقدمات الرجاء أربع : الأولى ذكر سوابق فضله إليك من غير قدم أو شفيع، والثانية ذكر ما وعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرامته على حسب فضله وكرمه دون استحقاقك إياه بالفعل، إذ لو كان على حسب الفعل لكان أقل شىء وأصغر أمر، والثالثة ذكر كثرة نعمة الله عليك فى أمر دينك ودنياك فى الحال من أنواع الأمداد والألطاف من غير استحقاق أو سؤال، والرابعة ذكر سعة رحمة الله تعالى وسبقها غضبه (٢) وأنه الرحمن الرحيم الغنى الكريم الرءوف بعباده

= الصلاة والسلام: «أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية» فكلما ازدادت المعرفة ازدادت الخشية قال الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

(١) والمجترئون على الله كالفراعنة الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق، والدجاجلة الذين يفترون على الله الكذب، والزنادقة الذين يلحدون فى الأديان والشرائع، والظلمة الذين يظلمون الناس بغير الحق، والفسقة الذين يجاهرون بالمعاصى علانية ولا يتحاشون من الصغائر والكبائر ماظهر منها ومابطن، والمبتدعة الذين يبتدعون فى الاسلام مالبس منه والجراءة هى الاقدام والتهور من غير تردد ولا تفكر .

(٢) أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتى سبقت غضبى =

Digitized by Birzeit University Library

المؤمنين — فاذا واظبت على هذين النوعين من الأذكار أفضى بك إلى استشعار الخوف والرجاء بكل حال والله تعالى ولى التوفيق بمنه وفضله .

(فصل) فعليك أيها الرجل بقطع هذه العقبة فى تمام الاحتياط والتحرز وحد الرعاية ، فانها عقبة دقيقة المسلك خطرة الطريق وذلك أن طريقها بين طريقين مخوفين مهلكين : أحدهما طريق الأمن ، والثانى طريق اليأس — وطريق الرجاء والخوف هو الطريق العدل بين الطريقين الجائرين فان غلب الرجاء عليك حتى فقدت الخوف ألبتة وقعت فى طريق الأمن ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، وإن غلب عليك الخوف حتى فقدت الرجاء ألبتة وقعت فى طريق اليأس ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون فان كنت ركبت بين الخوف والرجاء واعتصمت بهما جميعا فهو الطريق العدل المستقيم التى هى سبيل أولياء الله وأصفيائه الذين وصفهم الله تعالى بقوله : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين » فاذن ظهرت لك فى هذه العقبة طرق ثلاثة : طريق الأمن والجراءة وطريق اليأس والقنوط وطريق الخوف والرجاء ممتدا بينهما فان ملت عنه بقدم إلى يمينك أو يسارك وقعت فى المهلكين وهلكت مع الهالكين — ثم الشأن أن الطريقين الجائرين المهلكين أوسع مجالا وأكثر داعيا وأسهل سلوكا من الطريق العدل ، لأنك إذا نظرت من جانب الأمن رأيت من سعة رحمة الله

= وفى رواية تغلب غضبى » أى غلبت عليه بكثرة آثارها بدليل أن قسط الخلق من الرحمة أكثر من قسطهم من الغضب لنيلهم إياها بلا استحقاق — فقلم التكليف مرفوع عنهم إلى البلوغ ، والعقوبة بالعصيان غير معجلة ، ومع عصيان الخلق يرزقهم ويقبل توبتهم . يروى أنه إذا كان يوم القيامة أخرج كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتى سبقت غضبى فأنا أرحم الراحمين فحينئذ تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ثم يقبض الله قبضته فتشمل شفاعة الحق سبحانه قوما لم يعملوا خيراً قط ، ثم الرجاء إنما يكون بعد الاجتهاد فى الأعمال فان من رجا شيئا طلبه ومن خاف من شىء هرب منه ، وأما الرجاء بلا عمل ومع الاقدام على المعاصى فليس برجاء بل هو أمنية واغترار مذموم بقوله تعالى : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا » قال الكرخي : ارتجاء الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وفى الحديث الصحيح . « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى » .

Digitized by Birzeit University Library

وكثرة فضله وغاية جوده مالا يبقى لك معه خوف فتتكل على ذلك بمرة وتأمن ، وإن نظرت من جانب الخوف رأيت من عظيم قدرة الله تعالى وسياسته وكثرة هيبته ودقة أمره ، وغاية مناقشته مع أوليائه وأصفيائه مالا يكاد يبقى معه رجاء فتيأس بمرة وتقنط ، فتحتاج إذن أن لاتنظر إلى سعة رحمة الله فقط حتى تتكل وتأمن ، ولا إلى عظيم الهيبة والمناقشة فقط حتى تقنط وتيأس ، بل تنظر إلى هذا (١) وإلى هذا جميعا وتأخذ من هذا بعضا ومن هذا بعضا فتركب بينهما طريقا دقيقا ، وتسلك ذلك لتسلم فان طريق الرجاء المحض سهل واسع عريض وعاقبته تؤديك إلى الأمن والخسران ، وطريق الخوف المحض واسع عريض وعاقبته تؤديك إلى الضلال ، وطريق العدل بينهما أعنى طريق الخوف والرجاء وذلك وإن كان طريقا دقيقا عسرا فانه سبيل سالم ومنهج بين يؤدى إلى الغفران الاحسان ثم إلى الجنان والرضوان ولقاء الملك الرحمن سبحانه ، أما تسمع قوله تعالى فى أبناء هذا السبيل: « يدعون ربهم خوفا وطمعا » ثم قال: « فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون » فتأمل هذه الجملة جدا وتشمر وتنبه للأمر فانه لايجيء بالهوينى والله ولى التوفيق — ثم اعلم أنه لايتأتى لك سلوك هذه الطريق وحمل هذه النفس الجموح الكسلى على الخير باجتناب المحبوب عندها واكتساب الطاعات الثقيلة عليها إلا بالتحفظ بثلاثة أصول : والتذكر لها على سبيل الدوام من غير فترة ولا غفلة — أحدها ذكر أقواله تعالى سبحانه فى الترغيب والترهيب ، والثانى ذكر أفعاله سبحانه فى الأخذ والعفو ، والثالث ذكر جزائه للعباد فى المعاد من الثواب والعقاب وتفصيل كل فصل منها يحتاج إلى صحف كثيرة ولأجلها صنفنا كتاب تنبيه الغافلين — ونحن نشير فى هذا الكتاب إلى كلمات توقفك على المقصود إن شاء الله عز وجل والله ولى التوفيق .

الأصل **الأول** : فى أقواله سبحانه وتعالى — تدبر أيها الرجل مافى الكتاب العزيز من آيات الترغيب والترهيب والترجية والتخويف. فمن آيات الرجاء — قوله تعالى: « لاتقنطوا

---

(١) قال أبو سعيد الخادمى شارح الطريقة المحمدية: ثم اعلم أن كلا من الرجاء والخوف لايكون بدون الآخر لأن الرجاء بلا خوف أمن والخوف بلا رجاء قنوط ، قالوا هما كزوجى المقراض وجناحى الطائر إذا اعتدلا طار وإذا زاد أحدهما لا يمكن الطيران .

Digitized by Birzeit University Library

من (١) رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا » — « ومن يغفر الذنوب إلا الله » — « غافر الذنب وقابل التوب » — « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » — « كتب ربكم على نفسه الرحمة » — « ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون » — « إن الله بالناس لرءوف رحيم » — « وكان بالمؤمنين رحيما » فهذه ونحوها آيات الرجاء . ومن آيات الخوف والسياسة قوله تعالى: «ياعبادِ فاتقون» — « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » — « أيحسب الانسان أن يترك سدى » — « ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيراً » — « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » — « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » — « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » نسأل الله تعالى أن يسلمنا برحمته . ومن الآيات اللطيفة الجامعة بين الخوف والرجاء قوله تعالى : «نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم» ثم قال فى عقبه : «وأن عذابى هو العذاب الأليم » لئلا يستولى عليك الرجاء بمرة وقوله تعالى : « شديد العقاب » ثم قال فى عقبه : « ذي الطول لا إله إلا هو » لئلا يستولى عليك الخوف بمرة وأعجب

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله تعالى عنه حين حضرته الوفاة أنه قال : كنت كتمت عنكم حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسوف أحدثكموه وقد أحيط بنفسى سمعته يقول: « لولا أنكم تذنبون لذهب الله بكم وخلق خلقا يذنبون فيغفر لهم » قال فى المبارق : ليس هذا تحريضا للناس على الذنوب بل كان صدوره لتسلية الصحابة وإزالة شدة الخوف عنهم لأن الخوف كان غالبا عليهم حتى فر بعضهم إلى رءوس الجبال للعبادة ، وبعضهم اعتزل النساء وبعضهم النوم — والآية نزلت فى حق وحشى فقد روى ابن عباس رضى الله عنهما أن وحشيا قاتل حمزة رضى الله تعالى عنه كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى أريد الاسلام ولكن منعنى قوله تعالى: «والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق» فنزل قوله: « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا » فكتبها إلى وحشى فكتب وحشى ولا أدري هل أقدر على العمل الصالح فنزل قوله : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » فكتبها إلى وحشى فكتب وحشى إن فيها شرطا لا أدرى هل يشاء مغفرتى أولا فنزل قوله : « قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا » .

Digitized by Birzeit University Library

منه قوله سبحانه وتعالى: «ويحذركم الله نفسه» ثم قال فى عقبه: «والله رءوف بالعباد» وأعجب منه قوله سبحانه وتعالى: «من خشى الرحمن بالغيب» علق الخشية باسم الرحمن دون اسم الجبار والمنتقم والمتكبر ونحوه، لتكون الخشية مع ذكر الرحمة فلا تكون الخشية تطير قلبك بمرة فيكون تخويفا فى تأمين، وتحريكا فى تسكين كما تقول أما تخشى الوالدة الرحيمة أما تخاف الوالد المشفق أما تحذر الأمير الكريم، والمراد من ذلك أن يكون الطريق عدلا فلا تذهب إلى أمن وقنوط — جلعنا الله وإياكم من المتدبرين لهذا الذكر الحكيم والعاملين بما فيه برحمته إنه هو الجواد الكريم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الأصل الثانى: فى أفعاله عز وجل ومعاملاته — أما من جانب الخوف فاعلم بأن إبليس عبده ثمانين ألف سنة فلم يترك فيما قيل موضع قدم إلا وسجد لله تعالى فيه سجدة ثم ترك أمراً واحداً فطرده عن بابه وضرب بوجهه عبادة ثمانين ألف سنة ولعنه إلى يوم الدين وأعد له عذابا أليما إلى أبد الآبدين، حتى روى أن الصادق الأمين صلوات الله عليه وسلامه رأى جبريل عليه السلام متعلقا بأستار الكعبة وهو يصرخ وينادى إلهي وسيدى لا تغير اسمى ولا تبدل جسمي — ثم آدم صلى الله عليه وسلم صفيه ونبيه الذى خلقه بيده وأسجد له ملائكته وحمله على أعناقهم إلى جواره انبسط فأكل أكلة واحدة لم يؤذن له فيها فنودى ألا لا يجاورنى من عصانى وأمر الملائكة الذين حملوا سريره يزجونه من سماء إلى سماء حتى أوقعوه بالأرض ولم يقبل توبته فيما روى حتى بكى على ذلك مائتى سنة ولحقه من الهوان والبلاء ما لحقه وبقيت ذريته فى تبعات ذلك على الأبد — ثم إن نوحا عليه السلام شيخ المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين الذى احتمل فى أمر دينه ما احتمل لم يقل إلا كلمة واحدة على غير وجهها إذ نودى: «فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين» حتى روى فى بعض الأخبار أنه لم يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله أربعين سنة — ثم إن إبراهيم خليل الله عليه السلام لم يكن منه إلا هفوة واحدة فكم خاف وتضرع وقال: «والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين» حتى روى أنه كان يبكى من شدة الخوف فيرسل الله تعالى إليه الأمين جبريل عليه السلام فيقول يا إبراهيم: هل رأيت خليلا يعذب خليله بالنار؟ فيقول ياجبريل إذا ذكرت خطيئتى نسيت خلته — ثم موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم لم يكن منه إلا لطمة واحدة عن حدة فكم خاف وتضرع واستغفر وقال: «رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى» ثم فى زمانه بلعام بن باعوراء كان بحيث إذا نظر إلى السماء يرى العرش وهو المعنى بقوله

Digitized by Birzeit University Library

تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها » ولم يكن منه إلا أنه مال إلى الدنيا وأهلها ميلة واحدة وترك لولىّ من أوليائه حرمة واحدة فسلبه الله معرفته وجعله بمنزلة الكلب المطرود فقال : « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » فأوقعه فى بحر الضلال والهلاك إلى آخر الأبد حتى سمعت بعض العلماء يقول : إنه كان فى أول أمره بحيث يكون فى مجلسه إثنا عشر ألف محبرة المتعلمين الذين يكتبون عنه ثم صار بحيث كان أول من صنف كتابا وذكر فيه أن ليس للعالم صانع — نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه ومن عذابه الأليم وفظيع خذلانه الذى لاطاقة لنا به فانظر إلى خبث الدنيا وشؤمها ماذا تجلب للعلماء خاصة فتنبه فان الأمر خطير والعمر قصير وفى العمل تقصير والناقد بصير فان ختم بالخير أعمالنا وأقالنا عثراتنا فما ذلك عليه بعسير — ثم إن داود عليه السلام خليفته فى أرضه أذنب ذنبا واحداً فبكى على ذلك حتى نبت العشب فى الأرض من دموعه وقال إلهى أما ترحم بكائى وتضرعى فأجيب يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ولم يقبل توبته أربعين يوما وقيل أربعين سنة — ثم إن يونس نبيه عليه السلام غضب غضبة واحدة فى غير موضعها فسجنه فى قلب الحوت تحت قعر البحار أربعين يوما وهو ينادى . « أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » وسمعت الملائكة صوته فقالوا إلهنا وسيدنا صوت معروف من موضع مجهول فقال الله تعالى ذلك صوت عبدى يونس فتشفعت فيه الملائكة ثم مع ذلك كله غير اسمه فقال : « وذا النون » فنسبه إلى سجنه ثم قال : « فالتقمه الحوت وهو مليم * فلولا أنه كان من المسبحين * للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون » ثم ذكر نعمته ومنته فقال : « لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » — فانظر إلى هذه السياسة أيها المسكين ، وكذلك هلم جرا إلى سيد المرسلين أكرم خلقه عليه ، يقول له : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » حتى كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : شيبتنى هود وأخواتها قيل عنى هذه الآية وأشكالها فى القرآن فقال الله تعالى : « واستغفر لذنبك » إلى أن منّ الله عليه بالغفران فقال: « ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك » وقال تعالى : « ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر » وكان بعد ذلك صلوات الله عليه يصلى الليل حتى تورّمت قدماه فيقولون أتفعل هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول : أفلا أكون عبداً شكوراً ، وكان عليه السلام يقول : لو أنى وعيسى أوخذنا بما كسبت هاتان لعذبنا عذابا لم يعذبه أحد

Digitized by Birzeit University Library

من العالمين ، وكان يصلى الليل ويبكى ويقول : أعوذ بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك — ثم الصحابة الذين هم خير قرن فى خير أمة كان يبدو منهم شىء من المزاح فنزل قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » — ثم وضع فى هذه الأمة مع كونها مرحومة الحدود والسياسات العظيمة والآداب حتى كان يونس ابن عبيد يقول : لا تأمن من قطع فى خمسة دراهم خير عضو منك أن يكون غدا عذابه هكذا — نسأل الله تعالى الرحيم الكريم سبحانه أن لا يعاملنا إلا بمحض كرمه إنه أرحم الراحمين .

وأما من جانب الرجاء فحدّث عن رحمة الله الواسعة ولا حرج ومن الذي يعرف غايتها أو يعرف وصفها ونهايتها فانه الذى يهب كفر سبعين سنة بايمان ساعة قال الله تعالى : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف » أما ترى فى أمر سحرة فرعون الذين جاءوا لحربه وحلفوا بعزة فرعون عدوه فما كان إلا أن رأوا آية موسى عليه السلام فعرفوا الحق فقالوا : « آمنا برب العالمين » ولم يذكر أنهم زادوا عليها عملا ثم انظر كم كرر ذكرهم فى معنى المدح فى كتابه العزيز وكم كبائر وصغائر غفرها لهم بايمان ساعة بل لحظة ، فما قالوا إلا أن آمنا برب العالمين عن صدق القلوب كيف قبلهم ووهب لهم جميع ما سلف ثم كيف جعلهم رءوس الشهداء فى الجنة أبدا الآبدين فهذا حال من عرفه ووحده ساعة بعد كل ذلك السحر والكفر والضلال والفساد ، فكيف حال من أفنى عمره فى توحيده ولا يرى لذلك أهلا فى الدارين غيره — أما ترى أصحاب الكهف وما كانوا عليه من الكفر طول أعمارهم . « إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعُوَا من دونه إلها » والتجأوا إليه كيف قبلهم ووهب لهم ثم أعزهم وأكرمهم فقال : « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » وكيف أعظم لهم الحرمة وألبسهم المهابة والخشية حتى يقول لأكرم الخلق عليه : « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » بل كيف أكرم كلبا تبعهم حتى ذكره فى كتابه العزيز مرات ثم جعله معهم فى الدنيا محبوبا ويدخله الجنة فى الآخرة مكرما فهذا فضله مع كلب خطا خطوات مع قوم عرفوه ووحدوه أياما معدودة من غير عبادة أو خدمة فكيف فضله مع عبده المؤمن الذى خدمه ووحده وعبده سبعين سنة

Digitized by Birzeit University Library

وكيف لو عاش سبعين ألف سنة لكان قاصدا للعبودية — أما ترى كيف عاتب إبراهيم عليه السلام فى دعائه على المجرمين بالهلاك ، وكيف عاتب موسى فى أمر قارون فقال : استغاث بك قارون فلم تغثه فوعزتى لو استغاث بى لأغثته وعفوت عنه ، وكيف عاتب يونس عليه السلام فى شأن قومه بأنك تحزن على شجرة من يقطين أنبتها فى ساعة وأيبستها فى ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون ثم كيف قبل عذرهم وصرف عذابه العظيم عنهم بعدما أضلهم ، ثم كيف عاتب سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله أجمعين فيما روى أنه دخل من باب بنى شيبة فرأى قوما يضحكون فقال لم تضحكون ؟ لا أراكم تضحكون حتى إذا كان عند الحجر الأسود رجع إليهم القهقرى وقال : جاءنى جبريل فقال يا محمد إن الله تعالى يقول لك لم تقنط عبادى من رحمتى : « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم » وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[1] : (الله أرحم بالعبد المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها) وفى الخبر المشهور[2] عن النبى صلى الله عليه وسلم إن لله تعالى مائة رحمة فواحدة منها قسمها بين الجن والانس والبهائم فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وادخر منها تسعة وتسعين لنفسه ليرحم بها عباده يوم القيامة وإذ قد أعطاك من الرحمة الواحدة كل هذه العطايا الكريمة العزيزة من معرفته سبحانه ، والكون من هذه الأمة المرحومة مع معرفة السنة والجماعة إلى سائر مالديك من النعم الظاهرة والباطنة فرجو من فضله العظيم أن يتم ذلك فان من بدأ بالاحسان فعليه الاتمام ويجعل من تسع وتسعين رحمة لك الحظ الوافر فنسأل الله سبحانه أن لا يخيب آمالنا من فضله العظيم بفضله إنه السيد الكريم الجواد الرحيم .

وأما الأصل الثالث فى ذكر ماوعد وأوعد فى المعاد — فلنذكر فى ذلك الأحوال

---

(١) متفق عليه من حديث عمر « والذى نفسى بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها » .

(٢) الحديث أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » وزاد فى رواية مسلم « وأخر الله تعالى تسعة وتسعين رحمة يرحم الله بها عباده يوم القيامة » .

Digitized by Birzeit University Library

الخمسة : الموت والقبر والقيامة والجنة والنار وما فى كل مقام منها من الخطر العظيم للمطيعين والعاصين والمقصرين والمجتهدين .

أما الموت — فأذكر فيه حال رجلين: أحدهما ماروى عن ابن شبرمة أنه قال: دخلت مع الشعبى على مريض نعوده وهو بما به وعنده رجل آخر يلقنه (١) لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، فقال له الشعبى أرفق به: فتكلم المريض فقال: إن تلقنى أولم تلقنى فانى لاأدعها ثم قرأ: « وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها » فقال الشعبى : الحمد لله الذى نجى صاحبنا — والآخر ماحكى أن تلميذاً للفضيل بن عياض حضرته الوفاة فدخل عليه الفضيل وجلس عند رأسه وقرأ سورة يس ، فقال ياأستاذ لاتقرأ هذا: فسكت ، ثم لقنه فقال له قل: لا إله إلا الله ، فقال لاأقولها لأنى منها برىء ومات على ذلك ، فدخل الفضيل منزله وجعل يبكى أربعين يوما لم يخرج من البيت ، ثم رآه فى النوم وهو يسحب إلى جهنم فقال بأى شىء نزع الله المعرفة منك وكنت أعلم تلامذتى؟ فقال بثلاثة أشياء: أولها بالنميمة فانى قلت لأصحابى بخلاف ماقلت لك، والثانى بالحسد حسدت أصحابى، والثالث كان بى علة فجئت إلى الطبيب فسألته عنها فقال تشرب فى كل سنة قدحا من خمر فان لم تفعل تبقى بك العلة فكنت أشربه — نعوذ بالله من سخطه الذى لاطاقة لنا به . ثم أذكر حال رجلين آخرين : أحدهما ماحكى عن عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى أنه لما احتضر نظر إلى السماء فضحك وقال : « لمثل هذا فليعمل العاملون » وسمعت إمام الحرمين رضى الله عنه يحكى عن الأستاذ أبى بكر رحمه الله أنه قال : كان لى صاحب أيام التعليم وكان مبتدئا كثير الجهد فى التعليم تقيا متعبدا وكان لايحصل له مع الاجتهاد إلا القليل، فكنا نتعجب من حاله فمرض فلزم مكانه بين الأولياء فى الرباط ولم يدخل إلى بيت المرضى

---

(١) والتلقين لما روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فانه مامن عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة » وكان عبد الله بن المبارك يقول : لقنوا الميت لا إله إلا الله فاذا هو قالها فدعوه ، قال العلماء : وذلك لأنه يخاف عليه إذا ألحوا عليه بها أن يتبرم ويعجز ويثقلها الشيطان على لسانه فيكون ذلك سببا لسوء الخاتمة أعاذنا الله بفضله وكرمه .

Digitized by Birzeit University Library

وكان يجتهد مع مرضه فاشتد به الحال وأنا إلى جانبه ، فبينما هو كذلك إذ شخص ببصره إلى السماء ثم قال لى يا ابن فورك : « لمثل هذا فليعمل العاملون » وتوفى عند ذلك رحمة الله عليه . وأما الآخر فنحو ما روى عن مالك بن دينار رحمه الله أنه دخل على جار له احتضر فقال له يامالك : جبلان من نار بين يدىّ أكلف الصعود عليهما ، قال فسألت أهله فقالوا : كان له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فدعوت بهما فضربت أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ، ثم سألت الرجل فقال : مايزداد الأمر علىّ إلا عظما .

وأما القبر والحال بعد الموت — فأذكر فيه حال رجلين : أحدهما ما ذكر عن بعض الصالحين قال : رأيت سفيان الثورى فى النوم بعد مماته فقلت كيف حالك يا أبا عبد الله ؟ فأعرض عنى وقال : ليس هذا زمان الكنى ، فقلت كيف حالك ياسفيان ؟ فأنشأ يقول :

نظرت إلى ربى عيانا فقال لى ... هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قوّاما إذا الليل قد دجا ... بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أىّ قصر تريده ... وزرنى فانى عنك غير بعيد

والرجل الثانى — ما ذكر أن بعضهم رؤى فى النوم شاحب اللون مغلولة يداه إلى عنقه فقيل له مافعل الله بك ؟ فأنشأ يقول :

تولى زمان لعبنا به ... وهذا زمان بنا يلعب

وحال رجلين آخرين : أحدهما ما روى عن بعض الصالحين أنه قال : كان لى ابن استشهد ولم أره فى المنام إلى ليلة توفى فيها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إذ رأيته تلك الليلة فقلت يابنى : ألم تكن ميتا ؟ فقال لا : ولكنى استشهدت وأنا حى عند الله تعالى أرزق(١) فقلت ماجاء بك ؟ قال نودى فى أهل السماء ألا لا يليق نبى ولا صديق ولا شهيد إلا وحضر الصلاة على عمر بن عبد العزيز فجئت لأشهد الصلاة عليه ثم جئتكم لأسلم عليكم — والآخر ماروى عن هشام بن حسان أنه قال : مات لى ابن حدث فرأيته فى النوم فاذا هو أشيب ، فقلت يابنى ماهذا الشيب ؟ قال لما قدم علينا فلان زفرت جهنم لقدومه

---

(١) وفى رسالة النجم محمد الغيطى المتعلقة بأحوال ما بعد الموت أن الشهداء يأكلون ويشربون بالحياة الجسدية لا بالروح فقط إكراما لا احتياجا ولا يضر عدم البدن بالفعل فالعلم والسماع كسائر الادراكات ثابت لجميع الموتى .

Digitized by Birzeit University Library

زفرة لم يبق منا أحد إلا شاب — نعوذ بالله الرحيم من العذاب الأليم .

وأما القيامة — فتأمل قول الله تعالى : «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا » فواحد يخرج من قبره فإذا البراق على رأس القبر والتاج والحلل فيلبس ويركب إلى جنات النعيم لا يخلى من عزته أن يمشى إلى الجنة برجليه ، وآخر يخرج من قبره فإذا الزبانية والأغلال والأنكال لا يخلون الشقى يمشى إلى النار برجليه بل يسحب به إلى سواء الجحيم على وجهه ، نعوذ بالله من سخطه — ولقد سمعت بعض العلماء يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا كان يوم القيامة يخرج قوم من قبورهم لهم نجب يركبونها لها أجنحة خضر فتطير بهم فى عرصات القيامة حتى إذا أتوا على حيطان الجنة فإذا رأتهم الملائكة قال بعضهم لبعض من هؤلاء ؟ فيقولون ماندرى لعلهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيأتيهم بعض الملائكة فيقول من أنتم ومن أى الأمم أنتم ؟ فيقولون نحن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فتقول لهم الملائكة هل حوسبتم ؟ فيقولون لا : فتقول الملائكة هل وزنتم ؟ فيقولون لا : فتقول الملائكة هل قرأتم كتبكم ؟ فيقولون لا : فتقول الملائكة ارجعوا فكل ذلك وراءكم ، فيقولون هل أعطيتمونا شيئا فنحاسب عليه ؟ وفى خبر آخر ماملكنا شيئا فنعدل أو نجور ، ولكن عبدنا ربنا حتى دعانا فأجبناه ، فينادى مناد صدق عبادى : «ماعلى المحسنين من سبيل والله غفور رحيم » أما تسمع قوله تعالى : « أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة » فأعظم برجل يشاهد تلك الأهوال والزلازل والوقائع وهو آمن لا يدخل قلبه فزع ولا يكون على قلبه ثقل ، نسأل الله العظيم أن يجعلنا وإياكم من أولئك السعداء وماذلك على الله بجل جلاله بعزيز .

وأما الجنة والنار — فتأمل فيهما آيتين من كتاب الله تعالى : إحداهما قوله تعالى : « وسقاهم ربهم شرابا طهورا * إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » وقال تعالى حكاية عن آخرين : « ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون» وروى أنهم يصيرون عند ذلك كلابا يتعاوون فى النار — نعوذ بالله الرءوف الرحيم من عذابه الأليم فان الأمر كما قال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله لا ندرى أى المصيبتين أعظم : فوت الجنان أم دخول النيران ، أما الجنة فلاصبر عنها وأما النار فلاصبر عليها وعلى كل حال ففوت النعيم أيسر من مقاسات الجحيم ثم الطامة الكبرى والمصيبة

Digitized by Birzeit University Library

العظمى هى الخلود ، إذ لو كان الأمر على كل حال منقطعا لكان هينا ولكن الشأن فى أبد بلا آخر فأى قلب يحتمل ذلك وأى نفس تصبر على ذلك ، ولذلك قال عيسى عليه السلام: ذكر خلود الخالدين يقطع قلوب الخائفين ، وذكر عند الحسن أن آخر (١) من يخرج من النار رجل يقال له هناد عذب ألف عام ينادى ياحنان يامنان فبكى الحسن وقال ياليتنى كنت هنادا ، فتعجبوا منه فقال: ويحكم أليس يومايخرج — قلت : فرجع الأمر كله إذن إلى أصل واحد وهى النكتة التى تقصم الظهور وتصفر الوجوه وتذيب الأكباد ، وتقطع القلوب وتدمى العيون من العباد ، وهى خوف نزع المعرفة فهذه الغاية التى ينتهى إليها خوف الخائفين وتبكى عليها أعين الباكين ، ولقد قال بعضهم إن الغموم ثلاثة : غم الطاعة أن لاتقبل وغم المعصية أن لاتغفر وغم المعرفة أن تسلب ، وقال المخلصون : بل الغم كله واحد بالحقيقة وهو غم سلب المعرفة وكل غم دونه جلل إذ له انقضاء . ولقد بلغنا عن يوسف بن أسباط رحمه الله تعالى أنه قال : دخلت على سفيان رحمه الله تعالى فبكى ليله أجمع فقلت بكاؤك هذا على الذنوب ؟ قال فحمل تبنا وقال: الذنوب أهون على الله من هذا ، إنما أخشى أن يسلبنى الله الاسلام — نسأل الله ربنا المنان سبحانه أن لايبتلينا بمصيبة وأن يتم علينا بفضله كثير نعمته وأن يتوفانا على ملة الاسلام إنه أرحم الراحمين وقد ذكرنا سبب سوء الخاتمة ومعناها فى كتاب إحياء علوم الدين فتأمله هناك فان

---

(١) الحديث الصحيح فى هذا ليس فيه اسم آخر من يخرج من النار — وهو ماروى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى لأعلم آخر أهل النار خروجا وأخر أهل الجنة دخولا رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله عز وجل له : اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه ثانيا أنها ملأى فيرجع فيقول يارب وجدتها ملأى ، فيقول الله تعالى له : اذهب فادخل الجنة فان لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها فيقول : أتسخر بى أو أتضحك بى وأنت الملك ، قال ابن مسعود : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه — نعم ورد التصريح بالاسم أى اسم من يخرج أخيرا من النار فيما أخرجه الدارقطنى فى غرائب مالك . آخر من يدخل الجنة رجل من جهينة يقال له جهينة فيقول أهل الجنة : عند جهينة الخبر اليقين سلوه هل بقى من الخلائق أحد يعذب ، فيقول لا : قال الدارقطنى ضعيف وفى التذكرة أن اسمه هناد .

Digitized by Birzeit University Library

الخوض فيه ههنا خروج إلى الاكثار فتأمل هذه الجملة راشدا فان التفصيل أكثر مما يأتى عليه الوهم والذكر لعلك تفلح بعون الله وحسن توفيقه .

فان قلت : فأى الطريقين أسلك ، طريق الخوف أو طريق الرجاء ؟

يقال لك بل المركب بينهما ، فلقد قيل من غلب عليه الرجاء صار مرجئا بل ربما يخاف عليه أن يصير حرميا ، ومن غلبه الخوف صار حروريا والمراد أن لا ينفرد بأحدهما دون الآخر فان بالحقيقة الرجاء الحقيقى لا ينفك عن الخوف الحقيقى والخوف الحقيقى لا ينفك عن الرجاء الحقيقى ، ولذلك قيل الرجاء كله لأهل الخوف لا الأمن ، والخوف كله لأهل الرجاء لا اليأس .

فان قلت : فهل يكون أحدهما أرجح من الآخر أو أكثر ذكرا بحال ؟

فاعلم أن العبد إذا كان صحيحا قويا فالخوف أولى به وإذا مرض وضعف لاسيما إذا أشرف على الآخرة فالرجاء أولى كذا سمعت العلماء يقولون — قلت : وذلك لما روى أن الله سبحانه وتعالى يقول : أنا عند المنكسرة قلوبهم من مخافتى فيصير رجاؤه أولى فى ذلك الوقت لانكسار قلبه وخوفه المتقدم زمان الصحة والقوة والامكان ولذلك يقال لهم : « لا تخافوا ولا تحزنوا » .

فان قلت : أليس قد جاءت الأخبار الكثيرة فى حسن الظن بالله الترغيب فى ذلك ؟

فاعلم أن من حسن الظن بالله تعالى الحذر من معصيته والخوف من عقابه والاجتهاد فى خدمته — واعلم أن ههنا أصلا أصيلا ونكتة عزيزة يغلط فيها الكثير من الناس وهو أن الفرق بين الرجاء والأمنية ، أن الرجاء يكون على أصل والتمنى لا يكون على أصل مثاله من زرع زرعا واجتهد وجمع بيدرا ثم يقول : أرجو أن يحصل لى منه مائة قفيز فذلك منه رجاء ، وآخر لا يزرع زرعا ولا يعمل يوما عملا فذهب ونام وأغفل سنته فاذا جاء وقت البيادر يقول : أرجو أن يحصل لي منه مائة قفيز ، فيقال له من أين لك هذا الرجاء وإنما ذلك أمنية بلا أصل ؟ فكذلك العبد إذا اجتهد فى عبادة الله وانتهى عن معصية الله تعالى يقول : أرجو أن يتقبل الله منى هذا اليسير ويتم هذا التقصير ويعظم هذا الثواب ويعفو عن الزلل وأحسن الظن فيهذا منه رجاء ، وأما إذا أغفل عن ذلك وترك الطاعات وارتكب المعاصى ولم يبال بسخط الله تعالى ولا رضاه ولا وعده ووعيده ثم أخذ يقول : أرجو من الله الجنة والنجاة من النار فذلك منه أمنية لا حاصل تحتها سماها رجاء وحسن ظن وذلك منه خطأ وضلال وقد نظم المعنى القائل :

Digitized by Birzeit University Library

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لاتجرى على اليبس

قلت : ومما يبين هذا الأصل ماروينا(١) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله عزوجل الأمانى ، وفى ذلك قال الحسن البصرى رحمه الله : إن أقواما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا مفاليس وليست لهم حسنة فيقول أحدهم : إنى أحسن الظن بربى وكذب لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل له ثم تلا قوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاصالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا» — «وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » وعن جعفر الضبعى رحمه الله أنه قال : رأيت أبا ميسرة العابد وقدبدت أضلاعه من الاجتهاد قلت يرحمك الله : إن رحمة الله واسعة فغضب وقال: هل رأيت منى مايدل على القنوط . « إن رحمة الله قريب من المحسنين » قال جعفر فأبكانى قوله ، فاذا كان كل الرسل والأبدال والأولياء مع كل هذا الاجتهاد فى الطاعة والحذر عن المعصية مرتبطين فايش تقول: أما كان لهم حسن ظن بالله بلى فانهم كانوا أعلم بسعة رحمته وأحسن ظنا بجوده منك ، ولكن علموا أن ذلك دون الاجتهاد أمنية وغرور— فاعتبر بهذه النكتة وتأمل حالهم وانتبه من رقدتك والله تعالى ولى التوفيق .

(فصل) وجملة الأمر أنك إذا تذكرت سعة رحمة الله تعالى التى سبقت غضبه ووسعت كل شىء ثم أن كنت من هذه الأمة المرحومة (٢) الكريمة على الله تعالى ثم غاية فضله

---

(١) حديث الكيس رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وأبو نعيم وغيرهم .

(٢) لايمكن تعداد فضائل هذه الأمة وما أكرمها الله به لأن معني ذلك حصر فضائله صلى الله عليه وسلم وهذا مالاتحيط به العقول ففى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى « أعطي الله كل رجل من هذه الأمة رجلا من الكفار فيقال هـذا فداؤك من النار » فيورث الكتابى مقعد المؤمن من النار بكفره ويورث المؤمن مقعد الكافر من الجنة بايمانه إذ كل مكلف له مقعد فى الجنة ومقعد فى النار . وفى مسلم أيضا « يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال يغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى » ومن حديث أخرجه ابن النجار عن ابن مسعود « نحن الآخرون والأولون يوم القيامة » أى الأولون فى دخول الجنة والجواز على الصراط والحساب وغير ذلك ، وفى المشكاة =

Digitized by Birzeit University Library

العظيم وكمال جوده الكريم، وجعل عنوان كتابه إليك بسم الله الرحمن الرحيم ثم كثرة أياديه إليك ونعمته عليك ظاهرة وباطنة من غير شفيع أو قدم سابقة لك، وتذكرت من جانب آخر كمال جلاله وعظمته وعظم سلطانه وهيبته ثم شدة غضبه الذى لا تقوم له السموات والأرض، ثم غاية غفلتك وكثرة ذنوبك وجفوتك مع دقة أمره وخطر معاملته فى إحاطة علمه وبصره بالعيوب والغيوب، ثم حسن وعده وثوابه الذى لا يبلغ كنهه الأوهام وشدة وعيده وأليم عقابه الذى لا يحتمل ذكره القلوب، تارة تنظر إلى فضله وتارة تنظر إلى عذابه وتارة تنظر إلى رأفته ورحمته وتارة تنظر إلى نفسك فى جفواتها وجناياتها، فاذا فعلت أدى بك جميع ذلك إلى الخوف والرجاء وكنت قد سلكت السبيل الشارع القصد وعدلت عن الجانبين المهلكين: الأمن واليأس ولا تتيه فيهما مع التائهين ولا تهلك مع الهالكين وشربت الشراب الممزوج العدل فلا تهلك ببرودة الرجاء الصرف ولا بحرارة الخوف الصرف وكأنى بك قد وصلت إلى المقصود غانما وشفيت من العلتين سالما ووجدت النفس قد انبعثت للطاعة ودانت فى الخدمة ليلا ونهارا من غير فترة ولا غفلة واجتنبت المعاصى والمخازى وهجرتها بمرة كما قال نوف البكالى: إن نوفا إذا ذكر الجنة طال شوقه وإذا ذكر النار طار نومه وصرت حينئذ من الأصفياء الخواص العابدين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: «إنهم[1] كانوا يسارعون فى الخيرات

= عن عمرو بن قيس مرفوعا «نحن الآخرون والسابقون وإنى قائل قولا غير فخر: إبراهيم خليل الله وموسى صفى الله وأنا حبيب الله ومعى لواء الحمد يوم القيامة وإن الله وعدنى فى أمتى وأجارهم من ثلاث: لا يعمهم بسنة قحط، ولا يستأصلهم عدو، ولا يجمعهم على ضلالة» وفى حديث جابر مرفوعا «أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر» رواه الدارمى وعن أنس مرفوعا «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وأنا قائدهم إذا وفدوا وأنا خطيبهم إذا أنصتوا وأنا مستشفعهم إذا حبسوا والمفاتيح يومئذ بيدى ولواء الحمد يومئذ بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى يطوف ألف خادم كأنهم بيض مكنون ولؤلؤ منثور».

(١) قال الثورى: رغبا فيما عندنا ورهبا مما عندنا «وكانوا لنا خاشعين» قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس: أى مصدقين بما أنزل الله، وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف الملازم للقلب لا يفارقه ورأيت سيدى أحمد الفرغل فى المنام فقلت له بماذا أصل إلى الله؟ فقال بالخضوع والخشوع.

Digitized by Birzeit University Library

ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين » وكنت قد خلفت هذه العقبة الخطيرة وراءك باذن الله تعالى وحسن توفيقه فكم لك من حلاوة وصفوة فى الدنيا ، وكم لك من ذخر كريم وأجر عظيم فى العقبى — والله سبحانه وتعالى مسئول أن يمدك وإيانا بحسن توفيقه وتسديده إنه أرحم الراحمين وأجود الأجودين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(الباب السادس فى العقبة السادسة وهى عقبة القوادح)

ثم عليك يا أخى أيدك الله وإيانا بحسن توفيقه بعد ما استبان لك السبيل واستقام لك المسير بتمييز سعيك وصيانته عما يفسده ويضيعه عليك وإنما لزمك ذلك باقامة الاخلاص (١) وذكر المنة والاجتناب عن ضده لأمرين : أحدهما لما فى فعله من الفائدة وهى حسن القبول من الله تعالى وفوز الثواب عليه وإلا فتكون مردودا ذاهب الثواب كلا أو بعضا على ما روى فى الحديث المشهور (٢) عن النبى صلى الله عليه وسلم إن الله سبحانه وتعالى يقول: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملا فأشرك فيه غيرى فنصيبى له فانى لا أقبل إلا ما كان لى خالصا ، وقيل إن الله تعالى يقول لعبده يوم القيامة إذا التمس ثواب عمله ألم يوسع لك فى المجالس ، ألم تكن الرأس فى الدنيا ، ألم يرخص بيعك وشراؤك ، ألم تكرم ؟ هذا وأشباهه من الخطر والضرر .

قلت : ومن خطر الرياء فضيحتان ومصيبتان : أما الفضيحتان فاحداهما فضيحة السر وهى اللوم على رءوس الملائكة وذلك لما روى أن الملائكة تصعد بعمل العبد مبتهجين به فيقول الله تعالى ردوه إلى سجين فانه لم يردنى به فيفتضح ذلك العمل والعبد عند

---

(١) فى عوارف المعارف للسهروردي بسنده إلى جبريل عليه السلام أنه سأل ربه عن الاخلاص فقال : هو سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى ، قال ذو النون ثلاث من علامات الاخلاص : استواء الذم والمدح من العامة ، ونسيان رؤية الأعمال فى الأعمال ، وترك اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة .

(٢) الحديث أخرجه مالك عن أبى هريرة وأخرجه مسلم وابن ماجه بسند صحيح ولفظه فى الاحياء مختلف .

Digitized by Birzeit University Library

الملائكة - والثانية فضيحة العلانية وهى يوم القيامة على رءوس الخلائق روى عن (١) النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : ياكافر يافاجر ياغادر ياخاسر ضل سعيك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم التمس الأجر ممن كنت تعمل له ياخادع ، وروى أنه ينادى مناد يوم القيامة يسمع الخلائق ، أين الذين كانوا يعبدون الناس ؟ قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له فانى لا أقبل عملا خالطه شىء - وأما المصيبتان : فاحداهما فوت الجنة وذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الجنة تكلمت وقالت : أنا حرام على كل بخيل ومراء والخبر يحتمل معنيين : أحدهما أن هذا البخيل من يبخل بأحسن قول وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا المرائى من يرائى بأقبح رياء وهو المنافق الذى يرائى بايمانه وتوحيده وفى هذا القول ترجية (٢) - والمعنى الثانى أن من لم ينته عن البخل والرياء ولم يراع نفسه ففيه خطران : أحدهما أن يلحقه شؤم ذلك فيقع فى الكفر فتفوته الجنة رأسا والعياذ بالله ، والآخر سلب الايمان الذى يستحق به النار نعوذ بالله من سخطه وشديد غضبه - والمصيبة الثانية دخول النار وذلك لما روى أبو هريرة (٣) رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ، أول من يدعى يوم القيامة رجل قد جمع القرآن ورجل قد قاتل فى سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله تعالى للقارىء : ألم أعلمك ماأنزلت على رسولى؟ فيقول بلى

---

(١) الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابى .

(٢) الحديث له شواهد فان حرمة الرياء والبخل مجمع عليها فاذا فهم البخل على أنه عدم سماح النفس بالنطق بالشهادتين ، وإذا فهم الرياء على أنه إبطان الكفر وإظهار الاسلام ، فلا ريب أن صاحب هاتين الخصلتين من أهل النار والرجاء فى هذا الفهم أن مطلق الرياء والبخل لايحرم الجنة والبخل هو ملكة إمساك المال حيث يجب بذله بحكم الشرع أو بحكم المروءة ، والرياء طلب المنزلة فى قلوب الناس بايرائهم خصال الخير ، والأحاديث الواردة فى المهلكات يجب أن يكون معناها أن أصحاب هذه الأخلاق لا يدخلون الجنة دخولا أوليا بلا حساب ، ولا بأس أولا يدخلها صاحب هذا الخلق حتى يعاقب بما اجترحه قال التوربشتى : هذا هو السبيل فى تأويل أمثال هذه الأحاديث لتوافق أصول الدين وقد هلك بالتمسك بظواهر أمثالها جمّ غفير .

(٣) الحديث رواه مسلم .

Digitized by Birzeit University Library

يارب ، فيقول ماذا عملت فيما علمت ؟ فيقول يارب قمت به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله كذبت : وتقول الملائكة كذبت ، فيقول الله سبحانه : بل أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك ، ويؤتى بصاحب المال فيقول له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ فيقول بلى يارب ، فيقول فماعملت فيما آتيتك؟ فيقول كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله كذبت : وتقول الملائكة كذبت ، فيقول الله سبحانه بل أردت أن يقال إنك جواد فقد قيل ذلك ، ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله ، فيقول الله مافعلت ؟ فيقول أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله تعالى كذبت : وتقول الملائكة كذبت ، ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جرىء وشجاع فقد قيل ذلك — قال ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على ركبتى وقال يا أباهريرة : أولئك أول خلق الله يسعر بهم نارجهنم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن النار وأهلها يعجون من أهل الرياء قيل يارسول الله وكيف تعج النار ؟ قال من حر النار التى يعذبون بها — وفى هذه الفضائح عبرة لأولى الأبصار والله سبحانه ولى الهداية بفضله .

فان قلت : فأخبرنا عن حقيقة الاخلاص والرياء وحكمهما وتأثيرهما فى العمل ؟

فاعلم أن الاخلاص عند علمائنا إخلاصان : إخلاص العمل وإخلاص طلب الأجر فأما إخلاص العمل فهو إرادة التقرب إلى الله عز وجل وتعظيم أمره وإجابة دعوته والباعث عليه الاعتقاد الصحيح ، وضد هذا الإخلاص النفاق وهو التقرب إلى مادون الله سبحانه ، وقال شيخنا رحمه الله : النفاق هو الاعتقاد الفاسد الذى هو للمنافق فى الله عزوجل وليس هو من قبيل الارادات لعلة ذكرناها فى موضعها — وأما الاخلاص فى طلب الأجر فهو إرادة نفع الآخرة بعمل الخير وكان شيخنا رحمه الله يقول : إنه إرادة نفع الآخرة بخير لم يرد ردا يتعذر عليه خيره بحيث ترجى به تلك المنفعة وقد شرحنا هذه الشرائط ، وقال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام : ما الخالص من الأعمال قال الذى يعمل لله لايحب أن يحمده عليه أحد ، وهذا تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للاخلاص ، وقال الجنيد : الاخلاص تصفية الأعمال من المكدرات ، وقال الفضيل : الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والأقاويل فى هذا كثيرة فلا فائدة فى تكثير النقل بعد

Digitized by Birzeit University Library

انكشاف الحقائق ، وقد قال سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم إذ سئل عن الاخلاص فقال : تقول ربى الله تعالى ثم تستقيم(١) كما أمرت أى لاتعبد هواك ونفسك ولاتعبد إلا ربك وتستقيم فى عبادته كما أمرت ، وهذه إشارة إلى قطع كل ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا وضد الاخلاص الرياء وهو إرادة نفع الدنيا بعمل الآخرة — ثم الرياء ضربان : رياء محض ورياء تخليط فالمحض أن تريد به نفع الدنيا لاغير والتخليط أن تريدهما جميعا نفع الدنيا ونفع الآخرة هذا حدهما ، وأما تأثيرهما فان إخلاص العمل أن تجعل الفعل قربة وأما إخلاص طلب الأجر فأن تجعله مقبولا وافر الأجر والتعظيم ، والنفاق يحبط العمل ويخرجه عن كونه قربة مستحقا عليه الثواب بالوعد من الله تعالى — فالرياء المحض لايكون من العارف عند بعض العلماء وإن كان أبطل نصف الثواب وعند آخرين قد يكون الرياء المحض من العارف وأنه يذهب بنصف الأضعاف والتخليط يذهب بربع الأضعاف والصحيح عند شيخنا رحمه الله أن الرياء المحض لايكون من العارف عند تذكر الآخرة ويكون مع السهو ، والمختار أن من تأثير الرياء رفع القبول والنقصان فى الثواب ولانقدير له بنصف ولاربع وشرح هذه المسائل يطول وقد شرحناها فى كتاب إحياء علوم الدين شرحا مستقصيا وأشبعنا القول فى أسرار معاملات الدين .

فان قلت : فما موضع الاخلاص وفي أى طاعة يقع ويجب ؟

فاعلم أن الأعمال عند بعض العلماء ثلاثة أقسام : قسم يقع فيه الاخلاص جميعا وهو العبادة الظاهرة الأصلية ، وقسم لايقع فيه شىء منها وهو العبادة الباطنة الأصلية ، وقسم يقع فيه إخلاص طلب الأجر دون إخلاص العمل وهو المباحات المأخوذة للعدة ، قال شيخنا رحمه الله : إن كل عمل يحتمل الصرف إلى غير الله تعالى من العبادات الأصلية يقع فيه إخلاص العمل فالعبادات الباطنة أكثرها يقع فيها إخلاص العمل . وأما إخلاص

---

(١) حديث سئل عن الاخلاص قال العراقى : لم أره بهذا اللفظ وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قلت يارسول الله حدثنى بأمر أعتصم به ؟ قال قل ربى الله ثم استقم ، وهو عند مسلم بلفظ . قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ؟ قال قل آمنت بالله ثم استقم .

Digitized by Birzeit University Library

طلب الأجر قال مشايخ الكرامية : لا يقع فى العبادات الباطنة إذ لا يطلع عليها أحد إلا الله سبحانه فامتنع فيها دواعي الرياء فلم يحتج إلى إخلاص طلب الأجر وكان شيخنا رحمه الله يقول : إذا أراد العبد المتقرب من الله بالعبادات الباطنة نفع الدنيا فهو أيضا رياء — قلت أنا : ولا يبعد إذن أن يقع فى كثير من العبادات الباطنة الاخلاصان وكذلك النوافل يجب فيها الاخلاصان جميعا عند الشروع وأما المباحات المأخوذة للعدة فانما يقع فيها إخلاص طلب الأجر دون إخلاص العمل إذ هى لا تصلح أن تكون بنفسها قربة بل هى عدة على القربة .

فان قلت : هذا موضعهما فبين لنا وقتهما من العمل ؟

فاعلم أن إخلاص العمل مع الفعل يقارنه لا محالة ولا يتأخر عنه وأما إخلاص طلب الأجر فربما يتأخر عنه وعند بعض العلماء يعتبرون فيه وقت الفراغ من العمل فاذا فرغ على إخلاص أو رياء فقد انقضى الأمر ولا يمكنه استدراكه بعد ، وعندنا من مشايخ الكرامية ما لم ينل المنفعة المطلوبة بالرياء يمكنه إقامة الاخلاص فى ذلك العمل فاذا نال المطلوب فقد فات ، وقال بعض العلماء إن الفريضة يمكن إقامة الاخلاص فيها إلى الموت . وأما النوافل فلا سبيل إلى ذلك ، قال والفرق بينهما أن الله تعالى أدخل العبد في الفريضة فأمول منه التفضل والتيسير فيها ، وأما النفل فالعبد الذى أدخل نفسه فيه وتكلفه فطولب بحق ماتكلف — قلت أنا : وفى المسألة فائدة وهى أن من سبق منه الرياء أو ترك الاخلاص فى عمل فيمكنه استدراك ذلك وتلافيه على أحد الوجوه التى ذكرناها قبل . والمقصود من نقل مذاهب الناس فى هذه الدقائق علمنا الآن بقلة العاملين وقلة الرغبة فى سلوك هذه الطريق والتقريب على المبتدى فى العبادة فان لم يجد لعلته دواء فى هذا القول وجده فى الآخرة لاختلاف الأمراض والأغراض وعلل الأعمال وآفاتها فافهم راشدا إن شاء الله تعالى .

فان قلت : أكل عمل يحتاج إلى إخلاص مفرد ؟

فاعلم أنهم قد اختلفوا فى ذلك فقيل إنه يجب لكل عمل إخلاص مفرد وقيل إنه يجوز تناول إخلاص واحد بجملة من العبادات ، أما العمل ذو الأركان كالصلاة والوضوء فيكفيها إخلاص واحد لأن بعضها متعلق ببعض صلاحا وفسادا فصارت كشىء واحد .

Digitized by Birzeit University Library

فان قلت : إن أراد بعمله الخير نفعا من (١) الله تعالى ولا يريد من الناس شيئا من مدحة أو سمعة أو منفعة أيكون ذلك رياء ؟

فاعلم أن ذلك محض الرياء قال علماؤنا رحمهم الله : الاعتبار فى الرياء بالمراد لا بالذى يريد منه فان كان مرادك من عمل الخير نفعا دنيويا فانه رياء سواء أردته من الله أو من الناس قال الله تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب » وليس الاعتبار بلفظة الرياء ، واشتقاقها من معنى الرؤية وإنما سميت هذه الارادة الفاسدة بهذا الاسم لأنها أكثر ماتقع وتكون من قبل الناس ورؤيتهم فافهم .

فان قلت : إذا كان القصد من الدنيا التى تريدها من الله التعفف عن الناس والعدة على عبادة الله يكون ذلك رياء ؟

فاعلم أن التعفف ليس فى كثرة المال والجاه والحطام وإنما هو فى القناعة والثقة بكفاية الله سبحانه . وأما العدة على عبادة الله تعالى فاذا كان مراده ذلك فلا يكون رياء وذلك مايتصل بأمر الآخرة وأسبابها ويصير قصده قطعا لذلك فان أريد بعمل الخير هذا النوع لاتكون تلك الارادة رياء لأن هذه الأمور تصير بتلك النية خيراً أو تصير فى حكم أعمال الآخرة ولا تكون إرادة الخير رياء ، وكذلك إن أردت أن يكون لك تعظيم عند الناس أو محبة عند المشايخ والأئمة ويكون قصدك من ذلك التمكن من تأييد مذهب أهل الحق أو الرد على أهل البدع أو النشر للعلم أوحض الناس على العبادة ونحو ذلك دون أن تقصد بذلك شرف نفسك من حيث هى أو دنيا تنالها فان هذه كلها إرادة سديدة ونيات محمودة لايدخل شىء منها فى باب الرياء إذ المقصود منها أمر الآخرة بالحقيقة .

---

(١) من حق أوصاف الله أن يعبد لذاته قال ابن عطاء الله فى حكمه : « من عبده لشىء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه فما قام بحق أوصافه » وكان أبو حازم المدنى يقول : إنى لأستحى من ربى أن أعبده خوفا من العذاب فأكون مثل عبد السوء إن لم يخف لم يعمل وأستحي أن أعبده لأجل الثواب فأكون كالأجير السوء إن لم يعط أجر عمله لم يعمل ولكن أعبده محبة له .

Digitized by Birzeit University Library

واعلم أنى سألت بعض مشايخنا عما يعتاده أولياؤنا من قراءة سورة الواقعة فى أيام العسرة أليس المراد بذلك أن يدفع الله تلك الشدة عنهم ويوسع عليهم شيئا من الدنيا على ماجرت به العادة فكيف تصح إرادة متاع الدنيا بعمل الآخرة ؟ فقال فى جوابه رحمه الله كلاما معناه : إن المراد منهم أن يرزقهم الله قناعة أو قوتا يكون لهم عدة على عبادة الله وقوة على درس العلم وهذه من جملة إرادات الخير دون الدنيا ، واعلم أن هذه السيرة أعنى قراءة السورة عند الشدة فى أمر الرزق والخصاصة إنما هو شىء وردت به الأخبار المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين حتى إن ابن مسعود حين عوتب فى أمر ولده إذ لم يترك لهم من الدنيا شيئا قال لقد خلفت لهم سورة الواقعة : ومن ذلك الأصل فى السنة جرت هذه الخصلة فى سير علمائنا رحمهم الله وإلا فلا مبالاة لهم بحمد الله تعالى بشدة فى أمر الدنيا أو سعة وهم الذين يغتنمون ضيق الدنيا وعسرها ويتغالون فى ذلك فيما بينهم ويعدونه من الله تعالى منة عظيمة ويخافون إذا بدالهم من الله سعة من الدنيا التى لايعدها أكثر الناس إلا الاحسان والنعمة أن يكون ذلك استدراجا من الله تعالى ومصيبة كيف وبطانتهم الأسفار والطى فى عموم الأحوال ومقدموهم يقولون الجوع رأس مالنا فهذا وضع مذهب أهل التصوف وهو مذهبى ومذهب أشياخى وبذلك جرت سيرة سلفنا ، وأما تقصير بعض المتأخرين فلا يعتبر به وإنما ذكرنا هذا الفصل لئلا يغمز فيهم مخالف جهلا منه بمقاصد القوم فى أمورهم أو يغلط فيهم مبتدىء سليم الصدر لم يأخذ من العلم حقه .

فان قيل : كيف يليق هذا بحال أهل العلم والتجرد والزهد وأرباب الصبر والرياضة ؟

فاعلم أن هذا الشىء مأخوذ من السنة ، ثم المقصود حصول القناعة والعدة لا اتباع الشره والشهوة والضعف عن احتمال العسرة والشدة وأكثر ماترى فى عقب ذلك قناعة القلب وفقد كلب الجوع وضعفه وسلوه عن الطعام ونهمته وقد علم ذلك من امتحنه . فاعلم هذه الجملة موفقا إن شاء الله تعالى .

القادح الثانى العجب - وإنما يلزمك اجتنابه لأمرين : أحدهما أنه يحجب عن التوفيق والتأييد من الله تعالى فان المعجب مخذول فاذا انقطع عن العبد التأييد والتوفيق من الله

Digitized by Birzeit University Library

تعالى فما أسرع مايهلك ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب (١) المرء بنفسه — والثانى أنه يفسد العمل الصالح ولذلك قال المسيح عليه السلام : يا معشر الحواريين كم من سراج قد أطفأته الريح وكم من عابد قد أفسده العجب . وإذا كان المقصود والفائدة العبادة وهذه الخصلة تحرم العبد حتى لا يحصل له خير فان حصل له خير فقليل من ذلك يفسده حتى لا يبقى بيده شىء تحقيق

---

(١) الحديث أخرجه البزار والبيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه والعجب استعظام العمل الصالح وذكر حصول شرفه بشىء دون الله تعالى من النفس أو الناس والعجب إنما يكون بصفة الكمال لامحالة ، وللعالم بكمال نفسه مطلقا حالتان: إحداهما أن يكون خائفا على تكدره أو زواله من أصله فهذا ليس بمعجب ، والأخرى أن يكون خائفا ولكن يكون فرحا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه وهذا أيضا ليس بمعجب ، وله حالة ثالثة وهى أن لايكون خائفا عليه بل يكون فرحا به مطمئنا إليه حيث إنه كمال ونعمة لامن حيث إنه عطية من الله تعالى بل من حيث إنه صفة له ومنسوب إليه ناسيا أنه من الله تعالى وهذا هو العجب ، ومن لطائف هذا الحديث ما ورد من حكم معراج نبينا صلوات الله وسلامه عليه وظهور علمه للملأ الأعلى فان الملأ الأعلى اختصموا فى أربع مسائل مقدار أربعة آلاف سنة ولم يوفقوا لحلها ، فلما بعث نبينا صلى الله عليه وسلم علموا أن هذه المشكلات إنما تنحل منه صلى الله عليه وسلم فتضرعوا إلى الله تعالى لأجله فدعا الله حبيبه إلى مقام قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ومن جملة هذا الوحي قوله صلى الله عليه وسلم : « رأيت ربى بأحسن صورة فقال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت أنت تعلم يا رب : فوضع يده بين كتفى فوجدت بردها بين ثديى ثم قال يامحمد : هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى : فقلت نعم : فى الكفارات والمنجيات والدرجات والمهلكات ، قال صدقت يامحمد: ثم قال يامالئكتى وجدتم حلاّل المشكلات فاسألوا إشكالكم ، فقال إسرافيل ماالكفارات ؟ فقال عليه السلام: إسباغ الوضوء فى المكاره ومشى الأقدام إلى الجماعات وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، ثم قال ميكائيل ما الدرجات ؟ فقال إطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام ، ثم قال جبرائيل ما المنجيات ؟ فقال خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الفقر والغنى والعدل فى الغضب والرضا ، ثم قال عزرائيل ما المهلكات ؟ فقال شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه فقال الله تعالى فى كل صدق محمد » وحديث الاختصام هذا فى المشكاة .

Digitized by Birzeit University Library

أن يحذر من ذلك ويحتفظ والله تعالى ولى التوفيق والعصمة .

فان قيل : فما حقيقة العجب وما معناه وما تأثيره وما حكمه فبين لنا ذلك ؟

فاعلم أن حقيقة العجب استعظام العمل الصالح وتفصيله عند علمائنا رحمهم الله ذكر العبد حصول شرف العمل الصالح بشيء دون الله عز وجل من الناس أو النفس قالوا وقد يكون العجب مثلثا بأن يذكر ذلك من هذه الثلاثة جميعا النفس والخلق والشيء ومثني بأن يذكره من اثنين وموحدا بأن يذكره من واحد ، وضد العجب ذكر المنة وهو أن يذكر أنه بتوفيق الله سبحانه وأنه الذى شرفه وعظم ثوابه وقدره وهذا الذكر فرض عند دواعى العجب نفل فى سائر الأوقات . وأما تأثير العجب فى العمل قال بعض علمائنا : المعجب ينتظر الاحباط فان تاب قبل موته سلم وإلا أحبط وإليه ذهب محمد بن صابر من شيوخ الكرامية — والاحباط عنده أن يذهب عن العمل جميع الأسماء الحسنة حتى لايستحق بذلك ثوابا ولا مدحة ألبتة وفى قول غيره هو ذهاب الأضعاف لاغير .

فان قلت : كيف يلتبس على العبد العارف أن الله تعالى هو الذى وفق للعمل الصالح وعظم قدره وأكثر ثوابه بفضله ومنه ؟

فاعلم أن ههنا نكته لطيفة وذخيرة شريفة وهو أن الناس فى العجب ثلاثة أصناف : صنف هم المعجبون بكل حال وهم المعتزلة (١) والقدرية الذين لا يرون لله عليهم منة فى أفعالهم ويتكرون العون والتوفيق الخاص واللطف وذلك لشبهة استولت عليهم ، وصنف هم الذاكرون لله المنة بكل حال وهم المستقيمون لا يعجبون بشيء من الأعمال وذلك لبصيرة أكرموا بها وتأييد خصوابه ، والثالث وهم المخلطون وهم عامة أهل السنة تارة يتنبهون فيذكرون منة الله وتارة يغفلون فيعجبون بذلك لمكان الغفلة العارضة والفترة فى الاجتهاد والنقص فى البصيرة .

---

(١) رسالة العجب الآن يؤديها عن المعتزلة المنقرضة العلماء وجهلة المتصوفين ومغترو القراء يجلس العالم يتحدث عن علمه ونبوغه وأنه وحيد زمانه فينتفخ وينتفش ويزهو ويتكبر حتى ينطفىء نور علمه من حيث لا يشعر ، ودعي التصوف يتحدث عن كرامات نفسه وخوارق ظهرت على يديه وما درى أن مدارج الشيطان لا تنتهى عند حد ، وأما عجب القراء بأنفسهم فهو أدهى وأمر .

Digitized by Birzeit University Library

فان قلت : كيف حال القدرية والمعتزلة فى أفعالهم ؟

فاعلم أن فى ذلك اختلافات فقيل إنه محبط لمكان اعتقادهم (١) . وقيل لا يحبط عمل باعتقاد فى الجملة من فرق الاسلام حتى يخص كل عمل باعجاب كما أن اعتقاد أهل السنة لا يمنع العجب فى كل عمل حتى يخصه بذكر المنة .

فان قيل : فهل سوى العجب والرياء من قادح فى العمل ؟

قيل له أجل : إن فيه لقوادح سواهما لكننا خصصنا هما بالذكر لأنهما الأصل الذى يدور عليهما معظم الأبواب ، وقد قال بعض المشايخ : إن حق العبد أن يتحفظ فى العمل من عشرة أشياء : النفاق والرياء والتخليط والمن والأذى والندامة والعجب والحسرة والتهاون وخوف ملامة الناس — ثم ذكر شيخنا رحمه الله ضد كل خصلة منها وإضرارها بالعمل ، فضد النفاق إخلاص العمل (٢) وضد الرياء إخلاص طلب الأجر وضد التخليط (٣) التفريد وضد المنّ تسليم العمل إلى الله وضد الأذى تحصين العمل وضد الندامة تثبيت النفس وضد العجب ذكر المنة وضد الحسرة اغتنام الخير وضد التهاون تعظيم التوفيق وضد خوف الملامة الخشية — واعلم أن النفاق يحبط

---

(١) معنى القولين أن مذهب الاعتزال فى خلق الانسان لأفعال نفسه سبب فى إحباط العمل إن قيل إن الاعتقاد له دخل فى الاحباط وليس بسبب وإن قيل لا يحبط عمل باعتقاد وإحباط الأعمال بالكلية لا يكون نتيجة إلا للتكفير — وأما الاحباط بالعجب فالمراد به هنا كما سيصرح به الغزالى بعد أسطر بأنه عدم مضاعفة الثواب وعلى القول الثانى لا فرق بين عجب المعتزلى والسنى فى المؤاخذة .

(٢) قال المصنف فى الاحياء : مهما كان الباعث واحداً على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصا بالاضافة إلى المنوي فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله فهو مخلص ولكن العرف جار بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب .

(٣) التخليط كما فهمت من شيخى تنقل المريد فى مشارب مختلفة والاغتراف من موارد متباينة ولا يتم نضج من لم يتركز فى ناحية من التربية والتهذيب ، ولكل طائفة من الأرواح منهل منه ارتووا وساحة فيها ترعرعوا فالزم ساحة واحدة وطريقة فى التهذيب .

Digitized by Birzeit University Library

العمل والرياء يوجب ردّه ، والمن والأذى يحبطان الصدقة أصلا فى الوقت وعند بعض المشايخ رحمهم الله يبطلان أضعافها ، وأما الندامة فانها تحبط العمل فى قولهم جميعا ، والعجب يذهب أضعاف العمل والحسرة والتهاون وخوف الملامة تخفف العمل فتذهب رزانته — قلت : فالقبول والرد عند أهل التحصيل يرجعان إلى ضروب من التعظيم والاستخفاف ، والاحباط إبطال منافع تكون بالفعل وبسببه ثم تارة يكون بابطال الثواب وأخرى بابطال التضعيف ، والثواب منفعة يقتضيها الفعل بعينه وقرائنه وأحواله والتضعيف زيادة على هذا والرزانة زيادة تحصل بمقتضى قرائن وأحوال أخر كالاحسان إلى أحد من أهل الخير ثم إلى الوالدين ثم إلى نبى من الأنبياء ففى الشىء يكون رزانة ولا يكون تضعيف فهذا تهذيب ما تحققت (١) فى هذه المعانى فاعلم ذلك وبالله التوفيق .

(فصل) فعليك بقطع هذه العقبة المخوفة ذات المقاطع والمتالف فى غاية التحرز ، فان صاحب بضاعة الطاعات قد قطع كل تلك العقبات وتحمل تلك المشقات حتى حصلت له بضاعة من العبادة عزيزة شريفة ، فانه لا يخاف على بضاعته تلك إلا فى هذه العقبة فان فيها مقاطع يحذر أن تسلب فيها بضاعته ومتالف يحذر أن يبدو منها آفات تفسد عليه طاعته — ثم أعظمها خطرا وأعمها وقوعا هذان القاطعان اللذان هما الرياء والعجب . فلنذكر فى كل واحد منهما أصولا مقنعة نجردها لك لعلك تكفى مؤنتها باذن الله إن شاء الله .

أما الرياء — فأذكر فيه أولا قول الله سبحانه : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله أحاط بكل شىء علما » كأن الله سبحانه يقول : إنى خلقت السموات والأرض وما بينهما فى كل هذه الصنائع والبدائع واكتفيت بنظرك لتعلم أنى قادر عالم وأنت تصلى ركعتين مع مافيهما من المعايب والتقصير فلا تكتفى بنظرى إليك وبعلمى بك وثنائى عليك وشكرى لك حتى تحب أن يعلم الخلق ليمدحوك بذلك ، أيكون ذلك وفاء أيكون ذلك عقلا يرضاه أحد لنفسه ؟ ويحك أفلا تعقل .

---

(١) يريد حجة الاسلام أن ما ذكره من الأخلاق المذمومة التى يجب التحفظ منها فى أثناء العمل يختلف الأمر فيها من جهة العقاب باختلاف ما يصاحب هذه الأخلاق من قرائن وأحوال فقد يكون العقاب أن يفسد العمل لمقارنته النفاق فيحبط العمل بالكلية وقد يكون العقاب أن لا يضاعف الثواب ، والأعمال القلبية تختلف قوة وضعفا باعتبار البواعث عليها .

Digitized by Birzeit University Library

الأصل الثاني — إن من كان له جوهر نفيس يمكنه أن يأخذ فى ثمنه ألف ألف دينار فباعه بفلس ، أليس يكون ذلك خسرانا عظيما وغبنا فظيعا ودليلا بينا على خسة الهمة وقصور العلم وضعف الرأى وركة العقل ، فما ينـاله العبد بعمـله من الخلق من مدحة وحطام بالاضافة إلى رضا رب العالمين وشكره وثنائه وثوابه لأقل من فلس فى جنب ألف ألف دينـار وأضـعاف ذلك بل فى جنب الدنيـا وما فيها وأكثر وأكبر ألا يكون من الخسران المبين أن تفوت نفسك تلك الكرامات العزيزة الشريفة بهـذه الأمور (١) الحقيرة الدنية ؟ ثم إن كان ولابد لك من هـذه الهمة الخسيسة فاقصد أنت الآخرة تتبعك الدنيا بل اطلب الرب وحده يعطك الدارين إذ هو مالكهما جميعا وذلك قوله تعالى : « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » وقال عليه الصلاة والسـلام : إن الله تعالى ليعطي الدنيا بعمل الآخرة ولا يعطي الآخرة بعمل الدنيـا ، فاذا أنت أخلصت النية وجردت الهمة للآخرة حصلت لك الآخرة والدنيا

---

(١) لاريب أن أغلب النفوس المتمكن منها الرياء والتى أشربت حب الظهور بالأعمال لايجدى فيها مثل هذا اللوم الرقيق والشـيخ الغزالى فى مثل هـذه العبارات يحكى تأثر النفوس التى صفت بمجرد العتاب باللطف — من أمثاله رضى الله عنه .

العبـد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامة

والواقع أن تخليص الأعمال لوجه الله لايدرك إلا بمنحة من الله وقد سبق حديث الاخلاص الذى رواه المهر وردى بسائل يسأل آخر عن الاخلاص حتى سأل نبينا صلى الله عليه وسلم جبريل وسأل جبريل ربه فقال: الاخلاص سر من أسرارى أستودعه قلب من أحب . ومحل الرياء خمسـة : الأول البدن وذلك باظهار النحول ليدل على قلة الأكل وشـدة الاجتهاد فى العبادة وغلبة خوف الآخرة وإظهار الاصـفرار ليدل على سهر الليل وكثرة الحزن فى الدين ، والثانى الزي كلبس الصوف وعمل العذبة ليظهر أنه متبع للسنة ، والثالث القول كالوعظ والنطق بالحكمة والأخبار والآثار إظهاراً لغزارة العلم والعناية به وبأحوال السـلف وتحريك الشفتين بالذكر والأمر بالمعروف فى المحافل العـامة ، والرابع العمل كتطويل المصـلى القيام والركوع والسـجود وإطراق الرأس وترك الالتفات والسكون ، والخامس الأصحاب كمن يفرح بكثرتهم ومشيهم خلفه عند ذهابه إلى الجمعة أو الدعوة حيث يتباهى بهم .

Digitized by Birzeit University Library

جميعا ، وإن أنت أردت الدنيا ذهبت عنك الآخرة فى الوقت وربما لا تنال فى الدنيا كما تريد وإن نلتها فلا تبقى لك فتكون قد خسرت الدنيا والآخرة فتأمل أيها العاقل .

الأصل الثالث — أن المخلوق الذى لأجله تعمل ورضاه تطلب لو علم أنك تعمل لأجله لأبغضك ولسخط عليك واستهان بك واستخف بك ، فكيف يعمل الرجل العاقل العمل لأجل من لو علم به أنه يطلب رضاه لسخط عليه وأهانه فاعمل يا مسكين لأجل من إذا عملت لأجله وقصدته بسعيك وطلبت رضاه بذلك أحبك وأعطاك وأكرمك حتى أرضاك وأغناك عن الكل وكفاك فهذه هذه فافطن لها إن كنت تعقل .

الأصل الرابع — أن من حصل له سعى ما يمكن أن يكتسب به رضا أعظم ملك فى الدنيا فطلب به رضا كناس خسيس من الناس فيكون ذلك دليلا على السفه ورداءة الرأى منه وسوء الحظ له ، ويقال ماحاجتك إلى رضا هذا الكناس مع إمكانك من رضا الملك فكيف وقد سخط الكناس عليك بسبب سخط الملك ففاتك الكل فهذا حال المرائي ، فأى حاجة إلى إرضاء مخلوق حقير ضعيف مهين وأنت متمكن من تحصيل رضوان الله رب العالمين الكافى عن الكل ، فان ضعفت الهمة وكلت البصيرة حتى طلبت رضا مخلوق لامحالة فسبيلك أن تجرد إرادتك وتخلص سعيك لله سبحانه فان القلوب والنواصى بيده فهو يميل إليك القلوب ويجمع لك النفوس ويشحن من حبك الصدور ، فتنال من ذلك مالا تنال بجهدك وقصدك فان لم تفعل وقصدت بعملك رضا المخلوقين دونه سبحانه وتعالى فانه يصرف عنك القلوب وينفر عنك النفوس ويسخط عليك الخلق ، فيحصل لك بهذا الأمر سخط الله وسخط الناس جميعا فياله من خسران وحرمان . ولقد ذكر عن الحسن أنه قال : كان رجل يقول والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها وكان أول داخل المسجد وآخر خارج منه لا يراه أحد حين الصلاة إلا قائما يصلى وصائما لا يفطر ويجلس إلى حلق الذكر فلبث كذا سبعة أشهر فكان لا يمر بقوم إلا قالوا فعل الله بهذا المرائى وصنع فأقبل على نفسه باللوم وقال لها : إنى أرانى فى غير شىء لأجعلن عملى كله لله فلم يزد على عمله الذى كان يعمل قبل ذلك شيئا إلا أنه تغيرت نيته إلى الخير فكان بعد ذلك يمر بالناس فيقولون : رحم الله فلانا . الآن قد أقبل على الخير ثم قرأ الحسن : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » قال يحبهم ويحببهم إلى المؤمنين ولقد صدق القائل :

Digitized by Birzeit University Library

يا مبتغى الحمد والثوابا ... فى عمل تبتغى محالا
قد خيب الله ذا رياء ... وأبطل السعى والكلالا
من كان يرجو لقاء ربّ ... أخلص من خوفه الفعالا
الخلد والنار فى يديه ... فرائه يعطك النوالا
والناس لا يملكون شيئا ... فكيف راءيتهم ضلالا

وأما العجب (١) فلنذكر فيه أصولا : أحدها أن فعل العبد إنما صارت له قيمة لما وقع من الله موقع الرضا والقبول وإلا فترى الأجير يعمل طول النهار بدرهمين والحارس يسهر طول الليل بدانقين ، وكذلك أصحاب الصناعات والحرف كل واحد يعمل فى الليل والنهار فيكون قيمة ذلك دراهم معدودة فان صرفت الفعل إلى الله تعالى فصمت لله تعالى يوما فيكون صومك ذلك اليوم لا قيمة له إذا رضيه وتقبله قال الله تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وفى الخبر أعددت (٢) لعبادى الصائمين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فهذا يومك الذى قيمته درهمان مع احتمالك التعب العظيم صار له كل هذه القيمة بتأخير غداء إلى عشاء ، ولو قمت ليلة لله تعالى وأخلصتها له كان قيامك لا قيمة له فى الشرف والنفاسة قال الله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » فهذا الذى قيمته دانقان أو درهمان صار له كل هذه القيمة والقدر ، بل لو جعلت لله ساعة تصلى

---

(١) وسبب العجب فى الحقيقة الجهل المحض أو الغفلة والذهول وعلاجه الاجمالى معرفة أن كل شىء بخلق الله تعالى وإرادته وأن كل نعمة من عقل وعمل وجاه ومال وغيرها من الله تعالى وحده ولما نظر الصديق رضى الله عنه إلى جيش المسلمين يوم حنين قال إعجابا من الكثرة والشوكة : لا انهزام لنا فيما بعد ولما وصل إلى سمعه صلى الله عليه وسلم كره ذلك فرفع الله النصرة فى أول تلك الغزوة تفهيما لهم بأن الكثرة لا تغنى شيئا بدون نصرة الله تعالى ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما أصاب داود عليه السلام ذنب إلا بشىء من العجب إذ قال يارب ما يأتى من ليلة إلا وإنسان من آل داود قائم ولا يأتى من يوم إلا إنسان من آل داود صائم فأوحى الله إليه لم تفعل ذلك إلا بى ولولا عونى إياك ما قويت على ذلك وسأكلك إلى نفسك فابتلاه بما ابتلاه .

(٢) رواه مسلم وغيره .

Digitized by Birzeit University Library

فيها ركعتين خفيفتين بل نفسا قلت فيه لا إله إلا الله ، قال الله تعالى : « ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » فهذا نفس من أنفاسك التى لاقيمة لها عند أهل الدنيا ولا عندك ، فكم تضيع أمثال ذلك فى لاشىء وكم يمر عليك من الزمان بلا فائدة ، وصار له كل هذا القدر العظيم لما أنه وقع مرضيا لله تعالى فعظم قدره وكثرت قيمته بفضله فحق للعاقل إذن أن يرى حقارة عمله وقلة قدره من حيث هو وأن لا يرى إلا منة الله تعالى عليه فيما شرف من قدر عمله وأعظم من جزائه وأن يحذر على فعله من أن يقع على وجه لا يصلح لله ولا يقع منه موقع الرضا فتذهب عنه القيمة التى حصلت له ويعود إلى ما كان فى الأصل من الثمن الحقير من دراهم أو دوانق وأحقر وأخس من ذلك . ومثاله أن العنقود من العنب والاضبارة من الريحان يكون قيمته فى السوق دانقان فان أهداه واحد إلى ملك مع خسته فوقع منه موقع الرضا يهب له على ذلك ألف دينار لما وقع منه موقع الرضا فصار ما قيمته حبة بألف دينار فاذا لم يرضه الملك وردّه إليه رجع إلى قيمته الخسيسة من حبة أو دانق ، فكذلك ما نحن فيه فتفهه وأبصر منة الله وصن فعلك عما يشينه عند الله عز وجل .

والأصل الثانى — ماتعلم أن الملك فى الدنيا إذا أجري على أحد جراية من طعام أو شراب أو كسوة أو دراهم أو دنانير معدودة فانية ، فانه يستخدمه آناء الليل والنهار مع ما فى ذلك من الذل والصغار ويقوم على رأسه حتى تخدر رجلاه ويسعى بين يديه إذا ركب وربما يحتاج أن يكون على بابه طول الليل حارسا وربما يبدو له عدو فيحتاج أن يقاتل عدوه فيبذل روحه التى لاخلف عنها لأجله ويحتمل كل هذه الخدمة والكلفة والخطر والضرر لأجل تلك المنفعة النكدة الحقيرة مع أنها بالحقيقة من الله تعالى وإنما هو بمنزلة سبب فى ذلك فربك الذى خلقك ولم تك شيئا ثم رباك فأحسن إليك التربية ، ثم أنعم عليك من النعم الظاهرة والباطنة فى دينك ونفسك ودنياك مالا يبلغ كنهها فهمك ووهمك قال عز من قائل : « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الانسان لظلوم كفار » ثم إنك تصلى ركعتين مع ما فيهما من المعايب والآفات ومع ما وعد عليهما فى المستقبل من حسن الثواب وضروب الكرامات حتى تستعظم ذلك وتعجب به فليس ذلك من شأن عاقل إذا نظرت فهذه هذه .

Digitized by Birzeit University Library

والأصل الثالث — أن الملك الذى من شأنه أن يخدمه الملوك والأمراء وتقوم على رأسه السادات والعظماء ، ويتولى خدمته الألباء والحكماء ويطلب مدحته العقلاء والعلماء ويمشى بين يديه الأكابر والرؤساء إذا أذن لسوقى أو قروى بمقتضى رأفة وعناية له فى بابه حتى زاحم أولئك الملوك والسادات والأكابر والأفاضل فى خدمته ومدحته وجعل له مقاما من حضرته معلوما ونظر إلى خدمته بعين الرضا وإن كانت مشوشة معيبة أليس يقال له لقد كبرت على هذا الحقير المنة من الملك وعظمت عنايته به ؟ فان أخذ هذا الحقير يمن على الملك بتلك الخدمة المعيبة ويستعظم ذلك ويعجب به ألا يقال إن ذلك لسفيه جدا أو مجنون لا يعقل شيئا ، ولما تقرر هذا فان إلهنا سبحانه هو الملك الذى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده » والمعبود الذي يسجد له من فى السموات والأرض طوعا وكرها فمن الخدم على بابه (١) جبريل الأمين وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش والكروبيون والروحانيون وسائر الملائكة المقربين الذين لا يحصى عددهم إلا الله رب العالمين فى منازلهم الرفيعة وأنفسهم الطاهرة وعباداتهم العظيمة ، ثم من الذين هم خدمة على بابه آدم

---

(١) جبريل ملك الوحى إلى الرسل عليهم السلام والموكل بانزال العذاب والزلازل والدمادم ومعناه عبد الله بالسريانية لأن جبر عبد بالسريانية وإيل اسم من أسماء الله تعالى ولم يكن هذا الاسم معروفا بمكة ولا بجزيرة العرب ولذا لما ذكر سيدنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه اسمه لخديجة فى بدء الوحي انطلقت لتسأل من عنده علم من الكتاب كعداس ونسطور الراهب فقالا : قدوس قدوس ومن أين هذا الاسم بهذه البلاد قال العينى : ورأيت فى أثناء مطالعتى فى الكتب أن اسم جبريل عليه الصلاة والسلام عبد الجليل وكنيته أبو الفتوح واسم ميكائيل عبد الرزاق وكنيته أبو الغنائم واسم إسرافيل عبد الخالق وكنيته أبو المنافخ واسم غزرائيل عبد الجبار وكنيته أبو يحيى . والكروبيون سادة الملائكة كما فى القاموس — والملائكة كما قال المتكلمون أجسام علوية لطيفة تتشكل فى أى شىء أرادوا وزعم بعض الفلاسفة أنها جواهر روحانية وعرف حقيقة الملائكة بعضهم فقال : الملائكة جواهر نورانية بسيطة قدسية متقدسة عن ظلمات الشهوات طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس وأنسهم بالله وفرحهم به ومقرهم بساط مشاهدته وحضرة قربه وسماع وحيه .

Digitized by Birzeit University Library

ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد خير العالمين مع سائر الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فى مراتبهم المنيفة ومناقبهم العزيزة الشريفة ومقاماتهم الكريمة وعباداتهم الجليلة الخطيرة ، ثم العلماء الأئمة الأبرار والزهاد فى مراتبهم العظيمة الفاخرة وأبدانهم النقية الطاهرة وعباداتهم الكثيرة الخالصة المتظاهرة ، وأذل الخدم على بابه ملوك الدنيا وجبارتها يخرون له على الأذقان ساجدين صاغرين ويعفرون الوجوه فى التراب خاضعين ، ويرفعون حوائجهم إليه باكين باهلين ضارعين ويعترفون له بالعبودية ولأنفسهم بالنقص ساجدين صاغرين حتى ربما ينظر إليهم نظرة ويقضى لهم بفضله حاجة أو يتجاوز عنهم بكرمه زلة ، وأنه مع هذه العظمة والجلال والملك والكمال قد أذن لك فى حقارتك وعيوبك وقذارتك ، وأنت الذى لو استأذنت على رأس بلدك فربما لا يأذن لك وإن كلمت أمير ناحيتك فربما لا يكلمك ، وإن سجدت لسلطان بلدك بالأرض فربما لا يلتفت إليك ، وقد أذن لك جل جلاله حتى تعبده وتثنى عليه وتخاطبه بل تدلى عليه بالمسألة وتباسطه فتستقضيه حاجاتك وتستكفيه مهماتك ، ثم إنه يرضى ركعتيك فى معايبهما بل يعدّ لك عليهما من الثواب ما لا يخطر بقلب بشر وأنت مع ذلك تعجب بهاتين الركعتين وتستكثر ذلك وتستعظمه ولا ترى منة الله عليك فى ذلك فما أسوأك من عبد وما أجهلك من إنسان . والله تعالى المستعان وإليه المشتكى من هذه النفس الجاهلة وعليه التكلان فهذه هذه .

(فصل) وعلى وجه آخر إن الملك العظيم إذا أذن فى إدخال الهدايا إليه فتدخل بحضرته الأمراء والكبراء والرؤساء والنبلاء والأغنياء بأنواع الهدايا من الجواهر الثمينة والذخائر النفيسة والأموال الجليلة فان جاء بقال بباقة بقل أو قروى بسلة عنب تساوى دانقا أو حبة فيدخل فى حضرته ويزاحم أولئك الأكابر والأغنياء بهداياهم الكثيرة الشريفة وهذا الملك يقبل من هذا الفقير هديته وينظر إليه بنظر القبول والرضا ويأمر له بأنفس خلعة وكرامة ألا يكون ذلك منه غاية الفضل والكرم ، فان أخذ هذا الفقير يمن بذلك على الملك ويعجب به ويستعظمه وينسى ذكر منة الملك ، ألا يقال إن هذا مجنون مضطرب العقل أو سفيه سيىء الأدب عظيم الجهل فالآن يجب أنك إذا قمت لله ليلة وصليت له ركعتين فاذا فرغت فتفكر كم قام لله سبحانه فى هذه الليلة من الخدم فى أقطار الأرض برها وبحرها وجبالها وبلادها من أصناف المستقيمين والصديقين

Digitized by Birzeit University Library

والخائفين والمشتاقين والمجتهدين والمتضرعين ، وكم حضرت فى هذه الساعة بباب الله سبحانه من عبادة صافية وخدمة خالصة عن أنفس خاشعة وألسن طاهرة وعيون باكية وقلوب عامرة وصدور نقية وأركان تقية ، وصلواتك إن كنت بذلت المجهود فى تحسينها وإحكامها وإخلاصها فلا تكاد تصلح لحضرة هذا الملك العظيم ولا تتبين فى جنب تلك العبادات التى تعرض هناك ، كيف وقد كانت منك عن قلب غافل مختلط بأنواع العيوب وبدن نجس بأقذار الذنوب ولسان متلطخ بأنواع المعصية والفضول ، فكيف يصلح هذا أن يحمل إلى تلك الحضرة وكيف يستأهل أن يهدى إلى رب العزة ؟ قال شيخنا رحمه الله : أنظر أيها العاقل هل وجهت قط صلاة من صلواتك إلى السماء كائدة بعثتها إلى بيوت الأغنياء ، وكان أبو بكر الوراق يقول : ما فرغت من صلاة إلا استحييت منها حين فرغت منها أشد حياء من امرأة فرغت من الزنا . ثم إن الرب الكريم سبحانه بمحض كرمه وفضله عظم قدر هاتين الركعتين ووعد عليهما من جزيل الثواب ما وعد ، وأنت عبده وفى حراسته وعملت ما عملت بتوفيقه وتيسيره ، ثم مع ذلك كله تعجب بذلك وتنسى منة الله عليك ، هذا والله أعجب العجب لا يكاد يصدر مثله إلا عن جاهل لا فكرة له وغافل لا ذهن له أو قلب ميت خاو لا خير فيه . فهذه هذه نسأل الله حسن الكفاية بمنه وفضله .

(فصل) ثم أقول بعد هذه الجملة تيقظ من رقدتك أيها الرجل فى هذه العقبة وإلا كنت من الخاسرين فان هذه العقبة أشد وأشق وأمر وأضر عقبة استقبلتك فى هذه الطريق ، إذ إليها تنتهى ثمرة كل ما مضى من العقبات فان سلمت غنمت وربحت وإن كانت الأخرى فقد ضاع السعى كله وخاب الأمل وبطل العمر ، ثم الشأن كله أنه قد اجتمع فى هذه العقبة ههنا ثلاثة أمور : الأول منها أن الأمر دقيق جدا والغبن شديد والخطر عظيم — أما دقة الأمر فان مجارى الرياء والعجب فى الأعمال دقيقة خفية بالغاية فلا يكاد يتنبه لذلك إلا كل محرر فى أمر الدين بصير يقظان القلب متحرز ، وأنى يطلع عليه الجاهل اللعوب والغافل النئوم . ولقد سمعت بعض علمائنا رحمهم الله بنيسابور يحكى أن عطاء السلمى رحمة الله عليه ورضوانه نسج ثوبا فأحكمه وحسنه جدا ، ثم حمله إلى السوق فعرضه فاسترخصه البزاز فقال إن فيه عيوبا كيت وكيت : فأخذه عطاء وجلس يبكى بكاء شديدا فندم الرجل على ذلك وجعل يعتذر إليه ويبذل له فى

Digitized by Birzeit University Library

ثمنه ماريد فقال له عطاء : ليس ذلك كما تظن إنما أنا عامل فى هذه الصناعة وقد اجتهدت فى إحكام هذا الثوب وإصلاحه وتحسينه حتى لا يوجد به عيب فلما عرض على البصير بعيوبه أظهر فيه عيوبا كنت عنها غافلا فكيف أعمالنا هذه إذا عرضت غدا على الله كم يبدو فيها من العيوب والنقصان الذى نحن اليوم عنها غافلون . وعن بعض الصالحين قال : كنت ليلة فى وقت السحر فى غرفة لدى شارعة أقرأ سورة طه فلما أن ختمتها غفوت غفوة فرأيت شخصا نزل من السماء بيده صحيفة فنشرها بين يدى فاذا فيها سورة طه وإذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة إلا كلمة واحدة فانى رأيت مكانها محوا ولم أرتحتها شيئا فقلت : والله لقد قرأت هذه الكلمة ولا أري لها ثوابا ولا أراها أثبتت ، فقال الشخص صدقت : قد قرأتها وكتبناها إلا أنا سمعنا مناديا ينادى من قبل العرش امحوها وأسقطوا ثوابها فمحوناها ، قال فبكيت فى منامى وقلت لم فعلتم ذلك ؟ قال مر رجل فرفعت بها صوتك لأجله فذهب ثوابها فهذه هذه .

وأما شدة الغبن — فلأن الرياء والعجب آفة عظيمة تقع فى لحظة فربما تفسد عليك عبادة سبعين سنة ، وحكي أن رجلا أضاف سفيان الثورى رحمه الله وأصحابه فقال لأهله : هاتوا الطبق لا الذى أتيت به فى الحجة الأولى بل الذى أتيت به فى الحجة الثانية فنظر إليه سفيان وقال مسكين : قد أفسد عليه بهذا حجتيه ، ووجه آخر فى الغبن أن أقل طاعة سلمت عن هذا الرياء والعجب يكون لها من الله عز وجل من القيمة مالا نهاية له ، وأكثر طاعة إذا أصابتها هذه الآفة بقيت لاقيمة لها إلا أن يتداركها الله تعالى على ما روى عن على رضى الله عنه أنه قال : لايقلّ عمل مقبول ألبتة وكيف يقلّ عمل مقبول ؟ وسئل النخعى عن عمل كذا وكذا ماثوابه ، قال إذا قبل لايحصى ثوابه : وعن وهب قال كان فيمن كان قبلكم رجل عبد الله سبعين عاما صائما يفطر من سبت إلي سبت فطلب إلى الله حاجة فلم تقض له ، فأقبل على نفسه يلومها وقال من قبلك أتيت لو كان عندك خير لقضيت حاجتك فأنزل الله تعالى ملكا فقال يا ابن آدم : ساعتك التى ازدريت (١) فيها نفسك خير من عبادتك التى مضت .

---

(١) لايرضى العارفون عن أنفسهم بل إنهم ليبغضونها فى الله تعالى بل إن تحريرهم من لايذكرها ويعدها من الأغيار ورضى الله عن ابن عطاء إذ يقول فى حكمه : « أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم =

Digitized by Birzeit University Library

قلت : فلينظر العاقل إلى هذا الكلام أليس من الغبن أن واحدا يكدح ويتعب سبعين سنة وآخر يتفكر ساعة واحدة فتكون فكرة ساعة أفضل عند الله من عبادة سبعين سنة أليس هذا من الغبن العظيم ، إنك متمكن من ساعة خير من سبعين سنة وتترك ذلك من غير حاجة بلى والله إنه لأعظم الغبن وإن إغفاله لأشد خسرانا وإن الخصلة التى لها هذه القيمة والخطر يجب أن تحذر وتجتنب ، ولمثل هذه المعنى إنما وقع نظر أولى الأبصار من العبّاد فى مثل هذه الدقائق فاهتموا لمثل هذه الأسرار بمعرفتها أوّلا ، ثم رعايتها والتحفظ عنها ثانيا ، ولم تغنهم كثرة الأعمال بالظاهر وقالوا : الشأن فى الصفوة لا فى الكثرة ، وقالوا : جوهرة واحدة خير من ألف خرزة ، وأما الذين قلّ عملهم وكلّ فى هذا الباب نظرهم فجهلوا المعانى وأغفلوا ما فى القلوب من عيوب واشتغلوا باتعاب النفوس فى الركوع والسجود والامساك عن الطعام والشراب ونحوه ، فغرهم العدد والكثرة ولم ينظروا ما فيها من المنح والصفوة ، وما يغنى عدد الجوز ولا لبّ فيه وما ينفع رفع السقوف ولم تحكم مبانيها وما يعقل هذه الحقائق إلا العالمون بالله المكاشفون والله تعالى ولى الهداية بفضله .

وأما عظم الخطر — فمن وجوه : أحدها أن المعبود ملك لانهاية لجلاله وعظمته وله عليك نعم لا تعدّ ولا تحصى ولك بدن معيب بعيوب خفية مؤف بآفات كثيرة ، وأمر مخوف إن وقع لك زال مع تسارع النفس إليه فتحتاج أن تستخرج عملا صافيا سالما من بدن معيب ونفس ميالة إلى الشر أمارة بالسوء ، على وجه يصلح لرب العالمين فى جلاله وعظمته وكثرة أياديه ومنته ويقع منه موقع الرضا والقبول وإلا فيفوتك الربح العظيم الذي لاتسمح النفس بفوته بل ربما يصيبك فيه مصيبة لاطاقة لك بها ، وهذا والله شأن عظيم وخطب جسيم — وأما جلال الملك وعظمته بحيث إن الملائكة المقربين الأبرار قائمون له بالخدمة آناء الليل والنهار حتى إن منهم من هو منذ خلقه الله تعالى فى قيام ، ومنهم من هو فى ركوع ومنهم من هو فى سجود ومنهم من هو فى تسبيح وتهليل ، فلا يتم القائم قيامه ولا الراكع ركوعه ولا الساجد سجوده ولا المسبح

= الرضا منك عنها ولأن تصحب جاهلا لايرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه » وإنما كان الرضا عن النفس أصل كل معصية لأنها أمارة بالسوء فهي العدو الملازم .

Digitized by Birzeit University Library

تسبيحه ولا المهال تهليله مادّا به صوته إلى نفخ الصور ، ثم لما فرغوا من هذه الخدمة العظيمة نادوا بأجمعهم سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، وهذا سيد المرسلين وخير العالمين أعلم الخلق وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين يقول : لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، يقول : أنا لا أقدر أن أثنى عليك ثناء أنت له أهل فضلا عن أن أعبدك كما أنت له أهل ، وهو الذى يقول : ليس أحد يدخل الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته — وأما النعم والأيادى فكما قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وعلى ماروى أنه يحشر الناس على ثلاثة دواوين : ديوان الحسنات وديوان السيئات وديوان النعم ، فتقابل الحسنات بالنعم فلا يؤتى بحسنة إلا أتى بنعمة حتى تغمر الحسنات النعم وتبقى السيئات والذنوب فالله تعالى فيها المشيئة — وأما عيوب النفس وآفاتها فقد قدمناها فى بابها ، والأمر المخوف أن العبد يكدح فى العبادة ويدأب سبعين سنة غافلا عن عيوبه وآفاته فربما لا يكون واحد منها مقبولا وربما يتعب أعواما فتفسده ساعة واحدة ، وأعظم خطرا من ذلك كله أنه ربما ينظر الله تعالى إلى العبد وهو يرائى الناس بعبادته وخدمته حيث جعل ظاهره لله وباطنه للخلق فيطرده طرداً لامردّ له والعياذ بالله .

ولقد سمعت بعض العلماء يحكي عن الحسن البصري رحمه الله أنه رؤى فى المنام بعد موته فسئل عن حاله فقال : أقامنى الله بين يديه وقال ياحسن : أتذكر يوم كنت تصلى فى المسجد إذ رمقك الناس بأبصارهم فزدت حسنا لصلاتك ؟ فلولا أن أوّل صلاتك كان لى خالصا لطردتك اليوم عن بابى ولقطعتك عنى مرة واحدة ، ولما كان الأمر فى الجملة من الدقة والصعوبة إلى حد عظيم نظر أولو الأبصار فيه فخافوا على أنفسهم حتى إن منهم من لايلتفت إلى جميع مايظهر للناس من أعماله ، حتى حكى عن رابعة (١) أنها

---

(١) أول متكلمة فى حب الله وكانت رضى الله عنها كثيرة البكاء والحزن وكانت إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زمانا وكانت تقول : استغفارنا يحتاج إلى استغفار ، وكانت تردّ ماأعطاه الناس لها وتقول: مالى حاجة بالدنيا ، وكانت بعد أن بلغت ثمانين سنة كأنها شن بال تكاد تسقط إذا مشت وكان كفنها لم يزل موضوعا أمامها وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من كثرة دموعها .

Digitized by Birzeit University Library

قالت : ماظهر لى من أعمالى لا أعده شيئا ، وقال آخر : اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك وآخر يقول : إن أمكنك أن تجعل لك خبأ من الخير فافعل ، ولقد حكى أنه قيل لرابعة بم ترتجين أكثر ما ترتجين ؟ قالت ببأسى من جلّ عملى : وحكى أنه اجتمع محمد ابن واسع ومالك بن دينار فقال مالك : إما طاعة الله أو النار، فقال محمد بن واسع : إما رحمة الله أو النار، فقال مالك : ما أحوجنى إلى معلم مثلك . وعن أبى يزيد البسطامى رحمه الله قال : كابدت العبادة ثلاثين سنة فرأيت قائلا يقول لى : يا أبا يزيد (١) خزائنه مملوءة من العبادة فان أردت الوصول إليه فعليك بالذلة والافتقار ، وسمعت الأستاذ أبا الحسن يحكى عن الأستاذ أبى الفضل رحمها الله أنه كان يقول : إنى أعلم أن ما أعمله من الطاعات غير مقبول عند الله تعالى ، فقيل له فى ذلك فأجاب إنى أعلم مايحتاج إليه الفعل حتى يكون مقبولا وأعلم أنى لست أقوم بذلك فعلمت أنها غير مقبولة ، قيل له فلم تفعلها ؟ قال عسى أن يصلحنى الله تعالى يوما فتكون النفس متعودة لعمل الخير فلا أحتاج إلى أن أعوّدها ذلك من الرأس — فهذه حال هؤلاء الأعلام وذوى المجاهدات والأخطار والاقدام فكنت أنت كما قال الشاعر :

---

(١) أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى المتوفى سنة إحدى وستين ومائتين ومن كلامه رضى الله عنه — مددت ليلة رجلى فى المحراب فقال الهاتف : مجالسة الملوك بالأدب وكان يقول : عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشق من متابعة العلم، وكان يقول : عرفت الله بالله وعرفت مادون الله بنورالله وسئل رضى الله عن السنة والفريضة فقال : السنة ترك الدنيا بأسرها والفريضة الصحبة مع الله وكان يقول: رأيت رب العزة فى النوم فقلت يارب كيف أجدك ؟ فقال فارق نفسك وتعال: وكتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد إننى سكرت من كثرة ماشربت من كأس محبته فكتب إليه أبو يزيد رضى الله عنه غيرك شرب من بحور السموات والأرض وما روى بعد ولسانه خارج يقول هل من مزيد: ودخل على أبى يزيد عالم بلده فقال يا أبا يزيد : علمك هذا عمن ؟ وممن ؟ ومن أين ؟ فقال أبو يزيد : علمى من عطاء الله وعن الله ومن حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من عمل بما يعلم ورثه الله علم مالم يعلم، وجملة القول أنه رضى الله عنه كان من أركان طريق القوم ومثلا أعلى فى المجاهدات والأحوال نفعنا الله به .

Digitized by Birzeit University Library

فاطلب لنفسك صحبة مع غيرهم وقع الاياس وخابت الآمال
هيهات تدرك بالتوانى سادة كدوا النفوس وساعد الاقبال

ثم رأيت أنى أثبت ههنا الخبر المأثور عن الصادق المصدوق صلوات الله عليه وعلى آله وسلامة وقد ذكرناه فى غير كتاب واحد — روي[1] عن ابن المبارك رحمه الله عن رجل وهو خالد بن معدان أنه قال لمعاذ : حدثنى حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظته وذكرته فى كل يوم من شدته ودقته ؟ قال نعم : ثم بكي بكاء طويلا ثم قال : واشوقاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى لقائه ، ثم قال : بينا أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ركب وأردفنى خلفه ثم سرنا فرفع بصره إلى السماء ثم قال : الحمد لله الذى يقضى فى خلقه مايشاء ، يامعاذ . قلت لبيك يا سيد المرسلين : قال أحدثك بحديث إن أنت حفظته نفعك وإن ضيعته انقطعت حجتك عند الله عز وجل ، يا معاذ إن الله تبارك وتعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض لكل سماء ملكا بوابا خازنا ، وجعل على كل باب من أبواب السموات ملكا بوابا على قدر الباب وجلالته ، فتصعد الحفظة بعمل العبد وله نور وشعاع كالشمس حتى إذا بلغ السماء الدنيا والحفظة تستكثر عمله وتزكيه فاذا انتهى إلى الباب قال الملك للحفظة : اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرنى ربى أن لاأدع عمل من يغتاب الناس يتجاوزنى إلى غيرى ، ثم تصعد الحفظة من الغد معهم عمل صالح له نور تستكثره الحفظة وتزكيه حتى إذا انتهوا به إلى السماء الثانية قال الملك : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه فانه أراد به عرض الدنيا أمرنى ربى أن لاأدع عمله يتجاوزنى إلى غيرى فتلعنه الملائكة حتى يمسى ، وتصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجا به فيه صدقة وصيام وكثير من البر فتستكثره الحفظة وتزكيه فاذا انتهوا به إلى السماء الثالثة قال الملك البواب : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك صاحب الكبر أمرنى ربى

(١) حديث معاذ الطويل قال العراقى : عزاه المصنف إلى رواية عبد الله بن المبارك باسناده عن رجل عن معاذ وهو كما قال رواه فى الزهد وفى إسناده كما ذكر من لم يسم ، ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات وعلامة كلامه صلى الله عليه وسلم الحقيق عدم الاسهاب والتطويل والتقسيم والتفصيل فلقد أوتى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم واختصر له الحديث اختصارا فزن كلامه صلى الله عليه وسلم بهذا الميزان .

Digitized by Birzeit University Library

أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم ، وتصعد الحفظة بعمل العبد وهو يزهو كما تزهو النجوم والكوكب الدري ، له دوي وتسبيح بصوم وصلاة وحج وعمرة فاذا انتهوا إلي السماء الرابعة قال الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك صاحب الاعجاب أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري ، إنه كان إذا عمل عملا أدخل العجب فيه ، وتصعد الحفظة بعمل العبد يزف كما تزف العروس إلي أهلها حتى إذا انتهوا إلى السماء الخامسة بذلك العمل الحسن من جهاد وحج وعمرة له ضوء كضوء الشمس فيقول الملك : أنا ملك صاحب الحسد إنه كان يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد سخط ما أرضى الله ، أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري ، وتصعد الحفظة بعمل العبد بوضوء تام وصلاة كثيرة وصيام وحج وعمرة حتى يتجاوزوا به إلى السماء السادسة فيقول الملك الموكل بالباب : أنا صاحب الرحمة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لم يرحم قط إنسانا وإن أصيب عبد شمت به أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري ، وتصعد الحفظة بعمل العبد بنفقة كثيرة وصوم وصلاة وجهاد وورع له صوت كصوت الرعد وضوء كضوء البرق فاذا انتهوا به إلى السماء السابعة يقول الملك الموكل بالسماء : أنا صاحب الذكر يعني السمعة والصيت في الناس إن صاحب هذا العمل أراد به الذكر في المجالس والرفعة عند القرناء والجاه عند الكبراء أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري وكل عمل لم يكن لله تعالى خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عز وجل عمل المرائي ، وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر الله تعالى وتشيعه ملائكة السموات السبع حتى تقطع الحجب كلها إلى الله سبحانه فيقفون بين يدي الرب جل جلاله ويشهدون له بالعمل الصالح الخلص لله تعالى فيقول الله تعالى : أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على ما في نفسه إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري ولا أخلصه لي وأنا أعلم بما أراد من عمله ، عليه لعنتي غر الآدميين وغركم ولم يغرني وأنا علام الغيوب المطلع على ما في القلوب لا تخفى علي خافية ولا تعزب عني عازبة علمي بما كان كعلمي بما يكون وعلمي بما مضى كعلمي بما بقي وعلمي بالأولين كعلمي بالآخرين أعلم السر وأخفى فكيف يغرني عبدي بعمله إنما يغر المخلوقين الذين لا يعلمون وأنا علام الغيوب ، عليه لعنتي وتقول الملائكة السبعة

Digitized by Birzeit University Library

والثلاثة الآلاف المشيعون يا ربنا عليه لعنتك ولعنتنا ، فتقول أهل السموات عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين — ثم بكى معاذ رحمه الله وانتحب انتحابا شديداً وقال يا رسول الله كيف النجاة مما ذكرت ؟ قال يامعاذ : اقتد بنبيك فى اليقين ، قلت : أنت رسول الله وأنا معاذ بن جبل كيف لى النجاة والخلاص ؟ قال نعم يامعاذ : إن كان فى عملك تقصير فاقطع لسانك عن الوقيعة فى الناس وعن إخوانك من حملة القرآن خاصة ، وليردّك عن الوقيعة فى الناس ماتعلمه من عيب نفسك ولا تزك نفسك بذم إخوانك ولا ترفع نفسك بوضع إخوانك ولا تراء بعملك كي تعرف فى الناس ، ولا تدخل فى الدنيا دخولا ينسيك أمر الآخرة ولا تناج رجلا وعندك آخر ، ولا تتعظم على الناس فتنقطع عنك خيرات الدنيا والآخرة ، ولا تفحش فى مجلسك حتى يحذروك من سوء خلقك ولا تمنّ على الناس ولا تمزق الناس بلسانك فتمزقك كلاب جهنم وهو قوله تعالى : « والناشطات نشطا » — يقول تنزع اللحم عن العظام ، قلت يارسول الله ومن يطيق هذه الخصال ؟ قال يامعاذ : إن الذي وصفت لك ليسير على من يسره الله تعالى عليه إنما يكفيك من ذلك أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك فاذن أنت قد سلمت ونجوت . قال خالد بن معدان : وكان معاذ لايكثر من تلاوة القرآن كما يكثر من تلاوة هذا الحديث وذكره فى مجلسه — فلما سمعت أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل بهذا الحديث العظيم نبؤه الكبير خطره الأليم أثره الذى تطير له القلوب ، وتحير له العقول وتضيق عن حمله الصدور وتجزع لهوله النفوس فاعتصم بمولاك آله العالمين والزم الباب بالتضرع والابتهال والبكاء آناء الليل وأطراف النهار مع المتضرعين المبتهلين فانه لانجاة من هذا الأمر إلا برحمته ولا سلامة من هذا البحر إلا بنظره وتوفيقه وعنايته فتنبه من رقدة الغافلين واعط الأمر حقه وجاهد نفسك فى هذه العقبة المخوفة لعلك لا تهلك مع الهالكين والمستعان بالله على كل حال فانه خير معين وهو تعالى أرحم الراحمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(فصل) وجملة الأمرين أنك إذا أحسنت النظر فرأيت قدر طاعة الله تعالى ورأيت عجز الخلق وضعفهم وجهلهم ، فلا تلتفت إليهم بقلبك وكن زاهدا فى ثنائهم ومدحهم وتعظيمهم الذى لافائدة تحته فلا ترد بطاعتك شيئا من ذلك وإذا رأيت خسة الدنيا (١)

(١) أخرج البيهقى عن أبى موسى مرفوعا « إن الله تعالى لم يخلق خلقا هو أبغض =

Digitized by Birzeit University Library

وحقارتها وسرعة زوالها فلا تردها أيضا بطاعتك من الله وقل يانفس : ثناء رب العالمين وشكره خير من ثناء المخلوقين العاجزين الجاهلين الذين لا يعرفون قدر عملك بالحقيقة وما تحملت فيه ، وما يبلغون حقك فيما عملت وتحملت بل ربما يفضلون عليك من هو أدون منك حالا بألف درجة ، ويضيعونك فى أحوج الأوقات وينسونك وإن لم يفعلوا ذلك فماذا عسى أن يكون بأيديهم وإلى ماذا تبلغ قدرتهم ثم هم فى قبضة الله تعالى يصرفهم كيف يشاء وإلى مايشاء ، فاعقلى أيتها النفس فلا تضيعى طاعتك العزيزة بهم ولا يفوتك ثناء من ثناؤه كل فخر وعطاء من عطاؤه كل ذخر ولقد صدق القائل :

سهر العيون لغير وجهك باطل وبكاؤهن لغير فقدك ضائع

وقل يانفس : أجنة الخلد خير أم لطخة من حرام الدنيا (١) وحطامها النكد الفانى ، وأنت متمكنة من أن يحصل لك بطاعتك هذا النعيم المقيم فلا تكونى خسيسة الهمة رديئة الادارة دنيئة الأفعال أما ترين الحمام إذا كان سماويا كيف تعلو قيمته ويزداد قدره فارفعى همتك كلها إلى السماء وجردى قلبك لله تعالى الواحد الذى بيده الأمر كله ولا تضيعى

= إليه من الدنيا منذ خلقها لم ينظر إليها » وذلك لأن أبغض الخلق إلى الله من آذى أولياءه وشغل أحبابه وصرف وجوه عباده عنه وحال بينهم وبين السير إليه والاقبال عليه والدنيا مبغوضة لأوليائه لخدعها وغرورها فهي فتنة ومحنة .

(١) حرام الدنيا ما أجمع على حرمته بعينه أو جنسه أو على أن فيه عقوبة أو وعيد إثم التحريم إما لمفسدة أو مضرة واضحة كالسم والخمر ، وحطام الدنيا ما فيها قليل أو كثير ولما كان حطامها سببا للنكد والهموم زهد الشارع فيها - وفى المشكاة عن سفيان الثورى قال : ليس الزهد فى الدنيا بلبس الغليظ والخشن وأكل العشب وإنما الزهد فى الدنيا قصر الأمل والاستعداد للأجل بالمسارعة إلى التوبة والعلم والعمل وحاصله أن الزهد الحقيقى حالة قلبية من عزوف النفس عن الدنيا وميلها إلى العقبى فلا معول على المتاع الجسمى من التمتع بالطيبات وإن كان التقشف فى الملبس والتقلل من كمية الأكل وكيفيته له تأثير بليغ فى استقامة العبد على الطريقة فالمهلك هو حب الدنيا بالقلب لا وجودها على القالب وشبه القلب بالسفينة وسط الماء إن دخل الماء جوفها أغرقها وإن كثر من حولها سيرها ولقد أخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى سعيد مرفوعا « ليس البر فى حسن اللسان والزى ولكن البر السكينة والوقار » .

Digitized by Birzeit University Library

ما ظفرت به من طاعتك بلا شيء ، وكذلك إذا أحسنت التأمل فرأيت أيادى الله تعالى ومننه العظام عليك فى هذه الطاعة بأن أمكنك منها وأعطاك الآلة أولا ، ثم أزاح عنك العوائق حتى تفرغت لهذه الطاعة ثانيا ، ثم خصك بالتوفيق والتأييد ويسرها عليك وزينها فى قلبك حتى عملتها ثالثا ، ثم مع جلاله وعظمته واستغنائه عنك وعن طاعتك وكثرة نعمته عليك أعدّ لك على هذا العمل اليسير الثناء الجزيل والثواب العظيم الذى لا تستحقينه رابعا ، ثم شكرك على ذلك وأثنى عليك على هذا العمل اليسير الثناء الجزيل وأحبك بذلك خامسا ، فهذه كلها بفضله العظيم لاغير وإلا فبأى استحقاق لك وأى قدر لعملك الحقير المعيب ، فاذكرى أيتها النفس منة ربك الكريم الرحيم سبحانه فيما أحسن إليك فى هذه الطاعة (١) واستحيي من أن تلتفتى إلى عمل بل الفضل والمنة لله تعالي علينا بكل حال ولا يكون لك شغل بعد حصول هذه الطاعة إلا التضرع والابتهال إلى الله سبحانه بأن يتقبلها أما تسمعين قول خليله إبراهيم عليه السلام لما فرغ من خدمته فى بناء بيته كيف ابتهل إلى الله فى أن يتفضل عليه بالقبول فقال : « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » ولما فرغ من دعائه قال : « ربنا وتقبل دعاء » فائن من عليك بقبول هذه البضاعة المزجاة فلقد أكمل النعمة وأعظم المنة فيالها من سعادة ودولة وعز ورفعة وكم تزين إذ ذاك لك من خلعة ونعمة وذخر وكرامة ، وإن تكن الأخرى فيالله من خسران وغبن وحرمان فاهتمي واشتغلى بهذا الشأن فاذا واظبت على مثل ذلك وكررته على قلبك عند الفراغ من طاعتك واستعنت بالله عز وجل ، صرفك عن الالتفات إلى الخلق والنفس وشغلك عن مراءاة وإعجاب وبعثك على محض الاخلاص لله تعالى فى الطاعات والتمسك بذكر منة الله تعالى عليك فى جميع الحالات ، ويحصل لك أرجى طاعات طاهرة لاعيب فيها وخيرات خالصة لاشوب فيها وعبادات مقبولة لانقص فيها بل مثل هذه الطاعة إن حصلت فى العمر مثلا مرة واحدة لاغير فانها بالحقيقة لكثيرة ولعمرى إنها وإن قل عددها لقد

---

(١) وما أحسن قول ابن عطاء الله فى هذا المقام : « لاتفرحك الطاعة لأنها برزت منك وافرح بها لأنها برزت من الله إليك — قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » أى لايكون فرحك بالطاعة لأجل كونها برزت منك فانك إذا فرحت بها من هذه الحيثية أورثتك العجب المحبط لها لأنك شاهدت أنها بحولك وقوتك وإنما يكون فرحك بها لتفضل الله عليك بها قال الله تعالى: « والله خلقكم وما تعملون »

Digitized by Birzeit University Library

كثر معناها وعظم قدرها وكثر نفعها وطابت عقباها ، وإن التوفيق لمثلها لعزيز والفضل به لله تعالى على العبد لكثير ، فأى هدية أجل من هدية يقبلها رب العالمين وأى سعى أكرم من سعى يشكره مجيب المضطرين ويثنى عليه رب العالمين وأى بضاعة أعز من بضاعة اختارها ورضيها رب العالمين — فتأمل أيها المسكين وإياك أن تكون من المغبونين وإذا جرى الأمر على هذه الجملة كنت من المخلصين لله سبحانه الحائفين الذاكرين لمنته المرضيين وكنت قد خلفت هذه العقبة المخوفة وراءك وسلمت من آفاتها وسبقت بخيراتها وثمراتها فائزا على الأبد بكراماتها وسعادتها والله سبحانه ولى التوفيق والعصمة بمنه وكرمه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(الباب السابع فى العقبة السابعة وهى عقبة الحمد والشكر)

ثم عليك وفقك الله وإيانا بحسن توفيقه بعد قطع هذه العقبات والظفر بالمقصود من هذه العبادة السالمة من الآفات بالحمد والشكر لله سبحانه على هذه النعمة العظيمة والمنة الكريمة وإنما يلزمك ذلك لأمرين : أحدهما لدوام النعمة العظيمة ، والثانى لحصول الزيادة — فأما دوام النعمة فلأن الشكر قيد النعم به تدوم وتبقى وبتركه تزول وتحول قال الله سبحانه : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقال عز من قائل : « فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » وقال سبحانه : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن للنعم أوابد كأوابد الوحش فقيدوها بالشكر — وأما حصول الزيادة فلما كان الشكر (١) هو قيد النعمة فهو يثمر الزيادة وقال الله سبحانه : « لئن شكرتم لأزيدنكم »

---

(١) الشكر فى اصطلاح القوم ما بينه فى القشيرية بقوله : الشكر إما باللسان وهو اعتراف بالنعمة وإما بالبدن والأركان وهو الاتصاف بالوفاق والخدمة ، وإما بالقلب وهو الاعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة — وأما الشكر العرفى فهو صرف العبد ما أنعم الله عليه إلى ما خلق له ومن هنا تفهم سر قوله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله رأس الشكر » لأن الشكر لما كان باللسان والجنان والأركان وكان اللسان أشيع وأدل وفيه إظهار النعمة كان رأسا يدل لذلك ما أخرجه ابن السماك فى فوائده وأبو بكر فى الغيلانيات وابن عساكر والضياء المقدسى فى المختارة عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم =

Digitized by Birzeit University Library

« والذين اهتدوا زادهم هدى » — « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فالسيد الحكيم إذا رأى العبد قد قام بحق نعمة يمن عليه بأخرى ويراه أهلا لها وإلا فيقطع ذلك عنه ، ثم النعم قسمان : دنيوية ودينية — فالدنيوية ضربان : نعمة نفع ونعمة دفع . فنعمة النفع أن أعطاك المصالح والمنافع ، فالمنافع ضربان : الخلقة السوية فى سلامتها وعافيتها ، والملاذ الشهية من المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها من فوائدها — ونعمة الدفع أن صرف عنك المفاسد والمضار وهى ضربان: أحدهما فى النفس بأن سلمك من زمانتها وسائر آفاتها وعللها ، والثانى دفع مايلحقك به ضرر من أنواع العوائق أو يقصدك به بشر من إنس أو جن وسباع وهوام أو نحوها .

وأما النعم الدينية فضربان : نعمة التوفيق ونعمة العصمة . فنعمة التوفيق أن وفقك الله أولا للاسلام ثم للسنة ثم للطاعة ، ونعمة العصمة أن عصمك أولا عن الكفر والشرك ثم عن البدعة والضلالة ثم عن سائر المعاصى وتفصيل ذلك لا يحصيه إلا السيد العالم الذى أنعم عليك كما قال جل وعلا : « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها » وإن دوام هذه النعم كلها بعد أن من عليك بها والزيادة عليها من كل باب منها ، مما لايحصيه ولا يبلغه وهمك وكلها تتعلق بشىء واحد وهو الشكر والحمد لله وإن خصلة تكون لها هذه القيمة وتكون فيها كل هذه الفائدة لحقيق بأن يتمسك بها من غير إغفال بحال فانه جوهر ثمين وكيمياء عزيزة والله ولى التوفيق بفضله ورحمته .

فان قيل : فما حقيقة الحمد والشكر وما معناهما وحكمهما ؟

فاعلم أن العلماء فرقوا بين الحمد والشكر عند التحصيل — بأن الحمد من أشكال التسبيح

= قال : « إن الله ليدخل العبد الجنة بالأكلة أو الشربة يحمد الله عليها » ورواه مسلم بلفظ « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب شربة فيحمده عليها » وإنما أتى ببناء المرة إشعاراً بأن الأكل أو الشرب وإن كان قليلا يستحق الشكر عليه ومما يدل أيضا على أن الحمد رأس الشكر ماأخرجه الحاكم والبيهقى « ما أنعم الله تعالى على عبد من نعمة فقال الحمد لله إلا أدى شكرها فان قالها الثانية جدد له ثوابها فان قالها الثالثة غفر الله له ذنوبه » وهذا بالطبع فيمن حمد مشاهدا للنعمة واصلة إليه من الله مع كمال الأدب والاخلاص أما من حمد مع ترك الأدب واستيلاء الغفلة فانه أجنبي من هذا المقام بل إن حمده حمد السكارى .

Digitized by Birzeit University Library

والتهليل فيكون من المساعى الظاهرة ، والشكر من أشكال الصبر والتفويض فيكون من المساعى الباطنة لأن الشكر يقابل الكفر والحمد يقابل اللوم ولأن الحمد أعم وأكثر والشكر أقل وأخص قال الله تعالى: « وقليل من عبادى الشكور » فثبت أنهما معنيان متميزان . ثم الحمد هو الثناء على أحد بالفعل الحسن ، هذا مقتضى كلام شيخنا رحمه الله وأما الشكر فتكلموا فى معناه وأكثروا فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلائق فى السر والعلانية ، وإلى نحوه ذهب بعض مشايخنا فقال : الشكر هو أداء الطاعات فى الظاهر والباطن ثم رجع إلى أنه اجتناب المعاصى ظاهرا وباطنا ، وقال غيره : الشكر الاحتراس عن اختيار معاصى الله تحترس على قلبك ولسانك وأركانك حتى لا تعصى الله عز وجل بشىء من هذه الثلاثة بوجه من الوجوه — والفرق بين قوله وبين قول الشيخ الأول أنه رحمه الله تعالى جعل الاحتراس معنى مثبتا زائدا على الاجتناب عن المعاصى ، وأما الاجتناب عن المعصية ماهو إلا أن لا يفعل المعصية عند دواعيها ولا يكون فى نفسه معنى محصلا يكون العبد به مشتغلا وعن الكفران معتصما ، وقال شيخنا رحمه الله تعالى : إن الشكر تعظيم المنعم على مقابلة نعمته على حد يمنعه عن جفاء المنعم وكفرانه ، ولو قلت : تعظيم المحسن على مقابلة إحسانه لصح أن يكون من الله الشكر للعبد فحسن ، وفيه تفاصيل قد شرحناها فى كتاب إحياء علوم الدين وغيره ولكن التحصيل أن الشكر من العبد تعظيم يمنع من جفاء من أحسن إليه وذلك بتذكر إحسانه وحسن حال الشاكر فى شكره وقبيح حال الكافر فى كفرانه — قلت : إن أقل ما يستوجبه المنعم بنعمته أن لا يتوصل بها إلى معصية ، وما أقبح حال من جعل نعمة المنعم سلاحا على عصيانه فعلى العبد إذن من فرض الشكر فى حقيقته أن يكون له من تعظيم الله سبحانه ما يحول بينه وبين معاصيه على حسب تذكر نعمه فاذا أتى بذلك فقد أتى بما هو الأصل فيه ، ثم يقابل ذلك بجد فى الطاعة وجهد فى القيام بالخدمة إذ هو من حقوق النعمة فلا بد من الاحتراس عن المعصية وبالله التوفيق .

فان قلت : فما موضع للشكر ؟

فاعلم أن موضعه النعم الدينية والدنيوية على أقدارهما وأما الشدائد والمصائب فى الدنيا فى نفس أو أهل أو مال فتكلموا فى ذلك هل يلزم العبد الشكر عليها ؟ قال بعضهم :

Digitized by Birzeit University Library

لا يلزم العبد الشكر عليها من حيث هي وإنما يجب فيها الصبر (١) وأما الشكر فهو على النعمة لا غير قالوا ولا شدة إلا وفي جنبها نعم الله تعالى فلزم الشكر على تلك النعم المقترنة بها دون نفس الشدة وتلك النعم ماقاله ابن عمر رضي الله عنهما : ماابتليت ببلية إلا كان لله تعالى عليّ فيها أربع نعم : إذ لم تكن في ديني وإذ لم تكن أعظم منها وإذ لم أحرم الرضا بها وإذ رجوت الثواب عليها ، وقد قيل أيضا : من تلك النعم أن تلك الشدة زائلة غير دائمة وأنها من الله تعالى دون غيره وإن كانت بسبب مخلوق فانها لك عليه لا له عليك فاذن يلزم العبد الشكر على النعم المقترنة بالشدة ، وقال آخرون وهو الأولى عند شيخنا رحمه الله تعالى : إن شدائد الدنيا مما يلزم العبد الشكر عليها لأن تلك الشدائد نعم بالحقيقة بدليل أنها تعرض العبد لمنافع عظيمة ومثوبات جزيلة وأعواض كريمة في العاقبة يتلاشى في جنبها مشقة هذه الشدائد وأية نعمة تكون أكبر من

---

(١) و ذهني من مطالعاتي أن سيدنا سهل بن عبد الله رضي الله عنه كان من دعائه اللهم رضني بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك . ومعنى ذلك أنه لا شكر إلا على النعم ولا صبر إلا على النقم لكن قيل إن النعم تحتاج إلى الصبر أيضا لأن رؤية النعم من الله والدءوب على ذلك وإلزام القلب لهذا يحتاج لصبر واستطرد أبو حامد إلى مسألة التفاضل بين الفقير الصابر والغني الشاكر وهي مفاضلة لامعنى لها في الواقع وعمل المفاضلة بين هذين المقامين كمن يفاضل بين الذهب والماس ومقامات الايمان بالله والقرب منه لاحد لها لأن كمال الله لاحدّ له نعم إن إشارة القرآن الكريم ربما تفيد تفضيل الفقير الصابر فقد قيل في جانب أيوب عليه السلام « نعم العبد » وفي جانب نوح عليه السلام « عبداً شكورا » لكن وصف الأنبياء بالفقر مما لا تسيغه نفسي لأن الفقر والغنى إنما هو صفة لارتباط العبد بالمادة فهو فقير إلى المادة أوغنى عنها والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم قد تخلصوا من المادة نهائيا بل إن هذا أخص أوصافهم فنبينا صلى الله عليه وسلم كان لا يرى له ظل وكان يطوى الأيام والليالي بدون أكل ويقول: أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني واخترق السبع سموات مع جبريل وجمع الملائكة ليلة الاسراء ـ فقال لي بربك أيوصف صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بالفقر أي الحاجة ؟ نعم كان صلى الله عليه وسلم متخففا من حطام الدنيا احتقارا لها وعلوا بهمته عن دواعي البشرية الحاجبة عن المراتب العلية .

Digitized by Birzeit University Library

هذه ومثال ذلك من يسقيك دواء كريها مرا لداء شديد ، أو يفصدك أو يحجمك لعلة عظيمة مخوفة الخطر فيؤدى ذلك إلى صحة النفس وسلامة البدن وصفوة العيش فيكون إيلامه إياك بمرارة الدواء أو جراحة الفصد والحجامة نعمة بالغة بالحقيقة ومنة ظاهرة وإن كان فى صورته مكروها ينفر عنه الطبع وتستوحش منه النفس وأنت تحمد الذى تولى منك هذا بل تحسن إليه بما أمكنك فكذلك حكم الشدائد أما ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم كيف حمد الله وشكره على الشدائد كشكره على المسار حيث قال : الحمد لله على ماساء وسر ، أما ترى كيف يقول جل جلاله : « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » وما سماه الله خيرا فهو أكثر مما يبلغه وهمك ، ومما يؤكد هذا القول أن النعمة ليست حقيقة هى اللذه وماتشتهيه النفس بمقتضى الطبع وإنما هى مايزيد فى رفعة الدرجات ولذلك تسمى نعمة بمعنى الزيادة وإذا كانت الشدة مما تصير سببا فى زيادة شرف العبد ورفعة درجته فتكون نعما بالحقيقة وإن كانت تعد فى الشدائد والمحن بظاهرها فاعلم ذلك موفقا .

فان قلت : فالشاكر أفضل أم الصابر ؟

فاعلم أنه قيل : إن الشاكر أفضل بدليل قوله تعالى : « وقليل من عبادى الشكور » فجعلهم أخص الخواص وقال فى مدح نوح عليه السلام : « إنه كان عبدا شكورا » وقال فى إبراهيم عليه السلام : « شاكراً لأنعمه » ولأنه فى منزلة الانعام والعافية ولذلك قيل : لأن أنعم فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر — وقيل بل الصابر أفضل : لأنه أعظم مشقة فيكون أعظم ثوابا وأرفع منزلة قال الله تعالى: « إنا وجدناه صابراً نعم العبد » وقال تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقال تعالى : « والله يحب الصابرين » — قلت أنا: الشاكر بالحقيقة لايكون إلا صابرا والصابر بالحقيقة لايكون إلا شاكرا لأن الشاكر فى دار المحنة لايخلو من محنة يصبر عليها لامحالة ولا يجزع فان الشكر تعظيم المنعم على حد يمنع من عصيانه والجزع عصيان ، والصابر لا يخلو من نعمة كما ذكرنا أن الشدائد نعم بالحقيقة على المعنى المتقدم فانه شكر بالحقيقة إذا صبر عليها لأنه حبس نفسه عن الجزع تعظيما لله تعالى ، وهذا هو الشكر بعينه إذ هو تعظيم يمنع عن العصيان ولأن الشاكر يمنع نفسه عن الكفران فصبر عن المعصية وحمل نفسه على الشكر وصبر على الطاعة فصار صابرا بالحقيقة ، والصابر عظم الله

Digitized by Birzeit University Library

تعالى حتى منعه تعظيمه عن الجزع فيما أصابه وحمله على الصبر فقد شكر الله تعالى فصار شاكرا بالحقيقة ، ولأن حبس النفس عن الكفران مع قصد النفس له شدة يصبر عليها الشاكر ، وتوفيق الصابر والعصمة نعمة يشكر عليها الصابر فأحدهما لا ينفك عن الآخر ، ولأن البصيرة الباعثة عليهما واحدة وهى بصيرة الاستقامة فى قول بعض علمائنا فمن هذه الوجوه قلنا إن أحدهما لا ينفك عن الآخر فاعرف هذه الجملة وبالله التوفيق .

(فصل) فعليك أيها الرجل ببذل المجهود فى قطع هذه العقبة اليسيرة المؤنة الكبيرة الجدوى العزيزة العنصر العظيمة القدر وتأمل أصلين :

أحدهما — أن النعمة إنما تعطى من يعرف قدرها وإنما يعرف قدرها الشاكر ودليل ماقلناه قوله سبحانه فى الحكاية عن الكفار والرد عليهم : « أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين » ظن أولئك الجهال أن النعمة العظيمة والمنة الكريمة إنما تعطى من يكون أكثرهم (١) مالا وأشرفهم حسبا ونسبا فقالوا : مابال هؤلاء الفقراء بزعمهم من العبيد والأحرار أعطوا هذه النعمة العظيمة بزعمكم دوننا فقالوا على طريق الاستكبار ومجرى الاستهزاء : « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » فأجابهم الله تعالى بهذه النكتة الزاهرة فقال : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » تقدير الكلام أن السيد الكريم إنما يعطى نعمته من يعرف قدرها وإنما يعرف قدرها من أقبل عليها بنفسه وقلبه فاختارها على غيرها ولا يعبأ بما تحمَّل من أعباء المؤنة فى تحصيلها ثم لا يزال قائما بالباب يؤدى شكرها ، وكان فى علمنا السابق أن هؤلاء الضعفاء يعرفون قدر هذه النعمة ويقومون بشكرها فكانوا أولى بهذه النعمة منكم فلا اعتبار بغناكم وثروتكم ولا جاهكم فى الدنيا وحشمكم ولا نسبكم فى الأنساب ولا حسبكم ، وإنما تحسبون النعمة كلها الدنيا وحطامها والحسب والنسب وعلوه لا الدين والعلم والحق ومعرفته وإنما تعظمون ذلك وتتفاخرون به ، أما ترون أنكم لا تكادون تقبلون هذا الدين والعلم والحق إلا بمنة على من أتاكم به وذلك لاستحقاركم ذلك وقلة مبالاتكم به ، وأن

---

(١) أخرج أبو نعيم فى الحلية والديلمي عن ابن مسعود « إذا أحب الله عبدا اقتناه لنفسه ولم يشغله بزوجة ولا ولد » وأخرج الطبرانى والحاكم والترمذى « إذا أحب الله عبدا حماه من الدنيا كما يحمى أحدكم سقيمه الماء » والذين يحبهم الله هم أهل نعائه الذين خصهم بالمواهب الأخروية فعرفوا أقدارها فشكروه عليها .

Digitized by Birzeit University Library

هؤلاء الضعفاء يقتلون أنفسهم على ذلك ويبذلون فيه مهجتهم ولا يبالون بما فاتهم وبمن عاداهم مع ذلك لتعلموا أنهم هم الذين عرفوا قدر هذه النعمة ، ورسخ فى قلوبهم تعظيمها وهان عليهم فوت كل شىء دونهم وطاب لهم احتمال كل شدة فيها فيستغرقون جميع العمر فى شكرها فلذلك استأهلوا هذه المنة الكريمة والنعمة العظيمة فى سابق علمنا وخصصناهم بها دونكم فهذه هذه — ثم أقول : وكذلك كل فريق من الناس خصهم الله تعالى بنعمة من نعم الدين من علم أو عمل ، فانك تجدهم بالحقيقة أعرف الناس بقدرها وأشدهم تعظيما لها وأجدهم فى تحصيلها وأعظمهم فى إكرامها وأقومهم بشكرها ، والذين حرمهم الله ذلك فلقلة احتفالهم وتعظيمهم لحقها بعد القدر السابق ، فلو كان تعظيم العلم والعبادة فى قلوب العامة والسوقة مثل ما فى قلوب العلماء والمتعبدين لما آثروا سوقهم عليه وهان عليهم تركه ، ألا ترى أن فقيها إذا ظفر بتعليم مسألة كانت ملتبسة عليه ثم ظفر بها كيف يرتاح قلبه ويعظم سروره ويجلّ موقعها من قلبه حتى إنه ربما لو وجد ألف دينار ماكان يعدل ذلك ، وربما يهمه أمر مسألة فى باب الدين فيتفكر فيها سنة بل عشرا بل عشرين وأكثر لا يستكثر ذلك ولا يمل حتى ربما رزقه الله تعالى فهم ذلك فيعده أعظم منة وأكبر نعمة ويرى نفسه بذلك أغنى كل غنى وأشرف كل شريف ، بل ربما يتبين مثل هذه المسألة لسوقى أو لمتعلم كسلان يرى من نفسه أنه مثله فى الرغبة فى العلم والمحبة له فلا يستمع إليه حقه ، وربما إن طال عليه الكلام يمل أو ينام وإن تبين ذلك له فلا يعده كبير أمر ، وكذلك المنيب إلى الله تعالى كم يجتهد ويدأب بالرياضة وصيانة النفس عن الشهوات واللذات وإلجام الأركان فى الحركات والسكنات عسى أن يتمم الله له ركعتين فى آداب وطهارة ، وكم يضرع إلى الله تعالى عسى أن يرزقه ساعة مناجاة بصفوة وحلاوة ، فلئن ظفر بذلك فى شهر مرة بل فى سنة مرة بل فى عمره كله مرة عد ذلك أكبر منة وأعظم نعمة ، وكم يسر وكم يشكر الله تعالى ولا يكترث بما قاساه من المشقات وكابد من الليالى وهجر من اللذات فيها ، ثم ترى الذى يزعم أنه راغب فى العبادات يحب أن يحصل منها شيئا لو احتاج أحدهما تحصيل مثل هذه العبادة الصافية إلى نقصان لقمة من عشائهم أو ترك كلمة لا تعنيهم أو دفع نوم ساعة من أعينهم ، فلا تسمح أنفسهم بذلك ولا تطيب قلوبهم وإن اتفق لهم فى النادر حصول عبادة فى صفوة فلا يعدونه خطير أمر ولا يقدمون فيه كثير شكر ،

Digitized by Birzeit University Library

وإنما يعظم سرورهم ويكثر بالظاهر حمدهم ، إذا حصل لهم درهم أو استقامت لهم كسرة أو طابت لهم مرقة أو طالت لهم فى سلامة البدن رقدة فيقولون عند ذلك : الحمد لله هذا من فضل الله ، فأنى يساوى هؤلاء الغافلون العاجزون مع أولئك السعداء المجدين ولذلك صار هؤلاء المساكين عن هذا الخير محرومين ، وأولئك المؤيدون به ظافرين فائزين ، وكذلك قسّم الأمر أحكم الحاكمين سبحانه وهو أعلم العالمين فهذا تفصيل قوله تعالى : « أليس الله بأعلم الشاكرين » فتفهم وراعه حقه ، واعلم أنك لم تحرم قط خيرا أنت تتمناه إلا من قبل نفسك فابذل مجهودك لتعرف قدر نعمة الله تعالى وتعظمها حق تعظيمها فتكون أهلاها ولاعطائها ثم يمنّ عليك ببقائها كما منّ عليك بابتدائها على ماذكره فى الأصل الثانى إنه الرءوف الرحيم .

الأصل الثانى (١) — أن النعمة إنما تسلب ممن لا يعرف قدرها ، والذى لا يعرف

---

(١) قال الغزالى فى الاحياء : اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه إذ معنى الشكر استعمال نعمه فى محابه ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها فى مكارهه فكل من استعمل شيئا فى جهة غير الجهة التى خلق لها ولا على الوجه الذى أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى وقد ذكر الغزالى فى هذا الأصل أقبح كفر لأحسن نعمة فنعمة العلم هى أجلّ نعمة وشكرها أوجب الواجبات فالعالم إذا جهل واتبع الهوى فانه يكون من طينة إبليس لعنه الله وقصة بلعام بنى إسرائيل التى ضربها الله مثلا للشقاء الأبدى والسابقة السوداء قال على ابن طلحة عن ابن عباس : لما نزل موسى بالجبارين ومن معه أتى قوم بلعام إليه فقالوا له : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال إنى إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياى وآخرتى فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه ، وقد ورد فى معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن جندب الجبلى أن حذيفة ابن اليمان حدثه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مما أخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الاسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك ، قال : قلت يانبى الله أيهما أولى بالشرك : الرامى أو المرمى ؟ قال : بل الرامى » .

Digitized by Birzeit University Library

قدرها الكفور الذى كفرها ولا يؤدى شكرها . ودليل ذلك قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » تقدير الكلام أنا أنعمنا على هذا العبد بالنعم العظام والأيادى الجسام فى باب الدين بما مكناه فى ذلك — من تحصيل الرتبة الكبيرة والمنزلة الرفيعة على بابنا ليصير رفيعا عندنا عظيم القدر كبير الجاه ، ولكنه جهل قدر نعمتنا فمال إلى الدنيا الخسيسة الحقيرة وآثر شهوة نفسه الدنيئة الرديئة ولم يعلم أن الدنيا كلها لا تزن عند الله أدنى نعمة من نعم الدين ولا تساوى عنده جناح بعوضة ، فكان فى ذلك بمنزلة الكلب الذى لا يعرف الاكرام والراحة من الاهانة والمشقة ، ولا الرفعة والشرف من الحقارة والخسة فهو فى الحالتين يلهث ، وإنما الكرامة كلها عنده فى كسرة يطعمها أو عرق مائدة يرمى إليه ، سواء تقعده على سرير ملك أو تقيمه فى التراب والقذر بين يديك فهمته وكرامته ونعمته كلها فى ذلك — فهذا العبد السوء إذا جهل قدر نعمتنا ولم يعرف حق ما آتيناه من كرامتنا فكلت بصيرته وساء فى مقام القربة أدبه بالالتفات إلى غيرنا والاشتغال عن ذكر نعمتنا بدنيا حقيرة ولذة خسيسة ، فنظرنا إليه نظر السياسة وأحضرناه ميدان العدل وأمرنا فيه بحكم الجبروت فسلبناه جميع خلعنا وكراماتنا ونزعنا من قلبه معرفتنا ، فانسلخ عاريا من جميع ما آتيناه من فضلنا فصار كلبا طريدا وشيطانا رجيما مريدا نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه وأليم عقابه إنه بنا رءوف رحيم . ثم اقنع بمثال ملك يكرم عبدا له فيخلع عليه خاصة ثيابه ويقربه منه ويجعله فوق سائر خدامه وحجابه وأمره بملازمة بابه ثم أمر أن يبنى له فى موضع آخر القصور وترفع له الأسرة وتنصب له الموائد وتزين له الجوارى وتقام له الغلمان ، حتى إذا رجع من الخدمة أجلس هناك ملكا مخدوما مكرما ، وما بين حال خدمته إلى ملكه وولايته إلا ساعة من نهار أو أقل . فان أبصر هذا العبد بجانب باب هذا الملك سائسا للدواب يأكل رغيفا أو كلبا يمضغ عظما فيشتغل عن خدمة الملك بنظره إليه وإقباله عليه ولا يلتفت إلى ماله من الخلع والكرامة ، فيسعى إلى ذلك السائس ويمد يده ويسأله كسرة من رغيف أو يزاحم الكلب على عظمة ويغبطها ويعظم ما هما فيه ، أليس الملك إذا نظر إليه فى مثل هذه الحالة يقول : هذا سفيه خسيس الهمة لم يعرف حق كرامتنا ولم ير قدر إعزازنا إياه بخلعنا والتقريب

Digitized by Birzeit University Library

إلى حضرتنا مع ماصرفنا إليه من عنايتنا وأمرنا له من الذخائر وضروب الأيادى ما هذا إلا ساقط الهمة عظيم الجهل قليل التميز اسلبوه الخلع واطردوه عن بابنا — فهذا حال العالم إذا مال إلى الدنيا والعابد إذا اتبع الهوى بعدما أكرمه الله بعبادته ومعرفة أياديه وشريعته وأحكامه ، ثم إنه لم يعرف قدر ذلك فيصير إلى أحقر شيء عند الله عز وجل وأهونه عنده فيرغب فيه ويحرص عليه ويكون أعظم فى قلبه وأحب إليه من جميع ما أعطى من تلك النعم العزيزة من العلم والعبادة والحكم والحقائق ، وكذلك من خصه الله تعالى بأنواع توفيقه وعصمته وزينه بأنوار خدمته وعبادته ويديم النظر إليه بالرحمة فى أكثر أوقاته ويباهى به ملائكته وأعطاه على بابه القيادة والوجاهة وأحله محل الشفاعة وأنزله منزلة الأعزة حتى إذا صار بحيث لو دعاه لأجابه ولباه ولو سأله أعطاه وأغناه ولو شفع فى عالم لشفعه فيهم وأرضاه ولو أقسم عليه لأبره وأوفاه ولو خطر بباله شيء لأعطاه قبل أن يسأله بلسانه ، فمن كانت هذه حاله ثم لم يعرف قدر هذه النعم أو لم ينظر إلى قدر هذه المنزلة فيعدل عن ذلك إلى شهوة نفس رديئة لا حياء لها أو لعقة من الدنيا الدنيئة التى لا بقاء لها ، ولم ينظر إلى تلك الكرامات والخلع والهدايا والمنن والعطايا ثم ما وعد وما أعدّ له فى الآخرة من الثواب العظيم والنعيم السابغ المقيم ، فما أحقرها إذن من نفس وما أسوأه من عبد وما أعظم خطره لو علم وما أخس صنعه لو فهم ، نسأل الله البر الرحيم أن يصلحنا بعظيم فضله وسعة رحمته إنه أرحم الراحمين — فعليك أيها الرجل ببذل المجهود حتى تعرف قدر نعم الله تعالى عليك وإذ أنعم عليك بنعمة الدين فإياك أن تلتفت إلى الدنيا وحطامها فان ذلك منك لا يكون إلا بضرب من التهاون بما أولاك ربك من نعم الدين أما تسمع قوله تعالى لسيد المرسلين : « ولقد (١) آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم * لا تمدّن عينيك إلى

---

(١) أخرج البخارى عن أبى سعيد بن المعلى قال مرّ بى النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أصلى فدعانى فلم آته حتى صليت فأتيته فقال : « ما منعك أن تأتينى ؟ فقلت : كنت أصلى فقال : ألم يقل الله (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم) ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج من المسجد . فذهب النبى صلى الله عليه وسلم ليخرج فذكرت فقال : (الحمد لله رب العالمين) هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذي أوتيته » .

Digitized by Birzeit University Library

ماتمتعنا به أزواجا (١) منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين » تقديره أن كل من أوتى القرآن العظيم حق له أن لا ينظر إلى الدنيا الحقيرة نظرا باستجلاء واستحسان قط فضلا عن أن يكون له فيها رغبة ، فليدم الشكر لله على ذلك فانها الكرامة التى حرص خليله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن يمنّ بها على أبيه فلم يفعل ، وحرص حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يمنّ بها (٢) على عمه أبى طالب فلم يفعل . وأما حطام الدنيا فانه الذى يصبّه على كل كافر وفرعون وملحد وزنديق وجاهل وفاسق الذين هم أهون خلقه عليه حتى يغرقوا فيه ويصرفه عن كل نبيّ وصفى وصديق وعالم وعابد الذين هم أعز خلقه عليه حتى إنهم لايكادون يصيبون كسرة (٣) وخرقة ويمن

---

(١) سبب نزولها ما رواه ابن أبى حاتم عن أبى رافع صاحب النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ضاف النبى صلى الله عليه وسلم ضيف ولم يكن عند النبى صلى الله وسلم شىء يصلحه فأرسل إلى رجل من اليهود . يقول لك محمد رسول الله أسلفنى دقيقا إلى هلال رجب ، قال لا إلا برهن: فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : أما والله إنى لأمين من فى السماء وأمين من فى الأرض ولئن أسلفنى أو باعنى لأؤدين إليه ، فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية (ولا تمدنّ عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا) إلى آخر الآية كأنه يعز به عن الدنيا .

(٢) ثبت فى الصحيحين من رواية سعيد بن المسيب عن أبيه أنه لما احتضر أبو طالب جاءه النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال له : أى عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقالا له ياأبا طالب : أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شىء كلمهم به هو على ملة عبد المطلب فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لك مالم أنه عنك فنزلت (ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) الآية ونزلت (إنك لاتهدى من أحببت) .

(٣) يشير إلى ماورد من أن الله أوحى إلى الدنيا أن تضيقى وتشددى على أوليائى وترفهى وتوسعى على أعدائى حتى يشتغلوا بك عنى فلا يتفرّغوا لذكرى وأخرج الديلمى عن على « أوحى الله إلى داود يا داود مثل الدنيا كمثل جيفة اجتمعت عليها الكلاب يحرونها أفتحب أن تكون مثلهم فتجر معهم ياداود . طيب الطعام ولين اللباس والصيت فى الناس فى الآخرة لا تجتمع » .

Digitized by Birzeit University Library

عليهم بأن لا يلطخهم بقذرها حتى قال عز من قائل لموسى وهرون عليهما السلام : ولو أشاء أن أزينكما بزينة ليعلم فرعون حين يراها أن مقدرته تعجز عنها لفعلت ، ولكنى أزوى عنكما الدنيا وأرغب بكما عنها وكذلك أفعل بأوليائى وإنى لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مبارك العرّة(١)، وإنى لأجنبهم سكونها وعيشها وليس ذلك لهوانهم علىّ ولكن ليستكملوا حظهم من كرامتى — وقال تعالى: « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبوابا وسرراً عليها يتكئون » فانظر الفرق بين الأمرين إن كنت مبصرا وقل الحمد لله الذى منّ علينا بمن أوليائه وأصفيائه ، وصرف عنا فتنة أعدائه لنحظي ولنخص بالشكر الأوفر والحمد الأكبر والمنة الكبرى والنعمة العظمى التى هى الاسلام فانها الأولي والأخرى بأن لا تفتر ليلك ونهارك عن شكرها فان كنت عاجزا عن عرفان قدرها فاعلم بالحقيقة أنك لو خلقت من أول الدنيا وأخذت فى شكر نعمة الاسلام من أول الوقت إلى الأبد ما كنت تقوم بذلك ولما قضيت بعض الحق لما هنالك من الفضل العظيم — قلت : واعلم أن الموضع لا يحتمل ذكر ما يبلغه علمى من قدر هذه النعمة ولو أمليت فيه ألف ألف ورقة لكان مبلغ علمى فوق ذلك مع اعترافى بأن ما أعلمه فى جنب ما لا أعلمه كنقطة فى بحار الدنيا بأسرها ، أما تسمع ويحك قوله تعالى لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان » إلى أن قال له : « وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » وقال تعالى لقوم : « بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين » أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم وقد سمع رجلا يقول الحمد لله على الاسلام : فقال إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة ، ولما قدم البشير على يعقوب عليه السلام قال على أي دين تركته ؟ قال على دين الاسلام : قال الآن تمت النعمة ، وقيل مامن كلمة أحب إلى الله تعالى ولا أبلغ عنده فى الشكر من أن يقول العبد الحمد لله الذى أنعم علينا وهدانا إلى دين الاسلام. وإياك أن تغفل الشكر للاسلام وتغتر بما أنت عليه فى الحال من الاسلام والمعرفة والتوفيق والعصمة فانه مع

---

(١) أعرّ المكان كثرت فيه العرة أى البعر والسرجين ، وأما أهل الثروة والغنى من الصدر الأول فلم تكن الدنيا فى قلوبهم بل فى أيديهم لصرفهم لها فى وجوه الطاعات وعدم شغلهم بها عن الله .

Digitized by Birzeit University Library

ذلك لا موضع للأمن والغفلة فان الأمور بالعواقب ، وكان سفيان الثورى رحمه الله تعالى يقول : ما أحد أمن على دينه إلا سلب ، وكان شيخنا رحمه الله تعالى يقول : إذا سمعت بحال الكفار وخلودهم فى النار فلا تأمن على نفسك فان الأمر على الخطر ولا تدرى ماذا يكون من العاقبة وماذا سبق لك فى حكم الغيب فلا تغتر بصفاء الأوقات فان تحتها غوامض الآفات ، وقال بعضهم يامعشر المغترين بالعصم إن تحتها أنواع النقم زين الله إبليس بأنواع عصمته وهو عنده فى حقائق لعنته وزين بلعام بأنوار ولايته وهو عنده فى حقائق عداوته ، وعن على رضى الله عنه أنه قال : كم من مستدرج بالاحسان إليه وكم من مفتون بحسن القول فيه وكم من مغرور بالستر عليه ، وقيل لذى النون ماأقصى ما يخدع به العبد ؟ قال بالألطاف والكرامات ولذلك قال سبحانه : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » قال أهل المعرفة : نسبغ عليهم النعم ونسيهم الشكر كما قال الشاعر :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتى به القدر

وسالمتك الليالى فاغترت بها ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر

واعلم أنك كلما صرت أقرب فأمرك أخوف (١) وأصعب والمعاملة أشد وأدق

---

(١) تكلم الصوفية وعلى رأسهم الغزالى فى ضرر الأمن من مكر الله وأشبعوا الكلام فى الخوف من الله وقد سبق أن قلت لك إن ما يتحدث به الصوفية فى هذا الشأن ليس أمراً يتخذ بالتصنع والتكلف وإنما هى مقامات الصديقين توهب هبة لمن استعدلها منة الله وفضلا ونعرض لك صورا من خوف الصديقين لتعلم مبلغ عطاء الله وإنعامه على من أخلصوا له الخدمة فأتحفهم بمقامات القرب فسيد الخائفين والخاشعين مولانا وأمامنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو سيد العلماء (إنما يخشى الله من عباده العلماء) والخشية إنما تكون بمعرفة المبدأ أو المعاد والمعرفة توجب الخوف فيظهر أثره فى جميع البدن بالنحول والبكاء كما يظهر أثره فى الصفات بقمع الشهوات حتى تصير مكروهة لديه فلا يتفرغ حينئذ إلا لله فيقبل على المجاهدة ومراقبة الأنفاس فقوة المراقبة بقدر قوة الخوف وقوته بقدر قوة المعرفة. وأقل درجات الخوف الكف عن المحظورات فان كف عن الشبهات مع ذلك فذلك الورع أو التقوى لأنها فرط الصيانة وترك مايريب إلى مالا يريب قال أبو على الرازي : صحبت الفضيل بن عياض (الولى الجليل المتوفى بمكة سنة سبع وثمانين ومائة) ثلاثين سنة فما رأيته ضاحكا ولا متبسما إلا يوم مات =

Digitized by Birzeit University Library

والخطر عليك أعظم فان الشيء كلما كان أبلغ علوا إذا انقلب كان أصعب وقوعا كما قيل :

ماطار طير فارتفع إلا كما طار وقع

فاذن لاسبيل إلى الأمن وإغفال الشكر وترك الابتهال فى الحفظ بحال . وكان إبراهيم بن أدهم يقول : كيف تأمن وإبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه يقول : « واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام» ويوسف الصدّيق عليه السلام يقول: «توفنى مسلما» وكان سفيان الثورى لا يزال يقول : اللهم سلم سلم كأنه فى سفينة يخشى الغرق ، وبلغنا عن محمد بن يوسف رحمه الله أنه قال : تأملت سفيان الثورى ليلة فبكى الليل أجمع ، فقلت له أبكاؤك هذا على الذنوب ؟ قال : فحمل تبنة وقال الذنب أهون على الله من هذا وإنما أخشى أن يسلبنى الله الاسلام والعياذ بالله ، وسمعت أنا بعض العارفين يقول: إن بعض الأنبياء عليهم السلام سأل الله تعالى عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الآيات والكرامات فقال الله تعالى : لم يشكرنى يوما من الأيام على ماأعطيته ولو شكرنى على ذلك مرة واحدة لما سلبته — فتيقظ أيها الرجل واحتفظ بركن الشكر جدا واحمد الله على نعمه فى الدين وأعلاها الاسلام والمعرفة وأدناها مثلا توفيق تسبيح أو عصمة عن كلمة لاتعنيك عسى أن يتم نعمه عليك ولايبتليك بمرارة الزوال فان أمرّ الأمور وأصعبها الاهانة بعد الاكرام والطرد بعد التقريب والفراق بعد الوصال والله تعالى الماجد الكريم الرءوف الرحيم .

(فصل) وجملة الأمر أنك إذا أحسنت النظر فى منن الله تعالى العظام عليك وأياديه الجسام الكرام لديك التى لا يحصيها قلبك ولا يحيط بها وهمك حتى خلقت هذه العقبات الصعاب ، فوجدت العلوم والبصائر وتطهرت من الأوزار والكبائر وسبقت العوائق ودفعت العوارض وظفرت بالبواعث وسلمت من القوادح ، فكم حصل لك فيها من خصلة شريفة ورتبة عالية منيفة أولها التبصير والتعريف وآخرها التقريب والتشريف ، فتأملت فيها بمقدار عقلك وتوفيقك وشكرت الله تعالى على قدر طوقك بأن يشغل لسانك بحمده وثنائه ويملأ قلبك بعظمته وبهائه ويبلغك مبلغا يحول بينك وبين عصيانه ويبعثك

= ابنه فقلت له فى ذلك فقال : إن الله أحب أمرا فأحببته ، وقال السرى رضى الله عنه : أنا أنظر فى أنفى فى اليوم كذا وكذا مرة مخافة أن تسود صورتى لما أتعاطاه وعنه أنه قال : أشتهي أن أموت ببلدة غير بغداد مخافة أن لايقبلنى قبرى فأفتضح .

Digitized by Birzeit University Library

على الخدمة له بما أمكنك أو بسعة طاقتك معترفا بالقصور عن حق إنعامه وإحسانه وكلما أغفلت شكره أو فترت أو زللت عاودت واجتهدت وتضرعت إليه وابتهلت وتوسلت وقلت يا ألله يا مولاى : كما بدأت بالاحسان بفضلك من غير استحقاق فأتممه بفضلك أيضا من غير استحقاق وتناديه بنداء أوليائه الذين وجدوا تاج هدايته وذاقوا حلاوة معرفته فخافوا على أنفسهم حرقة الطرد والاهانة ووحشة البعد والضلالة ومرارة العزل والازالة فتضرعوا بالباب مستغيثين ومدوا إليه الأكف مبتهلين ونادوا فى الخلوات مستصرخين « ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » — قلت أنا : تقديره والله أعلم إنا وجدنا منك نعمة فطمعنا فى أخرى فانك أنت الجواد الوهاب فكما وهبت لنا مزية الانعام فى الابتداء فهب لنا رحمة الاتمام فى الانتهاء أما تسمع ويحك أن أول دعاء علمه رب العالمين عباده المسلمين الذين اصطفاهم من بين خلقه هذا الدعاء قوله تعالى: «إهدنا الصراط المستقيم » أى ثبتنا عليه وأدمه لنا ، هكذا تتضرع إليه فان الخطب عظيم . وقيل إن الحكماء نظروا فردوا مصائب العالم ومحنهم كلها إلى خمس : المرض فى الغربة والفقر فى الشيب والموت فى الشباب والعمى بعد البصر والنكرة بعد المعرفة وأحسن من ذلك قول من قال :

لكل شىء إذا فارقته عوض وليس لله إن فارقت من عوض

ولغيره :

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر

وكذلك فى كل نعمة أنعم بها عليك وتأييد أيدك به فى قطع عقبة من العقبات ليثبت عليك ما أعطى ويزيدك فوق ما تريد وتتمنى ، فاذا فعلت ذلك كنت قد خلقت هذه العقبة الخطيرة وكنت قد ظفرت بالكنزين الكريمين العزيزين اللذين هما الاستقامة والاستزادة فتدوم لك النعم الموجودة التى أعطاكها فلا تخشى زوالها ، ويزيدك من النعم المفقودة التى لم تعط بعد ما تحسن أن تسألها وتتمناها فلا تخشى فواتها وكنت حينئذ من العارفين العلماء العاملين بالدين التائبين الطاهرين الزاهدين فى الدنيا المتجردين للخدمة القاهرين للشيطان المتقين حق التقوى بالقلب والأركان القاصرين للأمل الناصحين الخاشعين المتواضعين المتوكلين المفوضين الراضين الصابرين الخائفين الراجين المخلصين الذاكرين المنة الشاكرين لأنعم سيدهم رب العالمين ، ثم تصير بعد ذلك من

Digitized by Birzeit University Library

المستقيمين المكرمين الصديقين فتأمل هذا الكلام والله تعالى ولى التوفيق .

فان قلت : إذا كان الأمر كذلك لقد قلّ من الناس العابد لهذا المعبود والواصل إلى هذا المقصود ، ومن الذى يقوى على هذه المؤن وتحصيل هذا الشرائط والسنن ؟

فاعلم أن الله تعالى كذلك يقول : « وقليل من عبادى الشكور » — « ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون » لا يعقلون . لا يعلمون ، ثم إن ذلك يسير على من يسره الله تعالى عليه وعلى العبد الاجتهاد وعلى الله سبحانه الهداية ، قال الله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » وإذا كان العبد الضعيف يقوم بما عليه فما ظنك بالرب القدير الغنى الكريم الرحيم .

فان قلت : فالعمر قصير وهذه عقبات طويلة شديدة فكيف يبقى العمر حتى تكمل هذه الشرائط وتقطع هذه العقبات ؟

فلعمرى إن هذه العقبات طويلة والشرائط فيها شديدة ولكن إذا أراد الله تعالى أن يجتبى عبده قصّر عليه طويلها وهون عليه شديدها حتى يقول بعد قطعها : ما أقرب هذا الطريق وأقصرها وما أهون هذا الأمر وأيسره ، وفى مثل ذلك قلت أنا عند وقوفى على هذه الغاية :

علم المحجة واضح لمريده ... وأرى القلوب عن المحجة فى عمى
ولقد عجبت لهالك ونجاته ... موجودة ولقد عجبت لمن نجا

حتى إن منهم من يقطع هذه العقبات فى سبعين سنة ، ومنهم من يقطعها فى عشرين سنة ومنهم من يقطعها فى عشر سنين ، ومنهم من يحصل له فى سنة ومنهم من يقطعها فى شهر بل فى جمعة بل فى ساعة حتى إن منهم من يحصل له فى لحظة بتوفيق خاص وعناية سابقة من الله سبحانه — أما تذكر أصحاب الكهف كيف كانت مدتهم خطرة حيث رأوا التغير فى وجه ملكهم دقيانوس فقالوا : « ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلها لقد قلنا إذاً شططا » حصلت لهم المعرفة وأبصروا ما فى هذه الطريق من الحقائق وقطعوا هذه الطريق فصاروا مفوضين متوكلين مستقيمين إذ قالوا : « فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا » وكل ذلك إنما حصل لهم فى مقدار ساعة أو لحظة . أما تذكر سحرة فرعون ما كانت مدتهم إلا لحظة حيث رأوا معجزة موسى عليه السلام قالوا : « آمنا برب العالمين * رب موسى وهرون » فأبصروا الطريق وقطعوه فصاروا من ساعة إلى ساعة بل أقل من العارفين بالله تعالى

Digitized by Birzeit University Library

الراضين بقضاء الله تعالى الصابرين على بلائه الشاكرين لآلائه المشتاقين إلى لقائه فنادوا « لاضير إنا إلى ربنا منقلبون » ولقد حكينا أن إبراهيم بن أدهم (١) رحمه الله كان على ماكان عليه من أمر الدنيا فعدل عن ذلك وقصد هذه الطريق فلم يكن إلا مقدار سيره من بلخ إلى مرورود حتى صار بحيث أشار إلى رجل سقط من القنطرة فى الماء الكثير هنالك أن قف فوقف الرجل مكانه فى الهواء فتخلص ، وأن رابعة البصرية كانت أمة كبيرة السن يطاف بها فى سوق البصرة لايرغب فيها أحد لكبر سنها فرحمها بعض التجار فاشتراها بنحو مائة درهم وأعتقها فاختارت هذه الطريق وأقبلت على العبادة فما

---

(١) كان من كورة بلخ من أولاد الملوك صحب رضى الله عنه رجلا فلما أراد مفارقته قال له الرجل : إن كنت رأيت فىّ عيبا فنبهنى عليه فقال له إبراهيم : لم أر فيك يا أخى عيبا لأنى لاحظتك بعين الوداد فاستحسنت كل ما رأيته منك فاسأل غيرى ، وكان رضى الله عنه يقول : إنى لأتمنى المرض حتى لاتجب علىّ الصلاة فى جماعة ولا أرى الناس ولايرونى وكان رضى الله عنه إذا لم يجد الطعام الحلال يأكل التراب ومكث شهرا يأكل الطين وكان يقلل الطعام والأكل ما استطاع ويقول : الحلال الصرف لايحتمل حتى كان يصلى خمس عشرة صلاة بوضوء واحد وكتب إليه الأوزاعى رحمه الله إنى أريد أن أصحبك يا إبراهيم فكتب إليه إبراهيم رضى الله عنه إن الطير إذا طار مع غير شكله طار الطير وتركه — ينحصر تاريخ وفاته وفقا لوثائق مختلفة بين سنة ١٦٠ — ١٦٦ هـ ٧٧٦ — ٧٨٣ م وكانت وفاته على ماقيل أثناء اشتراكه فى حملة بحرية ضد البوزنطيين ولقد نظم فى هذه المناسبة ابن أخته الشاعر محمد بن كناسة الكوفى المتوفى عام ٢٠٧ هـ الموافق عام ٨٢٢ م قصيدة يطرى فيها زهد خاله ونبيل خصاله وشجاعته ويشير إلى أن قبره فى بلد غربى « الجدث الغربى » وهناك رواية أخرى تقول إنه دفن فى « سوقين » وهى حصن فى بلاد الروم وتؤكد كثير من الروايات الواردة فى كتاب حلية الأولياء أنه هاجر إلى بلاد الشام بعد أن تصوف وعاش هناك من عمل يده إلى وقت مماته ويقال إنه أجاب عبد الله بن المبارك عند ما سأله عن سبب تركه خراسان : « ماتهنيت بالعيش إلا فى بلاد الشام أفرّ بدينى من شاهق إلى شاهق ومن جبل إلى جبل » .

Digitized by Birzeit University Library

تمت لها سنة حتى زارها زهّاد البصرة وقراؤها وعلماؤها لعظم منزلتها — وأما الذى لم تسبق له العناية ولم يعامل بالفضل والهداية فيوكل إلى نفسه فربما يبقى فى شعب من عقبة واحدة سبعين سنة ولا يقطعها وكم يصيح ويصرخ ماأظلم هذا الطريق وأشكله وأعسر هذا الأمر وأعضله فان الشأن كله إلى أصل واحد وذلك تقدير العزيز العليم العدل الحكيم .

فان قلت : لم اختص هذا بالتوفيق الخاص وحرم هذا وكلاهما مشتركان فى ربقة العبودية ؟

فعند هذا السؤال ينادى من سرادق الجلال أن الزم الأدب (١) واعرف سر الربوبية وحقيقة العبودية فانه « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » — قلت أنا : ومثال هذا الطريق فى الدنيا الصراط فى الآخرة فى عقباتها ومسافاتها ومقاطعها واختلاف أحوال الخلق فيها فمنهم من يمر عليه كالبرق الخاطف ، ومنهم من يمر عليه كالريح العاصف ، وآخر كالفرس الجواد وآخر كالطائر وآخر يمشى وآخر يزحف حتى يصير لحمة ، وآخر يسعى حسيسها وآخر يؤخذ بكلاليب فيطرح فى جهنم فكذلك حال هذا الطريق مع سالكيه فى الدنيا فهما صراطان : صراط الدنيا وصراط الآخرة . فصراط الآخرة للأنفس يرى أهوالها أهل الأبصار ، وصراط الدنيا للقلوب يرى أهوالها ذوو البصائر والألباب وإنما اختلفت الأحوال للسالكين فى الآخرة لاختلاف أحوالهم فى الدنيا فتأمل ذلك حقه فهذه هذه وبالله التوفيق (٢) .

(فصل) ثم اعلم ما هو التحقيق فى هذا الباب وهو أنه ليس هذا الطريق فى طوله وقصره مثل المسافات الكائنة التى تسلكها الأنفس فتقطعها بالأقدام فيقطع على حسب قوة الأنفس وضعفها ، إنما هو طريق روحانى تسلكه القلوب فتقطعه بالأفكار على حسب العقائد والبصائر ، وأصله نور سماوى ونظر إلهى يقع فى قلب العبد فينظر به

---

(١) وإنما وجب لزوم الأدب وعدم التفكير فيه لأن هذا هو سر القضاء والقدر الذى اختص الله بعلمه ولم يفهمه أحد من البشر لأنه كنه صفة الارادة ومعرفة كنه صفاته محال على أحد من الخلق حتى الملائكة .

(٢) ما أجمل هذا التشبيه وإن هذا لعلم لدنى حقا فرضى الله عنك يا أبا حامد .

Digitized by Birzeit University Library

نظرة فيرى بها أمر الدارين بالحقيقة ثم هذا النور ربما يطلبه العبد مائة سنة فلا يجده ولا أثرا منه وذلك لخطئه فى الطلب وتقصيره فى الاجتهاد وجهله بطريق ذلك ، وآخر يجده فى خمسين سنة وآخر يجده فى عشر وآخر فى يوم وآخر فى ساعة ولحظة بعناية رب العزة وهو تعالى ولى الهداية ، لكن العبد مأمور بالاجتهاد فعليه بما أمر والأمر مقسوم مقدور والرب حكم عدل يفعل مايشاء ويحكم مايريد (١) .

فان قلت : فما أعظم هذا الخطر وأشد هذا الأمر وما أكثر مايحتاج إليه هذا العبد الضعيف فكل هذا العمل والجهد وتحصيل هذه الشرائط لماذا ؟

فأقول : لعمرى إنك لصادق فى قولك إن الأمر شديد والخطر عظيم ولذلك قال تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى كبد » وقال تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا » ولذلك قال سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم : لو علمتم ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا . وما روى أن المنادى ينادى من قبل السماء ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا وليتهم إذ علموا عملوا بما علموا — وكذلك يقول السلف رضى الله عنهم : فمن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : وددت أنى كنت خضراء تأكلنى الدواب مخافة العذاب ، وعن عمر رضى الله عنه أنه سمع إنسانا يقرأ « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكور » قال ليتها تمت : وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه وددت أنى كبش لأهلى فيتعرق لحمى ويتحسى مرق ولم أخلق ، وعن وهب بن منبه أنه قال : خلق ابن آدم أحمق ولولا حمقه ما هنأه عيش ، وعن الفضيل بن عياض رحمه الله قال : إنى لا أغبط ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء يعاتبون يوم القيامة إنما أغبط من لم يخلق ، وعن عطاء السلمى رحمه الله أنه قال : لو أن نارا أوقدت وقيل من ألقى نفسه فيها صار لاشىء لخشيت أن أموت من الفرح قبل أن أصل النار ، فالأمر إذن أيها الرجل شديد كما تقول بل هو أشد وأعظم مما تظن وتتوهم ولكنه أمر سبق فى العلم القديم وتدبير أجراه العزيز العليم فلا حيلة للعبد إلا بذل المجهود فى العبودية والاعتصام بحبل الله والابتهال دائما إلى الله

---

(١) يشير رضى الله عنه إلى أن الولاية وهبية ولكنها لمن لزم طريقها وهكذا صرح محيى الدين بن العربى فى الفتوحات .

Digitized by Birzeit University Library

سبحانه عسى أن يرحمه فيسلم بفضله . وأما قولك كل هذا لماذا ؟ فهذا كلام يدل منك على غفلة عظيمة بل الصواب أن تقول : كل هذا فى جنب مايطلبه العبد الضعيف ماذا ؟ أتدرى مايطلب العبد الضعيف أقل مايطلبه على الجملة شيئان : أحدهما السلامة فى الدارين ، والثانى الملك فى الدارين — أما السلامة فى الدنيا فان الدنيا وآفاتها وفتنتها وغوائلها بحيث لم يسلم منها الملائكة المقربون وقد سمعت حديث هاروت وماروت حتى روي أنه إذا عرج بروح العبد إلى السماء تقول ملائكة السموات متعجبين : كيف نجا هذا من دار فسد فيها خيارنا ؟ وإن الآخرة فى أهوالها وشدائدها بحيث تصرخ فيها الأنبياء والرسل عليهم السلام نفسى نفسى لا أسألك اليوم إلا نفسى ، حتى إنه روى لو كان للرجل عمل سبعين نبيا لظن أنه لا ينجو فمن أراد أن يسلم من فتن هذه فليخرج منها بالاسلام سالما لاتصيبه بلية ومن أهوال هذه فليدخل الجنة سالما لاتصيبه نكبة أيكون هذا أمرا هينا — وأما الملك والكرامة فان الملك نفاذ التصرف والمشيئة وإن ذلك بالحقيقة فى الدنيا لأولياء الله عز وجل وأصفيائه الراضين بقضائه ، فالبر والبحر والأرض لهم قدم واحد والحجر والمدر لهم ذهب وفضة والجن والانس والبهائم والطير لهم مسخرون لايشاءون شيئا إلا وهو كائن لهم ، لأنهم لايشاءون إلا ما شاء الله وما شاء الله كان ولا يهابون أحدا من الخلق ويهابهم كل الخلق ولا يخدمون أحدا إلا الله عز وجل ويخدمهم كل من دون الله ، وأين لملوك الدنيا بعشر معاشر هذه الرتبة بل هم أقل وأذل . وأما ملك الآخرة فيقول الله تعالى : « وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا » وأعظم بما يقول فيه رب العزة إنه ملك كبير وأنت تعلم أن الدنيا بأسرها قليلة وأن بقاءها من أولها إلى آخرها لقليل ونصيب أحدنا من هذا القليل قليل ، ثم الواحد منا قد يبذل ماله وروحه حتى ربما يظفر بقدر قليل من هذا القليل فى بقاء قليل وإن حصل له ذلك فيعذر بل يغبط ولا يستكثر ما بذل فيه من المال والنفس نحو ماذكر عن امرىء القيس حيث يقول :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لاتبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

فكيف حال من يطلب الملك الكبير فى دار النعيم الخالد المقيم أيستكثر مع ذلك أن يصلى ركعتين لله تعالى أو ينفق درهمين أو يسهر ليلتين : كلا بل لو كان له ألف ألف

Digitized by Birzeit University Library

نفس وألف ألف روح وألف ألف عمر كل عمر مثل عمر الدنيا وأكبر وأكثر فبذل ذلك كله فى هذا المطلوب العزيز لكان ذلك قليلا ، ولئن ظفر بعده بما طلب لكان ذلك غنما عظيما وفضلا من الذى أعطاه كثيرا فتنبه أيها المسكين من رقدة الغافلين — ثم إنى تأملت ما يعطيه الله سبحانه العبد إذا أطاعه ولزم خدمته وسلك هذه الطريق عمره فوجدتها على الجملة أربعين كرامة وخلعة : عشرين منها فى الدنيا وعشرين منها فى العقبى .

أما التى فى الدنيا — فالأولى : أن(١) يذكره الله سبحانه ويثنى عليه وأكرم بعبد يكون

---

(١) فانه لما ذكر الله كافأه الله بذكره فاذكرونى أذكركم — وقد أجمع أئمة التصوف على أن الذكر هو ركن التصوف ولا وصول إلا به وغذاء الأولياء ذكر الله وكان سيدي أبو العشائر يقول : الأصول التى يبنى عليها المريد أمره أربعة : اشتغال اللسان مع حضور القلب بذكر الله وجبر القلب على مراقبته ومخالفة النفس والهوى من أجله وتصفيته اللقمة لعبوديته واعلم أن حقيقة الذكر دوام الحضور ولقد سمعت من شيخى عبد السلام الحلوانى أن ذكر أمثالنا لا يسمى ذكراً وإنما يسمى تذكرا لعدم دوام الحضور من غير تخلل غفلة وقصور . وفى شرح تائية السلوك اعلم أن الذكر عند العارفين لغير أرباب الشهود لما فى الحديث القدسى من ذكر لم يشهد ومن شهد لم يذكر أى من كان يرى له وجوداً يذكرنى به فانه محجوب والمحجوب لا يشهد ومن شهد أن الوجود لى ولا وجود لغيرى علم أنى الذاكر والمذكور والذكر اه — ولقد أمرنى شيخى عبدالسلام الحلوانى رضى الله عنه أن أنسى نفسى حين الذكر قال العلامة الأمير : ينبغي للذاكر بلا إله إلا الله أن يلاحظ كونها آية من كتاب الله ليكثر له الثواب اه — وينبغى للذاكر أن يلاحظ روح النبى صلى الله عليه وسلم حين الذكر ولا يلاحظ أحدا غيره أما المشايخ فمهمتهم الارشاد لا الاستمداد فلا يلاحظون لأن الله سبحانه يقول : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ولقد انقطع كثير من طلاب الحق بانطوائهم على الشيوخ وعدم الاتجاه إلى الحضرة المحمدية .

وأنت باب الله أى امرىء ... أتاك من غيره لا يدخل

أما الصحبة كما سميت فى عهود التصوف الأولى أو المشيخة كما وسمت فى عهود التصوف أخيراً فهى لازمة للمريد بلا شك ويجب توقير الشيوخ قال سيدى محيى الدين ابن العربى : حرمة الحق فى حرمة الشيخ وعقوقه فى عقوقه والمشايخ حجاب الحق الحافظون أحوال القلوب فمن صحب شيخا ممن يقتدى به ولم يحترمه نزع من قلبه =

Digitized by Birzeit University Library

الله رب العالمين يمن عليه فى ذكره وثنائه ، والثانية : أن يشكره جل جلاله ويعظمه ولو شكرك مخلوق ضعيف مثلك وعظمك لشرفت به فكيف بالله الأولين والآخرين ، والثالثة : أن يحبه ولو أحبك رئيس محلة أو أمير بلدة لافتخرت بذلك وانتفعت به فى مواطن عزيزة فكيف بمحبة رب العالمين ، والرابعة : أن يكون له وكيلا يدبر أموره والخامسة : أن يكون له برزقه كفيلا يوجهه إليه من حال إلى حال من غير تعب أو وبال ، والسادسة : أن يكون له نصيرا يكفيه كل عدو ويدفع عنه كل قاصد بسوء ، والسابعة : أن يكون له أنيسا لا يستوحش بحال ولا يخاف التغيير والاستبدال ، والثامنة : عز النفس فلا يلحقه ذل خدمة الدنيا وأهلها بل لا يرضى أن تخدمه ملوك الدنيا وجبارتها ، والتاسعة : رفع الهمة فيترفع عن التلطخ بأقذار الدنيا وأهلها ولا يلتفت إلى زخارفها وملاهيها ترفع الرجال الألباء عن ملاعب الصبيان والنسوان ، والعاشرة : غنى القلب فيكون أغنى من كل غنى فى الدنيا لا يزال طيب النفس فسيح الصدر لا يفزعه حدث ولا يهمه عدم ، والحادى عشرة : نور القلب فيهتدي بنور قلبه إلى علوم وأسرار وحكم لا يهتدى إلى بعضها غيره إلا بجهد جهيد وعمر مديد ، والثانية عشرة : شرح الصدر فلا يضيق ذرعا بشىء من محن الدنيا ومصائبها ومؤن الناس ومكايدهم ، والثالثة عشرة : المهابة والموقع فى نفوس الناس يحترمه الأخيار والأشرار ويهابه كل فرعون وجبّار ، والرابعة عشرة : المحبة فى القلوب يجعل له الرحمن ودا فترى القلوب كلها مجبولة على حبه والنفوس كلها بأجمعها مطبوعة على تعظيمه وإكرامه ، والخامسة عشرة : البركة العامة فى كل شىء من كلام أو نفس أو فعل أو ثوب أو مكان حتى يتبرك بتراب وطئه وبمكان جلس فيه يوماً وبانسان صحبه ورآه حينا ، والسادسة عشرة : تستخير الأرض من البر والبحر حتى إن شاء سار فى الهواء أو مشى على الماء أو قطع وجه

= احترام الحق ولا حرمان أعظم على المريد من عدم احترام الشيخ ومن قعد معهم فى مجالسهم وخالفهم فيما يتحققون به من أحوالهم نزع الله نور الايمان من قلبه فالجلوس معهم خطر وجليسهم على خطر اهـ فخذ كيفية معاملة الحق من المشايخ واشرب من حوض ذات النبي صلى الله عليه وسلم ولا تبال وإياك أنصح بعد التجارب الشهور والأعوام والليالي والأيام .

Digitized by Birzeit University Library

الأرض بأقلّ من ساعة ، والسابعة عشرة : تستخير الحيوان من السباع(١) والوحوش والهوام وغيرها فتحبه الوحوش وتبصبص له الأسود ، والثامنة عشرة : ملك مفاتيح الأرض فحيثما يضرب بيده فله كنز إن أراد وحيثما يضرب برجله فله عين ماء إن احتاج وأينما نزل فله مائدة تحضره إن قصد ، والتاسعة عشرة : القيادة والوجاهة على باب رب العزة فيبتغي الخلق الوسيلة إلى الله تعالى بخدمته ويستنجح الحاجات من الله تعالى بوجاهته وبركته ، والعشرون : إجابة الدعوى من الله تعالى فلا يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه ولا يشفع لأحد إلا شفع ولو أقسم على الله تعالى لأبره بما شاء حتى إن منهم من لو أشار إلى جبل لزال فلا يحتاج إلى السؤال باللسان ، ولو خطر بباله شيء لحضر ولا يحتاج إلى الأشاره باليد فهذه كرامات فى الدنيا .

وأما التى فى العقبى — فالحادية والعشرون : أن يهون الله عليه أولا سكرات الموت وهى التى وجلت قلوب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيها حتى سألوا الله أن يهونها عليهم حتى إن منهم من يكون الموت عنده مثل شربة الماء الزلال للظمآن قال الله عز وجل : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين » والثانية والعشرون : الثبات على المعرفة والايمان وهو الذى منه كل الخوف والفزع وعليه كل البكاء والجزع قال الله عز من قائل : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » والثالثة والعشرون : إرسال الروح والريحان والبشرى والرضوان والأمان قوله سبحانه وتعالى : « أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » فلا يخاف مما يقدم عليه في العقبى ولا يحزن على ما خلفه فى الدنيا ، والرابعة والعشرون : الخلود فى الجنان ومجاورة الرحمن ، والخامسة والعشرون : الخلوة فى السر

---

(١) قال إبراهيم الرقى قصدت أبا الخير التيناتى مسلما عليه فصلى المغرب فما قرأ الفاتحة مستويا فقلت فى نفسى : ضاعت سفرتى فلما سلمت خرجت للطهارة فقصدنى السبع فعدت إليه وقلت : إن الأسد قصدنى فخرج وصاح عليه وقال : ألم أقل لك لاتتعرض لضيفانى فتنحى الأسد ومضيت أنا وتطهرت فلما رجعت قال لى : اشتغلتم بتقويم الظاهر فختم الأسد واشتغلنا بتقويم الباطن فخافنا الأسد — هذا والشيخ الغزالى يحكى خلع الأولياء الكملة ممن منحهم الله الولاية الكبرى فانخرقت لهم العوائد وتصرفوا فى الأكوان بأمر الله قال لى سيدى إبراهيم الدسوقى فى رؤيا منامية : « إنى أتصرف فى ملك الله بأمر الله » .

Digitized by Birzeit University Library

لروحه فيعرج على ملائكة السموات والارض بالاكرام والالطاف والانعام ، ولبدنه في العلانية بتعظيم جنازته والمزاحمة على الصلاة عليه والمبادرة إلى تجهيزه يرجون بذلك أكثر ثواب ويعدونه أعظم غنم ، والسادسة والعشرون : الأمان من فتنة سؤال القبر وتلقين الثواب فيأمن من ذلك الهول ، والسابعة والعشرون : توسيع القبر وتنويره فيكون في روضة من رياض الجنة إلى يوم القيامة ، والثامنة والعشرون : إيناس روحه ونسمته وإكرامها فتجعل في أجواف طيور خضر مع الاخوان الصالحين فرحين مستبشرين بما آتاهم الله من فضله ، والتاسعة والعشرون : الحشر في العز والكرامة من حلل وتاج وبراق ، والثلاثون : بياض الوجه ونوره قال الله تعالى: «وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة » وقال : « وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة » والحادية والثلاثون : الأمن من أهوال يوم القيامة قال الله تعالى : « أم من يأتي آمنا القيامة » ، والثانية والثلاثون : الكتاب باليمين ومنهم من كفي الكتاب رأسا ، والثالثة والثلاثون : تيسير الحساب ومنهم من لا يحاسب أصلا ، والرابعة والثلاثون : ثقل الميزان ومنهم من لا يوقف للوزن أصلا ، والخامسة والثلاثون : ورود الحوض على النبي صلى الله عليه وسلم فيشرب شربة لا يظمأ بعدها أبدا ، والسادسة والثلاثون : جواز الصراط والنجاة من النار حتى إن منهم من لا يسمع حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون وتخمد لهم النار ، والسابعة والثلاثون : الشفاعة في عرصات القيامة نحوا من شفاعة الأنبياء والرسل ، والثامنة والثلاثون : ملك الأبد في الجنة ، والتاسعة والثلاثون : الرضوان الأكبر ، والأربعون : لقاء رب العالمين إله الأولين والآخرين بلا كيف جل جلاله .

ثم أقول : وإنما عددت ذلك على حسب فهمي ومبلغ علمي في قصوره ونقصه ومع ذلك فقد أجملت وأوجزت وذكرت الأصول والجمل ولو فصلت بعض ذلك لما احتمله الكتاب ألا ترى أني جعلت ملك الأبد خلعة واحدة ولو فصلتها لارتفعت على أربعين خلعة من نوع الحور والقصور واللباس وغير ذلك ثم كل نوع يشتمل على تفاصيل لا يحيط بها إلا عالم الغيب والشهادة الذي هو خالقها ومالكها وأي مطمع لنا في معرفة ذلك وربنا سبحانه يقول : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين » ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على

Digitized by Birzeit University Library

قلب بشر ، وإن المفسرين يقولون فى قوله تعالى : « لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى » إن هذه هى الكلمات التى يقولها الله تعالى لأهل الجنة فى الجنة باللطف والاكرام وما تكون حاله هذه ، فأنى نبلغ جزءا من ألف ألف جزء منه ونحن بشر أو كيف يحيط به علم مخلوق ، كلا بل تقاعدت الهمم وتقاصرت دونه العقول وحق أن يكون ذلك كذلك وهو عطاء العزيز العليم على مقتضى الفضل العظيم ، وحسب الجود القديم ألا فليعمل العاملون وليبذل المجتهدون جهدهم لهذا المطلوب العظيم ، وليعلموا أن ذلك كله أقل قليل فى جنب ماهم إليه محتاجون وإياه يطلبون وله يتعرضون ، وليعلموا أن العبد لابدّ له فى الجملة من أربعة : العلم والعمل والاخلاص والخوف . فيعلم أولا الطريق(١) وإلا فهو أعمى ، ثم يعمل بالعلم وإلا فهو محجوب ، ثم يخلص العمل وإلا فهو مغبون ، ثم لا يزال يخاف ويحذر من الآفات إلى أن يجد الأمان وإلا فهو مغرور ، ولقد صدق ذو النون حيث قال : الخلق كلهم موتى إلا العلماء والعلماء كلهم نيام إلا العاملين والعاملون كلهم مغترون إلا المخلصين والمخلصون كلهم على خطر عظيم .

قلت أنا : والعجب كل العجب من أربعة : أحدها من عاقل غير عالم أما يهتم بمعرفة مابين يديه ، أما يتعرف ماهو مطلع بعد الموت عليه بالنظر فى هذه الدلائل والعبر والاستماع إلى هذه الآيات والنذر والانزعاج بهذه الخواطر والهواجس فى النفس قال الله تعالى : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء » وقال

---

(١) وإنما يعلم الطريق ممن سلكه قبله من الشيوخ والعارفين فالصحبة لابد منها فى طريق القوم وفى صحبة الملائكة لسيد الأولين والآخرين مايشير إلى فوائد الصحبة لبلوغ درجات الكمال ـ فى بهجة المحافل : ومن غرائب ما ذكر شيخ شيوخنا القاضى مجدالدين الشيرازى رحمه الله وعثرت على صحته أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ تسع سنين أمر الله إسرافيل عليه السلام أن يقوم بملازمته فكان قريبا منه دائما فلما أن أتم إحدى عشرة سنة أمر جبريل عليه السلام بملازمته فلازمه تسعا وعشرين سنة بطريق المقاربة والملازمة لكن لم يظهر له ، قال : وفى بعض الروايات الصحيحة ظهر له فى ملازمته مرارا وكلمه بكلمة أو كلمتين وقبل نزول الوحى بخمس عشرة سنة كان يسمع صوتا أحيانا ولا يرى شخصا وسبع سنين كان يرى نورا وكان به مسرورا ، وقصة الخضر مع موسى عليهما السلام تشير إلى أن طريق الحقيقة يحتاج إلى الرجال .

Digitized by Birzeit University Library

تعالى : « ألا يظنّ أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم » ـ والثانى من عالم غير عامل بالعلم أما يتفكر ما يعلم يقينا مما بين يديه من الأهوال (١) العظام والعقبات الصعاب ، وهـذا هو النبأ العظيم الذى أنتم عنه معرضون ـ والثالث من عامل غير مخلص أما يتأمل قوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » ـ والرابع من مخلص غير خائف أما ينظر إلى معاملاته جلّ جلاله مع أصفيائه وأوليائه وخدمه الدالة بينه وبين خلقه حتى يقول لأكرم الخلق عليـه : « ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكونن من الخـاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » وهذه ونحوها حتى حكى أنه كان عليه السلام يقول شيبتنى هود وأخواتها . ثم جملة الأمر وتفصيله ما قاله رب العالمين فى أربع آيات من الكتاب العزيز ، قوله عز وجل : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون » ثم قال جل اسمه : « ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بمـا تعملون » ثم قال جل من قائل : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ثم أجمل الكل فقال وهو أصدق القائلين : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين » .

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زل به القدم أو طغا به القلم ، ونستغفره من كل أقاويلنا التى لا توافق أعمالنا ، ونستغفره من كل ما ادعيناه وأظهرناه من العلم بدين الله تعالى مع التقصير فيه ، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتزين فى كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه ، ونسـأله أن يجعلنا وإياكم يا معشر الاخوان بمـا علمناه عاملين ولوجهه به مريدين ، وأن لايجعله وبالا علينا وأن يضعه فى ميزان الصالحات إذا ردت أعمالنا إلينا ـ إنه جواد كريم .

قال الشـيخ رضى الله عنـه : فهذا ما أردنا أن نذكره فى شرح كيفية سـلوك طريق الآخرة وقد وفينا بالمقصود والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وبفضله تنزل البركات وصلى الله على خير مولود دعا إلى أفضـل معبود محمد النبى وعلى آله وسلم تسليما كثيرا طيبا مباركا فيه على كل حال .

---

(١) روى الحاكم عن ابن عباس مرفوعا « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة من قتل نبيا أو قتله نبى والمصورون وعالم لم ينتفع بعلمه » وروى ابن عسـاكر عن أبى هريرة رضى الله عنه « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » .

Digitized by Birzeit University Library

الكشف والتبيين

في غرور الخلق أجمعين

لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي

قدس الله سره

Digitized by Birzeit University Library

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم آمين وبه ثقتى — الحمد لله وحده وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

وبعد : فهذا كتاب الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين — اعلم أن الخلق قسمان : حيوان وغير حيوان ، والحيوان قسمان : مكلف (١) وغير مكلف ، فالمكلف من خاطبه الله بالعبادة وأمره بها ووعده بالثواب عليها ، ونهاه عن المعاصى وحذره العقوبة

---

(١) يشير إلى سرّ التكليف قوله سبحانه : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا » نبه الغزالى والبيضاوى وغيرهما على أن المراد بالأمانة تقلد عهدة التكاليف بأن تتعرض السموات والأرض لخطر الثواب والعقاب بالطاعة والمعصية ، وبعرضها عليهن اعتبارها بالاضافة إلى استعدادهن ، وبإبائهن الاباء الطبيعى الذى هو عدم اللياقة والاستعداد وبحمل الانسان قابليته واستعداده لها — وإنما يليق بالتكليف ويستعدّ له من كان له كمال بالقوة لا بالفعل كالملائكة فان كمالهم بالفعل ، فالبهائم ليس عندها استعداد الكمال بالقوة فهى فى تلطخها بالهيئات الخسيسة لا تزال مشغوفة بمقتضيات الطبيعة فانية فيها لا تنبعث إلى شىء إلا انبعاثا بهيميا يرجع إلى نفع جسدى واندفاع إلى ما تعطيه الطبيعة فقط ، أما الأنسان فقد أودعه الله بحكمته الباهرة قوتين قوة ملكية تتشعب من فيض الروح المخصوصة بالانسان على الروح الطبيعية السارية فى البدن وقبولها ذلك الفيض ، وقوة بهيمية تتشعب من النفس الحيوانية المشترك فيها كل حيوان ونتيجة ذلك أن كان بين القوتين تزاحما وتجاذبا فهذه تجذب إلى العلو فى حين أن تلك تجذب إلى أسفل والتكليف هو الميزان بين القوتين فالتكليف إذاً من مقتضيات النوع وإن الانسان ليسأل ربه بلسان استعداده أن يوجب عليه ما يناسب القوة الملكية ليثيبه على ذلك وأن يحرم عليه الانهماك فى البهيمية حتى لا يعاقب على ذلك .

Digitized by Birzeit University Library

وغير المكلف من لم يخاطبه بذلك . ثم المكلف قسمان : مؤمن (١) وكافر (٢) . والمؤمن قسمان : طائع وعاصى وكل واحد من الطائعين والعاصين ينقسم إلى قسمين : عالم وجاهل - ثم رأيت الغرور لازما لجميع المكلفين المؤمنين والكافرين إلا من عصمه الله رب العالمين (٣) . وأنا إن شاء الله تعالى أكشف عن غرورهم وأبين الحجة فيه وأوضحه غاية الايضاح وأبينه غاية البيان بأوجز مايكون من العبارة وأبدع مايكون من الاشارة .

فأقول وما توفيقى إلا بالله : واعلم أن المغرورين من الخلق ماعدا الكافرين أربعة أصناف : صنف من العلماء ، وصنف من العبّاد ، وصنف من أرباب الأموال ، وصنف من المتصوفة . فأول ما نبدأ به غرور الكفار وهم فى غرورهم قسمان : منهم من غرته

---

(١) الايمان هو تصديق النبى صلى الله عليه وسلم فى جميع ما علم بالضرورة مجيئه به من عند الله تعالى والاقرار بذلك — ثم الاقرار شرط لجريان الأحكام الدنيوية لاشطر عند الماتريدى خلافا للأشعرى فعلى قول الأشعري من ترك الاقرار بالشهادتين مع تمكنه منه مع وجود الايمان القلبى فهو كافر مخلد فى النار وعلى قول الماتريدى هو من أهل الجنة . ثم اعلم أن الايمان والاسلام والدين والشرع والشريعة والملة والناموس كلها متحدة بالذات ومتغايرة بالاعتبار فان ما جاء به النبى عليه السلام من عند الله من حيث يذعن ويعتقد يقال له الايمان ، ومن حيث ينقاد ويقبل يقال له الاسلام ، ومن حيث يثاب به ويجازي عليه يقال له الدين ، ومن حيث إنه طريق يسلك فيه ويوصل به يقال له الشرع والشريعة ، ومن حيث يجتمع عليه يقال له الملة ، ومن حيث جاء به ملك اسمه الناموس أعنى جبريل عليه السلام . وإنما اختلفت هذه الألفاظ بالاعتبارات المذكورة نظراً إلى مفهوماتها اللغوية .

(٢) الكافر من الكفر وأصله الستر فالذين كفروا غطوا الحق وستروه وقد كتب الله عليهم ذلك .

(٣) الواقع أن دبيب الغرور كالشرك الأصغر أعنى الرياء أخفى من دبيب النمل فالغزالى لم يعد الحقيقة حين قال : إن الحفظ من الغرور مخصوص بالعارفين وأكابر الأولياء وهم من حفظهم الله .

Digitized by Birzeit University Library

الحيـاة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور (١) . فأما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا : النقد خير من النسيئة ، ولذات الدنيا يقين ولذّات الآخرة شك ، ولا يترك اليقين بالشك وهذا قياس فاسد (٢) وهو قياس إبليس لعنه الله فى قوله أنا خـير منه ، فظن أن الخيرية فى السبب — وعلاج هذا الغرور شيئان : إما بتصديق وهو الايمان وإما ببرهان . أما التصديق فهو أن يصدق الله تعالى فى قوله : « وما عند الله خير وأبقى » وقوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (٣) » وتصديق الرسول فيما جاء به وأما البرهان فهو أن يعرف وجه فسـاد قياسـه أن قوله الدنيـا نقد والآخرة نسيئة مقدمة صحيحة ، وأما قوله النقد خـير من النسـيئة فهو محـل التلبيس ، وليس الأمر كذلك بل إن كان النقد مثل النسيئة فى المقدار والمقصود فهو خير وإن كان أقلّ منها

---

(١) غرتهم الحياة الدنيا ألهتهم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ، والغرور الشيطان قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة ، فانه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه وليس من ذلك شىء بل كان كما قال تعالى : « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

(٢) ليست المسألة مسألة أقيسة فاسدة أوصحيحة فالواقع أن أكثر الكفار ليس كفرهم عن أقيسة قائمة فى نفوسهم تموه عليهم وتغرهم ، إنمـا هو الغفلة المستحكمة نسوا الله فنسيهم ، ألهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر ، فالكافر فى الدنيا يشبه النائم المتلذذ بالأحلام الطيبة فاذا مات انتبه .

(٣) هذا الدواء حقيقة ولكن إنما يكون هذا إذا شرح الله صدر الكافر للاسلام ، أما الذين سبق عليهم الكتاب بالشقاء فقد طبع الله على قلوبهم فهم فى لذاتهم الدنيوية فى غمرة ساهون ، لا يعرفون آجلا ولا عاجلا ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضـل سبيلا ، ولذا لا يقال للكافر فى سكرة لذائذه إن اللذة الآتية فى الآخرة خير وأبقى لأنه وقد استحكمت غفلته لا يكاد يتبين للآخرة معالم . وكفار العالم قسمان : قسم يعد كالنائم لا يحس بالآخرة لانطماس بصيرته بالشهوات والمتع واللذائذ ، وقسم يشعر بالآخرة ولكنهم لا يدينون بعقائد المسـلمين وإنما يعرفون آخرتهم التى صورتها لهم دياناتهم ، والغرور بالمعنى الاصـطلاحى بعيد عن القسـمين اللهم إلا إذا جعلنا الغفلة المسـتحكمة غرورا اصطلاحا وحينئذ لا مشاحة فى الاصطلاح .

Digitized by Birzeit University Library

فالنسيئة خير منه ، ومعلوم أن الآخرة أبدية (١) والدنيا غير أبدية ـ وأما قولهم لذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فهو أيضا باطل ، بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان : أحدهما الايمان والتصديق على وجه التقليد للأنبياء والعلماء كما يقلد الطبيب الحاذق فى الدواء ، والمدرك الثانى الوحى للأنبياء والالهام للأولياء ، ولا تظن أن معرفة النبى صلى الله عليه وسلم لأمور الآخرة ولأمور الدنيا تقليد لجبريل عليه السلام (٢) ، فان التقليد ليس بمعرفة صحيحة والنبى صلى الله عليه وسلم حاشاه الله من ذلك بل قد انكشفت له الأشياء وشاهدها بنور البصيرة كما شاهد المحسوسات بالعين الظاهرة .

(فصل) والمؤمنون بألسنتهم وعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله وهى الأعمال الصالحة

---

(١) أما أن الآخرة أبدية فقد جاء بذلك الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين والفلاسفة الأولون قالوا : بخلود النفس فهى متنعمة أبدا أو معذبة أبدا ووافقهم على ذلك فلاسفة الاسلام كابن رشد الذى يرى أن الانسان لم يخلق عبثا بل خلق لغاية محددة وهى أن يدرك الكمال فى العلم والفضيلة ، وليس إدراك ذلك أمرا ممكنا فى هذه الحياة الدنيا لأنها حياة عابرة ، وحينئذ فلابد من التسليم عقلا بوجود حياة أخرى تعود فيها النفس لتلقى جزاءها ، فقد اتفق الكل على أن للانسان سعادتين : أخروية ودنيوية وانبنى ذلك عند الجميع على أصول معترف بها عند الكل منها ، أن الانسان أشرف من كثير من الموجودات ومنها أنه إذا كان كل موجود يظهر من أمره أنه لم يخلق عبثا وأنه إنما خلق لفعل مطلوب منه وهو ثمرة وجوده فالانسان أحرى بذلك وإذا أثبت حسب العقل والشرع معا أن الانسان خلق للقيام بأفعال خاصة به دون سواه من الحيوان علمنا أنه خلق من أجل كمال النفس الناطقة وهى التى تميزه عن غيره ، فاذا أدرك الموت الانسان فان كانت نفسه زكية طاهرة تضاعف زكاؤها وطهرها لأنها استطاعت التحرر من شهوات الجسم أما إن كانت خبيثة فان مفارقتها للبدن تزيدها خبثا على خبث .

(٢) أفاذا كان بعض الصحابة بل بعض الأولياء يرى الأمر عيانا فكثير منهم رأى الجنة ودخلها ـــ فكيف بنبينا صلى الله عليه وسلم وقد جاء فى مشهور السنة ما رآه ليلة الاسراء .

Digitized by Birzeit University Library

وتدنسوا (١) بالشهوات فهم مشاركون الكفار فى هذا الغرور ، فالحياة الدنيا للكافرين والمؤمنين جميعا غرور ـ فأما غرور الكافرين بالله فمثاله قول بعضهم فى أنفسهم بألسنتهم إنه إن كان الله معيدنا فنحن أحق به من غيرنا كما أخبر الله عنهم فى سورة الكهف حيث قال : « ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما أظن الساعة قائمة (٢) ولئن رددت إلى ربى لأجدنّ خيرا منها منقلبا » ، وسبب هذا الغرور قياس من أقيسة إبليس لعنه الله وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم فى الدنيا فيقيسون عليها نعم الآخرة ، ومرة ينظرون إلى تأخير عذاب الله عنهم فى الدنيا فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما أخبر الله عنهم أنهم يقولون : « لولا يعذبنا الله بما نقول » ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء فيزدرونهم ويقولون : « أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا » ويقولون : « لو كان خيرا ما سبقونا إليه » وترتيب القياس الذى نظم فى قلوبهم أنهم يقولون قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا وكل محسن فهو محب وكل محب فهو محسن ، وليس كذلك بل يكون محسنا ولا يكون محبا بل ربما يكون الاحسان سبب هلاكه على التدريج ، وذلك محض الغرور بالله تعالى ولذلك قال صلى الله عليه وسلم(٣) : إن الله يحمى عبده المؤمن من

---

(١) فى السنة أن كل معصية تنكت فى القلب نكتة سوداء فلا يزال العبد يفعل المعاصى حتى يسود قلبه كله وهذا السواد محسوس عند أهل البصائر فهم يرون دنس الشهوات لاصقاً بالنفوس كما يرون النفوس الصافية نيّرة مشرقة والمؤمن الذى اسودّ قلبه لا يرتوى إلا من أوخم المراتع فهو والكافر يسيران فى طريق واحد سمّه إن شئت غفلة كما يشير إليه قوله تعالى : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون » وإن شئت فسمه غروراً كما سماه أبو حامد .

(٢) قائمة أى كائنة ، وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة فى أرجائها وجوانبها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة .

(٣) الحديث رواه أبو الشيخ فى الثواب والحسن بن سفيان وابن عساكر وابن النجار عن حذيفة ولفظه كما فى الراموز « إن الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده بالخير وإن الله ليحمى عبده المؤمن من الدنيا كما يحمى المريض أهله الطعام » .

Digitized by Birzeit University Library

الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه - وكذلك كان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وإذا أقبل عليهم الفقر فرحوا وقالوا مرحبا بشعار الصالحين (١) وقد قال تعالى : « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن(٢) » وقال تعالى : « أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » وقال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم إن كيدي متين » وقال تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون » فلم يؤمن بالله من آمن بهذا الغرور ومنشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته (٣) ، فمن عرف الله فلا يأمن من مكره أولا ينظرون إلى فرعون وهامان والنمروذ ماذا حلّ بهم مع ما أعطاهم الله من المال ، وقد حذر الله تعالى من مكره فقال تعالى : « فلا يأمن مكر الله

---

(١) إن كمّل العارفين مع الله في تصرفه فلا يفرحون بالفقر ولا يحزنون للغنى ، بل هم مع حبيبهم كما أراد لأنهم لا يشهدون إلا الله ، ففرحهم إنما هو لأن هذا مراد حبيبهم لا لأن هذا حال لهم يشهدونه لأنهم لا يشهدون لأنفسهم حالا .

(٢) يقول تعالى منكرا على الانسان في اعتقاده إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان كما قال تعالى : « أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له ، قال الله تعالى ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في ذاك ، فان الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك وإذا كان فقيراً بأن يصبر .

(٣) ودواء الجهل بالله وصفاته الأخذ في أسباب العلم بالله وصفاته ، ومجالسة العلماء العاملين والأولياء العارفين والبعد عن مجالس الغافلين وأهل الدنيا والثراء والغنى ، فمجالستهم تقسي القلب وتلهي عن طاعة الله ، وقراءة الكتب الدينية وأهمها كتب السنة المحمدية وكتب التفسير وأمهات كتب الصوفية ككتب الامام أبي حامد والرسالة القشيرية وقوت القلوب لأبي طالب المكي والحلية لأبي نعيم الأصفهاني .

Digitized by Birzeit University Library

إلا القوم الخاسرون » وقال تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » وقال تعالى : « فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا » فمن أولاه الله نعمة فليحذر أن تكون نقمة .

(فصل) وأما غرور العصاة من المؤمنين فقولهم غفور رحيم وإنما نرجو عفوه ، فاتكلوا على ذلك وأهملوا الأعمال (١) وذلك من قبل الرجاء محمود فى الدين ، وإن رحمة الله واسعة ونعمته شاملة وكرمه عميم وإنا موحدون مؤمنون نرجو بوسيلة الايمان والكرم والاحسان ، وربما كان منشأ حالهم التمسك بصلاح الآباء والأمهات وذلك نهاية الغرور ، فان آباءهم مع صلاحهم وورعهم كانوا خائفين ، ونظم قياسهم الذى سول لهم الشيطان أن من أحب إنسانا أحب أولاده ، فان الله قد أحب آباءكم فهو يحبكم ، فلا تحتاجون إلى الطاعات فاتكلوا على ذلك واغتروا بالله ولم يعلموا أن نوحا عليه السلام أراد أن يحمل ابنه فى السفينة فمنع وأغرقه الله بأشد ما أغرق به قوم نوح وأن النبى صلى الله عليه وسلم استأذن فى زيارة قبر أمه وفى الاستغفار لها ، فأذن له فى

---

(١) كتب الشعرانى فى التنبيه يقول : ومن أخلاقهم رضى الله عنهم عدم الاغترار بالله تعالى بحيث يعتمد أحدهم على عفو الله ويترك الأعمال الصالحة بل كانوا يبالغون فى الاجتهاد فى العبادة ثم يعتمدون على فضل الله تعالى لا على أعمالهم وقد سئل سعيد بن جبير عن الاغترار بالله تعالى ماهو ؟ فقال : هو تمادى العبد فى العصيان ثم يتمنى على الله المغفرة ، وقد كان الحسن البصرى رحمه الله يقول : إن أقواما خرجوا من الدنيا ليس لهم حسنات من كثرة ما ألهتهم أمانى المغفرة يقول أحدهم إنى لحسن الظن بربى عز وجل فلا أبالى أكثر العمل أم قل وهو كاذب إذ لو كان حسن الظن بربه حقيقة لأحسن العمل ، وقد كان ميسرة العابد رحمه الله قد بدت أضلاعه من كثرة المجاهدة وكان إذا قيل له إن رحمة الله واسعة يزجر القائل ويقول صحيح ذلك : ولولا سعة رحمته لأهلكنا بذنوبنا فى طاعته فضلا عن معاصينا ، وكان حذيفة بن قتادة يقول : لو قال لي شخص إن أعمالك أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب لقلت له صدقت لا تكفر عن يمينك ، وكان حذيفة المرعشى يقول : إن لم تخف أن يعذبك الله تعالى على أحسن طاعاتك لما فيها من النقص وإلا فأنت هالك ، وكان الثورى يقول : أرجى الناس للنجاة أخوفهم على نفسه ألا ترى يونس عليه السلام لما ظن أن الله لا يعاقبه على دعائه على قومه عجل الله له المؤاخذة بحبسه فى بطن الحوت — انتهى باختصار .

Digitized by Birzeit University Library

الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار ونسوا قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وقوله تعالى : « وأن ليس للانسان إلا ماسعى » فان من ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه أو يروى بشرب أبيه ، والتقوى فرض عين لايجزي فيها والد عن ولده ، وعند جزاء التقوى يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه إلا على سبيل الشفاعة ، ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم : الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى . وقوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » وقال تعالى : « جزاء بما كانوا يعملون » وهل يصح الرجاء إلا إذا تقدمه عمل ، فان لم يتقدمه عمل فهو غرور لامحالة ، وإنما ورد الرجاء لتبريد حرارة الخوف واليأس ، ولتلك الفائدة نطق به القرآن والترغيب فى الزيادة لا محالة .

(فصل) ويقرب منهم غرور طوائف لهم طاعات ومعاص إلا أن معاصيهم أكثر ، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أن ترجح كفة حسناتهم ، وكفة سيئاتهم أكثر وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم عديدة من الحلال والحرام ، ويكون ما يتناوله من أموال الناس والشبهات أضعافه ، فهو كمن وضع فى كفة الميزان عشرة دراهم ووضع فى الكفة الأخري ألفا وأراد أن تميل الكفة التى فيها العشرة وذلك غاية الجهل .

(فصل) ومنهم من يظن أن طاعته أكثر من معاصيه لأنه لايحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيها وإذا عمل طاعة حفظها واعتدّ بها ، كالذى يستغفر الله بلسانه ويسبح بالليل والنهار مثلا مائة مرة أو ألف مرة ثم يغتاب المسلمين ويتكلم بما لايرضاه الله طول النهار ، ويلتفت إلى ما ورد من فضل التسبيح ويغفل عما ورد فى عقوبة الكذابين والنمامين والمنافقين وذلك محض الغرور . فحفظ لسانه عن المعاصى آكد من تسبيحه فسبحان من صدنا عن التنبيه .

(فصل فى بيان أصناف المغرورين — وأقسام كل صنف)

الصنف الأول من المغرورين العلماء — وهم فرق : فرقة منهم لما أحكمت العلوم الشرعية والعقلية تعمقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي ، وإلزامها

Digitized by Birzeit University Library

الطاعات واغترّوا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان ، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم بل يقبل شفاعتهم فى الخلق ولا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم ، وهم مغرورون فانهم لو نظروا بعين البصيرة لعلموا أن العلم علمان: علم معاملة وعلم مكاشفة وهو العلم بالله تعالى وبصفاته فلابد من علوم المعاملة لتتم الحكمة المقصودة وهى المعاملة بمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة ومثلهم مثل طبيب يطبب غيره وهو عليل قادر على طب نفسه فلم يفعل وهل ينفع الدواء بالوصف ؟ هيهات لا ينفع الدواء إلا من شربه بعد الحمية وغفلوا عن قوله تعالى : « قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها » ولم يقل من يعلم تزكيتها وكتب علمها وعلمها الناس ، وغفلوا عن قوله صلى الله عليه وسلم : من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً . وقوله صلى الله عليه وسلم : إن أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ، وغير ذلك كثير وهؤلاء مغرورون نعوذ بالله من جاههم وإنما غلب عليهم حب الدنيا وحب أنفسهم وطلب الراحة العاجلة وظنوا أن علمهم ينجيهم فى الآخرة من غير عمل (١) .

وفرقة أخرى — أحكموا العلم والعمل الظاهر وتركوا المعاصى الظاهرة وغفلوا عن قلوبهم فلم يمحوا منها الصفات المذمومة عند الله كالكبر والرياء والحسد وطلب

---

(١) الفرقة التى أحكمت العلوم الشرعية والعقلية وتعمقت فيها هم على ما بهم من الغرور الذى يصفه لنا الغزالى يؤدون رسالة العلم الخاصة ، والأمة محتاجة إلى كل الطوائف والصناع والعمال المغرورين وغير المغرورين ، فالجهل رذيلة بل هو رذيلة الرذائل ، وطامة الطامات على الأمم ، ولقد نجد المستشرقين من الغربيين يبحثون فى التراث الاسلامى فى أحوال المتصوفين وأقوالهم وأعمالهم وفلسفتهم بل منهم من تخصص فى ابن عربي مثلا ومنهم من عنى بابن تيمية شيخ الاسلام ، وأظن أنه لا يمكن أن يقال إن هؤلاء لا يؤدون رسالة المعرفة إلى الانسانية ، إن نظرة واحدة إلى الغزالى ترينا أنه لم يصل إلى هذه الدرجة الكبرى فى التصوف الاسلامى إلا بعد أن أحكم علوم الشريعة وتعمق فيها بل وكان من المغرورين بالعلم الذين ينعى عليهم ، نحن لا نجادل فى أن ميدان المعرفة الأسمى مخصوص بمن تطهروا من جميع الأخلاق الذميمة الظاهر منها والباطن لكننا فى الوقت نفسه محتاجون إلى كافة أنواع العلماء ليخرجوا لنا كنوز المعرفة التى هى أسمى شىء فى الدولة ولقد وصل إلى الله بالعلم الغزير كثير من عباقرة الاسلام فالعلم . العلم .

Digitized by Birzeit University Library

الرياسة والعلوّ وإرادة السوء بالأقران والشركاء وطلب الشهرة فى البلاد والعباد وذلك غرور سببه غفلتهم عن قوله صلى الله عليه وسلم : الرياء الشرك الأصغر(١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب (٢) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : حب (٣) المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل ، إلى غير ذلك من الأخبار ، وغفلوا عن قوله تعالى : « إلا من أتى الله بقلب سليم » فغفلوا عن قلوبهم واشتغلوا بظواهرهم ومن لا يصغى قلبه لا تصح طاعاته وهو كمريض ظهر به الجرب فأمره الطبيب بالطلاء وشرب الدواء فاشتغل بالطلاء وترك شرب الدواء فأزال ما بظاهره ولم يزل ما بباطنه وأصل ما على ظاهره مما فى باطنه فلا يزال جربه يزداد أبدا مما فى باطنه فلو زال ما فى باطنه استراح الظاهر فكذلك الخبائث إذا كانت كامنة فى القلب يظهر أثرها على الجوارح .

وفرقة أخري — علموا هذه الأخلاق الباطنة وعلموا أنها مذمومة من جهة الشرع إلا أنهم لأجل تعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم فى العلم فأما هم فهم أبلغ عند الله من أن يبتليهم بذلك وظهرت عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلوّ والشرف ، وغرورهم أنهم ظنوا أن ذلك ليس بكبر وإنما هو عز الدين وإظهار لشرف العلم ونصرة دين الله وغفلوا عن فرح إبليس به وعن نصرة النبى صلى الله عليه وسلم بماذا كانت وبماذا أرغم الكافرين وغفلوا عن تواضع الصحابة وتذللهم وفقرهم ومسكنتهم حتى عوتب عمر رضى الله عنه على بذاذته عند قدومه الشام فقال: إنا قوم أعزنا الله بالاسلام لا نطلب العز فى غيره ، ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرفيعة ويزعم أنه يطلب عز العلم وشرف الدين ومهما أطلق اللسان بالحسد فى أقرانه أو فيمن رد عليه شيئا من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ويقول : إنما هو غضب للحق ورد على المبطل فى عداوته وظلمه وهذا مغرور فانه لو طعن على غيره من العلماء من أقرانه ربما لم يغضب

---

(١) فى الاحياء قال صلى الله عليه وسلم: « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال الرياء » الحديث — قال العراقى رواه أحمد والبيهقى فى الشعب من حديث محمود بن لبيد ورواه الطبرانى أيضا منه أيضا .

(٢) رواه أبو داود من حديث أبى هريرة ، وابن ماجه من حديث أنس .

(٣) قال العراقى لم أجد حديثا بهذا اللفظ .

Digitized by Birzeit University Library

بل ربما يفرح ، وإن أظهر الغضب عند الناس فقلبه ربما يحبه وربما يظهر العلم ويقول غرضى به أن أفيد الخلق وهو به مراء لأنه لو كان غرضه صلاح الخلق لأحب صلاحهم على يد غيره ممن هو مثله أو فوقه أو دونه وربما يدخل على السلاطين ويتودد إليهم ويثنى عليهم فاذا سئل عن ذلك قال : إنما غرضى أن أنفع المسلمين وأدفع عنهم الضرر وهو مغرور، فلو كان غرضه ذلك لفرح به إذا جرى على يد غيره ، ولو رأى من هو مثله عند السلطان يشفع فى أحد لغضب وربما أخذ من أموالهم فاذا خطر بباله أنه حرام قال له الشيطان هذا مال بلامالك وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين وهذه ثلاث تلبيسات : أحدها أنه مال لامالك له، والثانى أنه لمصالح المسلمين ، والثالث أنه إمام ـ وهل يكون إماما إلا من أعرض عن الدنيا كالأنبياء والصحابة وأفاضل علماء هذه الأمة ومثله كما قال عيسى عليه السلام : العالم السوء كصخرة وقعت فى فم الوادى فلا هى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يخلص إلى الزرع ، وأصناف غرور أهل العلم كثيرة وما يفسد هؤلاء أكثر مما يصلحونه .

وفرقة أخرى — أحكموا العلوم وطهّروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظاهر المعاصى وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والكبر والحقد وطلب العلوّ وجاهدوا أنفسهم فى التبرى منهـا وقلعوا من القلب منابتها الجلية القوية ولكنهم مغرورون إذ فى زوايا القلب بقايا من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خدع النفس مادق وغمض فلم يتفطنوا لها وأهملوها ومثلهم كمثل من يريد تنقية الزرع من الحشيش فدار عليه وفتش عن كل حشيش فقلعه إلا أنه لم يفتش عما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض ويظن أن الكل قد ظهر وبرز فلما غفل عنها ظهرت وأفسدت عليه الزرع فهؤلاء إن غيروا تغيروا وربما تركوا مخالطة الخلق استكبارا عنهم وربما نظروا إلى الخلق بعين الحقارة وربما يجتهد بعضهم فى تحسين منظره كيلا ينظر إليه بعين الركاكة .

وفرقة أخرى — تركوا المهم من العلوم واقتصروا على علم الفتاوى فى الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح المعايش وخصصوا اسم الفقيه وسموه الفقه وعلم المذهب وربما ضيعوا مع ذلك علم الأعمال الظاهرة والباطنة ولم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة ، والبطن عن الحرام والرجل عن السعي إلى السلاطين ، وكذا سائر الجوارح ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والرياء والحسد وسائر المهلكات وهؤلاء مغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل ، وقد ذكرنا وجه علاجه فى كتاب الاحياء وأن مثلهم كمثل المريض الذى تعلم الدواء من

Digitized by Birzeit University Library

الحكماء ولم يعلمه أو يعمله فهؤلاء مشرفون على الهلاك من حيث إنهم تركوا تزكية أنفسهم وتخليها واشتغلوا بكتاب الحيض والديات واللعان والظهار وضيعوا أعمارهم فيها وإنما غرّهم تعظيم الخلق لهم وإكرامهم ورجوع أحدهم قاضيا ومفتيا ويطعن كل واحد منهم فى صاحبه فاذا اجتمعوا زال الطعن — والثانى من حيث العلم ، وذلك لظنهم أنه لا علم إلا بذلك وأنه الموصل المنجى وإنما الموصل المنجى حب الله تعالى ولا يتصور حب الله تعالى إلا بمعرفته ومعرفته ثلاث : معرفة الذات ومعرفة الصفات ومعرفة الأفعال وهؤلاء مثل من اقتصر على بيع الزاد فى طريق الحاج ولم يعلموا أن الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمزجرة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى كما قال تعالى: «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون» ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ولم يهمّه إلا تعلم طريق المجادلة والالزام وإفحام الخصم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة فهو طول الليل والنهار فى التفتيش فى مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الأقران ، وهؤلاء لم يقصدوا العلم وإنما قصدوا مباهاة الأقران ولو اشتغلوا بتصفية قلوبهم كان خيرا لهم من علم لا ينفع إلا فى الدنيا ونفعه فى الدنيا التكبر وذلك ينقلب فى الآخرة نارا تلظى. وأما أدلة المذهب فيشتمل عليها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فما أقبح غرور هؤلاء.

وفرقة أخرى — اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة والردّ على المخالفين وتتبع مناقضاتهم واستكثروا من علم المقولات المختلفة واشتغلوا بتعليم الطريق فى مناظرة أولئك وإفحامهم ولكنهم على فرقتين : إحداهما ضالة مضلة والأخرى محقة ، أما غرور الفرقة الضالة فلغفلتها عن ضلالتها وظنها بنفسها النجاة وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا وإنما ضلوا من حيث إنهم لم يحكموا لشروط الأدلة ومناهجها فرأوا الشبهة دليلا والدليل شبهة . وأما غرور الفرقة المحقة فمن حيث إنهم ظنوا الجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات فى دين الله وزعموا أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ولم يبحث وأن من صدق الله من غير بحث وتحرير لدليل فليس بمؤمن ولا بكامل ولا بمقرّب عند الله تعالى ولم يلتفتوا إلى القرن الأول وأن النبى صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ولم يطلب منهم الدليل . وروى أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ماضلّ قوم قط إلا أوتوا الجدل (١) .

(١) وهذا أيضا نوع من التصوف السلبى وتحريض على عدم الاشتغال بعلم الكلام =

Digitized by Birzeit University Library

وفرقة أخرى — اشتغلوا بالوعظ وإعلاء رتبة من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والاخلاص

= لنأمن الغرور، وأقول أيضا بوجوب النظر فى هذا العلم وطرح مايترتب على التبحّر فيه من الغرور بل النظر فى هذا العلم من طبيعة الاسلام ورضى الله عن مجدد هذا القرن الأستاذ محمد عبده مفتى الديار المصرية حيث يقول فى رسالة التوحيد : « هذا النوع من العلم — علم تقرير العقائد وبيان ماجاء فى النبوات — كان معروفا عند الأمم قبل الاسلام فى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى وبناء آرائهم وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع العقول فى العلم ومضارب الدين فى الالزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرق نقيض — جاء القرآن فنهج بالدين منهجا لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة منهجا يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه فلم يقصر الاستدلال على نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة ، بل جعل الدليل فى حال النبى مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو فى مثل أقصر سورة منه ، وقص علينا من صفات الله مأأذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم ، لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ولكنه أقام الدعوى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين وكرّ عليهما بالحجة وخاطب العقل واستنهض الفكر وعوض نظام الأكوان وما فيها من الاحكام والاتقان على أنظار العقول وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ماادعاه ودعا إليه ، واعتضد بالدليل حتى فى باب الأدب فقال : « ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » وتأخي العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل بتصريح لايقبل التأويل ، وتقرر بين المسلمين كافة أن من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل وعلمه بما يوحي به إليهم وإرادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشىء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل — انتهى كلام الامام محمد عبده باختصار .

Digitized by Birzeit University Library

والصدق وهم مغرورون لأنهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد اتصفوا بها وهم منفكون عنها إلا عن قدر يسير لاينفك عنه عوام المسلمين وغرورهؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الاعجاب ويظنون أنهم ماتبحروا فى علم المحبة إلا وهم من الناجين عند الله وأنهم مغفورلهم بحفظهم لكلام الزهّاد مع خلوهم من العمل. وهؤلاء أشد غرورا ممن كان قبلهم لأنهم يظنون أنهم يحبون فى الله ورسوله وما قدروا على تحقيق دقائق الاخلاص إلا وهم مخلصون ولا وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون، وكذلك جميع الصفات وهم أحب فى الدنيا من كل أحد ويظهرون الزهد فى الدنيا لشدة حرصهم عليها وقوة رغبتهم فيها ويحثون على الاخلاص وهم غير مخلصين، ويظهرون الدعاء إلى الله وهم منه فارون، ويخوفون بالله وهم منه آمنون ويذكرون بالله وهم له ناسون، ويقربون إلى الله وهم منه متباعدون ويذمون الصفات المذمومة وهم بها متصفون، ويصرفون الناس عن الخلق وهم على الخلق أشدهم حرصا لو منعوا عن مجالسهم التى يدعون فيها الناس إلى الله لضاقت عليهم الأرض بما رحبت ويزعمون أن غرضهم إصلاح الخلق ولو ظهر من أقران أحدهم من أقبل الخلق عليه ومن صلحوا على يديه لمات غما وحسدا ولو أثنى واحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه فهؤلاء أعظم غرورا وأبعد عن التنبيه والرجوع إلى السداد.

وفرقة أخرى — عدلوا عن المهم الواجب فى الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعدل طلبا للاغراق، وطائفة اشتغلوا بتيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها وأكثر همهم فى الأسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم أن يكثر فى مجلسهم التواجد والزعقات ولو على أغراض فاسدة فهؤلاء شياطين الانس ضلوا وأضلوا، فان الأولين إنما يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم، وأما هؤلاء فانهم يصدون عن سبيل الله ويجرون الخلق إلى الأغراض والغرور بالله بلفظ الخرافة جراءة على المعاصى ورغبة فى الدنيا لاسيما إذا كان الواعظ متزينا بالثياب والخيلاء والمرائى ويعظهم بالقنوط من رحمة الله حتى ييأسوا من رحمته.

وفرقة أخرى منهم — قنعوا بكلام الزهاد وأحاديثهم فى ذم الدنيا فيعيدونها على

Digitized by Birzeit University Library

نحو ما يحفظون من كلام من حفظوه من غير إحاطة بمعانيه ، فيعظهم الواحد منهم بذلك على المنابر وبعضهم يعظون الناس فى الأسواق مع الجلساء ويظن أنه ناج عند الله وأنه مغفور له بحفظه كلام الزهاد مع خلوه من العمل ، وهؤلاء أشد غرورا ممن كان قبلهم .

وفرقة أخرى — استغرقوا أوقاتهم فى علم الحديث أعنى فى سماعه(١) وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية فهم أحدهم أن يدور فى البلاد ويروى عن الشيوخ ليقول أنا أروى عن فلان ولقيت فلانا ومعي من الأسانيد ماليس مع غيري وغرورهم من وجوه : منها أنهم كحملة الأسفار فانهم لا يصرفون العناية إلى فهم السنة وتدبّر معانيها وإنما هم مقتصرون على النقل ويظنون أن ذلك يكفيهم وهيهات ، بل المقصود من الحديث فهمه وتدبر معانيه فالأول فى الحديث السماع ثم الحفظ ثم الفهم ثم العمل ثم النشر ، وهؤلاء اقتصروا على السماع ثم لم يحكموه وإن كان لا فائدة فى الاقتصار عليه والحديث فى هذا الزمان يقرأه الصبيان وهم غرة غافلون والشيخ الذى يقرأ عليه ربما يكون غافلا حتى يصحّف الحديث ولا يعلم وربما ينام ويروى عنه الحديث وهو لا يعلم وكل ذلك غرور ، وإنما الأصل فى استماع الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما سمعه ويؤديه كما حفظه فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع ، فان عجز عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه من الصحابة أو من التابعين فيصير سماعه منهم كسماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن يصغي ويحفظ ويرويه كما حفظه حتى لا يشك فى حرف واحد منه وإن شك فيه لم يجزله أن يرويه أو يعلم به ويخطيء به إن أخطأ ، وحفظ الحديث يكون بطريقين: أحدهما بالقلب مع الاستدامة والذكر ، والثانى يكتب ما يسمع ويصحح المكتوب

---

(١) اللهم إن هذا العلم علم الحديث قد نفقت بضاعته من السوق ، إلا نفرا قليلا من علماء شمال افريقيه ، ولسنا بحمد الله ننعى عليهم غرورهم بل إن الحكومات الاسلامية ليجب عليها أن تشجع علماء الحديث بما تستطيع . فلقد انتشر بين المسلمين عامتهم وخاصتهم كلمات يتناقلونها فيما بينهم على أنها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما تكون هى حكمة أو مدسوسات فى الأحاديث ، فنحن أيضا محتاجون لمحدثين ولو مغرورين ليبيّنوا لنا الحديث الصحيح من غيره فلكل رسالة فى الحياة .

Digitized by Birzeit University Library

ويحفظه كيلا تصل إليه يد من يغيره ، ويكون حفظه للكتاب أن يكون فى خزانته محروسا حتى لا تمتد إليه يد غيره أصلا ولا يجوز أن يكتب سماع الصبى والغافل والنائم ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الصبى فى المهد - وللسماع شروط كثيرة والمقصود من الحديث العمل به ومعرفته وله مفهومات كثيرة كما للقرآن وروى عن أبى سفيان بن أبى الخير المنهي أنه حضر فى مجلس زاهر بن أحمد السرخسى فكان أول حديث روى قوله صلى الله عليه وسلم : من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه ، فقام وقال : يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره ، فهكذا هو سماع الناس .

وفرقة أخرى — اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة إذ قوام الدين والسنة بعلم النحو واللغة فأفنوا أعمارهم فى دقائق النحو واللغة وذلك غرور عظيم فلو عقلوا لعلموا أن لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره فى لغة العرب كالمضيع عمره فى لغة الترك والهند وغيرهم وإنما فارقهم من أجل ورود الشرع ، وكفى من اللغة علم الغريب فى الكتاب والسنة ومن النحو ما يتعلق بالكتاب والسنة (١) وأما التعمق فيه إلى درجة لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه وصاحبه مغرور .

الصنف الثانى من المغرورين أصحاب العبادات والأعمال — والمغرورون منهم فرق كثيرة : منهم من غروره فى الصلاة ، ومنهم من غروره فى تلاوة القرآن ، ومنهم من غروره فى الحج ، ومنهم من غروره فى الجهاد ، ومنهم من غروره فى الزهد ، ومنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل وربما تعمقوا فيها حتى يخرجوا إلى السرف والعدوان ، كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ ولا يرتضي الماء المحكوم بطهارته فى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة ، وإذا آل الأمر إلى أكل الحرام قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أولى بدليل سير الصحابة رضى الله عنهم فقد توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرة نصرانية مع احتمال ظهور النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال خوفا من الوقوع فى الحرام .

وفرقة أخرى — غلبت عليهم الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان يعقد نية

(١) تعلم اللغة والنحو والشعر فرض كفاية على المسلمين ولولا علم اللغة والنحو لما عرفت الأحكام الشرعية .

Digitized by Birzeit University Library

صحيحة بل يوسوس عليه حتى تفوته الجماعة وربما أخرج الصلاة عن الوقت وإن تم تكبيرة الاحرام يكون فى قلبه تردد فى صحة نيته وقد يتوسوس فى التكبير حتى يغير صفة التكبير لشدة الاحتياط ويفوته الاستماع للفاتحة ويفعل ذلك فى أول الصلاة ثم يغفل فى جميعها ولا يحضر قلبه ويغتر بذلك ولم يعلم أن حضور القلب فى الصلاة هو الواجب وإنما غرّه إبليس وزين له ذلك وقال له : ذلك الاحتياط تتميز به عن العوام وأنت على خير عند ربك .

وفرقة أخرى — غلبت عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة من مخارجها وكذلك سائر الأذكار فلا يزال يحتاط فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء لا يهمه غير ذلك ولا يتفكر فى أسرار فاتحة الكتاب ولا فى معانيها ولم يعلم أنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام وهذا غرور عظيم ، ومثلهم من حمل الرسالة إلى مجلس السلطان وأمر أن يؤديها على وجهها فأخذ يؤدي الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ويعيدها مرة بعد أخرى وهو مع ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس ، فهذا لاشك أنه تقام عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل .

وفرقة أخرى — اغتروا بتلاوة القرآن فيهدروا به هدرا ربما يختمون فى اليوم والليلة ختمة (١) وألسنتهم تجرى به وقلوبهم تتردد فى أودية الأمانى والتفكر فى الدنيا ولا تتفكر فى معانى القرآن ليزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار منه ويتلذذ به من حيث المعنى لامن حيث النظم . فمن قرأ كتاب الله فى اليوم والليلة مائة مرة ثم ترك أوامره ونواهيه يستحق العقوبة ، وربما كان له صوت طيب فهو يقرأ ويتلذذ به ويغتر باستلذاذه ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله سبحانه وسماع كلامه وهيهات ما أبعده إذ لذته فى صوته فلو أدرك لذة كلام الله ما نظر إلى

---

(١) ليت شعرى أين هؤلاء الذين يهدرون بالقرآن هدرا ؟ إن مصر وهي عاصمة البلاد الاسلامية قد انتشر فيها التعليم المدنى خصوصا بعد أن أصبح مجانيا فقل الحفظة فيها جدا ، ولقد أخبرنى شيخنا الشيخ على محمد الضبّاع شيخ المقارىء بالديار المصرية أنه لما تولى المشيخة كان عدد القراء الحافظين والمدونة أسماؤهم فى سجلات مشيخة المقارىء اثنى عشر ألف قارى تناقص عددهم فى أثناء مشيخته إلى أربعة آلاف قارىء هكذا سمعت منه حفظه الله .

Digitized by Birzeit University Library

صوته وطيبه ولا تعلق خاطره به ، ولذة كلام الله إنما هى من حيث المعنى فهو فى غرور عظيم .

وفرقة أخرى — اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر وصاموا الأيام الشريفة وهم فى ذلك لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة ولا خواطرهم عن الرياء ولا بطونهم عن الحرام عند الافطار ولا من الهذيان بأنواع الفضول فهؤلاء تركوا الواجب واتبعوا المندوب وظنوا أنهم يسلمون وهيهات إنما يسلم من أتى الله بقلب سليم فهم مغرورون أشد الغرور .

وفرقة أخرى — اغتروا بالحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وربما ضيعوا الصلاة المكتوبة فى الطريق وربما عجزوا عن طهارة الثوب والبدن ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منه ولا يحترزون فى الطريق من الرفث والخصام ، وربما جمع بعضهم الحرام فأنفقه على الرفقاء فى الطريق وهو يطلب به الرياء والسمعة فيعصى الله فى كسب الحرام أولا وفى إنفاقه للرياء ثانيا ثم يبلغ إلى الكعبة ويحضرها بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميم الصفات وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه وهو مغرور (١) .

وفرقة أخرى — أخذت فى طريق الخشية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وينكر أحدهم على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعز وإذا باشر منكرا وأنكر عليه أحد غضب وقال : أنا المحتسب فكيف تنكر على ، وقد يجمع الناس فى المسجد ومن تأخر عنه أغلظ عليه فى القول وربما

---

(١) فى كل سنة يخرج من مصر إلى الأراضى الحجازية مالا يقل عن عشرين ألف حاج ومن هذه المجموعة من هم غواة حج وفى أهلهم من هو محتاج إلى الصدقة ، فلو أن هؤلاء الغواة وضعوا هذه الأموال فى مشاريع اجتماعية فى قراهم لخففوا ألم الفقر والجوع عن كثير من إخوانهم المسلمين — وفى التجنيس والمزيد ومنية المفتى وغيرها من كتب الحنفية أن الصدقة بعد أداء الفريضة أفضل من نفل الحج ، والمراد من أفضلية الصدقة على الحج أن يتصدق قدر نفقة الحج ، أما لو تصدق أقل منها فالحج أفضل بلا خلاف ، وقد صرح بالمراد فى الفتوى البزاز حيث قال : ومراده أنه لو حج نفلا وانفق ألفا فلو تصدّق بهذه الألف على المحاويج فهو أفضل إلا أن يكون صدقة أقل فليس أفضل من الحج .

Digitized by Birzeit University Library

عرض له الرياء والسمعة والرياسة وعلامته أنه لو قام بالمسجد غيره تجرأ عليه ، ومنهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن فى وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال : لم آخذ حقى وزوحمت ، ومنهم من يتقيد إمام مسجد ويظن أنه خير وغرضه أن يقال إنه إمام مسجد كذا وكذا وعلامته أنه لو قدم غيره وإن كان أورع منه وأعلم ثقل عليه ذلك .

وفرقة أخرى — جاوروا بمكة والمدينة واغتروا بهما ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظواهرهم وبواطنهم وربما كانت قلوبهم متعلقة ببلادهم ومنازلهم وتراهم يتحدثون بذلك ويقولون جاورت بمكة كذا وكذا سنة ، وهذا مغرور لأن الأقوم له أن يكون فى بلده وقلبه متعلق بمكة وإن جاور فليحفظ حق الجوار فان جاور بمكة حفظ حق الله وإن جاور بالمدينة حفظ حق النبى صلى الله عليه وسلم . ومن يقدر على ذلك ، وهؤلاء مغرورون بالظواهر فظنوا أن الحيطان تنجيهم وهيهات وربما لم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير وما أصعب المجاورة فى حق الخلق فكيف مجاورة الخالق وما أحسن مجاورته بحفظ جوارحه وقلبه .

وفرقة أخرى — زهدت فى المال وقنعت من الطعام واللباس بالدون ومن المسكن بالمساجد ، وظنوا أنهم أدركوا رتبة الزهاد وهم مع ذلك راغبون فى الرياسة والجاه — والرياسة إنما تحصل بأحد أشياء : إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد ، فقد تركوا أهون الأمرين وبادروا إلى أعظم المهلكات ، لأن الجاه أعظم من المال ، ولو ترك أحدهم الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب ، وهؤلاء مغرورون ظنوا أنهم من الزهاد فى الدنيا وهم لم يعلموا معنى الدنيا وربما يقدم الأغنياء على الفقراء ، ومنهم من يعجب بعلمه ، ومنهم من يؤثر الخلوة والعزلة وهو عن شروطها خال ، ومنهم من يعطى له المال فلا يأخذه خيفة أن يقال بطل زهده وهو راغب فى المال والناس خائف من ذمهم ، ومنهم من شدد على نفسه فى أعمال الجوارح حتى يصلى فى اليوم والليلة مثلا ألف ركعة ويختم القرآن وهو فى جميع ذلك لا تخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات ، وربما يظن أن العبادات الظاهرة ترجح بها كفة الحسنات وهيهات ذرة من ذى تقوى وخلق واحد من خلق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح ثم قد يغتر بقول من يقول له : إنك من أوتاد الأرض أو

Digitized by Birzeit University Library

من أولياء الله وأحبابه فيفرح بذلك ويظهره له تزكية نفسه ولو شوتم يوما واحداً مرتين أو ثلاثا لكفر وجاهد من فعل ذلك به وربما قال لمن سبه : لا يغفر الله لك أبدا .

وفرقة أخرى — حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض فتري أحدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل وأمثال هذه النوافل، ولا يجد لصلاة الفرض لذة ولا خيرا من الله تعالى لشدة حرصه على المبادرة بها فى أول الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم : ما تقرب المتقربون بأفضل من أداء ما أفترضه الله عليهم - وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور بل قد يتعين على الانسان فرضان : أحدهما يفوت والآخر لا يفوت ، أو نفلان : أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته فان لم يحفظ الترتيب كان مغرورا ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى فان المعصية ظاهرة وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل ، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات التى لا قائم بها على ما قام بها غيره ، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه ، وتقديم ما يفوت مثل تقديم حق الوالدة على الوالد وتقديم نفقة الأبوين على الحج وتقديم الجمعة إذا حضر وقتها على العيد وتقديم الدين على فروض غيره . وما أعظم العبد أن ينفذ ذلك ويتنبه ولكن الغرور فى الترتيب دقيق خفى لا يقدر عليه إلا العلماء الراسخون فى العلم .

الصنف الثالث من المغرورين أرباب الأموال — وهم فرق كثيرة : فرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر والصهاريج للماء وما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم بالآجر عليه ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم ، وهم يظنون أنهم استحقوا المغفرة بذلك وقد اغتروا فيه من وجهين : أحدهما أنهم اكتسبوها من الظلم والشبهات والرشا والجاهات المحظورة فهؤلاء قد تعرضوا لسخط الله فى كسبها فاذا عصوا الله فى كسبها فالواجب عليهم التوبة ورد الأموال إلى أهلها إن كانوا أحياء وإلى ورثتهم إن لم يبق منهم أحد وانقرضوا فان لم يبق لهم ورثة فالواجب عليهم أن يصرفوها فى أهم المصالح وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين فأى فائدة فى بنيان يستغنى عنه ويموت ويتركه وإنما غلب على هؤلاء الرياء والشهرة ولذة الذكر — والوجه الثانى أنهم يظنون بأنفسهم الاخلاص وقصد الخير فى الانفاق وعلو الأبنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا على مسكين لم تسمح نفسه بذلك لأن حب المدح والثناء مستكن فى باطنه .

Digitized by Birzeit University Library

وفرقة أخرى — ربما اكتسبوا المال الحلال واجتنبوا الحرام وأنفقوه [١] على المساجد وهم أيضا مغرورون من وجهين : أحدهما الرياء وطلب السمعة والثناء فانه ربما يكون فى جواره أو بلده فقراء وصرف المال إليهم أهم فان المساجد كثيرة والغرض منها الجامع وحده فيجزىء عن غيره وليس الغرض بناء مسجد فى كل سكة وفى كل درب والمساكين والفقراء محتاجون ، وإنما خف عليهم دفع المال فى بناء المساجد لظهور ذلك بين الناس ولما يسمع من الثناء عليه من عند الخلق فيظن أنه يعمل لله وهو يعمل لغير الله ونيته أعلم بذلك ، وإنما نبته عليه غضب ، وقال : إنما قصدت الله عزوجل — والثانى أنه يصرف ذلك فى زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش المنهى عنها الشاغلة قلوب المصلين لأنهم ينظرون إليها فتشغلهم عن الخشوع فى الصلاة وعن حضور القلب ، وهو المقصود من الصلاة فكل ماطرأ فى صلاتهم وفى غير صلاتهم فهو فى ميزان الذى بناه إذ لا يحل تزيين المسجد بوجه . قال الحسين رضى الله عنه : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجده بالمدينة أتاه جبريل وقال : ابنه سبعة أذرع طولا فى السماء فلا تزخرفه ولا تنقشه ، فهؤلاء رأوا المنكر معروفا واتكلوا عليه فهم مغرورون فى ذلك .

وفرقة أخرى — ينفقون الأموال فى الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ، ومن الفقراء من عادته الشكر وإفشاء المعروف فيكرهون التصدق فى السر ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم خيانة عليهم وكفرانا للمعروف وربما تركوا جيرانهم جائعين ، ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : فى آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب يهوى لهم السفر ويبسط لهم فى الرزق ويرجعون مجرمين مسلوبين يهوى بأحدهم بعيره بين القفار والرمال وجاره مأثور إلى جنبه فلا يواسيه ولا يتفقده .

---

(١) إن صنفا واحدا من البشر هم الذين سلمت لهم الأعمال من الشوائب وهم الأنبياء وليس عندنا أمة أغنياؤها من الأنبياء ولذا فمحاولة تخليص أعمال البر والخير الصادرة من الأغنياء من الشوائب تعطيل وتثبيط عن أعمال يعود نفعها على المجموع — إن عمارة الكون لم تتم إلا بتضافر القوى البشرية فلينفق كل ذى سعة من سعته فى الخيرات والمبرات ولا عليه من كلام أى حامد . فأمثال الغزالي ممن بلغوا درجة الزهد وصفت أعمالهم لا تقوم على أيديهم عمارة الدنيا .

Digitized by Birzeit University Library

وفرقة أخرى — من أرباب الأموال : يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ويشتغلون بالعبادة البدنية التى لا يحتاجون فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهم محتاجون إلى قمعه باخراج المال فاشتغلوا بطلب فضائل وهم مشتغلون عنها ، ومثلهم كمثل من دخلت فى ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك فاشتغل بطلب السكنجبين ليسكن به الصفراء ومن لدغته الحية كيف يحتاج إلى ذلك . وقيل لبشر الحافى إن فلانا كثير الصوم والصلاة ، فقال : المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره إنما حال هذا إطعام الطعام للجائع والانفاق على المساكين فهو أفضل له من تجويع نفسه ومن صلاته مع جمعه الدنيا ومنعه الفقراء .

وفرقة أخرى — غلب عليهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط ثم إنهم يخرجونها من المال الخبيث الردىء الذى يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد فى حوائجهم أو من يحتاجون إليه فى المستقبل للاستئجار له فى الخدمة ومن لهم فيه على الجملة غرض ويسلمونها إلى شخص يعينه واحد من الكبار ممن يستظهر بحشيته لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجته وكل ذلك مفسد للنية ومحبط للعمل وصاحبه مغرور ويظن أنه مطيع لله وهو فاجر إذ يطلب بعبادة الله غرضا من غيره فهذا وأمثاله مغرورون بالأموال .

وفرقة أخرى — من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء : اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم فاتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم أجرا على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ وهم مغرورون لأن فضل مجالس الذكر إنما تحصل لكونها مرغبة فى الخير فان لم تهيج الرغبة فلا خير فيها ، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل فان لم تبعث على العمل فلا خير فيها ، وربما يغتر بما يسمعه من الوعظ وربما تداخله رقة كرقة النساء فيبكى وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزال يصفر بين يديه ويقول : ياسلام سلم ونعوذ بالله وحسبى الله ولاحول ولاقوة إلابالله ، ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور ، وإنما مثله كمثل المريض الذى يحضر مجالس الأطباء ويسمع مايصفونه من الأدوية ولا يفعلها ولا يشتغل بها ويظن أنه يجد الراحة بذلك ، وكذلك الجائع الذى يحضر عند من يصف الأطعمة اللذيذة . فكل وعظ لا يغير منك صفة تغييرا تتغير بها أفعالك حتى تقبل إلى الله عز وجل وتعرض عن الدنيا

Digitized by Birzeit University Library

وتقبل إقبالا قويا فان لم تفعل بذلك الوعظ كان زيادة حجة عليك ، فاذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا .

الصنف الرابع من المغرورين المتصوفة — وما أغلب الغرور على هؤلاء . منهم متصوفة أهل هذا الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزى والمنطق والهيئة فشابهوا الصادقين من الصوفية فى زيهم وهيئتهم وألفاظهم وآدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم وأحوالهم الظاهرة فى السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادة مع إطراق الرأس وإدخاله فى الجيب كالمتفكر مع تنفيس الصعداء وفى خفض الصوت فى الحديث وفى الصياح إلى غير ذلك ، فلما تعلموا ذلك ظنوا أن ذلك ينجيهم فلم يتعبوا أنفسهم قط بالمجاهدة والرياضة والمراقبة للقلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الجلية والخفية وكل ذلك من منازل التصوف ، ثم إنهم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون فى الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه فى شىء من غرضه فهؤلاء غرورهم ظاهر ، فمثلهم كمثل عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال والمقاتلين ثبتت أسماؤهم فى الديوان فتزيت بزيهم ووصلت إلى الملك فعرضت على ميزان العرض فوجدت عجوز سوء ، فقيل لها أما تستحيى فى استهزائك بالملك اطرحوها حول الفيل فطرحت حول الفيل فركضها حتى قتلها (١) .

---

(١) أجاد أبو حامد وأبدع فى وصف غرور الصوفية فكان الطبيب الروحى الذى شخص الداء ودل على مكمنه — هذا وإنا لا نهضم مشايخ الصوفية فى الديار الاسلامية ماقاموا به من الوقوف فى وجه التبشير والاستعمار فى السودان وشمال أفريقية وغيرها من الأقطار التى ابتليت بالاستعمار وإنى مع ما أرشد إليه أبو حامد من دقائق الغرور الذى يلازم هذه الطائفة التى تحتاج إلى إصلاح كبير حتى تساعد الحكومات الاسلامية فى مقاومة تيارات الالحاد الجارفة والاباحية المهلكة أرى أن أدلى ببيان نوع من الغرور انتشر بين طوائف الصوفية حتى أصبح مألوفا بل معدودا من آداب الطريق وإنه لداهية الطريق الكبرى — قرأت فى بعض كتب المتأخرين من المتصوفة أنهم يذكرون من آداب الذكر استحضار صورة الشيخ عند الذكر والذين اشتغلوا بالمسائل الروحية يدركون معى أن تعاشق الأرواح إذا تم كان من العسير الفكاك منه ولذا فان المريد الذى يستحضر صورة شيخه بادمانه على هذه الملاحظة تتحد روحه بروح شيخه وهنا =

Digitized by Birzeit University Library

وفرقة أخرى — زادت على هؤلاء فى الغرور إذ صعب عليها الاقتداء فى بذالة الثياب والرضا بالدون فى المطعم والمنكح والمسكن وأرادت أن تتظاهر بالتصوف ولم

= يعتقد المريد أنه وصل لدرجة كبيرة فهو يسير مع شيخه فى حضرة الذكر منسجم الروحية مرحا طروبا بهذه الروحية التى أمدته بطاقة بسيطة أخرى يزداد بها فى الأعمال الصالحة قربا ويزداد بها فى محبة الله عمقا وهنا يعيش المريد بروحانية شيخه لايستطيع التقدم عليه خطوة واحدة ، ولا تصل إليه إلا بعض معارف شيخه وفيوضاته فيقف عند هذا الحد ، فان كان لهذا المريد سابقة رقى على شيخه وبدأت روحه تعالج مركزها الأصلى الذى أعده الله لها تلاقى من الشيوخ نوع كبت وعراقيل تعوق المريد عن السير فربما انقطع عن شيخه فتحصل له الجفوة التى تعكر حياته الروحية ، ولم يكن سلف أهل الطريق على هذا المنهج فكانت الملاحظة والاستحضار لروح النبى صلى الله عليه وسلم . فطريق السلف يبتدى من النبى صلى الله عليه وسلم اتباعا لسنته وعملا بها بقدر ما استعد له المريد ثم تعشقا لذاته صلى الله عليه وسلم حتى مقام الاتحاد ، فيعيش المريد فى حضرة مطلقة لا تحدها الحدود ولا تعكرها المعكرات فهو صلى الله عليه وسلم عروس الحضرة الآلهية وممد الأرواح العلوية البشرية والملكية — فان قلت : فما فائدة الشيخ إذاً وقد أجمع الصوفية تقريبا على لزوم الشيخ فى طريق الوصول ؟ — فالجواب أن الشيوخ مهمتهم التوجيه والارشاد والنبى صلى الله عليه وسلم للسقيا والامداد فملازمة الشيوخ لتؤخذ عنهم كيفية المجاهدات ومحاربة الشيطان فالشيوخ العارفون بما أعطاهم الله من نفاذ البصيرة ينحون عقبات الخواطر والهواجس من قلب المريد بكلماتهم وإشاراتهم — فالمريد الذي يبتدىء من النبى صلى الله عليه وسلم عاقبته مأمونة لأن النبى صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رءوف رحيم ، والمريد الذى يبتدىء بالشيوخ قلما يسلم — فان قلت : هل من اللازم أن ينضم المريد إلى طريقة من الطرق كالبيومية والميرغنية مثلا ؟ فالجواب أن هذا الانضمام له فائدة روحية إن كان المريد ممن سبقت لهم العناية فان الأشباح مجتمعات وأسر بينهما التناصر والتعاضد ، فكذلك الأرواح أسر ومجاميع بينها كمال التناصر والتعاضد ، ولا ريب أن الروح تحتاج إلى المساعدة والمعاونة وهى سائرة فى طريقها لتصل إلى مركزها ولن تصلك المساعدة إلا ممن يمتون إليك بصلة ولعل لهذا نشأ فى التصوف فى دوره الثانى نظام الخرقة . هذا =

Digitized by Birzeit University Library

تجد بداً من التزيي بزيهم فتركت الخز والابريسم وطلبت المرقعات النفيسة والفوط الرفيعة والسجادات المصبوغات وقيمتها أكثر من قيمة الخز والابريسم ولا يجتنبون معصية ظاهرة فكيف بالباطنة ، وإنما غرضهم رغد العيش وأكل أموال السلاطين وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير وضرر هؤلاء على المسلمين أشد من ضرر اللصوص لأن هؤلاء يسرقون القلوب بالزى فيقتدى بهم غيرهم فيكونون سبب هلاكهم ، فان اطلع على

= والشيوخ أو المتمشيخون إذا لاحظهم المريدون فى الذكر ربما زلقت أقدامهم فى الغرور الذى يبحث عنه الغزالي « كاليكروب » ليفيه عليه . ولذا يحسن بمن أقامهم الله فى مقام الارشاد أن يأمروا مريديهم بملاحظة حضرة النبي صلى الله عليه وسلم فى الذكر فان هذا أسلم لهم عاقبة وأبعد لهم عن الغرور .

هذا وكلامنا ليس يدخل فيه من خصهم الله بالولاية العظمي والوراثة الكاملة للنبي صلى الله عليه وسلم فهؤلاء فى الواقع يعدون فى أول درجات النبوة وربما انتفع المريدون في اتحاد أرواحهم بهم ولكن مع هذا فعلو الهمة من الايمان والاعتماد عليه صلى الله عليه وسلم أقوم سبيل . هذا ولقد علمت بطريق الوجدان الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم يربى كثيرا من المريدين الذين تخلصوا من أغيار المشيخة والمتمشيخين وأنه أسرع إجابة لأرواح محبيه من الملائكة الموكلين فان كنت ممن سبقت لك السعادة فعجل بالفناء فى ذاته صلى الله عليه وسلم قبل فوات الأوان واختل ليلة واحدة مع عروس القيامة لترى امتحان وجدانى بعد كفاح ثلاثين عاما مع الشيوخ أختبر أحوالهم وأسير معهم فى طريق أهل الله حتى أراد الله بأن يكشف لى سر المشيخة الصحيحة والفاسدة والموصلة والقاطعة وهأنذا أبلغها للمسلمين فيما اكتبه على رسائل الامام أبى حامد غير أنى أنصحك أن لا تتنقص الشيوخ فتحرم الفتوح بل تأدب معهم وخذ منهم طريقتهم فى العبادة وكفاحهم فى محاربة النفس والشيطان وإياك أن تسلم قلبك وروحك إلا للنبي صلى الله عليه وسلم وإني لا آسف على شيء فى حياتى كأسفى على لحظات سلمت فيها روحى لا لسخرية المتصوفة بل لأكابر العارفين فليت عمرى بجميع لحظاته كان في داخل ذات النبي صلى الله عليه وسلم ولكنى مع هذا رجائى فى حضرته أن يعمني بنظرة تعوضنى عما فات .

Digitized by Birzeit University Library

فضائحهم فيظنون أن أهل التصوف كذلك فيصرحون بذم الصوفية على الاطلاق .

وفرقة أخرى — ادعت علم المكاشفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والوصل والملازمة فى عين الشهود والوصول إلى القرب ، ولا يعرف ذلك والوصول إليه إلا باللفظ والاسم ، فتلقف من الألفاظ الطامة كلمات فهو يرددها وهو يظن أن ذلك من أعلى علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمقرئين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلا عن العوام ، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك حياكته ويلازمهم أياما معدودة ، فيتلقف تلك الكلمات الزائفة فتراه يرددها كأنه يتكلم عن الوحى ويخبر عن أسرار ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول فى العباد : أجراء متعبون ، ويقول فى العلماء : إنهم بالحديث محجوبون ، ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقاء الجاهلين ، لم يحكم قط علما ولم يهذب خلقا ولم يرتب علما ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوي وتلقف الهذيان ، ولو اشتغل بما ينفعه كان أحسن له .

وفرقة أخرى — جاوزت هؤلاء فأحسنت الأعمال وطلبت الحلال ، واشتغلت بتفقد القلب ، وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها ، فمنهم من يدعى الوجد ويحب الله ويزعم أنه والله بالله ولعله قد يخيل بالله خيالات فاسدة هى بدعة أو كفر ، فيدعى حب الله قبل معرفته ، وذلك لا يتصور قط ، ثم إنه لا يخلو قط ما يفارقه ما يكرهه الله وإيثار هوى نفسه على أوامر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ، ولو خلا بنفسه لما تركها حياء من الله ، وليس يدرى أن كل ذلك يناقض الحب ، وبعضهم يميل إلى القناعة والتوكل فيخوض البوادى من غير زاد ليصحح التوكل وليس يدرى أن ذلك بدعة لم تنقل عن الصحابة وسلف هذه الأمة ، وقد كانوا أعلم بالتوكل منه ما فهموا من التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد ، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله لا على الزاد ، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به وما مقام من المقامات المنجية إلا وفيه غرور وقد اغتر بها قوم . وقد ذكرنا مداخل الآفات فيها فى ربع المنجيات من كتاب الاحياء .

وفرقة أخرى — ضيقت على أنفسها أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص

Digitized by Birzeit University Library

وأهملت تفقد القلب والجوارح من غير هـذه الخصلة الواحدة . ومنهم من استعمل الحلال فى مطعمه وملبسه ومكسبه ويتعمق فى ذلك ولم يدر أن الله لم يرض من العباد إلا بالكمال فى الطاعات ، فمن اتبع البعض وأهمل البعض فهو مغرور .

وفرقة أخرى — ادعت حسن الخلق والتواضع والسماحة ، فقصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتكلفوا خدمتهم ، واتخذوا ذلك شبكة لحطام الدنيا وجمع المال ، وإنما غرضهم التكثير والتكبير ، وهم يظهرون الخـدمة والتواضع ويطلبون أن غرضهم الارتفاق ، وغرضهم الاستتباع ويظهرون أن غرضهم الخدمة ، وهم يجمعون الحرام والشبهات لينفقوا عليهم فتكثر أتباعهم وينتشر بتلك الخدمة ذكرهم ، ومنهم من يأخذ من أموال السـلاطين وينفق عليهم ، ومنهم من يأخذ من أموال السـلاطين والظلمة لينفق ذلك بطريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والانفاق والباعث للجميع إنما هو الرياء والسمعة وذلك إسخاطهم لجميع أوامر الله ورضاهم بأخذ الحرام والانفاق منه ، ومثال الذى ينفق المال الحرام فى طريق الحج ، كمن يعمر مسجدا ويطينه بالعذرة وغيرها من النجاسات ويزعم أن قصده العمارة .

وفرقة أخرى — اشتغلت بالمجاهدة وتهذيب الأخـلاق وتطهير النفس من عيوبها فصاروا يتعمقون فيهـا فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرفة لهم فهم فى جميع أحوالهم مشتغلون بالتحفظ من عيوب النفس باستنباط دقيق الكلام فى آفاتها فيقولون : هذا فى النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب ويستعفون فيه بكلمات مسلسلة فضيعوا فى ذلك أوقاتهم لأنهم وقعوا مع أنفسهم ولم يتعلقوا بخالقهم ، ومثلهم من اشتغل بأوقات الحج وعوائقه ولم يسلك طريق الحج وذلك لا يغنيه عن الحج فهو مغرور .

وفرقة أخرى — جاوزت هذه المرتبة وابتدءوا سلوك الطريق وانفتحت لهم أبواب المعرفة ، فلما شموا من مبادىء المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها ، وأعجبتهم غرائبها فتعلقت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها ، وفى كيفية انفتاح بابها عليهم واستداده على غيرهم . وذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية ، فمن وقف مع كل أعجوبة وتقيد قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد ، ومثال ذلك كمن قدم على ملك فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار ولم يكن قد رآها قبل ذلك ولا رأى مثلها فوقف ينظر إليها حتى فاته الوقت الذى يكون فيه لقاء الملك فانصرف خائبا .

Digitized by Birzeit University Library

وفرقة أخرى — جاوزت هؤلاء ولم تلتفت إلى ما يفيض عليها من الأنوار فى الطريق ولا إلى مايتيسرلهم من العطايا الجزيلة ولم يلتفتوا إليها ولا عرجوا عليها ، بل جادين فى السير ، فلما قاربوا الوصول ظنوا أنهم وصلوا فوقفوا ولم يتعدوا ذلك فغلطوا فان لله سبحانه وتعالى سبعين حجابا من نور وظلمة ولا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب إلا ويظن أنه قد وصل وإليه الاشارة بقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم عليه السلام : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين » وما أكثره (١) فى هذا المقام فأول الحجب بين العبد وربه نفسه فانه أمر ربانى عظيم وهو نور من أنوارالله أعنى سرالقلب الذى تتجلى فيه حقيقة الحق(٢) كما هى حتى إنه ليشع بحمله العالم كله ويحيط به صورالكل فعنده يشرق نوره إشراقا عظيما إذيظهر فيه الوجود كله على ماهو عليه وهو فى أول الأمر محجوب بمشكاة هى الساترة له فاذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فرأى من جماله الفائق ما يدهشه فربما صرح وقال أنا الحق : فان لم يتضح له ما وراء ذلك ووقف عنده هلك ، وبهذا المعنى نظر النصارى إلى المسيح عليه السلام لما رأوا من إشراق نورالله عليه فغلطوا ، كمن رأى كوكبا فى مرآة أو فى ماء فيظن أن الكوكب فى المرآة أو في الماء فيمد يده إليه ليأخذه فهو مغرور — وأنواع الغرور فى طريق السلوك إلى الله لا تحصى فى مجلدات ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع العلوم الخفية وذلك مما لارخصة فى ذكره وقد يجوز إظهارها حتى لايقع المغرور فيها وبالله التوفيق وهو حسبى ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) لعل الضمير عائد على ظن الوصول فى هذه الحالة .

(٢) معنى هذا كما يقول كتاب التصوف فانا بعد لم نصل إلى هذا المقام قالوا : إن القلب البشرى يكون فى هذه الحالة كالمرآة وفى هذه المرآة يقع تجلى الصفات حتى يصبح القلب وقد انطبع فيه صور جميع الكائنات العلوية والسفلية ولا ريب أن تجلى جميع العوالم يشع العالم بحمله أى يعجز لكنه الانسان والروح التى هى سر الله جعل فيها القدرة على أن تكون مرآة تجليه وهذا معنى لم تسعنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن .

Digitized by Birzeit University Library

بداية الهداية

لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده . والصلاة والسلام على خير خلقه . محمد رسوله وعبده . وعلى آله وصحبه من بعده . أما بعد : فاعلم أيها الحريص المقبل على اقتباس العلم ، المظهر من نفسه صدق الرغبة وفرط التعطش إليه ، أنك إن كنت تقصد بطلب العلم المنافسة والمباهاة والتقدم على الأقران واستمالة وجوه الناس إليك وجمع حطام الدنيا ، فأنت ساع فى هدم دينك وإهلاك نفسك وبيع آخرتك بدنياك ، فصفقتك خاسرة وتجارتك بائرة ومعلمك معين لك على عصيانك وشريك لك فى خسرانك وهو كبائع سيف من قاطع طريق كما قال صلى الله عليه وسلم (١) : من أعان على معصية ولو بشطر كلمة كان شريكا له فيها - وإن كانت نيتك وقصدك بينك وبين الله تعالى من طلب العلم الهداية دون مجرد الرواية فأبشر فان الملائكة تبسط لك أجنحتها إذا مشيت وحيتان البحر تستغفر لك إذا سعيت ، ولكن ينبغى لك أن تعلم قبل كل شىء أن الهداية التى هى ثمرة العلم لها بداية ونهاية وظاهر وباطن ولا وصول إلى نهايتها إلا بعد إحكام بدايتها ، ولا عثور على باطنها إلا بعد الوقوف على ظاهرها ، وهأنا مشير عليك ببداية الهداية لتجرب بها نفسك وتمتحن بها قلبك فان صادفت قلبك إليها مائلا ونفسك بها مطاوعة ولها قابلة ، فدونك التطلع إلى النهايات والتغلغل فى بحار العلوم ، وإن صادفت قلبك عند مواجهتك إياها بها مسوفا وبالعمل بمقتضاها مماطلا فاعلم أن نفسك المائلة إلى طلب العلم هى النفس الأمارة بالسوء

(١) لم أجد هذا اللفظ فى المعاجم عندى .

Digitized by Birzeit University Library

وقد انتهضت مطيعة للشيطان اللعين ليدليك (١) بحبل غروره فيستدرجك بمكيدته إلى غمرة الهلاك ، وقصده أن يروج عليك الشر فى معرض الخير حتى يلحقك بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وعند ذلك يتلوعليك الشيطان فضل العلم ودرجة العلماء وما ورد فيه من الآثار والأخبار ويلهيك عن قوله صلى الله عليه وسلم : من (٢) ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا . وعن قوله صلى الله عليه وسلم : أشد (٣) الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه وكان صلى الله عليه وسلم يقول (٤) : اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع وعمل لا يرفع ودعاء لا يسمع ، وعن قوله صلى الله عليه وسلم : مررت ليلة أسرى بى بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من أنتم ؟ قالوا : كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه ـ فاياك يامسكين أن تذعن لتزويره فيدليك بحبل غروره فويل للجاهل حيث لم يتعلم مرة واحدة وويل للعالم حيث لم يعمل بما علم ألف مرة . واعلم أن الناس فى طلب العلم على ثلاثة أحوال : رجل طلب العلم ليتخذه زاده إلى المعاد ولم يقصد به إلا وجه الله والدار الآخرة فهذا من الفائزين ، ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة وينال به العز والجاه والمال وهو عالم بذلك مستشعر فى قلبه ركاكة حاله وخسة مقصده فهذا من المخاطرين فان عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة (٥) وبقى أمره فى خطر المشيئة وإن وفّق للتوبة قبل حلول الأجل وأضاف

---

(١) ليدليك ليوصلك .

(٢) الحديث أخرجه الديلمى عن على بلفظ « من ازداد علما ولم يزدد فى الدنيا زهدا لم يزدد من الله إلا بعدا » .

(٣) فى معجم ضياء الدين إن هذا الحديث أخرجه سعيد بن منصور والطبرانى وابن عدى والبيهقى بلفظ « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه » .

(٤) الحديث أخرجه النسائى والترمذى عن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع ومن دعاء لا يسمع ومن نفس لا تشبع ومن علم لا ينفع أعوذ بك من هؤلاء الأربع » .

(٥) إن سوء الخاتمة والعياذ بالله سبحانه وتعالى قريب من المبتدعين فى الدين ومن المؤذين لله ولرسوله وممن عادى أولياء الله وممن درجوا على إيذاء المسلمين فى أعراضهم =

Digitized by Birzeit University Library

إلى العلم العمل وتدارك مافرط فيه من الخلل التحق بالفائزين فأن التائب من الذنب كمن لاذنب له ، ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال والتفاخر بالجاه والتعزز بكثرة الأتباع يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يقضى من الدنيا وطره وهو مع ذلك يضمر فى نفسه أنه عند الله بمكانة لانتسامه بسمة العلماء وترسمه برسومهم فى الزى والمنطق مع تكالبه على الدنيا ظاهرا وباطنا فهذا من الهالكين ومن الحمق المغرورين إذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين وهو غافل عن قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون » وهو ممن قال (١) فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال ، فقيل وما هو يارسول الله ؟ فقال علماء السوء ـ وهذا لأن الدجال غايته الاضلال ومثل هذا العالم وإن صرف الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله فهو داع لهم إليها بأعماله وأحواله ولسان الحال أفصح من لسان المقال وطباع الناس إلى المشاهدة فى الأعمال أميل منها إلى المتابعة فى الأقوال فما أفسده هذا المغرور بأعماله أكثر مما أصلحه بأقواله إذ لا يستجرىء الجاهل على الرغبة فى الدنيا إلا باستجراء العلماء فقد صار علمه سببا لجراءة عباد الله على معاصيه ونفسه الجاهلة مدلة (٢) مع ذلك تمنيه وترجيه وتدعوه إلى أن يمن على الله بعلمه وتخيل إليه نفسه أنه خير من كثير من عباد الله فكن أيها الطالب من الفريق الأول واحذر أن تكون من الفريق الثاني فكم من مسوف عاجله الأجل قبل التوبة فخسر وإياك ثم إياك أن تكون من الفريق الثالث فتهلك هلاكا لا يرجى معه فلاحك ولا ينتظر صلاحك .

= وأموالهم ، وممن عاشوا فى الكبائر وانتهاك الحرمات وعدم الخوف من الله ومحاربته باحتقار خلقه وعدم رضاء العبد بقضاء الله وقدره ، أما من ضل الطريق وأخطأ المحجة كالعالم الذى لم يستطع أن يخلص نيته فان الأمر فيه ليس مستحقا لأن يضيع الله إيمانه فالله أكرم من ذلك بكثير .

(١) الظاهر أن هذا اللفظ بخصوصه غريب ولذا ذكر الشارح ما ورد فى هذا المعنى وهو ما رواه أحمد « إن أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان » وما رواه أحمد والطبرانى « إن أخوف ما أخاف على أمتى الأئمة المضلون » .

(٢) مدلة أى كتدلل المرأة مع زوجها والمدلة بضم الميم وكسر الدال من أدل بهمزة الصيرورة كما فى الصحاح ومعنى ذلك أن النفس صارت دلالا أى ملاعبة مع صاحبها .

Digitized by Birzeit University Library

فان قلت : فما بداية الهداية لأجرب بها نفسى ؟

فاعلم أن بدايتها ظاهرة التقوى ونهايتها باطنة التقوى فلا عاقبة إلا بالتقوى ولا هداية إلا للمتقين والتقوى عبارة عن امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه فهما قسمان وهأنا أشير عليك بجمل مختصرة من ظاهر علم التقوى فى القسمين جميعا وألحق قسما ثالثا ليصير هذا الكتاب جامعا مغنيا والله المستعان .

القسم الأول فى الطاعات

اعلم أن أوامر الله تعالى فرائض ونوافل : فالفرض رأس المال وهو أصل التجارة وبه تحصل النجاة ، والنفل هو الربح وبه الفوز بالدرجات قال صلى الله عليه وسلم (١) : يقول الله تبارك وتعالى : ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذى ينطق به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها (٢) ، ولن تصل أيها الطالب إلى القيام بأوامر الله تعالى إلا بمراقبة قلبك وجوارحك فى لحظاتك وأنفاسك من حين تصبح إلى حين تمسى فاعلم أن الله تعالى مطلع على ضميرك ومشرف على ظاهرك وباطنك ومحيط بجميع لحظاتك وخطراتك وخطواتك وسائر سكناتك وحركاتك وأنك فى مخالطتك وخلواتك متردد بين يديه فلا يسكن فى الملك والملكوت ساكن ولا يتحرك متحرك إلا وجبار السموات والأرض مطلع عليه « يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور » و « يعلم السر وأخفى » فتأدب أيها المسكين ظاهرا وباطنا بين يدى الله تعالى تأدب العبد الذليل المذنب فى حضرة الملك الجبار القهار واجتهد أن لا يراك

---

(١) الحديث فى البخارى وغيره وفى رواية للبخارى « وما تقرب إلى عبد بشىء من الطاعات أحب إلى مما افترضته عليه » .

(٢) وهذا يشير إلى نظرية وحدة الوجود التى قال بها ابن عربى تقدس سره ، فالصوفى فى الحال الخاصة التى يسمونها حال الفناء يستطيع أن يخلق أو يحدث أى أثر فى العالم الخارجى يريد إحداثه بمعنى أن الله يخلق على يديه ذلك الأثر المطلوب ، فالفعل فعل الحق ولكن بوساطة العارف الذى فنى عن صفاته البشرية وبقى بصفاته الالهية وتحقق بها .

Digitized by Birzeit University Library

مولاك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك ولن تقدر على ذلك إلا بأن توزع أوقاتك وترتب أورادك من صباحك إلى مسائك فاصغ إلى ما يلقى إليك من أوامر الله تعالى عليك من حين تستيقظ من منامك إلى وقت رجوعك إلى مضجعك .

فصل فى آداب الاستيقاظ من النوم — فاذا (١) استيقظت من النوم فاجتهد أن تستيقظ قبل طلوع الفجر وليكن أول ما يجرى على قلبك ولسانك ذكر الله تعالى فقل عند ذلك : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور(٢) ، أصبحنا (٣) وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله رب العالمين ، أصبحنا على فطرة الاسلام وعلى كلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، اللهم (٤) بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور ، اللهم إنا نسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءا أونجره إلى مسلم أو يجره أحد إلينا ، نسألك خير هذا اليوم وخير

---

(١) أخذ الصوفية أنفسهم بملازمة الآداب كأنها سنن وملازمة السنن كأنها واجبات ولهذا كانت الرخص عندهم كالمحرمات بل إنهم ليجتنبون ما قيل فيه « لا بأس » كاجتناب الحرام القطعي ويلتزمون ما إتيانه أولى وأفضل كالواجب القطعى إلا لضرورة ، قال أبو يزيد البسطامى لبعض أصحابه : قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية وكان رجلا مقصوداً مشهوراً بالزهد فمضينا إليه فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى بزاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه لأن البزاق بجهة القبلة منهى عنه كجانب اليمين بل إنه منهي عنه فى المساجد عامة — وقال أعنى أبا يزيد هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه من الولاية والكرامة وقال لو نظرتم إلى رجل وقد أعطى من الكرامات حتى تربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة .

(٢) فى تيسير الوصول عن حذيفة رضى الله عنه « كان إذا آوى إلى فراشه قال باسمك اللهم أحيا وأموت ، وإذا أصبح الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

(٣) أصبحنا الخ فى مسلم وأبو داود .

(٤) دعاء اللهم بك أصبحنا الخ فى السنن الأربعة وصحيح ابن حبان .

Digitized by Birzeit University Library

مافيه ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر مافيه . فاذا لبست ثيابك فأنوبه امتثال أوامر الله تعالى فى ستر عورتك واحذر أن يكون قصدك من لباسك مراءاة الخلق فتخسر .

باب آداب دخول الخلاء — فاذا قصدت بيت الماء لقضاء الحاجة فقدم فى الدخول رجلك اليسرى وفى الخروج رجلك اليمنى ولا تستصحب شيئا عليه اسم الله تعالى ورسوله ولا تدخل حاسر الرأس ولا حافى القدمين وقل عند الدخول : باسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم وعند الخروج غفرانك الحمد لله الذى أذهب عنى ما يؤذينى وأبقى على ماينفعنى وينبغى أن تعد النبل قبل قضاء الحاجة وأن لا تستنجى بالماء فى موضع قضاء الحاجة (١) وأن تستبرىء من البول بالتنحنح والنتر ثلاثا وبامرار اليد اليسرى على أسفل القضيب (٢) وإن كنت فى الصحراء فابعد عن عيون الناظرين أو استتر بشىء إن وجدته ولا تكشف عورتك قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس ولا تستقبل الشمس ولا القمر ولا تستقبل القبلة ولا تستدبرها ولا تجلس فى متحدث الناس ولا تبل فى الماء الراكد وتحت الشجرة المثمرة ولا فى الجحر واحذر الأرض الصلبة ومهب الريح احترازا من الرشاش لقوله صلى الله عليه وسلم : إن (٣) عامة عذاب القبر منه . واتكىء فى جلوسك على الرجل اليسرى ولا تبل قائما إلا عن ضرورة (٤) واجمع فى الاستنجاء بين استعمال الحجر والماء فاذا أردت الاقتصار على أحدهما فالماء أفضل وإن اقتصرت على الحجر فعليك أن تستعمل ثلاثة أحجار ظاهرة منشفة للعين تمسح بها محل النجو بحيث لا تنتقل النجاسة عن موضعها وكذلك تمسح القضيب فى ثلاثة مواضع من حجر فان لم يحصل الانقاء بثلاثة فتمم خمسة أو سبعة إلى أن ينقى بالايتار ، فالايتار

---

(١) هذا إذا كان يتغوط أو يبول فى الصحراء ، وأما فى المدن كما هو الآن فوضع الاستنجا هو موضع قضاء الحاجة ولا بأس به .

(٢) قال الشارح : ويختلف الاستبراء باختلاف الناس وهو ستة إن علم أن بوله ينقطع بمجرد الخروج وواجب إذا غلب على ظنه عدم انقطاعه إلا بنحو تنحنح .

(٣) هذا معنى حديث فى الصحاح .

(٤) أخرج النسائى والترمذى عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : من حدثكم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبول قائما فلا تصدقوه ما كان يبول إلا قاعدا .

Digitized by Birzeit University Library

مستحب والانقاء[١] واجب ولا تستنج بإلاباليد اليسرى وقل عند الفراغ من الاستنجاء: اللهم طهر قلبي من النفاق وحصّن فرجي من الفواحش وأدلك يدك بعد تمام الاستنجاء بالأرض أو بحائط ثم اغسلها .

آداب الوضوء — فاذا فرغت من الاستنجاء فلا تترك السواك فانه مطهرة للفم ومرضاة للرب ومسخطة للشيطان وصلاة بسواك أفضل من سبعين صلاة بلاسواك[٢] وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك فى كل صلاة [٣] ، وعنه صلى الله عليه وسلم أمرت بالسواك حتى خشيت أن يكتب على[٤] ، ثم اجلس للوضوء مستقبل القبلة على موضع مرتفع كي لا يصيبك الرشاش وقل : بسم الله الرحمن الرحيم رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ، ثم اغسل يديك ثلاثا قبل أن تدخلها الاناء وقل : اللهم إنى أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ثم أنو رفع الحدث أو استباحة الصلاة ولا ينبغى أن تعزب نيتك قبل غسل الوجه فلا يصح وضوؤك [٥] ثم خذ غرفة لفيك وتمضمض بها ثلاثا وبالغ فى رد الماء إلى الفلصمة [٦] إلا أن تكون صائما فترفق وقل : اللهم أعنى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك

---

(١) الانقاء إلى أن يزول أثر النجاسة فرض بحيث لو ترك فسدت الصلاة .

(٢) الخبر رواه الحميدى « ركعتان بسواك أفضل من سبعين ركعة بلا سواك » قال العراقى : حديث صلاة على إثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك — أبو نعيم فى كتاب السواك من حديث ابن عمر باسناد ضعيف ورواه أبو داود والحاكم وصححه والبيهقى وضعفه من حديث عائشة وضعفه بلفظ « من سبعين صلاة » .

(٣) الحديث بهذا اللفظ فى الكتب الستة .

(٤) روى أحمد عن ابن عباس « لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شىء » .

(٥) والغزالى يتكلم على مذهب الشافعى والنية فى الوضوء عنده فرض وعند أبى حنيفة سنة .

(٦) الفلصمة رأس الحلقوم وهو الموضع الناتىء فى الحلق .

Digitized by Birzeit University Library

وثبتنى بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ثم خذ غرفة لأنفك واستنشق بها ثلاثا واستنثر ما فى الأنف من رطوبة وقل فى الاستنشاق : اللهم أرحنى رائحة الجنة وأنت عنى راض (١) وفى الاستنثار اللهم إنى أعوذ بك من روائح النار وسوء الدار ، ثم خذ غرفة لوجهك فاغسل بها من مبتدأ تسطيح الجبهة إلى منتهى مايقبل من الذقن فى الطول ومن الأذن إلى الأذن فى العرض وأوصل الماء إلى موضع التحذيف وهو مايعتاد النساء تنحية الشعر عنه وهو مابين رأس الأذن إلى زاوية الجبين أعنى مايقع منه فى جبهة الوجه وأوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة : الحاجبين والشاربين والأهداب والعذارين وهما ما يوازيان الأذنين من مبتدأ اللحية ويجب إيصال الماء إلى منابت الشعر من اللحية الخفيفة دون الكثيفة وقل عند غسل الوجه : اللهم بيض وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهي بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك . ولا تترك تخليل اللحية الكثيفة ثم اغسل يدك اليمنى ثم اليسرى مع المرفقين إلى أنصاف العضدين فان الحلية فى الجنة تبلغ مواضع الوضوء وقل عند غسل اليمنى : اللهم أعطنى كتابى بيمينى وحاسبنى حسابا يسيرا وعند غسل الشمال اللهم إنى أعوذ بك أن تعطينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى ، ثم استوعب رأسك بالمسح بأن تبل يديك وتلصق رءوس أصابع يدك اليمنى باليسرى وتضعها على مقدمة الرأس وتمرهما إلى القفا ثم تردهما إلى المقدمة فهذه مرة تفعل ذلك ثلاث مرات وكذلك فى سائر الأعضاء وقل : اللهم غشنى برحمتك وأنزل على من بركاتك وأظلنى تحت ظل عرشك يوم لاظل إلا ظلك ، اللهم حرم شعرى وبشرى على النار ثم امسح أذنيك ظاهرهما وباطنهما بماء جديد وأدخل مسبحتيك فى صماخى أذنيك وامسح ظاهر أذنيك ببطن إبهاميك وقل : اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم أسمعنى منادى الجنة فى الجنة مع الأبرار ثم امسح رقبتك وقل : اللهم فك رقبتى من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال ثم اغسل رجلك اليمنى ثم اليسرى مع الكعبين وخلل بخنصر اليسرى أصابع رجلك اليمنى مبتدئا بخنصرها حتى تختم بخنصر اليسرى وتدخل الأصابع من أسفل وقل : اللهم ثبت قدمى على الصراط المستقيم مع أقدام عبادك الصالحين .

---

(١) أدعية الوضوء لا أصل لها فى السنة فهي هنا داخلة فى عموم استحباب الدعاء فى كل وقت ، فليست بدعة من بدع النار كما يريد أن يفهم بعض الجهلة للتشريع .

Digitized by Birzeit University Library

وكذلك تقول عند غسل اليسرى : اللهم إنى أعوذبك أن تزل قدمى على الصراط فى النار يوم تزل أقدام المنافقين والمشركين وارفع الماء إلى أنصاف الساقين وراع التكرار ثلاثا فى جميع أفعالك فاذا فرغت من الوضوء فارفع بصرك إلى السماء وقل : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى أستغفرك وأتوب إليك فاغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم ، اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين واجعلنى من عبادك الصالحين واجعلنى صبورا شكورا واجعلنى أذكرك ذكرا كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا فمن قال هذه الدعوات فى وضوئه خرجت خطاياه من جميع أعضائه وختم على وضوئه بخاتم ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله تعالى ويقدسه ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة ، واجتنب فى وضوئك سبعا : لا تنفض يديك فترش الماء ولا تلطم وجهك ولا رأسك بالماء لطما ولا تتكلم فى أثناء الوضوء ولا تزد فى الغسل على ثلاث مرات ولا تكثر صب الماء من غير حاجة لمجرد الوسوسة فللموسوسين شيطان يلعب بهم يقال له الولهان ولا تتوضأ بالماء المشمس ولا من الأوانى الصفرية فهذه السبعة مكروهة فى الوضوء وفى الخبر (١) أن من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أصابه الماء .

آداب الغسل — فاذا أصابتك جنابة من احتلام أو وقاع فخذ الاناء إلى المغتسل واغسل يديك أولا ثلاثا وأزل ما على بدنك من قذر وتوضأ كما سبق فى وضوئك للصلاة مع جميع الدعوات وأخر غسل قدميك كيلا يضيع الماء فاذا فرغت من الوضوء فصب الماء على رأسك ثلاثا وأنت ناو رفع الحدث من الجنابة ثم على شقك الأيمن ثلاثا ثم على الأيسر ثلاثا وأدلك ما أقبل من بدنك وما أدبر ثلاثا ثلاثا وخلل شعر رأسك

---

(١) الخبر رواه عبد الرزاق عن الحسن الكوفى قال على بن أحمد العزيزى وهذا الحديث فى معنى حديث التسمية فى أول الوضوء فعنه صلى الله عليه وسلم « من سمى الله أول الوضوء طهر الله جسده الظاهر والباطن فان لم يذكر اسم الله عنده لم يطهر منه إلا الظاهر دون الباطن » .

Digitized by Birzeit University Library

ولحيتك وأوصل الماء إلى معاطف(١) البدن ومنابت الشعر ماخف منه وما كثف واحذر أن تمس ذكرك بعد الوضوء فان أصابته يدك فأعد الوضوء والفريضة من جملة ذلك كله النية وإزالة النجاسة واستيعاب البدن بالغسل — وفرض الوضوء غسل الوجه واليدين مع المرفقين ومسح بعض الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين مرة مرة مع النية والترتيب وما عداها سنن مؤكدة فضلها كثير وثوابها جزيل والمتهاون بها خاسر بل هو بأصل فرائضه مخاطر فان النوافل جوابر للفرائض (٢).

آداب التيمم — فان عجزت عن استعمال الماء لفقده بعد الطلب أو لعذر من مرض أو لمانع من الوصول إليه من سبع أو حبس أو كان الماء الحاضر تحتاج إليه لعطشك أو لعطش رفيقك أو كان ملكا لغيرك ولم يبع إلا بأكثر من ثمن المثل أو كانت بك جراحة أو مرض تخاف منه على نفسك فاصبر حتى يدخل وقت الفريضة ثم اقصد صعيدا طيبا عليه تراب خالص طاهرين فاضرب عليه بكفيك ضاما بين أصابعك وانو(٣) استباحة فرض الصلاة وامسح بهما وجهك كله مرة واحدة ولا تتكلف إيصال الغبار إلى منابت الشعر خف أو كثف ثم انزع خاتمك واضرب ضربة ثانية مفرقا بين أصابعك وامسح بهما يديك مع مرفقيك فان لم تستوعبهما فاضرب ضربة أخرى إلى أن تستوعبهما ثم امسح

---

(١) معاطف البدن ما فيه انعطاف والتواء كطبقات البطن والابط والأذن وداخل السرة وتحت المقبل من الأنف فان ذلك مما يغفل عنه ويتأكد التعهد في الأذن بأن يأخذ كفا من ماء ويضع الأذن عليه برفق مميلا لها ليصل لمعاطفها من غير نزول لصماخها فيضر به .

(٢) قال الشارح : فان مات شخص ولم يفعل الفرائض من الصلوات يقوم كل سبعين من النوافل مقام ركعة من الفرض وكذلك يقوم كل سبعين ريالا من الصدقة مقام ريال واحد من الزكاة أما في الدنيا فلا يجبر ترك الفرائض بالنوافل بل لابد من فعلها . وسنن الوضوء جابرة للفرائض التي هي ترك الذنوب المتعلقة بحقوق الله تعالى بمعنى أنها مكفرة للذنوب وأما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة أو الحج المبرور .

(٣) معناه انو بقلبك أن هذه العملية مقصود بها أن تبيح لك الصلاة وليس بلازم أن تقول بلسانك نويت استباحة الصلاة لأن التلفظ بالنية من البدع لأن النية محلها القلب .

Digitized by Birzeit University Library

إحدي كتفيك بالأخرى وامسح ما بين أصابعك بالتخليل وصل به فرضا واحدا وما شئت من النوافل فان أردت فرضا ثانيا فاستأنف له تيمما آخر .

آداب الخروج إلى المسجد — فاذا فرغت من طهارتك فصل فى بيتك ركعتى (١) الصبح إن كان الفجر قد طلع كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم توجه إلى المسجد ولا تدع الصلاة فى الجماعة لاسيما الصبح فصلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة فان كنت تتساهل فى مثل هذا الربح فأى فائدة لك فى طلب العلم وإنما ثمرة العلم العمل به فاذا سعيت إلى المسجد فامش على هينة وتؤدة وسكينة ولا تعجل وقل فى طريقك : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق الراغبين إليك وبحق ممشاى هذا إليك فانى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولاسمعة بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

آداب دخول المسجد — فاذا أردت الدخول إلى المسجد فقدم رجلك اليمنى (٢) وقل :

---

(١) واقرأ فيها سورة الكافرون والاخلاص أو اقرأ ألم نشرح وألم تر كيف فمن قرأ فى ركعتى الفجر ألم نشرح وألم تر كيف قصرت عنه يد كل عدو ولم يجعل لهم عليه سبيل وهذا صحيح مجرّب بلا شك .

(٢) ومثل المسجد كل محل شريف وكذا ماجعل حاله وفى الكعبة يقدم يمينه دخولا وخروجا وإذا خرجت من مسجد غير الحرم فقدم رجلك اليسرى ، وفى أذكار النووى روينا عن أبى حميد أو أبى أسيد رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ثم ليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللهم إنى أسألك من فضلك » رواه مسلم فى صحيحه وأبو داود والنسائى وابن ماجه وغيرهم بأسانيد صحيحة وليس فى رواية مسلم فليسلم على النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى رواية الباقين زاد ابن السنى فى روايته وإذا خرج فليسلم على النبى صلى الله عليه وسلم وليقل : اللهم أعذنى من الشيطان الرجيم ، وروى هذه الزيادة ابن ماجه وابن خزيمة وأبو حاتم بن حبان فى صحيحهما اه قال الشارح : وحكمة ذكر الرحمة فى الدخول والفضل فى الخروج أن المساجد محال =

Digitized by Birzeit University Library

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم اللهم اغفرلى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك ومهما رأيت فى المسجد من يبيع أو يبتاع فقل لا أربح الله تجارتك وإذا رأيت فيه من ينشد ضالة فقل لارد الله عليك ضالتك كذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا دخلت المسجد فلا تجلس حتى تصلى ركعتى التحية فان لم تكن على طهارة أولم ترد فعلها كفتك الباقيات (١) الصالحات ثلاثا وقيل أربعا وقيل ثلاثا للمحدث وواحدة للمتوضىء فان لم تكن صليت فى بيتك ركعتى الفجر فيجزئك أداؤهما عن التحية فاذا فرغت من الركعتين فانو الاعتكاف وادع بما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتى الفجر فقل : اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى (٢) وترد بها ألفتى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى وتزكي بها عملى وتبيض بها وجهى وتلهمنى بها رشدى وتقضى لى بها حاجتى وتعصمنى بها من كل سوء ، اللهم إنى أسألك إيمانا خالصا دائما يباشر قلبى وأسألك يقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبته على ورضنى بما قسمته لى ، اللهم إنى أسألك إيمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر وأسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة اللهم إنى أسألك الفوز عند اللقاء والصبر عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء ومرافقة الأنبياء ، اللهم إنى أنزل بك حاجتى وإن ضعف رأيى وقصر

= رحمة الله لعباده رحمة تناسب العبادة وأما الخروج منها فهو إلى محل الأسباب التى تحصل بها الأرزاق والغنى عن الناس فهذا من مظاهر الفضل التى تفضل الله بها على عباده كما أفاده ابن حجر .

(١) يندب لمن لم يأت بالتحية لحدث أو غيره بأن كان متطهرا واشتغل بشىء آخر أن يقول أربع مرات : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، فانها تعدل ركعتين فى الفضل فتندفع الكراهة بذلك وهذا حيث لم يتيسر له الوضوء فى المسجد قبل طول الفصل وإلا فلا يكفى ذلك لتقصيره بترك الوضوء .

(٢) شعثى بفتحتين أى تصلح بها ما تفرق من أمورى ، وفى شرح الشفاء أى تجمع بها تفرق خاطرى وتضم بها تشتت أمرى ومعنى وترد بها ألفتى بالضم والكسر أى مألوفى أى ما كنت آلفه ، وروى الترمذى وغيره عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بهذا بعد فراغه من صلاته ليلة الجمعة .

Digitized by Birzeit University Library

عملي وافتقرت إلى رحمتك فأسألك ياقاضي الأمور وياشافي الصدور كما تجير(١) بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ومن فتنة القبور ومن دعوة الثبور(٢) اللهم ماقصرعنه رأيي وضعف عنه عملي ولم تبلغه نيتي وأمنيتي من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فاني أرغب إليك فيه وأسألك إياه يا رب العالمين ، اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حربا لأعدائك سلما لأوليائك نحب بحبك الناس ونعادي بعداوتك من خالفك من خلقك ، اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة وهذا الجهد(٣) وعليك التكلان وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولاقوة إلابالله العلي العظيم ، اللهم ذا الحبل الشديد (٤) والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود الركع السجود الموفين لك بالعهود إنك رحيم ودود وأنت تفعل ماتريد سبحان من اتصف بالعز وقال به سبحان من لبس المجد وتكرم به سبحان من لاينبغي التسبيح إلا له سبحان ذي الفضل والنعم سبحان ذي الجود والكرم سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه ، اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ونوراً في قبري ونوراً في سمعي ونوراً في بصري ونوراً في شعري ونوراً في بشري ونوراً في لحمي ونوراً في دمي ونوراً في عظامي ونوراً من بين يدي ونوراً من خلفي ونوراً عن يميني ونوراً عن شمالي ونوراً من فوقي ونوراً من تحتي ، اللهم زدني نوراً وأعطني نوراً أعظم نور واجعل لي نوراً برحمتك ياأرحم الراحمين ـ فاذا فرغت من الدعاء فلا تشتغل إلى وقت الفرض إلا بذكر أو تسبيح أو قراءة قرآن فاذا سمعت الأذان في أثناء ذلك فاقطع ما أنت فيه واشتغل بجواب المؤذن فاذا قال المؤذن : الله أكبر الله أكبر فقل مثل ذلك وكذلك في كل كلمة إلا في الحيعلتين فقل فيهما لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فاذا قال الصلاة خير من النوم فقل صدقت وبررت وأنا على ذلك من الشاهدين ، فاذا سمعت الاقامة فقل مثل مايقول إلا في قوله قد قامت الصلاة فقل أقامها الله وأدامها مادامت السموات

---

(١) تجير بين البحور أي تمنع أحدها من الاختلاط بالآخر مع الاتصال .

(٢) أي من النداء بالهلاك والخسران في المحشر .

(٣) الجهد بالضم الطاقة والتكلان بضم التاء أي الاعتماد .

(٤) الحبل بالباء الموحدة القرآن أو الدين وشدته استقامته وثباته .

Digitized by Birzeit University Library

والأرض ، فاذا فرغت من جواب المؤذن فقل : اللهم إنى أسألك عند حضور صلاتك وأصوات دعاتك وإدبار ليلك وإقبال نهارك أن تؤتى محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إنك لاتخلف الميعاد يا أرحم الراحمين . فاذا سمعت الأذان وأنت فى الصلاة فتمم الصلاة ثم تدارك الجواب بعد السلام على وجهه(١) فاذا أحرم الامام بالفرض فلا تشتغل إلا بالاقتداء به وصل الفرض كما سيتلى عليك فى كيفية الصلاة وآدابها فاذا فرغت (٢) فقل : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا الجنة دار السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام سبحان ربى العلى الأعلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، ثم ادع بعد ذلك بالجوامع الكوامل

---

(١) أصل هذا من السنة ما أخرجه البخارى « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل مايقول المؤذن » ورواه مسلم ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ثم صلوا على فانه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لى الوسيلة فانها منزلة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة » رواه مسلم فى صحيحه وفى الباب أحاديث كثيرة مذكورة فى الأذكار للنووى .

(٢) قال النووى : أجمع العلماء على استحباب الذكر بعد الصلاة وجاء فيه أحاديث كثيرة صحيحة ، أخرج الترمذى عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : « قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى الدعاء أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات » وفى مسلم عن ثوبان رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثا وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والاكرام . وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا فرغ من الصلاة وسلم قال : لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك والحمد وهو على كل شىء قدير ، اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

Digitized by Birzeit University Library

ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى عنها فقل : اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه ومالم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ماعلمت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل ونية واعتقاد وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل ونية واعتقاد ، وأسألك من خير ماسألك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم اللهم وما قضيت على من أمر فاجعل عاقبته رشدا . ثم ادع بما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضى الله عنها فقل : ياحى ياقيوم ياذا الجلال والاكرام لاإله إلا أنت برحمتك أستغيث ومن عذابك أستجير لاتكلنى إلى نفسى ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين وأصلح لى شأنى كله بما أصلحت به الصالحين ، ثم قل ما قاله عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام : اللهم إنى أصبحت لاأستطيع دفع ماأكره ولاأملك نفع ماأرجو وأصبح الأمر بيدك لا بيد غيرك وأصبحت مرتهنا بعملى فلا فقير أفقر منى إليك ولاغنى أغنى منك عنى ، اللهم لاتشمت بى عدوى ولا تسؤ بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولاتجعل الدنيا أكبر همى ولامبلغ علمى ولا تسلط على بذنبى من لايرحمنى . ثم ادع بما بدالك من الدعوات المشهورات واحفظها مما أوردناه فى كتاب الدعوات من كتاب إحياء علوم الدين ولتكن أوقاتك بعد الصلاة إلى طلوع الشمس موزعة على أربع وظائف : وظيفة فى الدعوات ووظيفة فى الأذكار والتسبيحات وتكررها فى سبحة(١) ووظيفة فى قراءة القرآن ووظيفة فى التفكر ـ فتفكر فى ذنوبك

---

(١) يختلف أمر المريد للذكر فإما أن يكون الذكر لتحصيل الثواب والدرجات فى الآخرة وإما أن يكون الغرض منه تصفية الروح وتأهيلها للمناجاة والخطاب والاتصال بالملأ الأعلى والطريقة الأولى هى منهاج العابدين والطريقة الثانية هى منهاج العارفين والطريقة الأولى تحصيلها سهل المنال فالأذكار النووية كفيلة بأن تشبع نهم كل شغوف بعبادة رب العالمين ، والسنة المحمدية بحر يروى ظمأ العطاشى والواردين . وأما الطريقة الثانية وهى الذكر للوصول فتلك لها مسالك وفيها المهالك إن لم تكن العدة مستوفاة إذ لابد لسالك هذه الطريق من زاد يستعين به على قطع هذه المراحل والمسافات ، والصحارى والمفازات ، ولا بد له من رفيق يؤنسه ويواسيه ، وعند الشدائد والمهالك ينجده ويقويه ، فأما الزاد فهو السهر المتواصل والخلوة وتخفيف الطعام فى أثناء المناجاة =

Digitized by Birzeit University Library

وخطاياك وتقصيرك فى عبادة مولاك وتعرضك لعقابه الأليم وسخطه العظيم ، وترتب أوقاتك بتدبيرك أورادك فى جميع يومك لتتدارك به مافرطت من تقصيرك وتحترز من

= فتخفيفه يساعد كثيرا على قيام الليل كما أن الامتلاء ينافى السهر وسهر الليل يساعد على الخلوة المبعدة للهواجس والخواطر فمن أراد الذكر للوصول فليستعد إما بالصوم بالنهار كما هى طريقة الجنيد رضى الله عنه أو يخفف وجبة العشاء ثم يجلس فى خلوة من منزله بعيدا عن مجالس الناس ثم ليحضر سبحته واضعا فيها علامة للعدد الذى سيذكره من الأوراد وقد رأيت بعض صوفية مصر يضعون فى مسابحهم « فتلة من الخيط » يعدون بها أورادهم فكلما ذكروا ألغا نقلوا هذه الفتلة حبة من المسبحة . فالسهر بالليل والخلوة بالذكر فيه مع خفة المعدة من الطعام وإدمان هذا طول العمر هو زاد السائر إلى الله من غير شك ولا ريب ، وهو خلاصة مذهب الصوفية فى العمل لبلوغ درجة الوصول — ذلك ما عرفت من مشايخهم وكتبهم ونصائحهم ، وطريقة العابدين الأولى وطريقة العارفين الثانية يتحدان فى عد التسابيح والأذكار كما ذكره صاحب قوت القلوب أبو طالب المكى ، فالذكر بالعدد هو طريق الصوفية فى القديم والحديث غاية الأمر أن العباد أمامهم المجال واسع فى الذكر بما ورد فى السنة المحمدية من التهاليل والتحميد والتسبيح أما العارفون أو المريدون فذكرهم بالليل خاص بالاسم المفرد أحد أسماء الله الحسنى فلقد رأيت بعض إخوانى الصالحين يأمر أصحابه بالذكر بالأسماء الحسنى كلها كل اسم مائة ألف ، لكن المنقول عن أكابر الصوفية فى كتبهم التى رأيتها هى الذكر بصيغة التوحيد وهى لا إله إلا الله وبثلاثة عشر اسما آخر وهى . الله . هو . حى . واحد . عزيز . قهار . قيوم . وهاب . مهيمن . باسط . لطيف . وفى كتب الطريقة الخلوتية بعض هذه الأسماء ورأيت فى بعض المخطوطات عند أحد الاخوان الذكر بهذه الأسماء إلا اسمه تعالى « لطيف » وهذه الرسالة منقولة عن سيدي عبدالكريم الجيلى ورأيت ذلك أيضا فى كتيّب صغير لأحد شيوخ الطريقة الرفاعية والرسالة المنقولة عن عبد الكريم الجيلى فيها الذكر بما عدا اسمه « لطيف » وفيها أن كل اسم يذكر مائة ألف مرة ومع كل اسم دعاء خاص فاتنى أن أنقل هذه الرسالة بأدعيتها . وأما اسمه تعالى لطيف فهو فى بعض رسائل عن السيد نور الدين البيومى صاحب الطريقة البيومية وقد أذنى به شيخي عبد السلام أفندى الحلوانى وتلقيت منه أن معناه « مصور الشىء فى قالب =

Digitized by Birzeit University Library

التعرض لسخط الله تعالى الاليم فى يومك وتنوى الخير لجميع المسلمين وتعزم أن لاتشتغل فى جميع نهارك إلا بطاعة الله تعالى وتفصل فى قلبك الطاعات التى تقدر عليها وتختار أفضلها وتتأمل تهيئة أسبابها لتشتغل بها ولا تدع عنك التفكر فى قرب الأجل وحلول الموت القاطع للأمل وخروج الأمر عن الاختيار وحصول الحسرة والندامة بطول الاغترار وليكن من تسبيحاتك وأذكارك عشر كلمات : إحداهن لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لايموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، الثانية لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، الثالثة لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ، الرابعة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، الخامسة سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، السادسة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، السابعة أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة والمغفرة ، الثامنة اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك (١) الجد ، التاسعة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم ، العاشرة بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم . تكرر كل واحدة من هذه الكلمات إما مائة مرة أو سبعين مرة أو عشر مرات وهو أقله ليكون المجموع

= ضده » وهو معنى غريب وطريف والخلاصة أن طلاب الوصول يسهرون الليالى ويمضون الأعمار فى ذكر اسم مفرد بالليل فى الخلوة وهي طريقة الغزالى الذى حكاها عن نفسه فى بعض كتبه فلقد كان يذكر فى الخلوة الاسم « الله » وأما الرفيق فهو نوعان : رفيق للعوام ورفيق للخواص فأما رفيق العوام فهم شيوخهم يستحضرونهم فى الذكر فتستمد أرواحهم من أرواح شيوخهم . وأما الخواص فلم يرضوا برفيق لأرواحهم غير النبى صلى الله عليه وسلم فهو نعم الرفيق وفى الحديث الصحيح أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم . وقد بينت مزايا الأخير فى تعليقى على كتاب ـ المنقذ من الضلال ومنهاج العابدين ـ للغزالى كما أفضت فى مزايا مرافقة النبى صلى الله عليه وسلم فى تعليقى على كتاب ـ سبيل النجاة فى الحب فى الله والبغض فى الله ـ للشيخ النبهانى وغيره فارجع إلى هذه التعليقات فهى نفيسة لأنها خلاصة معاشرة الصوفية فى مدى ثلاثين عاما .

(١) أي لاينفع ذا الغنى عندك غناه وإنما ينفعه العمل بطاعتك ومعنى منك عندك .

Digitized by Birzeit University Library

مائة ولازم هـذه الأذكار ولا تتكلم قبل طلوع الشمس ففى الخبر أن ذلك أفضل من إعتاق ثمـان رقاب من ولد إسماعيل (١) على نبينا وعليه الصلاة والسلام أعنى الاشتغال بالذكر إلى طلوع الشمس من غير أن يتخلله كلام (٢) .

آداب ما بين طلوع الشمس إلى الزوال — فاذا طلعت الشمس وارتفعت قدر رمح فصل ركعتين وذلك عند زوال وقت الكراهة للصلاة فانها مكروهة من بعد فريضة الصبح إلى ارتفاع الشمس فاذا أضحى النهار ومضى منه قريب من ربعه فصل صلاة الضحى أربعا أو ستا أو ثمانيا مثنى مثنى فقد نقلت هذه الأعداد كلها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة خير كلها فمن شاء فليستكثر ومن شاء فليستقلل فليس بين طلوع الشمس (٣) والزوال راتبة من الصلاة إلا هذه فما فضل عنها من أوقاتك فلك فيه أربع حالات : الحالة الأولى وهى الأفضل أن تصرفه فى طلب العلم النافع فى الدين دون الفضول الذى أكب الناس عليه وسموه علما والعلم النافع هو ما يزيد فى خوفك من الله تعالى ويزيد فى بصيرتك بعيوب نفسك ويزيد فى معرفتك

---

(١) أي لو فرض أن ولد إسماعيل عبد وهو لم يكن كذلك بل هو من أفضل الناس وإنما دلّ هذا الحديث على زيادة فضيلة صاحب هذا العمل .

(٢) قال النووى فى الأذكار : اعلم أن أشرف أوقات الذكر فى النهار الذكر بعد صلاة الصبح وروينا عن أنس رضى الله عنه فى كتاب الترمذى وغيره قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى الفجر فى جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت كأجر حجة وعمرة تامة قال الترمذى : حديث حسن ، وروينا فى كتاب الترمذى وغيره عن أبى ذرّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال فى دبر صلاة الصبح وهو ثان رجليه قبل أن يتكلم لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير عشر مرات كتب له عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات وكان يومه ذلك فى حرز من كل مكروه وحرس من الشيطان » الحديث ، وروينا عن أبى محمد البغدادى فى شرح السنة قال : قال علقمة بن قيس بلغنا أن الأرض تعجّ إلى الله تعالى من نومة العالم بعد صلاة الصبح اهـ .

(٣) صلاة الضحى أصلها من السنة مارواه أبو داود عن أم هانىء قالت : صلى النبى صلى الله عليه وسلم سبحة الضحى ثمان ركعات يسلم من كل ركعتين .

Digitized by Birzeit University Library

بعبادة ربك ويقلل من رغبتك فى الدنيا ويزيد فى رغبتك فى الآخرة ويفتح بصيرتك بآفات أعمالك حتى تحترز منها ويطلعك على مكايد الشيطان وغروره وكيفية تلبيسه على علماء السوء حتى عرضهم لمقت الله تعالى وسخطه حيث اشتروا الدنيا بالدين واتخذوا العلم ذريعة ووسيلة إلى أخذ أموال السلاطين وأكل أموال الأوقاف واليتامى والمساكين وصرف همتهم طول نهارهم إلى طلب الجاه والمنزلة فى قلوب الخلق واضطرهم ذلك إلى المراءاة والمماراة والمنافشة فى الكلام والمباهاة ، وهذا الفن من العلم النافع قد جمعناه فى كتاب إحياء علوم الدين فان كنت من أهله فخصله واعمل به ثم علمه وادع إليه فمن علم ذلك وعمل به ثم علمه ودعا إليه فذلك يدعى عظيما فى ملكوت السموات بشهادة عيسى عليه السلام . فاذا فرغت من ذلك كله وفرغت من إصلاح نفسك ظاهرا وباطنا وفضل شىء من أوقاتك فلا بأس أن تشتغل بعلم المذهب فى الفقه لتعرف به الفروع النادرة فى العبادات وطريق التوسط بين الخلق فى الخصومات عند انكبابهم على الشهوات فذلك أيضا بعد الفراغ من هذه المهمات من جملة فروض الكفايات فان دعتك نفسك إلى ترك ما ذكرناه من الأوراد والأذكار استثقالا لذلك فاعلم أن الشيطان اللعين قد دس فى قلبك الداء الدفين وهو حب المال والجاه ، فاياك أن تغتر به فتكون ضحكة له فيهلكك ثم يسخر منك فان جربت نفسك مدة فى الأوراد والعبادات فكانت لا تستثقلها كسلا عنها لكن ظهرت رغبتك فى تحصيل العلم النافع ولم ترد به إلا وجه الله تعالى والدار الآخرة فذلك أفضل من نوافل العبادات مهما صحت النية ولكن الشأن فى صحة النية فان لم تصح فهو معدن غرور الجهال ومزلة أقدام الرجال ـ الحالة الثانية أن لا تقدر على تحصيل العلم النافع فى الدين لكن تشتغل بوظائف العبادات من الذكر (١) والتسبيح

---

(١) كان مشايخنا الذين أخذنا عنهم طريق القوم يأمروننا أن نلاحظ معانى الأسماء حين ذكر الأسماء المفردة ، ومن المعانى التى تلقيناها عنهم أن معنى اسمه تعالى « هو » حاضر لا يغيب وهو معنى غريب كما أن عناية الصوفية بهذا الاسم أعنى « هو » يدل على عظم تجليات هذا الاسم وفى شرح العزيزى على الجامع الصغير أنه الاسم الأعظم نقله عن بعض أهل الكشف ولقد قال لى شيخي عبد السلام بن أحمد الحلوانى : إن الذكر بدون الحضور التام يسمى تذكراً لا ذكراً لكن قال الدكتور أبو العلا عفيفى فى تعليقاته على فصوص ابن عربى : « الذكر فى الأصل معناه التلفظ أو التذكر ولكن هذه الكلمة =

Digitized by Birzeit University Library

والقراءة والصلاة فذلك من درجات العابدين وسير الصالحين وتكون أيضا بذلك من الفائزين ـ الحالة الثالثة أن تشتغل بما يصل منه خير إلى المسلمين ويدخل به سرور على قلوب المؤمنين أو يتيسر به الأعمال الصالحة للصالحين كخدمة الفقهاء والصوفية وأهل الدين والتردد فى أشغالهم والسعى فى إطعام الفقراء والمساكين والتردد مثلا على المرضى بالعيادة وعلى الجنائز بالتشييع فكل ذلك أفضل من النوافل فان هذه عبادات وفيها رفق للمسلمين ـ الحالة الرابعة إن لم تقو على ذلك فاشتغل بحاجاتك اكتسابا على نفسك أو على عيالك وقد سلم المسلمون منك وأمنوا من لسانك ويدك وسلم لك دينك إذا لم ترتكب معصية فتنال بذلك درجة أصحاب اليمين إن لم تكن من أهل الترقى إلى مقامات السابقين، فهذا أقل الدرجات فى مقامات الدين وما بعد هذا فهو من مراتع الشياطين وذلك بأن تشتغل والعياذ بالله بما يهدم دينك أو تؤذى عبدا من عباد الله تعالى فهذه رتبة الهالكين فاياك أن تكون فى هذه الطبقة . واعلم أن العبد فى حق دينه على ثلاث درجات : إما سالم وهو المقتصر على أداء الفرائض وترك المعاصى أو رابح وهو المتطوع بالقربات والنوافل أو خاسر وهو المقصر عن اللوازم فان لم تقدر أن تكون رابحا فاجتهد أن تكون سالما وإياك ثم إياك أن تكون خاسرا ، والعبد فى حق سائر العباد له ثلاث درجات : الأولى أن ينزل فى حقهم منزلة الكرام البررة من الملائكة وهو أن يسعى فى أغراضهم رفقا بهم وإدخالا للسرور على قلوبهم ، الثانية أن ينزل فى حقهم منزلة البهائم

= قد اكتسبت معنى أوسع من هذا فى الاصلاح الصوفى غير أن ابن عربى يستعملها فى بعض فصوصه مرادفة لكلمة الفناء بالمعنى الذى يفهمه أصحاب وحدة الوجود أعنى الحال التى يتحقق فيها الصوفى بوحدته الذاتية مع الله فذكر الله معناه حينئذ الحضور مع الله والفناء فيه وهذا يقتضى الصوفى أن يجمع جميع قواه البدنية والروحية بحيث يكون حضورها جميعا تاما مع الله وإذا وصل الصوفى إلى هذا المقام انكشف له الحق وانمحى كل أثر بين الواحد والكثير أي بين الحق والخلق والذاكر والمذكور وتحققت وحدة الاثنين — وغنى عن البيان أن المراد بذكر الله الوارد فى الأحاديث هو التعبد جملة والتأمل الذى ينأي بصاحبه عن الفحشاء والمنكر ويحصل له الطمأنينة النفسية كما وردت بذلك الآيات القرآنية قال تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » وقال تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

Digitized by Birzeit University Library

والجمادات فلا ينالهم خيره ولكن يكف عنهم شره ، الثالثة أن ينزل فى حقهم منزلة العقارب والحيات والسباع الضاريات لايرجي خيره ويتقى شره فان لم تقدر على أن تلتحق بأفق الملائكة فاحذر أن تنزل عن درجة البهائم والجمادات إلى مراتب العقارب والحيات والسباع الضاريات فان رضيت لنفسك النزول من أعلى عليين فلا ترض لها بالهوىّ إلى أسفل سافلين فلهلك تتجو كنافا لالك ولا عليك . فعليك فى بياض نهارك أن لاتشتغل إلا بما ينفعك فى معادك أو معاشك الذى لاتستغنى عنه وعن الاستعانة به على معادك فان عجزت عن القيام بحق دينك مع مخالطة الناس وكنت لاتسلم فالعزلة أولى لك فعليك بها ففيها النجاة والسلامة (١) فان كانت الوساوس فى العزلة تجاذبك إلى مالا يرضى الله تعالى ولم تقدر على قمعها بوظائف العبادات فعليك بالنوم فهو أحسن أحوالك وأحوالنا إذا عجزنا عن الغنيمة رضينا بالسلامة فى الهزيمة فاخسّ (٢) بحال من سلامة دينه فى تعطيل حياته إذ النوم أخو الموت وهو تعطيل الحياة والتحاق بالجمادات .

---

(١) العزلة — يجب أن يكون المقصود من العزلة هو الخلوة بالقلب مع الله لا الانقطاع فى الجبال عن العالم للعبادة إذ لا رهبانية فى الاسلام وأما الخلوة بالليل جزءا منه للتعبد فهى سيرة الصالحين والعبّاد وتلك الخلوة بالنسبة لمن يريد الوصول من المريدين فرض لابد منه ولم يحصل الفتوح لواحد من العارفين إلا فى الخلوة ولكن الخلوة ليست غاية وإنما هي وسيلة لتفرغ القلب فاذا أدمن المريد الذكر فى الخلوة حتى تعلم قلبه الحضور مع الله وأصبح ذلك سجية له فانه لاحاجة له بالخلوة لأن المريد فى هذه الحالة كما يقول الصوفية : كأن بائن أى موجود بجسمه بين الناس ولكن قلبه بائن عنهم ومنفصل ، والخلوة فى مبدأ طريق التصوف مأخوذة من السنة فان النبى عليه الصلاة والسلام لم يفجأه الوحى إلا فى غارحراء بعد الخلوة والتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، إن لذة الأنس بالله فى الخلوة هى حياة العارفين فجرّب هذه الحياة الروحية ليلة لتعلم مقدار نعم الله على عباده المخلصين .

(٢) فأخسّ بكسر الخاء المعجمة وتشديد السين فعل تعجب ماض ومجيئه على صورة الأمر وقوله بحال فاعل والباء زائدة لتحسين اللفظ لأن مجيء المرفوع بعد صورة الأمر قبيح يدل على ذلك مافي بعض النسخ « فما أخس حال من سلامة دينه فى تعطيل حياته » أى خسة حال من ذكر أمر يتعجب منه .

Digitized by Birzeit University Library

آداب الاستعداد لسائر الصلوات — ينبغي أن تستعد لصلاة الظهر قبل الزوال فتقدم القيلولة إن كان لك قيام فى الليل أو سهر فى الخير فان فيها معونة على قيام الليل كما أن فى السحور معونة على صيام النهار والقيلولة من غير قيام بالليل كالسحور من غير صيام بالنهار ، فاذا قلت(١) فاجتهد أن تستيقظ قبل الزوال وتتوضأ وتحضر المسجد وتصلى تحية المسجد وتنتظر المؤذن فتجيبه ثم تقوم فتصلى أربع ركعات عقب الزوال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطولهن ويقول : هذا وقت تفتح فيه أبواب السماء فأحب أن يرفع لى فيه عمل صالح وهذه الأربع قبل الظهر سنة (٢) مؤكدة ففى الخبر أن من صلاهن فأحسن ركوعهن وسجودهن صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له إلى الليل ثم تصلى الفرض مع الامام ثم تصلى بعد الفرض ركعتين فهما من الرواتب(٣) الثابتة ولا تشتغل إلى العصر إلا بتعلم علم أو إعانة مسلم أو قراءة قرآن أو سعى فى معاش تستعين به على دينك ثم تصلى أربع ركعات قبل العصر فهي سنة مؤكدة (٤) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله امرأ صلى أربعا قبل العصر ، فاجتهد أن ينالك دعاؤه صلى الله عليه وسلم ولا تشتغل بعد العصر إلا بمثل ماسبق قبله ولا ينبغى

---

(١) قلت بكسر القاف أي نمت فى وقت الظهيرة .

(٢) والأربع قبل الظهر سنة مؤكدة على قول والراجح أن الركعتين قبل الظهر آكد من جملة الأربعة كما فى الاحياء وهذا هو المعتمد وفيه من السنة ماأخرج الخطيب البغدادى عن أنس من صلى قبل الظهر أربعا غفرله ذنوب يومه ذلك ، وفيه عن الطبرانى من صلى قبل الظهر أربعا كان كعدل رقبة من بنى إسماعيل .

(٣) وزد بعدهما ركعتين غير مؤكدتين لحديث رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم عن أم حبيبة « من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها حرمه الله على النار » .

(٤) أى من حيث رجاء الدخول فى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الآتية فان دعوته مجابة حتما . لامن حيث مواظبته صلى الله عليه وسلم عليهن فانه لم يواظب على السنة قبل العصر كمواظبته على ركعتين قبل الظهر ولذا كانت هذه الأربعة من السنن غير المؤكدة .

Digitized by Birzeit University Library

أن تكون أوقاتك مهملة فتشتغل فى كل وقت بما اتفق كيف اتفق بل ينبغي أن تحاسب نفسك وترتب أورادك فى ليلك ونهارك وتعين لكل وقت شغلا لاتتعداه ولا تؤثر فيه سواه فبذلك تظهر بركة الأوقات فأما إذا تركت نفسك سدى مهملا إهمال البهائم لا تدرى بماذا تشتغل فى كل وقت فينقضى أكثر أوقاتك ضائعا وأوقاتك عمرك وعمرك رأس مالك وعليه تجارتك وبه وصولك إلى نعيم دار الأبد فى جوار الله تعالى ، فكل نفس من أنفاسك جوهرة لا قيمة لها إذ لا بدل له فاذا فات فلا عود له فلا تكن كالحمقى المغرورين الذين يفرحون كل يوم بزيادة أموالهم مع نقصان أعمارهم فأى خير فى مال يزيد وعمر ينقص ولا تفرح إلا بزيادة علم أو عمل صالح فانهما رفيقاك يصحبانك فى القبر حيث يتخلف عنك أهلك ومالك وولدك وأصدقاؤك ، ثم إذا اصفرت الشمس فاجتهد أن تعود إلى المسجد قبل الغروب وتشتغل بالتسبيح والاستغفار فان فضل هذا الوقت كفضل ماقبل الطلوع قال الله تعالى : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » واقرأ قبل غروب الشمس والشمس وضحاها والليل إذا يغشى والمعوّذتين ولتغرب عليك الشمس وأنت فى الاستغفار فاذا سمعت الأذان فأجبه وقل بعده: اللهم(١) إنى أسألك عند إقبال ليلك وإدبار نهارك وحضور صلاتك وأصوات دعاتك أن تؤتى محمدا الوسيلة والفضيلة والشرف والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد ـ والدعاء كما سبق ـ ثم صل الفرض بعد جواب المؤذن والاقامة وصل بعده ركعتين قبل أن تتكلم فهما راتبتا المغرب وإن صليت بعدهما أربعا فهى أيضا سنة وإن أمكنك أن تنوى الاعتكاف إلى العشاء وتحيى ما بين العشاءين بالصلاة فافعل فقد ورد فى فضل ذلك مالا يحصى وهى (٢) ناشئة الليل لأنها أول نشأته وهى

---

(١) فى سنن أبى داود والترمذى عن أم سلمة رضى الله عنهما قالت : « علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول عند أذان المغرب اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك اغفر لى » .

(٢) قوله تعالى : « إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا » أى إن بدء الليل بالصلاة أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان لانقطاع الأصوات والحركات وأعظمه سداداً من جهة وقعه فى القلوب لقلة الهواجس والخواطر بمشاغل الحياة وقد تلقيت عن شيوخي فى التصوف الذكر بثلاثة عشر اسما أولها الجلالة وأمرونى بالذكر بالليل ولم يأمرونى بالذكر فى هذه الأسماء بالنهار وتمتاز عبادة الليل بحلاوة الأنس بالله .

Digitized by Birzeit University Library

صلاة الأوابين (١) وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » فقال : هي الصلاة مابين العشاءين إنها تذهب بملاغات أول النهار وتهذب آخره ـ والملاغات جمع ملغاة وهي من اللغو . فاذا دخل وقت العشاء فصل أربع (٢) ركعات قبل الفرض إحياء لما بين الأذانين ففضل ذلك كثير وفي الخبر (٣) أن الدعاء بين الأذان والاقامة لا يرد ثم صل الفرض وصل الراتبة ركعتين واقرأ فيهما سورة ألم السجدة وتبارك الملك أو سورة يس والدخان فذلك مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل بعدهما أربع ركعات ففي الخبر (٤) مايدل على عظم فضلهن ثم صل الوتر بعدها ثلاثا بتسليمتين أو بتسليمة واحدة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فيها سورة سبح اسم ربك الأعلى وقل ياأيها الكافرون والاخلاص والمعوذتين فان كنت عازما على قيام الليل فأخر الوتر ليكون آخر صلاتك بالليل وترا (٥) ثم

---

(١) وفي شرح معجم ضياء الدين « وفي حديث ابن نصر وابن المبارك عن محمد ابن المنكدر من صلى ما بين المغرب والعشاء فانها صلاة الأوابين وفي رواية فان ذلك من صلاة الأوابين — ثم تلا قوله تعالى : إنه كان للأوابين غفوراً » قال الكشاف : هم التوابون الراجعون عن المعاصي والأوب والتوب أخوات . والمراد الايذان بفضل الصلاة فيما بين العشاءين .

(٢) قال الشارح : وهذه الأربع لم يوجد في خصوصها حديث كما قاله البركوي وراتبة العشاء ركعتان غير مؤكدتين .

(٣) روينا عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لايرد الدعاء بين الأذان والاقامة » رواه أبو داود والترمذي والنسائي .

(٤) روي عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ماصلى العشاء قط فدخل بيتي إلا صلى أربع ركعات أو ست ركعات رواه أبوداود ودل هذا الخبر كما قال الشارح على أن الأربع بعد العشاء فضيلة والمؤكد منها ركعتان كذا قاله البركوي .

(٥) لحديث الشيخين اجعلوا آخر صلاتكم من الليل وترا ولحديث مسلم « من خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليوتر أوله ، ومن طمع أن يقوم آخر الليل فليوتر آخر الليل » .

Digitized by Birzeit University Library

اشتغل بعد ذلك بمذاكرة علم أو مطالعة كتاب ولا تشتغل باللهو واللعب فيكون ذلك خاتمة أعمالك قبل نومك فانما الأعمال بخواتيمها .

آداب النوم — فاذا أردت النوم فابسط فراشك مستقبل القبلة ونم على يمينك كما يضجع الميت فى لحده واعلم أن النوم مثل الموت واليقظة مثل البعث واعلم الله تعالى يقبض روحك فى ليلتك فكن مستعدا للقائه بأن تنام على طهارة وتكون وصيتك (١) مكتوبة تحت رأسك وتنام تائبا من الذنوب مستغفرا (٢) عازما على أن لا تعود إلى معصية واعزم على الخير لجميع المسلمين إن بعثك الله تعالى وتذكر أنك ستضجع فى اللحد كذلك وحيدا فريدا ليس معك إلا عملك ولا تجزى إلا بسعيك ، ولا تستجلب النوم تكلفا بتمهيد الفرش الوطيئة فان النوم تعطيل للحياة إلا إذا كانت يقظتك وبالا عليك فنومك سلامة لدينك واعلم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فلا يكن نومك بالليل والنهار أكثر من ثمان ساعات فيكفيك إن عشت مثلا ستين سنة أن تضيع منها عشرين سنة وهو ثلث عمرك وأعد عند النوم سواكك وطهورك واعزم على قيام

---

(١) فان من مات بغير وصية لا يتكلم فى مدة البرزخ ذلك أن الأموات يتزاورون فى قبورهم ويتسامرون كالأحياء جماعات وأسر فيقول بعضهم لبعض : مابال هذا المسكين ؟ فيقال إنه مات بغير وصية كذا نقل عن ابن الصلاح وقال البجيرمى : يمكن حمل ذلك على ما إذا مات من غير وصية واجبة بأن نذرها أو خرج مخرج الزجر عن ترك الوصية .

(٢) لما روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يأوي إلى فراشه أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله تعالى له ذنوبه » وفى الصحيحين عن عائشة « إن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات — قال أهل اللغة : النفث نفخ لطيف بلا ريق قال الترمذى : النفث يتفاوت أهله على قدر نور قلوبهم وعلمهم بهذه الكلمات فاذا فعل ذلك بجسده عند إيوائه إلى فراشه كان كمن اغتسل بأطهر ماء وأطيبه فما ظنك بمن يغتسل بأنوار كلمات الله فكان كثوب نفض من غباره .

Digitized by Birzeit University Library

الليل أو على القيام قبل الصبح فركعتان فى جوف الليل كنز من كنوز البر فاستكثر من كنوزك ليوم فقرك فان تغنى عنك كنوز الدنيا إذا مت وقل عند نومك : باسمك ربى وضعت جنبي وباسمك أرفعه فاغفر لى ذنبي اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك اللهم باسمك أحيا وأموت وأعوذ بك اللهم من شر كل ذى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنى الدين واغنى من الفقر ، اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفاها لك مماتها ومحياها إن أمتها فاغفر لها وإن أحييتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك واستعملنى بأحب الأعمال إليك حتى تقربنى إليك زلفى وتبعدنى عن سخطك بعد أن أسألك فتعطينى وأستغفرك فتغفرلى وأدعوك فتستجب لى ثم اقرأ آية الكرسى وآمن الرسول إلى آخر السورة والاخلاص والمعوذتين وتبارك الملك وليأخذك النوم وأنت على ذكر الله تعالى وعلى الطهارة فمن فعل ذلك عرج بروحه إلى العرش وكتب مصليا إلى أن يستيقظ ، فاذا استيقظت فارجع إلى ما عرفتك أولا وداوم على هذا الترتيب بقية عمرك فان شقت عليك المداومة فاصبر صبر المريض على مرارة الدواء انتظارا للشفاء وتفكر فى قصر عمرك وإن عشت مثلا مائة سنة فهى قليلة بالاضافة إلى مقامك فى الدار الآخرة وهى أبد الآباد وتأمل أنك كيف تتحمل المشقة والذل فى طلب الدنيا شهرا أو سنة رجاء أن تستريح بها عشرين سنة مثلا فكيف لا تتحمل ذلك أياما قلائل رجاء الاستراحة أبد الآباد ولا تطول أملك فيثقل عليك عملك وقدر قرب الموت وقل فى نفسك : إنى أتحمل المشقة اليوم فلعلى أموت الليلة وأصبر الليلة فلعلى أموت غدا فان الموت لا يهجم فى وقت مخصوص وحال مخصوص وسن مخصوص فلا بد من هجومه فالاستعداد له أولى من الاستعداد للدنيا وأنت تعلم أنك لا تبقى فيها إلا مدة يسيرة ولعله لم يبق من أجلك إلا يوم واحد أو نفس واحد فقدر هذا فى قلبك كل يوم وكلف نفسك الصبر على طاعة الله يوما فيوما فانك لو قدرت البقاء خمسين سنة وألزمتها الصبر على طاعة الله تعالى نفرت واستعصت عليك فان فعلت ذلك فرحت عند الموت فرحاً لا آخر له وإن سوفت وتساهلت جاءك الموت فى وقت لا تحتسبه وتحسرت

Digitized by Birzeit University Library

تحسرا لا آخر له وعند الصباح يحمد القوم السرى (١) وعند الموت يأتيك الخبر اليقين « ولتعلمن نبأه بعد حين » وإذ أرشدناك إلى ترتيب الأوراد فلنذكر لك كيفية الصلاة والصوم وآدابهما وآداب الامامة والقدوة والجمعة .

آداب الصلاة — فاذا فرغت من طهارة الخبث وطهارة الحدث فى البدن والثياب والمكان ومن ستر العورة من السرة إلى الركبة فاستقبل القبلة قائما مزاوجا بين قدميك بحيث لا تضمهما واستو قائما ثم اقرأ قل أعوذ برب الناس تحصنا بها من الشيطان الرجيم واحضر قلبك ما أنت فيه وفرغه من الوسواس وانظر بين يدى من تقوم ومن تناجى واستح أن تناجى مولاك بقلب غافل وصدر مشحون بوساوس الدنيا وخبائث الشهوات واعلم أنه تعالى مطلع على سريرتك وناظر إلى قلبك فانما يتقبل الله من صلاتك بقدر خشوعك وخضوعك وتواضعك وتضرعك واعبده فى صلاتك كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك فان لم يحضر قلبك ولم تسكن جوارحك فهذا لقصور معرفتك بجلال الله تعالى فقدر أن رجلا صالحا من وجوه أهل بيتك ينظر إليك ليعلم كيف صلاتك فعند ذلك يحضر قلبك وتسكن جوارحك ثم ارجع إلى نفسك وقل يا نفس السوء : ألا تستحيين من خالقك ومولاك إذ قدرت اطلاع عبد ذليل من عباده عليك وليس بيده ضرك ولا نفعك خشعت جوارحك وحسنت صلاتك ثم إنك تعلمين أنه مطلع عليك ولا تخشعين لعظمته أهو تعالى عندك أقل من عبد من عباده فما أشد طغيانك وجهلك وما أعظم عداوتك لنفسك فعالج قلبك بهذه الحيل فعساه أن يحضر معك فى صلاتك فانه ليس لك من صلاتك إلا ماعقلت منها وأما ما أتيت به مع الغفلة والسهو فهو إلى الاستغفار والتكفير أحوج ، فاذا حضر قلبك فلا تترك الاقامة وإن كنت وحدك وإن انتظرت حضور جماعة فاذن ثم أقم فاذا أقمت فانو وقل فى قلبك : أؤدى فرض الظهر لله تعالى وليكن ذلك حاضرا فى قلبك عند تكبيرك ولا تعزب عنك النية قبل الفراغ من التكبير وارفع يديك عند التكبير بعد إرسالهما أولا إلى حذو منكبيك وهما مبسوطتان وأصابعها منشورة ولا تتكلف ضمها ولا تفريجها بحيث تحاذى بابهاميك

---

(١) نقل الشارح عن شيخه يوسف السنبلاوينى ضبط يحمد بضم الياء والحاء الساكنة وكسر الميم وهو موافق لما فى الصحاح والمصباح والسري بضم السين وفتح الراء ومعناه فى الأصل السير أول الليل وأوسطه وآخره .

Digitized by Birzeit University Library

شحمتى أذنيك وبرءوس أصابعك أعلى أذنيك وبكفيك منكبيك فاذا استقرتا فى مقرهما فكبر ثم أرسلهما برفق ولا تدفع يديك عند الرفع والارسال إلى قدام دفعا ولا إلى خلف رفعا ولا تنفضهما يمينا ولا شمالا فاذا أرسلتهما فاستأنف رفعهما إلى صدرك وأكرم اليمنى بوضعها على اليسرى وانشر أصابع اليمنى على طول ذراعك اليسرى واقبض بها على كوعها وقل بعد التكبير : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثم اقرأ وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ثم قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم أقر الفاتحة بتشديداتها واجتهد فى الفرق بين الضاد والظاء فى قراءتك فى الصلاة وقل آمين ولا تصله بقولك ولا الضالين وصلا واجهر بالقراءة فى الصبح والمغرب والعشاء أعني فى الركعتين الأوليين إلا أن تكون مأموما وأجهر بالتأمين واقرأ فى الصبح بعد الفاتحة من السور الطوال من المفصل (١) وفى المغرب من قصاره وفى الظهر والعصر والعشاء من أوساطه نحو والسماء ذات البروج وما قاربها من السور وفى الصبح فى السفر قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ولا تصل آخر السورة بتكبير الركوع ولكن افصل بينهما بمقدار سبحان الله وكن فى جميع قيامك مطرقا ناظرا نظرك على مصلاك فذلك أجمع لهمك وأجدر لحضور قلبك وإياك أن تلتفت يمينا وشمالا فى صلاتك ثم كبر للركوع وارفع يديك كما سبق ومد التكبير إلى انتهاء الركوع ثم ضع راحتيك على ركبتيك وأصابعك منشورة وانصب ركبتيك ومد ظهرك وعنقك ورأسك مستويا كالصفيحة (٢) الواحدة وجاف مرفقيك عن جنبيك والمرأة لا تفعل ذلك بل تضم بعضها إلى بعض وقل : سبحان ربى العظيم ثلاثا وإن كنت منفردا فالزيادة إلى السبع والعشر حسن ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائما وارفع يديك قائلا سمع الله لمن حمده فاذا استويت قائما فقل : ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شىء بعد - وإن كنت فى فريضة الصبح فاقرأ القنوت فى الركعة الثانية فى اعتدالك من الركوع ثم اسجد مكبرا غير رافع

---

(١) طوال المفصل من الحجرات إلى النبأ فطواله كسورة المرسلات وقصاره من الضحى إلى آخر القرآن والمتوسط مابين ذلك .

(٢) بالفاء ثم الحاء أى اللوح .

Digitized by Birzeit University Library

اليدين وضع أولا على الأرض ركبتيك ثم يديك ثم جبهتك مكشوفة وضع أنفك مع الجبهة وجاف مرفقيك عن جنبيك وأقلّ بطنك عن فخذيك والمرأة لا تفعل ذلك وضع يديك على الأرض حذو منكبيك ولا تفرش ذراعيك على الأرض وقل : سبحان ربى الأعلى ثلاثا أو سبعا أو عشرا إن كنت منفردا ، ثم ارفع رأسك من السجود مكبرا حتى تعتدل جالسا واجلس على رجلك اليسرى وانصب قدمك اليمنى وضع يديك على فخذيك والأصابع منشورة وقل : رب اغفر لى وارحمنى وارزقنى واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عنى ، ثم اسجد سجدة ثانية كذلك ثم اعتدل جالسا للاستراحة فى كل ركعة لاتشهّد عقبها ثم تقوم وتضع اليدين على الأرض ولا تقدم إحدى رجليك فى حالة الارتفاع وابتدىء بتكبيرة الارتفاع عند القرب من حد جلسة الاستراحة ومدها إلى منتصف ارتفاعك إلى القيام ولتكن هذه الجلسة جلسة خفيفة مختطفة وصل الركعة الثانية كالأولى وأعد التعوذ فى الابتداء ثم اجلس فى الركعة الثانية للتشهد الأول وضع اليد اليمنى فى جلوس التشهد على الفخذ اليمنى مقبوضة الأصابع إلا المسبحة والابهام فترسلها وأشر بمسبحة يمناك عند قولك إلا الله لاعند قولك لا إله وضع اليد اليسرى منشورة الأصابع على الفخذ اليسرى واجلس على رجلك اليسرى فى هذا التشهد كما بين السجدتين وفى التشهد الأخير متوركا واستكمل الدعاء المعروف المأثور بعد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم واجلس فيه على وركك الأيسر وضع رجلك اليسرى خارجة من تحتك وانصب القدم اليمنى ثم قل بعد الفراغ : السلام عليكم ورحمة الله مرتين من الجانبين والتفت بحيث يرى بياض خديك من جانبيك وانو الخروج من الصلاة وانو السلام على من على جانبيك من الملائكة والمسلمين وهذه هيئة صلاة المنفرد. وعماد الصلاة الخشوع وحضور القلب مع القراءة والذكر بالتفهم وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى : كل صلاة لايحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن العبد ليصلى الصلاة فلا يكتب له منها سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته بقدر ماعقل منها (١) .

آداب الامامة والقدوة — ينبغى للامام أن يخفف الصلاة قال أنس بن مالك رضى الله

---

(١) حديث إن العبد ليصلى الصلاة لايكتب له سدسها ولا عشرها أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث عمار بن ياسر .

Digitized by Birzeit University Library

عنه : ما صليت خلف أحد صلاة أخف ولا أتم من صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ولا يكبر مالم يفرغ المؤذن من الاقامة ومالم تستوالصفوف ويرفع الامام صوته بالتكبيرات ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر مايسمع نفسه وينوى الامام الامامة لينال الفضل فاذا لم ينو صحت صلاة القوم إذا نووا الاقتداء به ونالوا فضل القدوة ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ويجهر بالفاتحة والسورة فى جميع الصبح وأولتى المغرب والعشاء وكذلك المنفرد ويجهر بقوله آمين فى الجهرية وكذلك المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الامام معا لاتعقيبا له ويسكت الامام سكتة عقب الفاتحة ليثوب إليه نفسه ويقرأ المأموم الفاتحة فى الجهرية فى هذه السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الامام ولا يقرأ المأموم السورة فى الجهرية إلا إذا لم يسمع صوت الامام ، ولايزيد الامام على الثلاثة فى تسبيحات الركوع والسجود ولا يزيد فى التشهد الأول بعد قوله اللهم صل على محمد ويقتصر فى الركعتين الأخيرتين على الفاتحة ولا يطول على القوم ولا يزيد دعاءه فى التشهد الأخير على قدر تشهده وصلاته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينوى الامام عند التسليم السلام على القوم وينوى القوم بتسليمهم جوابه ويلبث الامام ساعة بعد مايفرغ من السلام ويقبل على الناس بوجهه ولا يلتفت إن كان خلفه نساء لينصرفن أولا ولا يقوم أحد من القوم حتى يقوم الامام وينصرف الامام حيث شاء عن يمينه أو شماله واليمين أحب إليه ولا يخص الامام نفسه بالدعاء فى قنوت الصبح بل يقول : اللهم اهدنا ويجهر به ويؤمن القوم ولا يرفعون أيديهم إذ لم يثبت ذلك فى الأخبار(٢) ويقرأ المأموم بقية القنوت من قوله إنك تقضى ولا يقضى عليك، ولا يقف المأموم وحده بل يدخل فى الصف أو يجر إلى نفسه غيره ولا ينبغي للمأموم أن يتقدم على الامام فى أفعاله أو يساويه بل ينبغي أن يتأخر عنه ولا يهوى للركوع إلا إذا انتهى الامام إلى حد الركوع ولا يهوى للسجود مالم تصل جبهة الامام إلى الأرض .

آداب الجمعة ـ اعلم أن الجمعة عيد المؤمنين وهو يوم شريف خص الله عزّ وجل به

---

(١) حديث أنس ما رأيت أخف الخ متفق عليه .

(٢) قال الشارح : وهذا ضعيف والصحيح سن رفع اليدين فى جميع القنوت والصلاة والسلام بعده ولايندب مسح اليدين بعده فى الصلاة ويندب بعد الدعاء فى خارج الصلاة .

Digitized by Birzeit University Library

هذه الأمة وفيه ساعة مبهمة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها حاجة إلا أعطاه إياها فاستعد لها من يوم الخميس بتنظيف الثياب وبكثرة التسبيح والاستغفار عشية الخميس(١) فانها ساعة توازي في الفضل ساعة يوم الجمعة، وانو صوم يوم الجمعة لكن مع الخميس أو السبت إذ جاء في إفرادها نهي فاذا طلع عليك الصبيح فاغتسل فان غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم أي ثابت مؤكد(٢) ثم تزين بالثياب البيض فانها أحب الثياب إلى الله تعالى واستعمل من الطيب أطيب ما عندك وبالغ في تنظيف بدنك بالحلق والقص والتقليم والسواك وسائر أنواع النظافة وتطيب الرائحة ثم بكر إلى الجامع واسع إليها على الهينة والسكينة فقد قال صلى الله عليه وسلم: من(٣) راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فاذا خرج الامام طويت الصحف ورفعت الأقلام واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون الذكر. ويقال: إن الناس في قربهم عند النظر إلى وجه الله تعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة ثم إذا دخلت الجامع فاطلب الصف الأول فاذا اجتمع الناس فلا تتخط رقابهم ولا تمر بين أيديهم وهم يصلون واجلس بقرب حائط أو اسطوانة حتى لا يمرون بين يديك ولا تقعد حتى تصلي التحية والأحسن أن تصلي أربع ركعات تقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة الاخلاص خمسين مرة ففي الخبر أن من فعل ذلك لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له ولا تترك التحية وإن كان الامام يخطب، ومن السنة أن تقرأ في أربع ركعات سورة الأنعام والكهف وطه ويس فان لم تقدر فسورة يس والدخان وألم السجدة وسورة الملك ولا تدع قراءة هذه السور في ليلة الجمعة ففيها فضل كثير ومن لم يحسن ذلك فليكثر من قراءة سورة الاخلاص، وأكثر من

---

(١) عشية الخميس أي بعد العصر في ذلك اليوم قال بعض السلف: إن لله تعالى فضلا سوى أرزاق العباد لا يعطى من سأله من ذلك الفضل إلا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة.

(٢) وإنما لم يجب الغسل للخبر الذي رواه أبو داود وغيره «من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل».

(٣) الحديث أخرجه الشيخان وأصحاب السنن.

Digitized by Birzeit University Library

الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا اليوم خاصة ومهما خرج الامام فاقطع الصلاة والكلام واشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة والانعاظ بها ودع الكلام رأسا فى الخطبة ففى الخبر أن من (١) قال لصاحبه والامام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له أى لأن قوله أنصت كلام فينبغى أن ينهى غيره بالاشارة لا باللفظ ثم اقتد بالامام كما سبق . فاذا فرغت وسلمت فاقرأ الفاتحة (٢) قبل أن تتكلم سبع مرات والاخلاص سبعا والمعوذتين سبعا سبعا فذلك يعصمك من الجمعة إلى الجمعة الأخرى ويكون حرزا لك من الشيطان وقل بعد ذلك : اللهم ياغنى ياحميد يامبدىء يامعيد يارحيم ياودود أغننى بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عمن سواك ثم صل بعد الجمعة ركعتين أو أربعا أو ستا مثنى مثنى فكل ذلك مروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحوال مختلفة (٣) ثم لازم المسجد إلى المغرب أو إلى العصر وكن حسن المراقبة للساعة الشريفة فانها مبهمة فى جميع اليوم فعساك أن تدركها وأنت خاشع لله تعالى متذلل متضرع ولا تحضر فى الجامع مجالس الحلق ولا مجالس القصاص بل مجلس العلم النافع وهو الذى يزيد فى خوفك من الله تعالى وينقص من رغبتك فى الدنيا فكل علم لا يدعوك من الدنيا إلى الآخرة فالجهل أعود عليك منه فاستعذ بالله من علم لا ينفع وأكثر الدعاء عند طلوع الشمس وعند الزوال وعند الغروب وعند الاقامة وعند صعود الخطيب المنبر وعند قيام الناس إلى الصلاة فيوشك أن تكون

---

(١) حديث من قال لصاحبه والامام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا لا جمعة له أخرجه الترمذى والنسائى عن أبى هريرة .

(٢) رواه ابن السنى من حديث عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن بدون الفاتحة وروى الحافظ المنذرى عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ إذا سلم الامام يوم الجمعة قبل أن يثنى رجله فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين سبعا سبعا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأعطى من الأجر بعدد كل من آمن بالله ورسوله » .

(٣) والمؤكد من هذه السنة بعد صلاة الجمعة أربع ركعات كما قال به أبو حنيفة ومحمد وعليه الشافعى فى قول وعند أبى يوسف السنة المؤكدة بعد الجمعة ست ركعات أربع ركعات سنة الجمعة وثنتان سنة الوقت والأفضل أن يصلى أربعا ثم ركعتين .

Digitized by Birzeit University Library

الساعة الشريفة فى بعض هذه الأوقات واجتهد أن تتصدق فى هذا اليوم بما تقدر عليه وإن قل فتجمع بين الصلاة والصوم والصدقة والقراءة والذكر والاعتكاف والرباط(١) واجعل هذا اليوم من الأسبوع خاصة لآخرتك فعساه أن يكون كفارة لبقية الأسبوع.

آداب الصيام — لا ينبغى أن تقتصر على صوم شهر رمضان فتترك التجارة بالنوافل وكسب الدرجات العالية فى الفراديس فتتحسر إذا نظرت إلى منازل الصائمين كما تنظر إلى الكواكب الدرية وهم فى أعلى عليين والأيام الفاضلة التى شهدت الأخبار بشرفها وفضلها وبجزالة الثواب فى صيامها يوم عرفة لغير الحاج ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذى الحجة والعشر الأول من المحرم ورجب وشعبان ، وصوم الأشهر الحرم من الفضائل وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب واحد فرد وثلاثة سرد وهذه فى السنة ، وأما فى الشهر فأول الشهر وأوسطه وآخره والأيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، وأما فى الأسبوع فيوم الاثنين والخميس والجمعة . فتكفر ذنوب الأسبوع بصوم الاثنين والخميس والجمعة ، وتكفر ذنوب الشهر باليوم الأول من الشهر واليوم الأوسط واليوم الآخر والأيام البيض وتكفر ذنوب السنة بصيام هذه الأيام والأشهر المذكورة ، ولا تظن إذا صمت أن الصوم هو ترك الطعام والشراب والوقاع فقط فقد قال (٢) صلى الله عليه وسلم : كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش بل تمام الصوم بكف الجوارح كلها عما يكره الله تعالى بل ينبغى أن تحفظ العين عن النظر إلى المكاره واللسان عن النطق بما لا يعنيك والأذن عن الاستماع إلى ماحرم الله تعالى فان المستمع شريك القائل وهو أحد المغتابين وكذلك تكف جميع الجوارح كما تكف البطن والفرج ففى الخبر خمس (٣) يفطرن الصائم :

---

(١) الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة .

(٢) حديث كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش أخرجه النسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة .

(٣) ضعفه العراقى مخرج أحاديث الاحياء وقال الشارح : وروى أبو الفتح الأزدى والديلمى عن أنس باسناد فيه كذاب هذا الخبر : خمس خصال يفطرن الصائم وينقضن الوضوء : الكذب والغيبة والنميمة والنظر بشهوة واليمين الكاذبة وهذا ورد على طريق الزجر عن فعل المذكورات وليس المراد الحقيقة ، وقيل يبطلن الصوم حقيقة على ما ذهبت إليه السيدة عائشة والامام أحمد .

Digitized by Birzeit University Library

الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنما الصوم جنة فاذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يفسق ولا يجهل فان أمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم (١) ، ثم اجتهد أن تفطر على طعام حلال ولا تستكثر فتزيد على ما تأكله كل ليلة لأجل صيامك فلا فرق إذا استوفيت ماتعتاد أن تأكله دفعتين فى دفعة واحدة وإنما المقصود بالصيام كسر شهوتك وتضعيف قوتك لتقوى بها على التقوى فاذا أكلت عشية ماتداركت به مافاتك ضحوة فلافائدة فى صومك وقد ثقلت عليك معدتك ، وما وعاء أبغض إلى الله تعالى من بطن ملىء من حلال فكيف إذا ملىء من حرام فاذا عرفت معنى الصوم فاستكثر منه ما استطعت فانه أساس العبادات ومفتاح القربات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فانه لى وأنا أجزى به ، وقال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك يقول الله عز وجل : إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه من أجلى فالصوم لى وأنا أجزى به وقال صلى الله عليه وسلم : للجنة باب يقال له الريان لايدخله إلا الصائمون فهذا القدر من شرح الطاعات يكفيك من بداية الهداية فاذا احتجت إلى الزكاة والحج أو إلى مزيد لشرح الصلاة والصيام فاطلبه مما أوردناه فى كتاب إحياء علوم الدين .

القسم الثانى — القول فى اجتناب المعاصى

اعلم أن الدين شطران : أحدهما ترك المناهى والآخر فعل الطاعات ، وترك المناهى هو الأشد فان الطاعات يقدر عليها كل أحد وترك الشهوات لايقدر عليه إلا الصديقون فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه (٢) واعلم أنك إنما تعصى الله بجوارحك وهى نعمة من الله عليك وأمانة لديك فاستعانتك بنعمة الله على معصيته غاية الكفران وخيانتك فى أمانة استودعكها الله غاية الطغيان فأعضاؤك رعاياك فانظر كيف ترعاها فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته واعلم أن جميع

---

(١) أخرجه الأئمة الستة وكذا ماذكره من الأحاديث فى هذا الفصل .

(٢) وفى رواية الترمذى وابن حبان المجاهد من جاهد نفسه .

Digitized by Birzeit University Library

أعضائك ستشهد عليك فى عرصات (١) القيامة بلسان طلق ذلق أى فصيح تفضحك به على رءوس الخلائق قال الله تعالى: « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » وقال الله تعالى: « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » فاحفظ يامسكين جميع بدنك من المعاصى وخصوصا أعضاءك السبعة فان جهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ولا يتعين لتلك الأبواب إلا من عصى الله تعالى بهذه الأعضاء السبعة وهى : العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ـ أما العين: فانما خلقت لك لتهتدى بها فى الظلمات وتستعين بها فى الحاجات وتنظر بها إلى عجائب ملكوت الأرض والسموات وتعتبر بما فيها من الآيات فاحفظها عن أربع : أن تنظر بها إلى غير محرم أو إلى صورة مليحة بشهوة نفس أو تنظر بها إلى مسلم بعين الاحتقار أو تطلع بها على عيب مسلم ـ وأما الأذن : فاحفظها عن أن تصغى بها إلى البدعة أو الغيبة أو الفحش أو الخوض فى الباطل أو ذكر مساوى الناس فانما خلقت لك لتسمع بها كلام الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمة أوليائه وتتوصل باستفادة العلم بها إلى الملك المقيم والنعيم الدائم فى جوار رب العالمين ، فاذا أصغيت بها إلى شىء من المكاره صار ما كان لك عليك وانقلب ما كان سبب فوزك سبب هلاكك وهذا غاية الخسران ولا تظن أن الاثم يختص به القائل دون المستمع ففى الخبر أن المستمع شريك القائل (٢) وهو أحد المغتابين ـ وأما اللسان : فانما خلق لك لتكثر به ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه وترشد به خلق الله تعالى إلى طريقه وتظهر به ما فى ضميرك من حاجات دينك ودنياك فاذا استعملته فى غير ما خلق له فقد كفرت نعمة الله تعالى فيه وهو

---

(١) فى عرصات القيامة أى أماكنها .

(٢) فى الاحياء المستمع لا يخرج من اثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه الاثم ، والخبر الذى يشير إليه أبو حامد من أن المستمع شريك القائل هو ما رواه الطبرانى « المستمع أحد المغتابين » .

Digitized by Birzeit University Library

أغلب أعضائك عليك وعلى سائر الخلق ولا يكب (١) الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم فاستظهر عليه بغاية قوتك حتى لا يكبك فى قعر جهنم ففى الخبر إن الرجل (٢) ليتكلم بالكلمة ليضحك بها أصحابه فيهوى بها فى قعر جهنم سبعين خريفا وروي أنه قتل شهيد فى المعركة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قائل : هنيئا له بالجنة فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه (٣) ويبخل بما لا يغنيه ، فاحفظ لسانك من ثمانية : الأول الكذب فاحفظ منه لسانك فى الجد والهزل ولا تعود لسانك الكذب هزلا فيدعوك إلى الكذب فى الجد والكذب من أمهات الكبائر ثم إنك إذا عرفت بذلك سقطت عدالتك والثقة بقولك وتزدريك الأعين وتحتقرك وإذا أردت أن تعرف قبيح الكذب من نفسك فانظر إلى كذب غيرك وإلى نفرة نفسك عنه واستحقارك لصاحبه واستقباحك لما جاء به وكذلك افعل فى جميع عيوب نفسك فانك لا تدرى قبيح عيوبك من نفسك بل من غيرك فما استقبحته من غيرك يستقبحه غيرك منك لا محالة فلا ترض لنفسك ذلك ـ الثانى الخلف فى الوعد فاياك أن تعد بشىء ولا تفى به

---

(١) يكب بضم الكاف ، حصائد جمع حصيدة بمعنى محصودة وحصائد الألسنة ماتكلمت الألسنة به من الاثم كالكذب والقذف والسبّ والنميمة وغير ذلك فاضافة حصائد إلى الألسنة من إضافة اسم المفعول إلى فاعله أى محصودات الألسنة . شبه ما تكتسبه الألسنة من الكلام الحرام بحصائد الزرع فى أن كلا كسب وجمع ، وشبه اللسان فى تكلمه بذلك بحد المنجل الذى يحصد به الناس الزرع .

(٢) إن الرجل ليتكلم الكلمة من سخط الله لا يرى بها بأسا فيهوى بها فى جهنم سبعين خريفا ـ أخرجه الترمذى وهو عنده حسن غريب وكذا أخرجه ابن ماجه والحاكم .

(٣) الحديث أخرجه الترمذى ، والتكلم بما لا يعنى أى لا يهمه ولا يفيده ولا يثاب به ولا يعاقب عليه ذلك أن فيه ضياع الوقت وقساوة القلب وإتعاب الفكر وتأخير الرزق وإيذاء الحفظة وإخلاء كتابه من اللغو الذى سيقرأ عليه يوم القيامة على رءوس الاشهاد فيحبسه عن الجنة فيلام على ذلك ويعير وتقام عليه الحجة فيعتريه الحياء من الله تعالى والتكلم بما لا يعنى مكروه لعدم الأمن من خوض الباطل مثل حكايات البدع والمذاهب الفاسدة وقد يستحب إذا قارنه نية صالح كتحية ضيف أو دفع تهمة الكبر وللعجب عن نفسه بلزوم الصمت .

Digitized by Birzeit University Library

بل ينبغي أن يكون إحسانك إلى الناس فعلا بلا قول فان اضطررت إلى الوعد فاياك أن تخلف إلا لعجز أو ضرورة فان ذلك من أمارات النفاق وخبائث الأخلاق ، قال (١) النبي صلى الله عليه وسلم : ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ـ الثالث الغيبة فاحفظ لسانك عنها والغيبة أشد من ثلاثين زنية في الاسلام كذلك ورد في الخبر (٢) ومعنى الغيبة أن تذكر إنسانا بما يكرهه لو سمعه فأنت مغتاب ظالم وإن كنت صادقا وإياك وغيبة القراء المرائين (٣) وهو أن تفهم المقصود من غير تصريح فتقول: أصلحه الله فقد ساءني وغمني ماجرى عليه فنسأل الله تعالى أن يصلحنا وإياه فان هذا جمع بين خبيثين : أحدهما الغيبة إذ بها حصل التفهم والآخر تزكية النفس والثناء عليها بالتحرج والصلاح ولكن إن كان مقصودك من قولك أصلحه الله تعالى الدعاء فادع له في السر، وإن اغتممت بسببه فعلامته أنك لاتريد فضيحته وإظهار عيبه وفي إظهارك الغم بعيبه إظهار تعييبه ويكفيك زاجرا عن الغيبة قوله تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » فقد شبهك الله بآكل لحم الميتة فما أجدرك أن تحترز منها وتمنعك عن غيبة المسلمين أمر لو تفكرت فيه وهو أن تنظر في نفسك هل فيك عيب ظاهر أو باطن وهل أنت مقارف معصية سرا أو جهرا فاذا عرفت ذلك من نفسك فاعلم أن عجزه عن التنزه عما نسبته إليه كعجزك وعذره كعذرك وكما تكره أن تفتضح وتذكر عيوبك فهو أيضا يكرهه فان سترته ستر الله عليك عيوبك وإن فضحته سلط الله عليك ألسنة حدادا يمزقون عرضك في الدنيا ثم يفضحك الله في الآخرة على رءوس الخلائق يوم

---

(١) أخرجه الشيخان وغيرهما .

(٢) الموجود في تخريج أحاديث الاحياء حديث جابر وأبي سعيد « إياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا » الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وابن حبان في الضعفاء وابن مردويه في التفسير .

(٣) وهو أخبث أنواع الغيبة وإذا لم يفهم عين الشخص الملوح له بالغيبة جاز القول ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كره من إنسان شيئا قال : مابال أقوام يفعلون كذا وكذا من غير تعيين .

Digitized by Birzeit University Library

القيامة (١) وإن نظرت إلى ظاهرك وباطنك فلم تطلع فيهما على عيب ونقص فى دين ولا دنيا فاعلم أن جهلك بعيوب نفسك أقبح أنواع الحماقة ولا عيب أعظم من الحمق ولو أراد الله بك خيرا لبصرك بعيوب نفسك فرؤيتك نفسك بعين الرضا غاية غباوتك وجهلك ثم إن كنت صادقا فى ظنك فاشكر الله تعالى عليه ولا تفسده بثلب الناس والتمضمض بأعراضهم فان ذلك من أعظم العيوب ـ الرابع المراء (٢) والجدال ومناقشة الناس فى الكلام فذلك فيه إيذاء للمخاطب وتجهيل له وطعن فيه وفيه ثناء على النفس وتزكية لها بمزيد الفطنة والعلم ثم هو مشوش للعيش فانك لا تمارى سفيها إلا ويؤذيك ولا تمارى حليما إلا ويقليك (٣) ويحقد عليك فقد قال صلى الله عليه وسلم : من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتا فى ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا فى أعلى الجنة (٤) ولا ينبغى أن يخدعك الشيطان ويقول لك أظهر الحق ولا تداهن فيه فان الشيطان أبدا يستجر الحمق إلى الشر فى معرض الخير فلا تكن ضحكة للشيطان فيسخر منك فاظهارك الحق حسن مع من يقبله منك وذلك بطريق النصيحة فى الخفية لا بطريق المماراة ، وللنصيحة صفة وهيئة ويحتاج فيها إلى تلطف وإلا صارت فضيحة

---

(١) أخرج ابن أبى الدنيا عن أنس مرفوعا « من حمى عرض أخيه فى الدنيا بعث الله ملكا يوم القيامة يحميه من النار » وأخرج أبو الشيخ عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه مرفوعا « من ذبّ عن عرض أخيه ردّ الله عنه عذاب النار يوم القيامة » الحديث .

(٢) المراء والجدال من عطف الأعم على الأخص لأن المراء هو الطعن فى القول والتزييف له والتصغير لقائله وليس فى ذلك غرض سوى ذلك ولا يكون المراء إلا اعتراضا على كلام سبق بخلاف الجدال فانه يكون ابتداء واعتراضا .

(٣) يقليك : يبغضك .

(٤) ربض الجنة فيما حولها والربض بفتح الراء والباء الموحدة وفى رواية لأبى داود والترمذى عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ومن تركه وهو محق بنى له بيت فى وسطها ومن حسن خلقه بنى له بيت فى أعلاها »

Digitized by Birzeit University Library

وكان فسادها أكثر من صلاحها ومن خالط متفقهة العصر غلب على طبعه المراء والجدال وعسر عليه الصمت إذ ألقى إليه علماء السوء أن ذلك هو الفضل والقدرة على المحاجة والمناقشة هو الذى يتمدح به ففرّ منهم فرارك من الأسد واعلم أن المراء سبب المقت عند الله وعند الخلق — الخامس تزكية النفس قال الله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » وقيل لبعض الحكماء ما الصدق القبيح ؟ فقال : ثناء المرء على نفسه فاياك أن تتعود ذلك واعلم أن ذلك ينقص من قدرك عند الناس ويوجب مقتك عند الله تعالى فاذا أردت أن تعرف أن ثناءك على نفسك لا يزيد فى قدرك عند غيرك فانظر إلى أقرانك إذا أثنوا على أنفسهم بالفضل والجاه والمال كيف يستنكره قلبك عليهم ويستثقله طبعك وكيف تذمهم عليه إذا فارقتهم فاعلم أنهم أيضا فى حال تزكيتك لنفسك يذمونك فى قلوبهم ناجزا وسيظهرونه بألسنتهم إذا فارقتهم — السادس اللعن فاياك أن تلعن شيئا مما خلق الله تعالى من حيوان أو طعام أو إنسان بعينه ولا تقطع بشهادتك على أحد من أهل القبلة بشرك أو كفر أو نفاق فان المطلع على السرائر هو الله تعالى فلا تدخل بين العباد وبين الله تعالى واعلم أنك يوم القيامة لا يقال لك لم تلعن فلانا ولم سكت عنه بل لو لم تلعن إبليس طول عمرك ولم تشغل لسانك بذكره لم تسئل عنه ولم تطالب به يوم القيامة وإذا لعنت أحدا من خلق الله تعالى طولبت به (١) ولا تذمن شيئا مما خلق الله تعالى فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يذم الطعام الردىء قط بل كان إذا اشتهى شيئا أكله وإلا تركه - السابع الدعاء على الخلق فاحفظ لسانك عن الدعاء على أحد من خلق الله تعالى وإن ظلمك فكل أمره إلى الله تعالى ففى الحديث إن المظلوم ليدعو على ظالمه حتى يكافئه ثم يبقى للظالم فضل عنده يطالبه (٢) به يوم القيامة ، وطوّل بعض الناس لسانه على الحجاج فقال بعض السلف : إن الله لينتقم للحجاج ممن تعرض له بلسانه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه — الثامن المزاح والسخرية والاستهزاء بالناس فاحفظ لسانك منه فى الجد والهزل فانه يريق ماء

---

(١) طولبت به أى باللعن أى بجزائه وسئلت عنه فاذا لعنت ما لا يستحق اللعن فلتبادر بقولك إلا أن يكون لا يستحق ذلك — أذكار النووى .

(٢) هذا الحديث موجود فى شرح رجب أفندى على الطريقة المحمدية ولم يخرجه .

Digitized by Birzeit University Library

الوجه ويسقط المهابة ويستجر الوحشة ويؤذى القلوب وهو مبدأ اللجاج والغضب والتصارم، ويغرس الحقد فى القلوب فلا تمازح أحدا فان مازحك أحد فلا تجبه وأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وكن من الذين إذا مروا باللغو مروا كراما فهذه مجامع آفات اللسان ولا يعينك عليه إلا العزلة أو ملازمة الصمت (١) إلا بقدر الضرورة فقد كان أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يضع حجرا فى فيه ليمنعه ذلك من الكلام بغير ضرورة ويشير إلى لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد كلها ، فاحترزمنه بجهدك فانه أقوى أسباب هلاكك فى الدنيا والآخرة — وأما البطن: فاحفظه من تناول الحرام والشبهة واحرص على طلب الحلال فاذا وجدته فاحرص على أن تقتصر منه على مادون الشبع فان الشبع يقسى القلب ويفسد الذهن ويبطل الحفظ ويثقل الأعضاء عن العبادة والعلم ويقوى الشهوات وينصر جنود الشيطان والشبع من الحلال مبدأ كل شر فكيف من الحرام ، وطلب الحلال فريضة على كل مسلم والعبادة والعلم مع أكل الحرام كالبناء على السرجين فاذا قنعت فى السنة بقميص خشن وفى اليوم والليلة برغيفين من الخشكار (٢) وتركت التلذذ بأطيب الأدم لم يعوزك من الحلال مايكفيك والحلال كثير وليس عليك أن تتيقن بواطن الأمور بل عليك أن تحترز مما تعلم أنه حرام أو تظن أنه حرام ظنا حصل من علامة ناجزة (٣) مقرونة بالمال ، أما المعلوم فظاهر وأما المظنون بعلامة فهو مال السلطان وعماله ومال من لا كسب له إلا من النياحة أو بيع الخمر أو الربا أو المزامير وغير ذلك من آلات اللهو المحرمة (٤) فان من علمت أن أكثر ماله حرام قطعا فما تأخذه من يده وإن أمكن أن يكون حلالا نادرا

---

(١) أظن أن شغل اللسان بذكر الله أسهل عمل يقاوم به عبث اللسان وزلاته فلازم الذكر ونوع فيه فمرة تلاوة قرآن ومرة أخرى صلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ومرة أخرى استغفارا ومرة صلاة ومرة استغراقا فى معنى اسم من أسمائه تعالى الحسنى ففى الحديث الصحيح « اذكروا الله على أى حال » بهذا أمرنا من شيوخ التصوف وهم حكماء القلوب .

(٢) الخشكار : الردىء من كل شىء أو من الشعير . (٣) علامة ناجزة : ظاهرة .

(٤) المراد بالمحرم من الآلات ما ضيع على الانسان فرضا أو واجبا أو كان سببا فى النظر إلى المحرمات من النساء أما من احترف آلة يتكسب منها ولا يضيع ما وجب عليه فكسبه حلال إن شاء الله .

Digitized by Birzeit University Library

فهو حرام لأنه الغالب على الظن ومن الحرام المحض مايؤكل من الأوقاف من غير شرط الواقف فمن لم يشتغل بالتفقه فما يأخذه من المدارس حرام ومن ارتكب معصية ترد بها شهادته فما يأخذه باسم الصوفية من وقف أو غيره فهو حرام ، وقد ذكرنا مداخل الشبهات والحلال والحرام فى كتاب مفرد من كتب إحياء علوم الدين فعليك بطلبه فان معرفة الحلال وطلبه فريضة على كل مسلم كالصلوات الخمس (١) ـ وأما الفرج فاحفظه عن كل ماحرم الله تعالى وكن كما قال الله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين » ولا تصل إلى حفظ الفرج إلا بحفظ العين عن النظر وحفظ القلب عن التفكر وحفظ البطن عن الشبهة وعن الشبع فان هذه محركات للشهوة ومفارسها (٢) ـ وأما اليدان : فاحفظهما عن أن تضرب بهما مسلما أو تتناول بهما مالا حراما أو تؤذى بهما أحدا من الخلق أو تخون بهما فى أمانة أو وديعة أو تكتب بهما مالا يجوز النطق به فان القلم أحد اللسانين فاحفظ القلم عما يجب حفظ اللسان عنه ـ وأما الرجلان : فاحفظهما عن أن تمشى بهما إلى حرام أو تسعى بهما إلى باب سلطان ظالم فان المشى إلى السلاطين الظلمة من غير ضرورة وإرهاق معصية كبيرة فانه تواضع لهم وإكرام لهم على ظلمهم وقد أمر الله تعالى بالاعراض عنهم فى قوله تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » وإن كان ذلك لسبب طلب ما لهم فهو سعى إلى حرام وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : من تواضع لغنى صالح لغناه ذهب ثلثا دينه ، وهذا فى غنى صالح فما ظنك بالغنى الظالم وعلى الجملة فحركاتك وسكناتك بأعضائك نعمة من نعم الله تعالى عليك فلا تحرك شيئاً منها فى معصية الله تعالى أصلا واستعملها فى طاعة الله تعالى واعلم أنك إن قصرت فعليك يرجع وباله وإن شمرت فاليك تعود

---

(١) لقوله صلى الله عليه وسلم : طلب العلم واجب على كل مسلم رواه الديلمى عن أنس أى طلب معرفة الحلال من الحرام واجب وقوله صلى الله عليه وسلم : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » رواه الطبرانى عن ابن مسعود أى الكسب الحلال لمئونة النفس فرض بعد الايمان والصلاة أو بعد جميع ما فرض الله فطلب ما يحتاجه لنفسه وعياله واجب دون مازاد على الكفاية .

(٢) مفارسها : أى أصولها .

Digitized by Birzeit University Library

ثمرته والله غنى عنك وعن عملك وإنما كل نفس بما كسبت رهينة وإياك أن تقول : إن الله كريم رحيم يغفر الذنوب للعصاة فان هذه كلمة حق أريد بها باطل وصاحبها ملقب بالحماقة بتلقيب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى (١) واعلم أن قولك هذا يضاهى قول من يريد أن يصير فقيها فى علوم الدين من غير أن يدرس علماً واشتغل بالبطالة وقال : إن الله كريم رحيم قادر على أن يفيض على قلبى من العلوم ما أفاضه على قلوب أنبيائه وأوليائه من غير جهد وتكرار وتعلم ، وهو كقول من يريد مالا فيترك الحراثة والتجارة والكسب وتعطل وقال : إن الله كريم رحيم وله خزائن السموات والأرض وهو قادر على أن يطعمنى على كبر من كنوزه أستغنى به عن الكسب فقد فعل ذلك لبعض عباده . فأنت إذا سمعت كلام هذين الرجلين استحمقتهما وسخرت منهما وإن كان ما وصفناه من كرم الله تعالى وقدرته صدقا وحقا فكذلك يضحك عليك أرباب البصائر فى الدين إذا طلبت المغفرة بغير سعى لها والله تعالى يقول : «وأن ليس للانسان إلا ما سعى» ويقول : « إنما تجزون ما كنتم تعملون » ويقول : « إن الأبرار لفى نعيم * وإن الفجار لفى جحيم » فاذا لم تترك السعي فى طلب العلم والمال اعتماداً على كرمه فكذلك لا تترك الزود للآخرة ولا تفتر فان رب الدنيا والآخرة واحد وهو فيهما كريم رحيم وليس يزيد له كرم بطاعتك وإنما كرمه فى أن ييسر لك طريق الوصول إلى الملك المقيم والنعيم الدائم المخلد بالصبر على ترك الشهوات أياما قلائل وهذا نهاية الكرم فلا تحدث نفسك بتهويسات البطالين واقتد بأولى العزم والنهى من الأنبياء والصالحين ولا تطمع فى أن تحصد مالم تزرع وليت من صام وصلى وجاهد واتقى غفرله . فهذه جمل مما ينبغى أن تحفظ عنه جوارحك الظاهرة ، وأعمال هذه الجوارح إنما تترشح من صفات القلب فان أردت حفظ الجوارح فعليك بتطهير القلب فهو تقوى الباطن والقلب هو المضغة التى إذا صلحت صلح بها سائر الجسد وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد فاشتغل باصلاحه لتصلح به جوارحك وصلاحه يكون بملازمة المراقبة (٢)

القول فى معاصى القلب — اعلم أن الصفات المذمومة فى القلب كثيرة وطريق

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) الطريقة العملية للمراقبة بعد تقديم التوبة الكاملة وملازمة السنة بقدر الامكان =

Digitized by Birzeit University Library

تطهير القلب من رذائلها طويلة وسبيل العلاج فيها غامض وقد اندرس بالكلية علمه وعمله لغفلة الخلق عن أنفسهم واشتغالهم بزخارف الدنيا وقد استقصينا ذلك كله فى كتاب إحياء علوم الدين فى ربع المهلكات وربع المنجيات ولكنا نحذرك

= وتصحيح العقيدة على ما أجمع عليه المسلمون لا الشذاذ من الأمة بعد ذلك كله أعنى العقيدة والعمل السليم من البدع تحضر مسبحة لتذكر الله عليها وتعد تسبيحك وتهليلك عليها ملاحظا لمعانى الأذكار التى تتلوها فان كنت تذكر بالتهليل أعنى — لا إله إلا الله — فالذى تراقبه فى ذهنك معنى كلمة التوحيد أعنى لامعبود بحق إلا الله ، فان كنت تذكر فى اسمه تعالى « الله » لاحظت « علم على الذات الأقدس » وهو معنى هذا الاسم وإن كنت تذكر الاسم « هو » فراقب معناه « حاضر لايغيب » وإن ذكرت اسم « حي » فراقب « دائم الحياة » وإن ذكرت « واحد » فراقب « لا ثانى له » وإن ذكرت الاسم « عزيز » فراقب « لانظير له » وإن ذكرت « ودود » فراقب « كثير الود لعباده » وإن ذكرت الاسم « حق » فراقب المعنى « ثابت لايزول » وإن ذكرت « قهار » فراقب « الذى يقهر ولا يقهر » وإن ذكرت « قيوم » فراقب المعنى « قائم بأسباب مخلوقاته » وإن ذكرت « وهاب » فلاحظ « كثير العطاء » وإن ذكرت الاسم « مهيمن » فلاحظ « المطلع على أفعال مخلوقاته » وإن ذكرت « باسط » فراقب « الذى يبسط الرزق لعباده » وهذه المعانى للأسماء قد تلقيتها عن أكابر العارفين فى عصرى وإنى أجيزك بما أجزت به من هذه المعانى، فان جلست للذكر والمراقبة فاستحضر أنك جالس فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ولاحظه صلى الله عليه وسلم بتخيل ذاته أو روضته إن كنت ممن سعدت برؤياها وأدمن هذه المراقبة أعنى معانى الأسماء وروح النبى صلى الله عليه وسلم حتى تشعر بالأنس بالمذكور — هذه هى الطريقة العملية فى المراقبة وليس للصوفية فى مشارق الأرض ومغاربها إلا هذا المنهج وكلهم ابتدءوا السير من هذه النقطة أعنى مراقبة الحق سبحانه بمعانى أسمائه الحسنى وقد بينت ضرر ملاحظة الشيوخ فى المراقبة فى تعليقاتى على كتاب المنقذ من الضلال وغيره وقلت : إن ملاحظة النبى صلى الله عليه وسلم وتوطيد الصلة الروحية بينك وبينه فى مطلع سيرك تسهل عليك كثيراً مخاطر الطريق وتبقى مهمة الشيوخ قاصرة على التدريب الروحى وشحذ الهمة فى السير ويالها من مهمة .

Digitized by Birzeit University Library

الآن ثلاثا من خبائث القلب وهى الغالبة على متفقهة العصر لتأخذ منها حذرك فانها مهلكات فى أنفسها وهى أمهات لجملة من الخبائث سواها : وهي الحسد والرياء والعجب فاجتهد فى تطهير قلبك منها فان قدرت عليها فتعلم كيفية الحذر من بقيتها من ربع المهلكات فان عجزت عن هذا فأنت عن غيره أعجز ولا تظنن أنك تسلم بنية صالحة فى تعلم العلم وفى قلبك شيء من الحسد والرياء والعجب وقد قال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه (١) . أما الحسد فهو متشعب من الشح فان البخيل هو الذى يبخل بما فى يده على غيره والشحيح هو الذى يبخل بنعمة الله تعالى وهى فى خزائن قدرته تعالى لا فى خزائنه على عباد الله تعالى فشحه أعظم ، والحسود هو الذى يشق عليه إنعام الله تعالى من خزائن قدرته على عبد من عباده بعلم أو مال أو محبة فى قلوب الناس أو حظ من الحظوظ حتى إنه ليحب زوالها عنه وإن لم يحصل له بذلك شيء من تلك النعمة فهذا منتهى الخبث فلذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، والحسود هو المعذَّب الذى لا يرحم ولا يزال فى عذاب دائم فى الدنيا فان الدنيا لا تخلو قط من خلق كثير من أقرانه ومعارفه ممن أنعم الله عليهم بعلم أو مال أو جاه فلا يزال فى عذاب دائم فى الدنيا إلى موته ولعذاب الآخرة أشد وأكبر بل لا يصل العبد إلى حقيقة الايمان مالم يحب لسائر المسلمين مايحب لنفسه بل ينبغى أن يسامح المسلمين فى السرّاء والضراء فالمسلمون كالبنيان الواحد يشدّ بعضه بعضا وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى سائر الجسد فان كنت لا تصادف هذا من قلبك فاشتغالك بطلب التخلص من الهلاك أهم من اشتغالك بنوادر الفروع وعلم الخصومات . وأما الرياء فهو الشرك الخفى وهو أحد الشركين وذلك طلبك المنزلة فى قلوب الخلق لتنال بها الجاه والحشمة ، وحب الجاه من الهوى المتبع وفيه هلك أكثر الناس فما أهلك الناس إلا الناس ولو أنصف الناس حقيقة لعلموا أن أكثر ماهم فيه من العلوم والعبادات فضلا عن أعمال العادات ليس يحملهم عليها إلا مراءاة الناس وهى محبطة للأعمال كما ورد فى الخبر أن الشهيد يؤمر به يوم القيامة إلى النار فيقول يارب استشهدت فى سبيلك فيقول الله تعالى : بل أردت أن يقال فلان شجاع وقد قيل ذلك وذلك أجرك ، وكذلك يقال للعالم والحاج والقارىء (٢) . وأما العجب والكبر

---

(١) من حديث ابن عباس عند العسكرى وأبو إسحاق والخطيب .

(٢) هذا معنى ما فى صحيح مسلم الذى رواه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله =

Digitized by Birzeit University Library

والفخر فهو الداء العضال ، وهو نظر العبد إلى نفسه بعين العزة والاستعظام وإلى غيره بعين الاحتقار والذل ونتيجته على اللسان أن يقول أنا وأنا كما قال إبليس اللعين : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين وثمرته فى المجالس الترفع والتقدم وطلب التصدر فيها وفى المحاورة الاستنكاف من أن يرد كلامه عليه ، والمتكبر هو الذى إن وعظ أنف أو وعظ عنف فكل من رأى نفسه خيراً من أحد من خلق الله تعالى فهو متكبر بل ينبغى لك أن تعلم أن الخير من هو خير عند الله فى دار الآخرة وذلك غيب وهو موقوف على الخاتمة فاعتقادك فى نفسك أنك خير من غيرك جهل محض بل ينبغى أن لاتنظر إلى أحد إلا وترى أنه خير منك وأن الفضل له على نفسك فان رأيت صغيراً قلت : هذا لم يعص الله وأنا عصيته فلاشك أنه خير منى ، وإن رأيت كبيراً قلت : هذا قد عبد الله قبلى فلاشك أنه خير منى ، وإن كان عالما قلت : هذا قد أعطى مالم أعط وبلغ مالم أبلغ وعلم ماجهلت فكيف أكون مثله ، وإن كان جاهلا قلت : هذا قد عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فحجة الله علىّ آكد وما أدرى بم يختم لى وبم يختم له ، وإن كان كافراً قلت : لا أدرى عسى أن يسلم ويختم له بخير العمل ويغسل باسلامه من الذنوب كما تغسل الشعرة من العجين وأما أنا والعياذ بالله فعسى أن يضلنى الله فأكفر فيختم لى بشر العمل فيكون غدا هو من المقربين وأنا أكون من المعذبين . فلا يخرج الكبر من قلبك إلا بأن تعرف أن الكبير من هو كبير عند الله تعالى وذلك موقوف على الخاتمة وهى مشكوك فيها فيشغلك خوف الخاتمة عن أن تتكبر مع الشك فيها على عباد الله تعالى فيقينك وإيمانك فى الحال لايناقض تجويزك التغير فى الاستقبال فان الله مقلب القلوب يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، والأخبار فى الحسد والكبر والرياء والعجب كثيرة ويكفيك فيها حديث واحد جامع فقد روى[1] ابن المبارك باسناده عن رجل أنه قال لمعاذ : حدثنى حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فبكى معاذ حتى ظننت أنه

= عليه وسلم أنه قال : أول من يدعى يوم القيامة رجل قد جمع القرآن ورجل قد قاتل فى سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله تعالى للقارىء الخ .

(١) قال العراقى : حديث معاذ الطويل أن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض ـ الحديث بطوله فى صعود الحفظة بعمل العبد وردّ الملائكة له =

Digitized by Birzeit University Library

لا يسكت ثم سكت ثم قال : واشوقاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى لقائه ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لى : يامعاذ إنى محدثك بحديث إن أنت حفظته نفعك عند الله وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله تعالى يوم القيامة ، يامعاذ إن الله تبارك وتعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض فجعل لكل سماء من السبع ملكا بوابا عليها فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين يصبح إلى حين يمسى له نور كنور الشمس حتى إذا صعدت به إلى السماء الدنيا زكته وكثرته فيقول الملك الموكل بها للحفظة: اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرنى ربي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزنى إلى غيرى ، قال: ثم تأتى الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد له نور فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله عرض الدنيا أنا ملك الفخر أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى إنه كان يفتخر على الناس فى مجالسهم ، قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نوراً من صدقة وصلاة وصيام قد أعجب الحفظة فيجاوزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبر أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى إنه كان يتكبر على الناس فى مجالسهم ، قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهو كما يزهو الكوكب الدرّي وله دويّ من تسبيح وصلاة وصيام وحج وعمرة حتى يجاوزوا به إلى السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وظهره وبطنه أنا صاحب العجب أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيري إنه كان إذا عمل عملا أدخل العجب فيه ، قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به إلى السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلى بعلها فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد إنه كان يحسد من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلا من العبادة كان يحسدهم ويقع فيهم

= من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك عزّاه أبو حامد إلى رواية عبد الله بن المبارك باسناده عن رجل عن معاذ وهو كما قال رواه فى الزهد وفى إسناده كما ذكر من لم يسم ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات .

Digitized by Birzeit University Library

أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري ، قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد له ضوء كضوء الشمس من صلاة وزكاة وحج وعمرة وجهاد وصيام فيجاوزون به إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنسانا قط من عباد الله أصابه بلاء أو مرض بل كان يشمت به أنا ملك الرحمة أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري ، قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد من صوم وصلاة ونفقة وجهاد وورع له دوي كدوي النحل وضوء كضوء الشمس ومعه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واضربوا جوارحه واقفلوا به على قلبه أنا صاحب الذكر فاني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي إنه إنما أراد بعمله غير الله تعالى إنه أراد به رفعة عند الفقهاء وذكراً عند العلماء وصيتا في المدائن أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري وكل عمل لم يكن لله تعالى خالصاً فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائي ، قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى فتشيعه ملائكة السموات السبع حتى يقطعوا به الحجب كلها إلى الله تعالى فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله تعالى فيقول الله تعالى : أنتم الحفظة على عملي عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه إنه لم يردني بهذا العمل وإنما أراد به غيري فعليه لعنتي فتقول الملائكة كلها: عليه لعنتك ولعنتنا فتلعنه السموات السبع ومن فيهن ثم بكى معاذ وانتحب انتحابا شديداً وقال معاذ قلت يارسول الله : أنت رسول الله وأنا معاذ فكيف لي بالنجاة والخلاص من ذلك ؟ قال : اقتد بي وإن كان في عملك نقص يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك من حملة القرآن خاصة واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا تزك نفسك بذمهم ولا ترفع نفسك عليهم بوضعهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة ولا تراء بعملك ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك ولا تناج رجلا وعندك آخر ولا تتعظم على الناس فتقطع عنك خيرات الدنيا والآخرة ولا تمزق الناس بلسانك فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار ، قال الله تعالى : « والناشطات نشطا » هل تدري ماهن يامعاذ . قلت ماهي : بأبي أنت وأمي يارسول الله ؟ قال: كلاب في النار تنشط اللحم من العظم ، قلت : بأبي أنت وأمي يارسول الله من يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها ؟

Digitized by Birzeit University Library

قال يا معاذ : إنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه إنما يكفيك من ذلك أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ماتكره لنفسك فاذن أنت يامعاذ قد سلمت ، قال خالد ابن معدان : فما رأيت أحدا أكثر تلاوة للقرآن العظيم من معاذ لهذا الحديث العظيم ـ فتأمل أيها الراغب فى العلم هـذه الخصال واعلم أن أعظم الأسـباب فى رسوخ هذه الخبائث فى القلب طلب العلم لأجـل المباهاة والمنافسـة فالعالم بمعزل عن أكثر هذه الخصال والمتفقه مستهدف لها وهو متعرض للهلاك بسببها فانظر أى أمورك أهم أتتعلم كيفية الحذر من هذه المهلكات وتشـتغل باصلاح قلبك وعمارة آخرتك أم الأهم أن تخوض مع الخائضين فتطلب من العلم ما هو سبب زيادة الكبر والرياء والحسد والعجب حتى تهلك مع الهالكين ـ واعلم أن هذه الخصال الثلاث من أمهات خبائث القلوب ولها مغرس واحد وهو حب الدنيا ولذلك قال النبى صـلى الله عليه وسلم : حب الدنيا (١) رأس كل خطيئة ، ومع هذا فالدنيا مزرعة للآخرة فمن أخذ من الدنيا بقدر الضرورة ليستعين بها على الآخرة فالدنيا مزرعته ومن أراد الدنيا ليتنعم بها فالدنيا مهلكته فهذه نبذة يسيرة من ظاهر علم التقوى وهى بداية الهداية فان جربت بها نفسـك وطاوعتك عليها فعليك بكتاب إحياء علوم الدين لتعرف كيفية الوصول إلى باطن التقوى فاذا عمرت بالتقوى باطن قلبـك فعند ذلك ترتفع الحجب بينـك وبين ربك وتنكشف لك أنوار المعارف وتتفجر من قلبك ينابيع الحكم وتتضح لك أسرار الملك والملكوت ويتيسر لك من العلوم ما تستحقر به هذه العلوم المحدثة التى لم يكن لهـا ذكر فى زمن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين ، وإن كنت تطلب العلم من القيل والقال والمراء والجدال فما أعظم مصيبتك وما أطول تعبك وما أعظم حرمانك وخسرانك فاعمل ماشئت فان الدنيا التى تطلبها بالدين لا تسلم لك والآخرة تسلب منك فمن طلب الدنيا بالدين خسرهما جميعا ومن ترك الدنيا للدين ربحها جميعا فهذه جمل الهداية إلى بداية الطريق فى معاملتك مع الله تعالى بأداء أوامره واجتناب نواهيه وأشير عليك الآن بجمل من الآداب لتؤاخذ

---

(١) روى هذا الحديث البيهقى عن الحسن البصرى مرسلا كذا فى الجامع الصغير وشرحه وقال الزرقانى : وهذا من كلام مالك بن دينار كما رواه ابن أبى الدنيا أو من كلام عيسى عليه السلام كما رواه البيهقى فى الزهد ، وقال فى شعب الايمان : هذا لا أصل له عن النبى صلى الله عليه وسلم إنه من مراسيل الحسن البصرى .

Digitized by Birzeit University Library

نفسك بها فى مخالطتك مع عباد الله تعالى وصحبتك معهم فى الدنيا .

القسم الثالث — القول فى آداب الصحبة

اعلم أن صاحبك الذى لا يفارقك فى حضرك وسفرك ونومك ويقظتك بل فى حياتك وموتك هو ربك وسيدك ومولاك وخالقك ومهما ذكرته فهو جليسك إذ قال الله تعالى : أنا جليس[1] من ذكرنى ، ومهما انكسر قلبك حزنا على تقصيرك فى حق دينك فهو صاحبك وملازمك إذ قال الله تعالى : أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى ، فلو عرفته حق معرفته لاتخذته صاحبا وتركت الناس جانبا فإن لم تقدر على ذلك فى جميع أوقاتك فإياك أن تخلى ليلك ونهارك عن وقت تخلو فيه لمولاك وتتلذذ معه بمناجاتك له وعند ذلك فعليك أن تتعلم آداب الصحبة مع الله تعالى — وآدابها إطراق الرأس وغض الطرف وجمع الهم ودوام الصمت وسكون الجوارح ومبادرة الأمر واجتناب النهى وقلة الاعتراض على القدر ودوام الذكر [2] وملازمة الفكر وإيثار الحق على الباطل والاياس عن الخلق والخضوع تحت الهيبة ، والانكسار تحت الحياء والسكون عن حيل الكسب ثقة بالضمان ، والتوكل على فضل الله تعالى معرفة بحسن الاختيار وهذا كله ينبغى أن يكون شعارك فى جميع ليلك ونهارك فانها آداب الصحبة مع صاحب لا يفارقك والخلق كلهم يفارقونك فى بعض أوقاتك . وإن كنت عالما فآداب العالم الاحتمال ولزوم الحلم والجلوس بالهيبة على سمت الوقار مع إطراق الرأس وترك التكبر على جميع العباد إلا على الظلمة زجراً لهم عن الظلم وإيثار التواضع فى المحافل والمجالس ، وترك الهزل والدعابة والرفق بالمتعلم والتأنى بالمتعجرف وإصلاح البليد بحسن الارشاد وترك الحرد [3] عليه وترك الأنفة من قول لا أدرى وصرف الهمة إلى السائل وتفهم سؤاله

---

(١) المشهور فى لفظ الأحاديث الصحيحة « أنا مع عبدى ماذكرنى » .

(٢) أخذت طريق التصوف عن بعض العارفين فى الديار المصرية فلم يأمرونى إلا بذكر بعض أسماء الله الحسنى مع ملاحظة معانيها وكانوا يأمرونى أن أتلوها ليلا وقد سرت مع الشيوخ أتعلم منهم كيفية الذكر بهذه الأسماء وقد تحقق عندى أن طريق الصوفية ينحصر كله فى الذكر بالاسم المفرد والسهر ليلا وقد أجمعوا على ذلك فى كتبهم وإرشادهم .

(٣) الحرد الغضب والتعريض .

Digitized by Birzeit University Library

وقبول الحجة والانقياد للحق بالرجوع إليه عند الهفوة ومنع المتعلم عن كل علم يضره وزجره عن أن يريد بالعلم النافع غير وجه الله تعالى ، وصد المتعلم عن أن يشتغل بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين ، وفرض عينه إصلاح ظاهره وباطنه بالتقوى ومؤاخذة نفسه أولا بالتقوى ليقتدى المتعلم أولا بأعماله ويستفيد ثانيا من أقواله. وإن كنت متعلما فآداب المتعلم مع العالم أن يبدأه بالتحية والسلام وأن يقلل بين يديه الكلام ولا يتكلم مالم يسأله أستاذه ولا يسأل مالم يستأذن أولا ، ولا يقول فى معارضة قوله قال فلان بخلاف ماقلت ، ولا يشير عليه بخلاف رأيه فيرى أنه أعلم بالصواب من أستاذه ولا يسأل جليسه فى مجلسه ولا يلتفت إلى الجوانب بل يجلس مطرقا عينه ساكنا متأدبا كأنه فى الصلاة ولا يكثر عليه السؤال عند ملله ، وإذا قام قام له ولا يتبعه بكلامه وسؤاله ولا يسأله فى طريقه إلى أن يبلغ إلى منزله ولا يسىء الظن به فى أفعال ظاهرها منكرة عنده فهو أعلم بأسراره ، وليذكر عند ذلك قول موسى للخضر عليهما السلام : أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا وكونه مخطئا فى إنكاره اعتمادا على الظاهر . وإن كان لك والدان فآداب الولد مع الوالدين أن يسمع كلامهما ويقوم لقيامهما ويمتثل لأمرهما ولا يمشى أمامهما ولا يرفع صوته فوق أصواتهما ويلبى دعوتهما ويحرص على مرضاتهما ويخفض (١) لهما جناح الذل ولا يمن عليهما بالبر لهما ولا بالقيام لأمرهما ولا ينظر إليهما شزرا ولا يقطب وجهه فى وجههما ولا يسافر إلا بإذنهما ، واعلم أن الناس بعد هؤلاء فى حقك ثلاثة أصناف : إما أصدقاء وإما معاريف وإما مجاهيل فان بليت بالعوام المجهولين فآداب مجالستهم ترك الخوض فى حديثهم وقلة الاصغاء إلى أراجيفهم (٢) والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم والاحتراز عن كثرة لقائهم والحاجة إليهم والتغنيه على منكراتهم باللطف والنصح عند رجاء القبول منهم - وأما الاخوان والاصدقاء فعليك فيهم وظيفتان : إحداهما أن تطلب أولا شروط الصحبة والصداقة فلا تؤاخ إلا من يصلح للأخوة والصداقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المرء (٣) على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل ، فاذا طلبت رفيقا ليكون شريكك فى

---

(١) أى جناحه الذليل كناية عن التواضع واللين .

(٢) أراجيفهم أى كثرة أخبارهم السيئة واختلاف أقوالهم الكاذبة .

(٣) فى معجم ضياء الدين لابن عساكر فى تاريخه عن أنس « المرء على دين خليله =

Digitized by Birzeit University Library

التعلم وصاحبك في أمر دينك ودنياك فراع فيه خمس خصال : الاولى العقل فلا خير في صحبة الأحمق فالى الوحشة والقطيعة يرجع آخرها وأحسن أحواله أن يضرك وهو يريد أن ينفعك والعدو العاقل خير من الصديق الأحمق قال على رضى الله عنه :

فلا تصحب أخا الجهل ... وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى ... حليما حين واخاه
يقاس المرء بالمرء ... إذا ما المرء ما شاه
كحذو النعل بالنعل ... إذا ما النعل حاذاه
وللشيء من الشيء ... مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب ... دليل حين يلقاه

الثانية : حسن الخلق فلا تصحب من ساء خلقه وهو الذى لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة وقد جمعه علقمة العطاردي رحمه الله تعالى فى وصيته لابنه لما حضرته الوفاة فقال : يا بني إذا أردت صحبة إنسان فاصحب من إذا خدمته صانك وإن صحبته زانك وإن قعدت بك مؤنة مانك ، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها (١) وإن رأى منك حسنة عدها وإن رأى منك سيئة سدها ، اصحب من إذا قلت صدق قولك وإذا حاولت أمراً أعانك ونصرك وإن تنازعتما فى شيء آثرك ، وقال على رضى الله عنه رجزا :

إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدّعك ... شتت فيك شمله ليجمعك

الثالثة : الصلاح فلا تصحب فاسقا مصرّا على معصية كبيرة لأن من يخاف الله لا يصر على معصية كبيرة ومن لا يخاف الله لا تؤمن غوائله بل يتغير بتغير الأحوال والأعراض قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » فاحذر صحبة الفاسق فان مشاهدة الفسق والمعصية على الدوام تزيل

= ولا خير فى صحبة من لا يرى لك من الخير مثل الذى ترى له » وروى الترمذى عن أنس « المرء مع من أحب وله ما أكتسب » وقال سهل بن عبد الله : اجتنب صحبة ثلاثة من أصناف الناس : الجبابرة الغافلين والقراء المداهنين والمتصوفة الجاهلين .

(١) أى إذا أعطيته شيئا جازاك أو إذا أتيت خصلة من خصال الطاعة أعانك .

Digitized by Birzeit University Library

عن قلبك كراهية المعصية ويهون عليك أمرها ، ولذلك هان على القلوب معصية الغيبة لا لفهم لها ولو رأوا خاتما من ذهب أو ملبوسا من حرير على فقيه لاشتد إنكارهم عليه والغيبة أشد من ذلك . الرابعة أن لايكون حريصا على الدنيا فصحبة الحريص على الدنيا سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لايدرى فمجالسة الحريص تزيد فى حرصك ومجالسة الزاهد تزيد فى زهدك . الخامسة الصدق فلا تصحب كذابا فانك منه على غرور فانه مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب ، ولعلك تعدم اجتماع هذه الخصال فى سكان المدارس والمساجد فعليك بأحد أمرين : إما العزلة والانفراد ففيها سلامتك وإما أن تكون مخالطتك مع شركائك بقدر خصالهم بأن تعلم أن الأخوة ثلاثة : أخ لآخرتك فلا تراع فيه إلا الدين وأخ لدنياك فلا تراع فيه إلا الخلق الحسن وأخ لتأنس به فلا تراع فيه إلا السلامة من شره وفتنته وخبثه ، والناس ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لايستغنى عنه والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه فى وقت دون وقت والثالث مثله مثل الداء لايحتاج إليه قط ولكن العبد قد يبتلى به وهو الذى لا أنس فيه ولا نفع فتجب مداراته إلى الخلاص منه ، وفى مشاهدته فائدة عظيمة إن وفقت لها وهو أن تشاهد من خبائث أحواله وأفعاله ماتستقبحه فتجتنبه فالسعيد من وعظ بغيره والمؤمن مرآة المؤمن وقيل لعيسى عليه السلام من أدبك ؟ فقال : ما أدبنى أحد ولكن رأيت جهل الجاهل فاجتنبته ، ولقد (١) صدق على نبينا وعليه الصلاة والسلام فلو اجتنب الناس مايكرهونه من غيرهم لكملت آدابهم واستغنوا عن المؤدبين(٢) ـ الوظيفة الثانية : مراعاة حقوق الصحبة

---

(١) لعل المعنى أن ماقاله عيسى عليه السلام ينطبق على نبينا صلى الله عليه وسلم لأنه صلى الله عليه وسلم لم يأخذ أدبه إلا عن الله سبحانه وتعالى « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

(٢) الصحبة للصوفية ركن من أركان كمالهم فالصوفى يلتقى بأخيه الصوفى ليأخذ الأصغر عن الأكبر ويتلقح التلميذ من الأستاذ وقد تطول الصحبة وقد تقصر ولكنها على أى حال لن تكون حالة ملازمة لأن الصحبة فى طريق القوم وسيلة لاغاية فهى مؤقتة بمقدار مايتقل السر من الأكبر للأصغر وبعد أن تنتهى هذه المهمة ينفرد كل صوفى بحاله فطريق الصوفية مبنى على الانفراد بالله والتوحد به وأيا ماكان فالصحبة =

Digitized by Birzeit University Library

فهما انعقدت الشركة وانتظمت بينك وبين شريكك الصحبة فعليك حقوق يوجبها عقد الصحبة وفى القيام بها آداب وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) : مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى ، ودخل صلى الله عليه وسلم (٢) أجمة فاجتنى منها سواكين : أحدهما معوج والآخر مستقيم وكان معه بعض أصحابه فأعطاه المستقيم وأمسك لنفسه المعوج فقال يارسول الله : أنت أحق منى بالمستقيم ، فقال صلى الله عليه وسلم : مامن صاحب يصحب صاحبا ولوساعة من نهار إلا ويسئل عن صحبته هل أقام فيها حق الله تعالى أو أضاعه ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما اصطحب اثنان قط إلا وكان أحبهما إلى الله تعالى أرفقهما بصاحبه (٣) — وآداب الصحبة الايثار بالمال فان لم يكن هذا فبذل الفضل من المال عند الحاجة والاعانة بالنفس فى الحاجات على سبيل المبادرة من غير إحواج إلى التماس وكتمان السر وستر العيوب والسكوت على تبليغ مايسوءه من مذمة الناس إياه وإبلاغ مايسره من ثناء الناس عليه وحسن الاصغاء عند الحديث وترك المماراة فيه وأن يدعوه بأحب أسمائه إليه وأن يثنى عليه بما يعرف من محاسنه وأن يشكره على صنيعه فى وجهه وأن يذب عنه فى غيبته إذا تعرض لعرضه

= للصوفى أنواع ثلاثة : صحبة الروح لروح تمدها من الملأ الأعلى بالمعارف والأسرار وعلو الهمة سيما للعلماء والخواص يقتضيهم أن يلزموا أرواحهم التغذى من روح النبى صلى الله عليه وسلم، وصحبة الارشاد والتوجيه وهى مصاحبة المريد لشيخ عارف يأخذ عنه دروس المعاملة لله وطريق التهذيب ومجاهدة النفس وخواطر الشيطان ، الثالثة صحبة الاخوان السائرين بعضهم لبعض وهى صحبة أنس حتى لايمل المريد السير وحده ومن هنا نشأ نظام الطرقة فأهل كل طرقة يألف بعضهم بعضا فيجتمعون فى الحضرات والبدعة فى ذلك حسنة كل الحسن لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى » .

(١) قال العراقى : حديث مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى — الحديث أخرجه السلمى فى آداب الصحبة وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلى كذاب وهو من قول سلمان الفارسى فى الأول من الحزبيات .

(٢) قال العراقى : هذا الحديث لم أقف له على أصل .

(٣) قال العراقى : حديث ما تحابّ اثنان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح الاسناد .

Digitized by Birzeit University Library

كما يذب عن نفسه وأن ينصحه باللطف والتعريض إذا احتاج إليه وأن يعفو عن زلته وهفوته فلا يعتب عليه وأن يدعو له فى خلوته فى حياته وبعد مماته وأن يحسن الوفاء مع أهله وأقاربه بعد موته وأن يؤثر التخفيف عنه فلا يكلفه شيئا من حاجاته ويروح قلبه من مهماته وأن يظهر الفرح بجميع ما يرتاح له من مساره والحزن على ماينالة من مكارهه وأن يضمر فى قلبه مثل مايظهر فيكون صادقا فى وده سرا وعلانية وأن يبدأه بالسلام عند إقباله وأن يوسع له فى المجلس وأن يخرج له من مكانه وأن يشيعه عند قيامه وأن يصمت عند كلامه حتى يفرغ من كلامه ويترك المداخلة فى كلامه وعلى الجملة فيعامله بما يحب أن يعامل به فمن لا يحب لأخيه مثل ما يحب لنفسه فأخوته نفاق وهى عليه وبال فى الدنيا والآخرة فهذا أدبك فى حق العوام المجهولين وفى حق الأصدقاء المؤاخين — وأما القسم الثالث وهم المعارف فاحذر منهم فانك لا ترى الشر إلا ممن تعرفه أما الصديق فيعينك وأما المجهول فلا يتعرض لك وإنما الشر كله من المعارف الذين يظهرون الصداقة بألسنتهم فأقلل من المعارف ما قدرت فاذا بليت بهم فى مدرسة أو مسجد أو جامع أو سوق أو بلد فيجب أن لا تستصغر منهم أحدا فانك لا تدرى لعله خير منك ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم فى حال دنياهم فتهلك لأن الدنيا صغيرة عند الله تعالى صغير ما فيها ومهما عظم أهل الدنيا فى قلبك فقد سقطت من عين الله تعالى وإياك أن تبذل لهم دينك لتنال به من دنياهم فلا يفعل ذلك أحد إلا صغر فى أعينهم ثم حرم ما عندهم وإن عادوك فلا تقابلهم بالعداوة فانك لا تطيق الصبر على مكافأتهم فيذهب دينك فى عداوتهم ويطول عناؤك معهم ولا تسكن إليهم فى حال إكرامهم إياك وثنائهم عليك فى وجهك وإظهارهم المودة لك فانك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد فى المائة واحدا ولا تطمع أن يكون لك فى السر والعلن واحد ولا تتعجب أن تلبوك فى غيبتك ولا تغضب منه فانك إن أنصفت وجدت من نفسك مثل ذلك حتى فى أصدقائك وأقاربك بل فى أستاذك ووالديك فانك تذكرهم فى الغيبة بما لا تشافههم به فاقطع طمعك عن مالهم وجاههم ومعونتهم فان الطامع فى الأكثر خائب فى المآل وهو ذليل لامحالة فى الحال وإذا سألت واحدا حاجة فقضاها فاشكر الله تعالى واشكره وإن قصر فلا تعاتبه ولا تشكه فتصير عداوة له وكن كالمؤمن يطلب المعاذير ولا تكن كالمنافق يطلب العيوب وقل لعله قصر لعذر له لم أطلع عليه ولا تعظن أحدا منهم ما لم

Digitized by Birzeit University Library

تتوسم فيه أولا مخايل القبول وإلا لم يستمع منك وصار خصما عليك فاذا أخطأوا فى مسألة وكانوا يأنفون من التعلم منك فلا تعلمهم فانهم يستفيدون منك علما ويصبحون لك أعداء إلا إذا تعلق ذلك بمعصية يقارفونها عن جهل منهم فاذكر الحق بلطف من غير عنف وإذا رأيت منهم كرامة وخيراً فاشكر الله الذى حببك إليهم وإذا رأيت منهم شرا فكلهم إلى الله تعالى واستعذ بالله من شرهم ولا تعاتبهم ولا تقل لهم لم لم تعرفوا حقى وأنا فلان ابن فلان وأنا الفاضل فى العلوم فان ذلك من كلام الحمقى وأشد الناس حماقة من يزكي نفسه ويثنى عليها . واعلم أن الله تعالى لا يسلطهم عليك إلا لذنب سبق منك فاستغفر الله من ذنبك واعلم أن ذلك عقوبة من الله تعالى وكن فيما بينهم سميعا لحقهم أصم عن باطلهم نطوقا بمحاسنهم صموتا عن مساويهم واحذر مخالطة متفقهة الزمان لاسيما المشتغلين بالخلاف والجدال واحذر منهم فانهم يتربصون بك بحسدهم ريب المنون ويقطعون عليك بالظنون ويتغامزون وراءك بالعيون ويحصون عليك عثراتك فى عشيرتهم حتى يجبهوك (١) بها فى حال غيظهم ومناظرتهم ، لا يقيلون لك عثرة ولا يغفرون لك زلة ولا يسترون عليك عورة يحاسبونك على النقير (٢) والقطمير ويحسدونك على القليل والكثير ويحرضون عليك الاخوان بالنميمة والبلاغات (٣) والبهتان ، إن رضوا فظاهرهم الملق وإن سخطوا فباطنهم الحنق ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب هذا ما قطعت به المشاهدة على أكثرهم إلا من عصمه الله تعالى فصحبتهم خسران ومعاشرتهم خذلان هذا حكم من يظهر لك الصداقة فكيف من يجاهرك بالعداوة قال القاضى ابن معروف رحمه الله تعالى :

فاحذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مره
فلربما انقلب الصديـ ق فكان أعرف بالمضره

وكذلك قيل فى المعنى :

---

(١) بتشديد الموحدة يجبهوك أو بسكون الجيم وفتح الموحدة والمعنى حتى يستقبلوك بتلك العثرات .

(٢) النقير النكتة التى فى ظهر النواة والقطمير القشرة الرقيقة التى بين النواة والتمر وهذا كناية عن أدنى الأشياء فكيف بما فوقه .

(٣) البلاغات الوشايات .

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وكن كما قال هلال بن العلاء الرقى :

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسى من هم العداوات
إنى أحيّى عدوي عند رؤيته لأدفع الشر عنى بالتحيات
وأظهر البشر للانسان أبغضه كأنه قد ملا قلبى مسرات
ولست أسلم ممن لست أعرفه فكيف أسلم من أهل المودّات
الناس داء دواء الناس تركهم وفى الجفاء لهم قطع الأخوّات
فسالم الناس تسلم من غوائلهم وكن حريصا على كسب المودات
وخالق الناس واصبر ما بليت بهم أصم أبكم أعمى ذا تقيات

وكن أيضا كما قال بعض الحكماء : القى صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير مذلة لهما ولا هيبة منهما وتوقر من غير كبر وتواضع من غير مذلة وكن فى جميع أمورك فى أوسطها — فمكلا طرفى قصد الأمور ذميم — كما قيل :

عليك بأوساط الأمور فانها طريق إلى نهج الصراط قويم
ولا تك فيها مفرطا أو مفرّطا فان كلا حال الأمور ذميم

ولا تنظر فى عطفيك (١) ولا تكثر الالتفات إلى ورائك ولا تقف على الجماعات وإذا جلست فلا تستوفز (٢) وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتحليل أسنانك وإدخال أصبعك فى أنفك وكثرة بصاقك وتنخمك وطرد الذباب عن وجهك وكثرة التمطي والتثاؤب فى وجوه الناس وفى الصلاة وغيرها وليكن مجلسك هادئا وحديثك منظوما مرتبا واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته واسكت عن المضاحك والحكايات ولا تحدث عن عجائبك بولدك وشعرك وكلامك وتصنيفك وسائر ما يخصك ولا تتصنع تصنع المرأة فى التزين ولا تتبذل تبذل العبد وتوق كثرة الكحل والاسراف فى الدهن

(١) عطفيك بكسر العين أى جانبيك يمينا وشمالا .
(٢) أى لا ترفع رجليك غير مطمئن — وكان هذا آخر تعليق على بداية الهداية وصلى الله على سيدنا محمد بدء وختاما والحمد لله رب العالمين .

Digitized by Birzeit University Library

ولا تلح فى الحاجات ولا تشجع أحدا على الظلم ، ولا تعلم أحدا من أهلك وولدك فضلا عن غيرهم مقدار مالك فانهم إن رأوه قليلا هنت عليهم وإن رأوه كثيراً لم تبلغ قط رضاهم واجعلهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك من قلوبهم وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وعجلتك وتفكر فى حجتك ولا تكثر الاشارة بيدك ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك ولا تحث على ركبتيك وإذا هدأ غضبك فتكلم وإذا قربك السلطان فكن منه على حد السنان وإياك وصديق العافية فانه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك .

فهذا القدر يافى يكفيك من بداية الهداية فجرّب بها نفسك فانها ثلاثة أقسام : قسم فى آداب الطاعات وقسم فى ترك المعاصى وقسم فى مخالطة الخلق وهى جامعة لجمل معاملة العبد مع الخالق والخلق ، فان رأيتها مناسبة لنفسك ورأيت قلبك مائلا إليها راغبا فى العمل بها فاعلم أنك عبد نوّر الله تعالى بالايمان قلبك وشرح به صدرك وتحقق أن لهذه البداية نهاية ووراءها أسراراً وأغواراً وعلوما ومكاشفات ، وقد أودعناها فى كتاب إحياء علوم الدين فاشتغل بتحصيله وإن رأيت نفسك تستثقل العمل بهذه الوظائف وتنكر هذا الفن من العلم وتقول لك نفسك : أنى ينفعك هذا العلم فى محافل العلماء ومتى يقدمك هذا على الأقران والنظراء وكيف يرفع منصبك فى مجالس الأمراء والوزراء وكيف يوصلك إلى الصلة والأرزاق وولاية الأوقاف والقضاء ، فاعلم أن الشيطان قد أغواك وأنساك منقلبك ومثواك ، فاطلب لك شيطانا مثلك ليعلمك ماتظن أنه ينفعك ويوصلك إلى بغيتك ثم اعلم أنه قط لا يصفو لك الملك فى مملكتك فضلا عن قريتك وبلدتك ، ثم يفوتك الملك المقيم والنعيم الدائم فى جوار رب العالمين . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته والحمد لله أولا وآخراً وظاهراً وباطنا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

بعون الله تعالى وحسن توفيقه تم طبع هذا الكتاب يوم الجمعة المبارك ٢٠ من شعبان سنة ١٣٧٣ هـ يوافق ٢٣ من إبريل سنة ١٩٥٤ م — وقد قام بتصحيحه الشيخ محمود عبد اللطيف خليفة بالأزهر الشريف .

Digitized by Birzeit University Library

فهرس منهاج العابدين

صفحة	الموضوع
١	مقدمة الكتاب
ج	ترجمة المؤلف
٣	أول مايفيه العبد إلى الخلاص
٣	عقبة العلم والمعرفة
٤	التوبة
٤	التوكل والتفويض
٥	عقبة الرياء والعجب
٥	الحمد والشكر
٦	بسط عقبة العلم
٩	المفروض من العلم ثلاثة
١٢	شرح التوبة
١٩	الدنيا من عوائق الوصول
١٩	الزهد ومعناه
٢٠	حكم الزهد فى الدنيا
٢٢	التفرد عن الخلق
٢٥	العزلة وحكمها
٣٠	المدارس والرباطات حصن للصوفى
٣٢	محاربة الشيطان
٣٣	أصل الخواطر
٣٧	مكايد الشيطان مع ابن آدم فى الطاعة
٣٨	النفس الأمارة
٤٠	يكسر هوى النفس بثلاثة أشياء
٤٠	التقوى
٤٦	حفظ العين
٤٨	صيانة السمع
٤٨	حفظ اللسان

صفحة	الموضوع
٥١	القلب
٥٣	القلب خزانة العقل
٥٥	زلة القلب
٥٦	الأمل والاستعجال والحسد والكبر
٥٦	طول الأمل عائق عن كل خير
٥٧	الحرص على الدنيا
٥٧	قسوة القلب
٥٩	الحسد مفسد للطاعات
٦١	الاستعجال فى السير
٦٢	الكبر خصلة مهلكة
٦٤	معنى الأمل
٦٦	معنى الحسد
٦٧	معنى العجلة
٦٧	معنى الكبر
٦٧	فى البطن وحفظه
٦٩	فضول الحلال
٧٠	كثرة الأكل ومضاره
٧٤	الورع فى طريق القوم
٧٥	حد فضول الحلال
٧٨	سبب انقطاع الخلق عن الله
٧٨	الدنيا التى يتحدث عنها الغزالى
٧٩	الفتوحات فى الخلوات
٨٠	الاشتغال بأحوال النفس
٨١	معنى التقوى لغة وشريعة
٨٢	أهمية التخلية على التحلية

Digitized by Birzeit University Library

صفحة	الموضوع
٨٣	مرعاة الأعضاء الأربعة
٨٤	القلب أصل الكل
٨٤	الغيبة على ثلاثة أضرب
٨٤	جميع العروق متصلة بالقلب
٨٥	علل القراء وأمراضهم القلبية
٨٧	الزهد حالة وهبية
٨٩	اشتغال النفس بالرزق
٩١	الادخار لا ينافى التوكل
٩٢	حقيقة التوكل وحكمه
٩٢	حكم الكسب
٩٣	الرزق أربعة أقسام
٩٥	علماء الآخرة وأخلافهم فى التوكل
٩٦	قال أبو حامد لا يلزم طلب الأسباب وخالفناه فى ذلك
٩٦	مخالفة الغزالى فى وجوب طلب الرزق
٩٦	كون الرزق مكتوباً لا ينافى طلبه
٩٨	كبار الصوفية خرقت لهم القوانين
٩٩	حمل الزاد للمتوكل
١٠٠	تفويض الأمر كله لله
١٠٠	ما المراد بالتفويض بالنسبة للسالك ؟
١٠١	معنى التفويض وحكمه
١٠٢	التوكل والتفويض وهبيان
١٠٥	الرضا بالقضاء
١٠٦	الصبر وآثاره

صفحة	الموضوع
١٠٧	المؤمن مبتلى
١٠٩	حقيقة الصبر وحكمه
١١١	معنى التجريد
١١٢	ضمان الرزق للعباد
١١٧	الرضا بالقضاء
١١٨	الصبر دواء مر
١٢١	ترك التدبير
١٢٣	الخوف والرجاء
١٢٤	تغليب الخوف على الرجاء
١٢٦	حقيقة الخوف والرجاء
١٤٢	خطر الرياء على الأعمال
١٤٣	الجنة حرام على كل بخيل
١٤٣	تعريف البخل
١٤٤	حقيقة الاخلاص والرياء وحكمهما
١٤٦	لكل عمل إخلاص
١٤٧	الله يعبد لذاته
١٤٨	قراءة سورة الواقعة للرزق
١٤٩	العجب محبط للعمل
١٥٠	حقيقة العجب ومعناه
١٥١	تخليط المريد
١٥٥	سبب العجب الجهل
١٥٧	من هو جبريل ؟
١٦٣	أبو يزيد البسطامى
١٦٦	خسة الدنيا

Digitized by Birzeit University Library

صفحة	الموضوع
١٦٧	ليس الزهد فى لبس الغليظ
١٦٨	لا تلتفت إلى عمل نفسك
١٦٩	الحمد والشكر والشكر عند الصوفية
١٧٠	حكم الحمد والشكر
١٧١	موضع الشكر
١٧٢	دعاء سهل بن عبد الله وشرحه
١٧٣	الغنى الشاكر والفقير الصابر
١٧٤	الشاكر يعرف معنى النعم
١٧٦	ممن يتحقق الشكر
١٧٧	مثل من جهل قدر النعمة
١٨١	الأمن من مكر الله
١٨٣	بم تتحقق الاستقامة والاستزادة ؟
١٨٤	فى كم من الزمن ينتهى المرء من علائقه
١٨٥	إبراهيم بن أدهم
١٨٦	لا تكن على الله مفتشا
١٨٩	عطاء الله للصالحين
١٨٩	ركن التصوف الذكر مع مرافقة النبي صلى الله عليه

فهرس الكشف والتبيين

صفحة	الموضوع
١٩٦	سر التكليف للانسان
١٩٧	المغرورون من الخلق أربعة
١٩٧	حقيقة الايمان
١٩٨	من غرهم بالله الغرور
١٩٩	خلود النفس
٢٠٠	كيف يسود القلب من المعاصى
٢٠٢	وأما غرور العصاة
٢٠٣	غرور من عصى واطاع
٢٠٣	غرور العلماء
٢٠٤	غرور العباقرة
٢٠٥	غرور مبتدئى الصوفية
٢٠٦	غرور دقيق
٢٠٦	غرور الفقهاء
٢٠٧	غرور المتكلمين
٢٠٧	المبالغة فى التخوف من الغرور
٢٠٩	غرور مخدوعي الصوفية
٢١٠	غرور المحدثين
٢١١	غرور اللغويين
٢١٢	غرور الوسوسة
٢١٢	غرور القراء
٢١٣	غرور الحجاج
٢١٣	غرور الوعاظ
٢١٤	غرور مجاورى مكة
٢١٥	غرور أهل الغنى

Digitized by Birzeit University Library

صفحة	الموضوع
٢١٦	الصدقات نخرا
٢١٧	غرور البخلاء
٢١٧	غرور متمسكي مجلس الذكر
٢١٨	غرور الصوفية
٢١٩	غرور متمشيخي الصوفية
٢٢٠	ملاحظة الشيوخ في الذكر وضرره

فهرس بداية الهداية

صفحة	الموضوع
٢٢٨	آداب الاستيقاظ من النوم
٢٢٩	آداب دخول الخلاء
٢٣٠	آداب الوضوء
٢٣٢	آداب الغسل
٢٣٣	آداب التيمم
٢٣٤	آداب المسجد
٢٣٨	الذكر وأثره عند المتصوفة
٢٣٩	الأسماء التي يذكر بها الصوفية
٢٤١	أشرف الأوقات للذكر
٢٤٢	مراقبة الذاكرين
٢٤٥	الاستعداد للصلاة
٢٤٨	آداب النوم
٢٥٠	آداب الصلاة
٢٥٦	آداب الصيام
٢٥٧	الدين شطران : أوامر ونواهي
٢٥٨	وظيفة العين والأذن واللسان
٢٥٨	حكم الاستماع للغيبة
٢٥٩	الكذب ومضاره
٢٦٠	فظاعة جرم الغيبة
٢٦١	المراء والجدال والفرق بينهما
٢٦٢	نقيصة تزكية المرء نفسه
٢٦٢	إثم لعن الناس والدعاء عليهم
٢٦٣	العزلة وكيف تعين على الطاعة
٢٦٣	الأكل الحلال والحرام وعلاقتها بالطاعة
٢٦٤	حفظ اليدين والرجلين والفرج
٢٦٥	علاقة القلب بطهارة الجوارح
٢٦٥	معاصي القلب
٢٦٥	ملخص طريق التصوف العملي ـ وهو بحث مهم جدا في تحديد منهج التصوف
٢٦٧	الحسد والرياء والعجب وبيان معانيها وأضرارها
٢٧٢	في آداب الصحبة
٢٧٢	ملخص طريق الصوفية
٢٧٣	الأدب مع الشيوخ والوالدين
٢٧٣	الأدب مع الجهلة من المعارف
٢٧٤	مصاحبة الأخيار
٢٧٥	الاخوة ثلاثة والناس ثلاثة
٢٧٥	الصحبة عند الصوفية ـ بحث مهم جداً ينير طريق التصوف
٢٧٧	المعارف فاحذرهم
٢٧٨	احذر مخالطة متفقهة الزمان

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library